منتدى أدبي ثقافي أسس بجدة عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

محمد حسين زيدان

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الاثنينية

(٢٤)

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

محمد حسين زيدان

الجزء الثالث

الناشر

عبد المقصود محمد سعيد خوجه

جدة

ⓒ عبدالمقصود خوجه ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

زيدان ، محمد حسين

الأعمال الكاملة ./ محمد حسين زيدان .- جدة ١٤٢٦هـ

(٧ مج ٤٥٧٦ص) الجزء الثالث ٦٨٤ص ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الاثنينية ٢٤)

ردمك ٨-٧٣٩-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٨-٧٤٢-٤٧-٩٩٦٠ (ج٣)

١ - زيدان ، محمد حسين ٢ - التاريخ الاسلامي

٣- الأدب العربي-مجموعات أ- العنوان

ديوي ٩٥٣ ١٤٢٦/٢٠٣٢

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٢٠٣٢

ردمك : ٨-٧٣٩-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٨-٧٤٢-٤٧-٩٩٦٠ (ج٣)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

عبدالمقصود محمد سعيد خوجه

جدة

فهرس المحتويات

النثر .....

كلمة . . ونصف .....

مقـدمـة .....

إسـلاميـات .....

عن الإسلام وتاريخه .....

أيـام مبَـاركـات .....

سيـاسـة .....

أيام في تاريخنا .....

إسرائيل واليهود .....

مـواقـف ورجَـال .....

العـــرب .....

شخصيـــات .....

شعر وأغان وأمثال .....

شعر وأغان وأمثال .....

اجتمـاعيـات .....

عادات وعيوب اجتماعيَّـة .....

حديث الجدات والعجائز .....

المَــرأة .....

حـــوَار .....

حــوار .....

صحافة وكتابة .....

صحافة وكتابة .....

أكثرُ من موضوع .....

تلفزيوننا العزيز وأفلامه .....

ذكـريـات .....

رسَائل خطيَة وتليفونيَة .....

حكايات وأسَاطير .....

حالات نفسية .....

أمنيــات .....

صُــوَر .....

مخلاة الكاتب كشكول القارئ .....

المقـدمـة .....

الخير من خلال الشر منبثق .....

عن الفتنة. . موقف الأئمة الثلاثة .....

. . الــدواء . . ..

تلفِزُوا الأيّام وَالملاحِم «١» .....

تَلْفِزُوا لنَا الأيام وَالملاحِمْ. . «٢» .....

ـ إلى مصر ـ نصر العاشر من رمضان حطين الرابعة .....

كُتــب للبيــع .....

الأستاذ عزيز أقايضه. . لا أضايقه !.....

من فرغانة إلى غانة .....

إقبال الكريم. . واستقبال المكرمين .....

ـ خَالد وسلطان ذكرتُ فأكبرت. . كَبّرت فشَكرت !.....

من هم الفلسطينيون؟ .....

السيــف .....

ـ الخـدمـة ـ .....

ذو القـرنيـن .....

كلمتان في صورتين رفضوا اتهام أحمد جبريل. . !.....

بقيّة الناس فالح الظاهري. . .....

طعنـة النجـار !!.....

حوار مع الأستاذ مصطفى أمين .....

التـأقلـم والأرض .....

. . الأوزون . . ..

الطبــع .....

التراث. . صادقوه لا تصندقوه .....

ميتران ـ ياسر لافييت ـ واشنطن .....

قبس من البيَان !!.....

بحبــوح .....

ـ شامية ـ .....

النقــص. . .....

وحدة المشاعر. . عصمة !!.....

أرض الزبير في الغابة .....

أمثلــة .....

حرب السلام لا سلام الحرب .....

اللغة إعراب والأرض تعريب .....

ـ في ذاكرتي: الأمير شَكيب أرسلاَن .....

الأحمــق .....

العـريقـة .....

ـ الأصالـة ـ .....

الربـع الخـالـي .....

العلاقة المثلثة .....

أُفٍّ . . ..

فـاكـومـي؟ !.....

تحـذيـر . . !.....

إثـــارة .....

لغـــة .....

الجـــاه .....

«السـامـري» .....

ـ لَبِيْـد ـ .....

السيـاسـة .....

حيلة النشر .....

حشـاش .....

سـارقـن .....

التشهـــي .....

القيـافـة .....

رجـــل . . ..

صـــورتـــان .....

الماضي . . ..

نكسة .....

البطاقة . . ..

النعمة .....

ابن عثيمين .....

غربلة .....

البقرة . . والحمار . . !!.....

الأمة .....

الارتجال . . !.....

الواو .....

خير للطالب .....

النفيس .....

زَوْجُه .....

الوطن .....

غربلة شاعرة . . ..

الخدم . . ..

صورة . . ..

«الأدب» .....

الجريمة .....

صـــور .....
أمن الحرمين.. يتصدى ولا يتعدى .....
العاهل.. والشاعر في الجاهلية .....
إياكم وخضراء الدمن .....
كَلمة وكُلَيْمَة .....
غورباتشوف في الصين سلم المصالح لا حرب المبادئ .....
قالوها.. فلنقل عنها .....
الدفاع عن شيخين .....
العروبة انتماء للقيم !.....
طرائف عن عبد الملك بن مروان .....
من قتل عمر؟ .....
علاقة السعودية ومنظمة التحرير .....
وعن اليهود قالوا .....
الحب نوال.. لا منال .....
قومية العرب ومراحلها .....
القومية العربية «١» .....
القومية العربية «٢» .....
القومية العربية «٣» .....
القومية العربية «٤» .....

القومية العربية «٥» .....

القومية العربية «٦» .....

فهرس المحتويات .....

النثـــر

كلمة . . ونصف

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

مقـدمـة

بقلم سباعي عثمان

وأنا أنتقل خلال سطور هذا الكتاب في تحفظ، تلفَّت حولي ـ كالمستغيث ـ أتساءل.. من أي المداخل، أتلمس طريقي إلى هذا الخضم الواسع من فكر أستاذي محمد حسين زيدان، ولا أخفي ما شعرت به من حيرة أمام هذه الموسوعة المتنوعة.. لكن عزائي. هو أنني لا أتناولها لأقول ما ينقصها، أو ينقص كاتبها من قول، ولا لأشرح ما أستغلق من أفكاره ـ فأسلوب الأستاذ الزيدان معروف بسهولته الممتنعة ـ وإنما أنا أستجيب لدعوة كريمة من المؤلف، ربما أراد بها تشجيعي، أو ترشيحي لاستقبال القارئ على أبواب هذا السجل القيّم.. ولعلّي ثاني تلميذ يقدم لأستاذه، بعد الصديق الأستذ عبد الله جفري الذي قدم لكتابه: «ثمرات قلم».. وفي مثل هذا التواضع منه تكمن عظمة العلم، ويشع جلال العلماء، وسماحة المفكرين..

وأستاذي الزيدان ـ وإن كان في غير حاجة إلى التعريف ـ إلا أن هذه

فرصة نادرة بالنسبة إلي . . لا لأعرفه، وإنما لأعلن عن معرفتي به من زوايا ـ ربما ـ لا يعرفها غيري من البعيدين عنه، وذلك من خلال صلتي به، قارئاً، ومتابعاً لفكره، وأدبه، منذ الثمانينات. ومتلقياً لأماليه، خلال عملي في صحف الندوة ـ وكان رئيساً لتحريرها . . وعكاظ وكان واحداً من أسرتها، وكتابها، وأباً روحياً لمحرريها ـ والبلاد، والمدينة، وهو أحد كتّابهما البارزين، ولا يزال قلمه يفيض من معين لا ينضب، ولا يجف!

ومن خلال هذه التجربة، عرفت أستاذي الزيدان، كاتباً، حاضر البديهة . . يتمتع بقدرة فائقة على ترتيب أفكاره، خلال ارتجاله المألوف لدى عارفيه، وهو من أقوى من عرفتهم ذاكرة، وحضوراً، ولا يكاد مستمعه يفرق بين أسلوبه كاتباً، عندما يقرأ له، أو محدثاً عندما يصغي إليه . . وقليل من الناس يتمتعون بهذه الخاصية التي تنم ـ عادة ـ عن التمكن والأصالة، وسعة الأفق . .

ونحن أبناء هذا الجيل نعرف الأستاذ الزيدان معرفتنا ببعضنا، فهو أقرب أدباء الرعيل الأول إلينا، موجهاً، ومحدثاً، ومناقشاً لمحاولاتنا، وتجارتنا الغضة منذ بدايات عهد بعضنا بالأدب. وبعضنا بالتأدب، أو الصحافة، و «التصاحف» إن صح هذا التعبير . . ربما بحكم لقاءاتنا المستمرة به . . زائراً، أو كاتباً، أو مراجعاً، أو مملياً لكتاباته . .

بين دفتي هذا الكتاب مجموعة منتقاة من مقالات الأستاذ الزيدان المتنوعة، يسعدني أن كثيراً منها، من أماليه عليّ، في الندوة، أو البلاد، أو عكاظ، أو المدينة . . لا أذكر . . ولكنني أتذكر بعضها الآن كلمة . . كلمة، وأتذكر كثيراً مما استوضحته من عباراتها عبر الهاتف. فكان يعيدها عليّ ـ كما لو كان جهاز تسجيل ـ فكنت أعجب لذلك أشد العجب . . ثم ـ مع مرور الأيام ـ أصبح أمراً مألوفاً لدي، لا يثير ما كان يثيره من دهشة!

وفي ما بين يدي القارئ ـ مما ضم هذا الكتاب ـ يتنقل الأستاذ الكاتب، بين الأدب، والتاريخ، والسياسة، والاجتماع، والتربية، وشؤون أخرى من هموم المجتمع، وقضاياه، في ما يشبه السياحة الفكرية، فيوفي كل هذا حقه، من خلال رؤية مستنيرة، وفكر ذي خصائص أصيلة، ومتميزة.. إنها حصيلة.. غنية بالتجارب الطويلة في ميادين مختلفة، مع الحياة، والناس.. فيها المعاناة بين الإخفاق والنجاح، والتطلع والإحباط، فكان هذا العطاء الرائع الذي يقدمه للناس..

والأستاذ الزيدان من أكثر كتّابنا انفتاحاً على الفكر المعاصر، بصفته الموسوعية. وصفة المتابعة التي لازمته. ولازمت كثيراً من أدبائنا الكبار، فهو يقرأ في كثير من مجالات المعرفة، ويكتب ـ أيضاً ـ في مجالات شتى.. ربما، انطلاقاً من التعريف التراثي للأدب. بأنه «الأخذ من كل فن بطرف».

وكما سبق أن قلت ـ في بدايات هذه التقدمة ـ إنني لا أحاول أن أقوم (بتشديد الواو وكسره) ـ هذا العمل، ولا أحاول تفسيره، أو تقدير قيمته، فتلك مهمة، أنا دونها. عندما يكون موضوعها، هو فكر الأستاذ الزيدان.. وإنما أستجيب لاستضافته التي أعجز عن التعبير عن امتناني لها..

أما مبدأ جمع المقالات المنشورة في كتاب يصدر للناس، فمبدأ، أتحفظ تجاهه أشد التحفظ، وهي ظاهرة تكاد تتفشى بين كتّاب الشباب في غياب جهة تُعنى بتقويم «تقييم» ما يطرح على الساحة الأدبية من منشورات.. على الرغم مما في بعضها من الأفكار الخلاّقة، وما في بعضها من بوادر إبداعات موفقة.. إلا أن التسرع في النشر ـ قبل نضجها ونموها ـ يجهضها في فترة التكوين!

ولتحفظي تجاه جمع المقالات المنشورة في كتاب، أسباب:

١ ـ أنها تجيء عادة تعليقاً على خبر، أو تحليلاً له، أو هو بين التحليل،

والتعليق، وقليل منها يكتب كتابة فنية، عميقة التناول، ومعظم هذه الكتابات، تكتب في ظروف عاجلة للوفاء بالتزامات صحفية يومية، أو أسبوعية. .

٢ ـ كثير من هذه المقالات تكون وليدة مناسبات تستنْفِد أغراضها، بتبدل هذه الأغراض أو تبدل ظروفها مع الزمن، تجاوباً مع هذا الرأي، أو ذاك، فالصحافة مرآة المجتمع وانعكاس لآماله. وتطلعاته التي يترجمها الكتاب عادة. .

٣ ـ هذه المقالات لا تنشر ـ أصلاً ـ لضمها، فيما بعد، في كتاب، ولهذا الاعتبار قيمته وأثره على الفكرة، والأسلوب!

بطبيعة الحال. . لا ينسحب هذا القول على إنتاج أدبائنا الكبار الذين لم يعرفوا ظاهرة التسرع لأنهم:

١ ـ نشأوا على أسس علمية متينة لا ينشأ عليها الشباب اليوم. . لا في مناهج التعليم، ولا في حصيلتهم الثقافية الحرة. . لغة، وأسلوباً، وإدراكاً، وهضماً، وقدرة على توظيف محصلاتهم العلمية والثقافية.

٢ ـ لأن حصيلة أدبائنا الثقافية والعلمية غزيرة، ومتنوعة، وموصولة. .

٣ ـ لقلة دور النشر في فترة شبابهم بالصورة التي نشهدها اليوم.

٤ ـ إن أدباءنا الكبار يحرصون ـ عادة ـ على مراجعة مقالاتهم المنشورة لتهيئتها للطبع، إلى جانب، أنها ـ أصلاً ـ ذات قيمة أدبية وفكرية كبيرة.

وهذا شأن كتاب الأستاذ الزيدان الذي بين يدي القارئ بعنوان «كلمة ونصف» الذي نشرت موضوعاته في العديد من صحفنا المحلية وأذيعت عبر مايكروفون إذاعة المملكة العربية السعودية. . وكان لها أثر كبير، وستظل ذات أثر ممتد لأجيالنا القادمة، علماً، وفكراً، وتوجيهاً، وإصلاحاً، شأنها شأن كل فكر أصيل، ذي روافد أصيلة!

إسـلاميـات

عن الإسلام وتاريخه

● وحينما أخذ الغرب عنا نحن العرب العلوم والفلسفة والأدب في كثير من صوره، وأخلاق الفروسية وصناعة السيف بدل البلطة ولعبة الكال «الجولف» وما إليها سواء أكان ذلك مما نقلناه وترجمناه وصقلناه، أم أنه افترعناه واخترعناه ـ لم ينغمسوا في تقليدنا في ما نلبس أو نأكل، أو في ما ندين به ونتمذهب له.. فاستنارت عقولهم وبقي وجدانهم يتبلور بما تصنع العقول وما تفرضه التقاليد وما تلتزم به البيئة، وما يحترم به الاعتقاد.

وهم حينما أخذوا «الرومبا» و«السنبا» من موسيقى أفريقيا ورقصات الزنوج لم يلبسوا «الكشكشة» و«النسعة» ولم يخضعوا الطقوس من السحر والشعبذة، فلم يأكلوا لحوم البشر، وإن سفكوا دم البشر، وإن استرقوا الإنسان.

والسابقون الأولون منا نحن المسلمين والعرب لم يأنفوا من الأخذ عن أمم سبقت علوماً وفلسفة وصناعة وخططاً ونقوداً وتدوين الدواوين.

قال الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام، في تعليم لنا، يعلمنا تنظيم العلاقة بين الزوج وزوجه: «بلغني أن الروم تفعله فلا يضرها» أباح بذلك ما منع من قبل.

أخذنا عنهم بجد الأولين، وأعطيناهم بسخاء المؤثرين. فلم يلبس ابن

سينا وابن رشد والفارابي والمعري وابن حيان وابن الهيثم والخوارزمي زنار يونان. ولا مسوح قسيس، ولا قلنسوة المرزبان، ولا أمسك أحدهم بعصا الهرمزان، ولم يعوج لسان واحد منهم برطانة يتطرف بها، بل كان يجيد التراطن للترجمة والفهم، لسان أعجمي وقلب عربي ووجدان مسلم.

فوضعوا العلوم، وضعوا التفوق، وغرسوا «بالجوانية» العمق الفوقاني، فلم يسخروا من أنفسهم بالزي «البراني» الزائف. وكنا بذلك الأمة الوسط والإنسان الوسيط بين قرون خلت وقرون تأتي وتأتي!

وضعنا العلوم والأخلاق والتفوق موضع الاستفادة والإفادة.. فقانون الشيخ الرئيس مكث قروناً المرجع الأول للطب في الغرب كله. وحتى لقد قرر تدريسه في أكثر من جامعة.

وجئنا نحن في القرنين التاسع عشر والعشرين فأخذنا كل شيء بالتقليد لا بالتجديد.. تخنفسنا كما تخنفس الصبية الضائعون.. ورقصنا كما رقصت علب الليل. فلم نجد إلا ضيعة.

وجاء الضياع بالبدعتين، غربية في البرلمانات والانتخابات والأحزاب والدساتير.

وشرقية بالحرية يخنقها طلب الخبز، وبالخبز لا تحققه الحرية ولن يكون دونها.. بالحزب الواحد المعلن عنه في يده سلطان ينكر على غيره أن يوجد، فإذا مستور تحت الرماد وتحت التبن، يخرج حيناً على غرة ليكون هو الواحد بسلطان منفرد، ليختفي حزب يخرج فيما بعد.

بدعة الاستيراد، وابتداع في التقليد لن تكون فيه الأصالة. ولن يكون إلا هذا الشر، وهذا الخلاف.

بدعة الغرب جرت فرقة الشعب على نفسه، وبدعة الشرق صنعت فرقة الأمة كلها شيعاً وأحزاباً.

ـ أيام مسلحة من حقها علينا ألا نكتب إلا لها.

ما لها نكتب لها؟..

لها قرآنها.. لها مبادئها.. أقول الصدق: تكتب لنا.. تبصر أنفسنا، فحتم علينا أن نحارب «يهودا».. ذلك الحتم فرض علينا أن نجاهد.. ذلك الجهاد فرض علينا أن نعقد مؤتمر قمة.. فهل كان فرد منا هو المسلم حقاً ليكون القاعدة لهذه القمة؟

المسلم حقاً لا يدعو إلى عنصرية.. لا يستل سيفه من أجل قبلية.. لا يجعل في مجتمعه تفرقة.. تجعل إنساناً يمتاز على إنسان.. تحت هذا شيء كثير نحن نفعله.

الإسلام قاتل النعرات.. الإسلام فارض الجماعة.. حرب على كل فرقة..

ليس فيه قميص عليه الدم الكذب، وليس منه الذريعة بالقميص عليه دم صادق.. دم عثمان.. كل ما فيه ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢).

القمة المسلمة في يومها الرائع ستصافح.. تجعلنا ننشر بيض الصفائح.. تجعلنا ننشر لا سود الصحائف..

تلاحى عمرو بن العاص مع خصيم له. وما أبعد أبا عبد الله عن الغضب، ولكنه غضب، فنادى كأنه في أحضان العاص بن وائل، أو هو تحت راية حرب بن أمية.. نادى: يا لهصيص!.. نادى قومه، فأمسك به

ابنه عبد الله . . ذلك الولد الخير: ماذا قلت يا أبتاه . . أدعوة الجاهلية تبغي؟ . . دعها تحت قدميك كما وضعها رسول الله يوم الحجة . . حجة الوداع! . .

فاسترخى عمرو، واسترجع عمرو، واستغفر عمرو، وقال:

ـ ما كفارتها يا عبد الله؟!

هي ذنب يسأل أن يكفر عنه . . هذا هو المسلم . . صاحب فتح الفتوح . . سواء في بيت المقدس أو على الفسطاط، فقال له ابنه عبد الله: كفارتها أن تعتق رقبة!

فسمع عمرو نصيحة المسلم للمسلم، وأعتق الرقبة!

لقد أضاف عبد الله إلى استغفار أبيه غفراناً جديداً لنفسه . . بالنصيحة لأبيه . . بالوقفة الصامدة يثبت حق الإسلام في إسقاط النعرات . . يثبت معنى الإسلام في أكثر من ذلك . . في إعطاء الحرية لإنسان . .

هكذا المسلم . . القاعدة عبد الله بن عمرو، والقمة عمرو . . أما غير ذلك فشيء غير ذلك!

● وتحدث إليَّ جمع كبير قال الكلمة الواعظة: لقد كنت أسأل ماذا يعني المسلم بدعائه هذا «اللَّهم لا ترنا عجائب قدرتك».

حتى عرفتها في هذا الإنسان. وصل إلى تفوق في التقدم والحضارة والوقاية. ثم هو العاجز عن مقاومة ما سخره الله. كما هو العاجز عن الشكر.

فالصواعق، والزلازل، والأعاصير، والفيضان كلها أو واحدة منها يقف أمامها الإنسان بكل ما لديه عاجزاً عن المقاومة والصمود.

فأخذت العظة أرويها لصديق عالم، فقال: لقد قرأتها لكابر من أكابر العلماء.

فالإمام الأخلاقي ذكر فيما قرأت له أنه سمع عجوزاً تدعو على ظالم ظلمها فتقول:

«اللَّهم أرني فيه عظائم قدرتك».

فأخذت أذوق معناها الكبير حتى إذا مضى يوم أو يومان فإذا بي أسمع عجوزاً ثانية تدعو فتقول: «اللَّهم أرني فيه عجائب قدرتك».

وحفظت الاثنين. أيهما أمكن وأشمل وأدق، وبعد أيام وجدتني أميل إلى الأخيرة فكل عجيبة عظيمة، وليس كل عظيمة عجيبة، فالهلاك بالطامة والصاخة والقارعة والصاعقة أمر عظيم، ولكن أليس العجيب العظيم الإهلاك بالقمل. هذه الحشرة الدقيقة بماذا أهلكت. أو بقرصها ومصها؟ أم بالشيء الأدق تحمله. ميكروب الحمى.. تيفوس أو الراجفة، والضفدع حيوان صغير كالقمل أهلكت به اليهود! بماذا أهلك؟

لقد أهلك بما يحمل من ميكروب، جرثوم مبيد.

فاللَّهم إن يهود جاءت بكل قوى الإنسان المارد.. فأرنا فيها عظائم قدرتك، وعجائب قدرتك يا ولي المؤمنين وناصر المسلمين.

ـ من ظهيرة أمس هبت رياح على تهامة، فقامت بعض قطع من السماء.. فسألني أحدهم جازعاً من الغبار: إيش هذا؟.. قلت له: إذا غبرت تهامة أمطرت سماؤها، اللَّهم اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً!

غريب هذا الحديث.. فالريح الواحدة من مهبها الواحد.. تبعثر السحاب.

والريح المتعاكسة تسوق السحاب إلى بلد ميت . . هي اللواقح . . بقوتها تسوقه . . بحملها إلى ذرات الغبار تكثفه ليمطر، ولقد جاء في العلم الحديث ما يفسر لنا هذه الأخبار، والآيات البينات . .

يقولون: إن المطر تحمله رياح إستوائية جنوبية، فإذا اصطدمت برياح مضادة تساقط المطر، فهي إذن رياح سائقة، وملقحة.

ويقولون: إن الغبار إذا ثار بقوة الرياح. أو أثير بعمل الإنسان تكثف السحاب كأنما هو يثقله حتى تأتي الرياح تنزله.

وفي استقراء التاريخ قرأنا أن الهنود الحمر في أمريكا كانوا يستنزلون المطر . . يتحينون حتنه . . فيثيرون الأتربة، بالحيوانات . . يعملون على تصاعد الغبار حتى يتكثف السحاب فينزل المطر . . يعني أن هؤلاء الهنود الحمر عرفوا سر المطر الصناعي بالتعامل مع السحاب على هذه الصورة . . قبل أن يصنعه الشعب الذي حل محلهم بالطريقة العلمية . . ما ترك الأول للآخر. ومن سنة هذا الإسلام الاستغاثة . . دعامتها الأولى الدعاء إلى الله، ويتخذ العارفون وسائل لذلك . . فخروج الحيوانات والأطفال لاستجلاب الرحمة هو أيضاً أحسبه في ما أظن عملاً لإثارة الغبار. وهذا عمر رضي الله عنه تأزم الأمر في عام الرمادة، وعزم على الاستغاثة، وقبل أن يستشفع بالعباس قال للعباس: ارقب لنا نوء كذا . . كأنما هو أراد أن يتحين الحتن ـ الوقت ـ ليجأر بالدعاء . . فالرحمة من الله قبل كل شيء. والرياح والسحاب من وسائل الرحمة.

جدير بنا أن نتخذ الوسائل المفيدة بالعمل المفيد لنستدر الرحمة من الله، يحب الرجل العامل. والإنسان الذي يفكر في آيات الله، ويكره الرجل البطال!!

● وجلس بجانبي ـ وقد كنت أذعت حديثاً مسلماً عن بطل من أصحاب رسول الله ﷺ في «صوت الإسلام» وسلم ثم تكلم.

ـ قال: ابنتي سمعت حديثك فأعجبها.

ـ قلت له: ذلك لأنها مسلمة.

وانتظرت أن يتطرى وجدانه بشيء من إيمان ابنته، ولكنها الفجيعة!

الفجيعة أن قال بلهجة ساخرة: مسلمة! مسلمة! خليك بلاش كلام.

وأحسبني دهشت، ثم تركته لا أجيب بل انصرفت عنه أتحدث مع غيره.

«شنشة أعرفها من أخزم».

وسيأتي يوم ينكشف فيه الغطاء عن أمثال هذا المسخ المتورم.

ـ قلت لفتى مسيحي في بلد عربي: سلامات.. سلامات.. اليوم أسافر.

ـ قال: أتسافر إلى بلدك مهد العروبة، مهد الذين فتحوا وعمروا؟ إذا بلغت منازل صناع التاريخ اقرئهم سلامي..

ـ قلت: أتعرفهم؟ أتحبهم؟

واكفهر وجه الفتى، أربد، وقال: اسمع إذا أخرجنا عظمة محمد من مجد إنسانيته، وعمل شريعته، وفضائل رسالته ماذا يبقى لكم أنتم أيها المسلمون.. وماذا يبقى لنا نحن العرب؟

إن عظمة محمد البشر في اعتقادي (يعني اعتقاده هو) أمر لا جدال فيه من هنا أحبه كعربي ولو كنت نصرانياً.

وإن عظمة محمد كرسول الله في قلبك المسلم ينبغي أن يكون الحب لتوطيد الإيمان.

الإيمان بالرسالة، صدق الدين، والحب للرسول، صدق الإيمان في وجدانك.

ـ قلت له: هذا شيء تغرق في تفاصيله، لكن التحديد في قوله عليه الصلاة والسلام. .

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده».

إن حب المسلم لرسول الله معناه الطاعة والتقوى والأدب.

وليس هو طقوساً ولا كهنوتاً ولا وسطاء. . وإنما هو توحيد الله، أشرف المقامات ليزداد الإيمان بالطاعة والحب والأدب.

هيا بنا نؤمن ساعة إذا بصقنا في وجه من يسخر من إسلامنا، إن الذين في طبعهم سخرية إلى هذا الحد، أن يكونوا ساخرين من أنفسهم يعيشون في غربة وكربة من نظرتنا إليهم تقصيهم وتقمع رؤوسهم، لا مجد لهذا البلد دون إسلامه، ولا مجد لأهله إلا بكونهم المحمديين المسلمين.

وقال: هذا قولي، هذا حبي.

ـ وأعوذ بالله من الرعب أن يقذف في قلوب الرجال فيهلكون أنفسهم بالرهبة والخوف، فالاستكانة والقتل!!

وأسأل الله أن يقذف الرعب في أفئدة العدو، أي عدو لهذا الدين. لهذه الأرض. لإنسانها الباني حياتها بحياته، كأنما هو قد خلق لها وخلقت له. فجاء الأفاكون الأفاقون ينزعون الأرض من تحته شبراً فذراعاً إلى الفراسخ والأميال، وأعانهم الذين تألبوا على الإسلام، يتداعون علينا كما

تتداعى الأكلة على القصعة.. صدق رسول الله ﷺ.

الرعب.. الرعب.. قتال النصر.. هازم الأمم.. معطل السلاح.. هو سلاح العدو كأحسن من سلاحه المصنوع في يده.

فمن جوامع الكلم قول الصادق المصدوق سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام: «نصرت بالرعب».

الرعب يجعل الرجال طلاب سلامة، يفرون من الموت في ساحة الشهداء وبحر السلاح، إلى الموت حتف أنوفهم كما تموت الحرة المربوطة بأوتاد تقيم على مذلة كما هو الوصف لعير الحي يشج فلا يرثي له أحد:

ولا يقيم على ذل يراد به ... إلا الأذلان عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فلا يرثي له أحد

ـ قرأت لأمير البيان أبي غالب شكيب أرسلان هذه الحكاية قصها فيقول:

ـ غزا التتر العراق وعاثوا في ربوع الرافدين ـ وكانت قلوب الناس قد خلعها الرعب ـ فدخل تتري على جماعة بلغوا العشرين وأكثر..

ـ فقال: أنتم هنا.. أنتم هنا.. سأذهب أحضر سلاحي فأجيء لأقتلكم..

وسكتوا عنه، أكل شجاعتهم الرعب.. كأنما هم أغنام لا تفهم، تنظر السكين من جزارها.

ورجعت نفس واحد منهم.. فقال: ما هذا؟ هل نصبر عليه حتى يقتلنا؟ وشد من عزم الرجال وتربصوا حتى إذا حضر تناولوه وتناوشوه فقتلوه ونجوا.

هكذا الرعب نفذته دعاية وغفلة ونكوص ودعة وسلبية ممعنة في الهرب من طلب السلامة وكراهية الموت!!

وهكذا الانتقام تصنعه كلمة من شجاع صادق في قلوب رجال ينفع فيهم الكلام الصادق المؤمن.

أيـام مبَـاركـات

● الحمد لله على نعمه، والشكر له سبحانه على جزيل فضله..

والنعمة والفضل، تتجسدان في هذه الكلمة.. كلمة التوحيد، وهذه السلامة بالدين الخاتم للأديان، والنبوة لمحمد سيدنا على رسل الله وعليه أفضل الصلاة والسلام بهذا النور: القرآن!!

الإسلام دين الحق، وكلمة الحق، والعمل الحق، والمصير الحق، هو فرض الله علينا كركن من أركانه صوم رمضان..

رمضان نصوم طائعين، غير أنا نجهر بالدعاء إليه جل جلاله نسأله أن يمنحنا رمضاناً ناصراً منتصراً مثل ما سبق من رمضان في تاريخ هذه الأمة.

رمضان واحد لا يمكن أن يكون لنا أو لأحد غيرنا مثله، ذلكم هو الشهر الذي نزل فيه القرآن، أول ما نزل في حراء ابتداء بالنبوة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١).

حتى إذا تمت نعمة الرسالة في بداية المدثر، وكملت النعمة بتمام الدين في عرفات.. نحن نسأل أن يمكن لهذه النعمة بالثبات منها علينا، والثبات منا عليها، فاللَّهم ثبتنا بالقول الثابت: رمضان الوحيد خصه الله بوحيه نزل على محمد عليه الصلاة والسلام.

لكننا نسأله أن يمنحنا رمضاناً كرمضان بدر تنتصر فيه كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة.

ورمضاناً كرمضان الفتح، يتم فيه النصر، وتكمل النعمة. ويغفر الله فيه الذنب، ويكون فيه النور العظيم.

ورمضاناً كرمضان حطين، نطهر الأرض المباركة ويفتح بعده بيت المقدس.

رمضاناً تكون الأخوة في دين الله، تبرأ الذمم، وترتاح القلوب.

فاللَّهم أسبغ علينا نعمة هداك لنكون أهلاً نستأهل نصرك.

الرحمة: الرحمة يا رب: فيا خسران من لم يرحمه الله بهداية التوفيق، وسلامة الطريق، وصدق الرفيق.

● سؤال أطرحه على الإذاعة في جدة؟

فقبل يومين كنت في مكة المكرمة، وفي بيت لا يفطر أهله إلا إذا سمعوا المدفع من الراديو!!

البيت في «جرول».. وجلسنا إلى المائدة.. نسمع الراديو، نؤمن ساعة بسماع القرآن تلاوة شيخنا عبد الله خياط أمد الله في عمره وزاده توفيقاً وقبولاً.

وامتد الزمان.. وطال الانتظار، فالساعة بلغت السادسة إلا ربعاً، ونكون بهذا الوقت قد أفطرنا على المدفع في جدة.. وعجبت!! إن مدفع الإفطار في جدة لا يضرب إلا عند غروب الشمس، والشمس تغرب في مكة قبل جدة بدقائق أربع أو أكثر بثوانٍ أو أقل بثوانٍ.. فلماذا تأخر إعلان الإفطار من الراديو.. فالقرآن لا نزال نسمعه.

وصبرنا حتى السادسة إلا عشر دقائق أي بعد جدة بخمس دقائق.

في الساعة السادسة إلا عشراً. سمعنا الدعاء من الشيخ محمود الصواف، أعانه الله على شأنه وأبقاه.

عجيب!! ألا يكون شريطاً مسجلاً وترك هكذا حتى ينتهي؟ فليس من المعقول ألا يضرب المدفع إلا بعد السادسة إلا عشر دقائق.

ـ قم يا خالد.. تعال انظر يا محمد.. انظر الليل أقبل من المشرق، والنهار أدبر من المغرب، أوشكت النجمة أن تطلع!

إننا مأمورون بتعجيل الإفطار وتأخير السحور.

وفرحت حينما انتهى الشريط، تلاوة ودعاء، وصوت المدفع في الساعة السادسة إلا عشر دقائق، أي بعد جدة بخمس دقائق.

وسمعنا المذيع يقول: ما يفهم منه: أن الآذان ينقل على الهواء من منائر المسجد الحرام.

هذا حصل وفي مكة.. وما زلت في شك من مر اليقين عندي.

وبالأمس الأول أحببت التأكد فرصدت الراديو أفتحه وأنا في جدة. أطابق به على الأذان والمدفع.. وضرب المدفع في جدة، وأفطرنا، وما زال الراديو يذيع القرآن نسمع الشيخ الخياط. وبعده الصواف. مضت دقائق خمس أو أكثر وقال المذيع: هنا صوت الإسلام.. الأذان ينقل من المسجد الحرام.

هذا عرض كدهلزة أبسط فيها الواقع لأبدأ السؤال:

السؤال هو: هل هذا المدفع والأذان منقولان رأساً من المسجد الحرام في التو واللحظة؟ ويترتب عليه انتظار أهل مكة أن يفطروا عليه. فلا يفطرو

حتى يسمعوا مدفعه؟ ولا يكونون قد تأخروا حتى تطلع النجمة؟

أم هو شريط مسجل يذاع للتبرك ولا غير ذلك.

أعتقد أنه شريط.. لا يراقبه مذيع يصلح الحبكة الفنية بدقة التوقيت الملائم.

إذا كان ذلك كذلك فاعلموا الناس.. يا ناس.. يا ناس أفيدونا ولكم الأجر والثواب.

ـ اليوم اسمه الأربعاء، وعدده في أيام الشهر المبارك هو السابع عشر.

السابع عشر ماذا يعني؟

يعني شيئاً كبيراً في تاريخ هذا البلد.. هو في وجدان المسلم.. يوم حراء.. يوم تجلى الله.. أذن للروح الأمين أن يعلم محمداً الأمين النبوة:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ. ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ . ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ. عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ (العلق: ١ ـ ٥).

هل هو الإنسان كل الإنسان.. علمه ما لم يعلم؟ نعم..

أم هو هذا الإنسان الكامل خصه الله بأن يعلم ما لم يعلم ليعلم كل الإنسان ما لم يعلم؟.. قرآناً عربياً غير ذي عوج.. إسلاماً دين سلام.. إيماناً يرتفع به الإنسان إلى السماء.. لا يخفض رأسه إلى الأرض.. يصبح بذلك سيد نفسه.. لا يكون عبداً لأحد لأنه هو العبد لله حطم في نفسه الصنم.. يعني حطم الخوف.. يعني أسقط الذلة.. ألغى الكهنوت.. لا يشتري الجنة بصك غفران.. وإنما يشتري الجنة حينما يستشهد في سبيل الحق الموصل إلى الجنة.. الحق كلمة التوحيد تحققت بتوحيد الكلمة.

ويصادف هذا اليوم في ذاكرة التاريخ انتصار المسلم على نفسه.. يرمي

الثمرات ليتقي الجمرات من نار جهنم، ليأكل الثمرات في جنة عرضها السموات والأرض. وكان ذلك في بدر.. خرجت فئة قليلة في عزمها أن يكون لها غير ذات الشوكة! (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى).. فئة قليلة غلبت بإذن الله فئة كثيرة.. الفئة القليلة كبيرة العدة بالإيمان بالتضحية، بالاستشهاد، بالطاعة، بالصون، بحرمات الرجال أن تهان في حمأة الخيانة!

انتصروا بالأخوة.. يومها كان (إنما المؤمنون أخوة).. لم يكونوا نزاعين إلى ظلم الجاهلين، عصبية تنصر ظالمها على مظلوم غيرها. ولم يكونوا فزاعين من مخافة البشر. وإنما كانوا التواقين إلى: (لو خضت بنا البحر لخضناه معك. ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك) وإلى: إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤) بل نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

.. في وجدان المسلم يوم حراء ليتأكد في وجدان المسلم ذلك اليوم على الصفا يوم صدع المدثر يكبر ربه وينذر قومه ويضع الوثن تحت قدميه.

في ذاكرة التاريخ المسلم هذا اليوم المنتصر في تواليه، وفي كل نائبة لأن خسر هذا اليوم بعد معارك من خسران الذين خاضوها فإنه ـ والعاقبة له ـ سينتصر في المعركة الحاسمة بالذين لم يخسروا أنفسهم!!

● ونحن في اليوم الثاني من شهر ربيع الأول، الشهر الذي ولد فيه نور الهداية، رحمة للعالمين، ذو الخلق العظيم رسول الله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.. رسول من أنفسنا، بالمؤمنين رؤوف رحيم.. جاء بشرعة هادية.. راحمة.. عادلة.. معتدلة.. كل الناس، الناس فيها

سواء «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها» هي لكل الناس أجمعين . . إلى يوم يبعثون . . فما من شريعة أعطت لإنسانية الإنسان قيمتها وقوامها . . لا إجحاف ولا إرجاف . . ولا ميوعة . . ولا تجميد . . إلا هذه الشريعة المحمدية ختم الله بها الرسالات، جاءت على فترة من الرسل ينطلق بها الإنسان قيد الوثن . . وإرهاق الكاهن . . وغل القساوسة وشعبذة الحاخامين . . وكذب السحارين واستعباد الطاغية . . وطغيان الفجور . . ليغرس الإيمان في النفوس . . الإيمان بالله . . ثم الإيمان بالدين ثم الإيمان بكل الفضائل . . والكفر بكل الرذائل . . هذا الإيمان إقرار بلسان وتصديق بجنان . . وعمل بأركان . . إسلام يعلن . . وإيمان يصدق وعبادات تؤدى .

كلمة التوحيد أساسه الركين بها رفعة الإنسان . . لا يخضع إلا لخالقه وحده لا شريك له .

وكلمة التوبة ترده إلى ربه غافر الذنب قابل التوبة، هي ليست إباحة لعمل الذنب وإنما إتاحة لطرد المعصية وجلب الرحمة .

التوبة خلصت الإنسان من الإغراء بالمعصية والجريمة . . انتظاراً للمخلص جعل اليهود تستمرئ الظلم . . تغرق في الجريمة . . تنشر أوكار الفسوق لا تسأل عن العذاب . . لأن العذاب . . مرفوع عنها بالمخلص . . وغيرها يستمرئ العصيان استفادة من كرسي الاعتراف .

والمجوسية وغيرها ممن ينكر البعث . .لا يؤمنون بالتوبة . . وإنما يؤمنون بالانبعاث في وصول الإنسان إلى مرتبة الامتياز «النرفانا» كل هذا وهم . . أسقطه الإسلام بالكلمتين : كلمة التوحيد . . وكلمة التوبة . . كل ذلك جاء به محمد لينظم الإنسان في مراتب العزة .

لكن هذا الإسلام العزيز بتعاليمه كاد يصبح الغريب في وطنه تستغول

عليه قوى الصليب.. وفضول الصالبين تحتل مقدساته وتنتهك حرماته.. ولن يعاد ذلك.. ولن يتردد كيد عدو إلا بجهاد أساسه الإيمان بدين هذا النبي محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.. كان ميلاده في هذا الشهر الكريم.

سيـاسـة

أيام في تاريخنا

● في تاريخ أمتنا أيام بيض من صنع المبادئ والإيمان والثقة والقيادة والجهاد.

وفي تاريخنا أيام حالكة من صنع الإهمال والضياع والفساد والفرقة والقعود عن الجهاد.

وتمضي الأيام البيض لا نكاد نذكرها. وتلوح الأيام السود علينا بكربها لتكون لها ذكرى مرة علقمية.

واليوم ٥ يونيو انطوى عليه عام وبه تم، ليأتي أول يوم جديد لعام جديد!

هذا اليوم أضفناه إلى أيام مضت ومن أجل فلسطين بالذات ذكرى قائمة مؤلمة!

ولا أدري عن هذه الذكرى شيئاً مما تعنيه! فهل هي الاحتفال بيوم هازم كأنما هي الزفة الحزينة. أو هي كجناز كنسي، كما هي العظة جنت، فغنت في الطريق كما هو في قول خليل مطران. أم أن ذلك يعني إثارة العاطفين حزناً وكمداً ليتجدد ما بهم كلما مرت الذكرى لنغرق في الأحزان، تأكل من عزائمنا، حتى يشمت بنا صانعو الهزيمة لنا!

كل ذلك قد كان من قبل بالنسبة إلى وعد بلفور، ويوم في مايو عام

١٩٤٨م وكما هو كائن يوم الخامس من يونيو من عام ١٩٦٧م.

يوم الوعد البلفوري مضت عليه أعوام خمسون، ويوم مايو تأسست فيه الدولة البغي، الدولة الباغية. . مضت عليه الأعوام العشرون.

ما أمر التذكر، فنحن لا نميت ذكرى هذه الأيام، وإنما نحن طائعون نحيي ذكراها. وكل ما نصنعه هو إلقاء المذمة على صانعيها، بلفوريين ترومانيين ومن بعدهم ومن إليهم!

إن يوم مايو عام ١٩٤٨م تقول السنة عربية: كان يوم الهزيمة بالسلاح الفاسد والمواقف الفاسدة، والرأي المختلف فماذا نقول عن يوم يونيه؟

إن لم تقولوها فسأقولها مستخرجة مما قالوا!

فإن الهزيمة في يوم ٥ يونيه كانت بالسلاح الفاسد والغفلة المتعالية. والجنود الذين أصبحوا قادة تحسبهم تمرسوا في عام ١٩٤٨م فإذا كل المراس أن حسبوا أن يهود عام ١٩٦٧م هم عام ١٩٤٨م. أي إن وسيلة الحرب عندهم هي كتلك. فإذا التغير المدمر في خطة أكلت الذكاء والغفلة حسرة مبكية كلفت.

وأمس مضى يوم كئيب على الأرض العربية، فيه تجسدت خيانة وغدر. . تداعت علينا دول كبرى من كل جهة. وحطبت في حبالها دول صغرى خافت أو أغريت، أو هي الحاقدة. .

كلهم أعان أن تكون في أرض العرب، في قلب الأرض المباركة دولة إسرائيل. . تفعل فعل النازية. . وتسير بأهداف الصهيونية، وتحلم أحلام اليهود، وتعمل طليعة لاستعمار وطغيان.

في هذا اليوم تم الغدر بالعرب، بل تم فيه جهل العربي لنفسه. .

فاستهان بوعد بلفور، ثم استلان لوعود وآمال.. يحسبها صادقة من دول كبرى.. لا تختلف من أجلنا، وإنما من أجل مصالحها، أو من أجل غاياتها.. وتأتلف على الكيد لنا من أجل غاية عند أصحاب المصالح، أو من أجل البداية لتحقيق الغاية عند طلاب الغايات.

في هذا اليوم ١٥ مايو، انحدرت القيم بفسق اليهود، ونومة العرب..

اليهود، ولا أقول إسرائيل، ولا أقول الصهيونية، ذلك لأن الحلم حلم اليهود، والأساطير أساطير اليهود، والبروتوكولات هي تفنيد لتلمود اليهود، وتنفيذ لها. إهلاك الأمم، ليبقى الشعب المختار.

ثم إسلامي، وديني، وكل تراثي لم يعلن لي أن أكون عدواً إلا لهؤلاء اليهود، فهم أشد الناس بغضاً لديني، لأرضي، لتراثي، لحضارتي، أشد عداوة للذين آمنوا!

فكيف أذهب إلى اسم يحمل أثقال الحقد والنقمة؟..

إن اسم اليهود هو الحقد في قلب المسلم، هو الثقة برصاص العربي..

من معايبنا أننا لا نعرف كيف نكره، كيف نستديم الحقد على الغادرين والطغاة والخونة!!

الضرب فوق الأعناق، والقطع لكل بنان، ما معناهما؟.. معناهما قلب حديد.. وسيف حديد، وعزم حديد، وحقد حديد..

يوم كئيب لم يبتسم فيه إلا زند الفدائي، فجّر الكآبة على قاتله، ناهب أرضه، هاتك عرضه.

الفداء هو الابتسامة في كآبة اليوم الغادر، في وجه الغادرين..

الغادرون هم اليهود، وكل حاطب في حبالهم، سواء كان عدواً أعان، أو عربياً خان . .

إن أيام الفرحات لا تصنع شيئاً حتى إنها لم تعد حوافز . .

أما أيام الحزن والكآبة فهي التي تصنع الحماسة والدوافع والفداء . .

تحيتي ليوم كئيب، كانت فيه نعمة البلوى . .

قد ينعم اللَّه بالبلوى وإن عظمت ويبتلي اللَّه بعض الناس بالنعم

ـ غفلة أن ننسى اليوم الفاتح من نوفمبر!!

لا أريد أن أعتذر من أصحاب هذا اليوم، وإنما أريد أن أعترف بأن ضياع النفس قد أنساني ذلك!

اليوم الفاتح من نوفمبر . . أعني اليوم الأول من تشرين الثاني يأتي على صورتين . . قد حفرتا في التاريخ العربي المذلة، وجاءت صورة ثالثة نقشت صورة الاعتراف . .

الصورة المذلة هي وعد بلفور . . والصورة المثل هي زحف الجزائر المسلمة العربية انتصار الأذان ألا يتبربر، وإسماع الأذان باللسان العربي المبين!

اليوم المذلة قد مزق الأرض . . جدع أنف العرب بخيانة من أصدقاء العرب! . . أراد «لويد جورج» أن يصنعها، وبين الإقدام والإحجام رضي بلفور أن يكون الوعد باسمه، وتولى كبرها ممزق العرب إلى أشلاء ونستون تشرشل!!

تشرشل تبنى الدفاع عن الصهيونية، ورحب بالاندفاع استجابة للضغط

الأمريكي.. من أيام ويلسون الملوح بالسلام في البنود الأربعة عشر.. المطوح بالسلام في ترك الشرق الأوسط قسمة بين كليمنصو، ولويد جورج.. أطعموه الوطن القومي للصهيونية فرجع دون غنيمة السلام، ثم هو لم يغنم حتى السلامة في نفسه!.. إن «دين المسون» هو الذي يقول: إن بريطانيا لم تعط وعد بلفور طواعية. وإنما نحن حبذنا لها ذلك، وكلمة «حبذنا لها ذلك» لا تعني إلا: أرغمناها على ذلك!!.. وللمبالغة في الستر جعلوا «ويزمان.. وبلفور» على واجهة الصفحات من تاريخ هذه المأساة الإنسانية!

أيمضي وعد بلفور في يوم أول نوفمبر، ثم لا أجدني أتذكره، ونحن نعيش محنه، وفي أرزائه؟!.. إن هذا ليس بالتعسف.. إنه ضياع الإنسان في نفسه حتى لينسى أشد الأشياء إيلاماً إلى نفسه.. خطأ كبير لا ينفع معه الاعتذار ولا يشفع معه الاعتراف!!

واليوم الفاتح من نوفمبر.. هو يوم البداية لمليون شهيد عرباً مسلمين زحفوا فوق التراب حفايا. وعرايا يأكلهم السلاح ليعيش التراب.. ليأكل من خيره.. ليصلي في مسجده.. ليتعلم في مدارسه ملايين من هؤلاء الجزائريين.

التحية للجزائر في اليوم المثل.. انتصرنا فيه حينما انتصر الاستعمار، وحينما فشلت الصهيونية المعطلة، وحينما خدعت الحماية الباطلة.. ذلك لأن عبد الحميد بن ياسين، ومحمد البشير الإبراهيمي، وطيب العقبى، والفضيل الورثاني ومن إليهم قد عمروا المساجد بالعقيدة الصحيحة وعمروا المدارس بالقرآن، وعمروا القلوب بالإيمان..

ـ اليوم السادس من شهر حزيران ـ يونيه.. وهو اليوم الثالث كعام

مضى على النكبة والهزيمة . . كان اليوم الخامس وما تلاه من أيام وشهور، وسنة بعد سنة حتى بلغت الثلاث . . يوماً عبوساً ضحكت نوازع الظلم والطغيان فيه . . حتى بلغت الضحكات مدار الصراخ في كل الأرض الحاقدة على العرب . .

وساق العدو عجرفته . . وساق المعين له قوته، يأملون في لحظة عاجلة أن يركع العربي تحت مكاتبهم يوقع ورقة بيضاء يرسم الاستسلام . . يضعون فوقها خريطة إسرائيل وإملاء اليهود وأمل الصهيونية . .

يحسبون العرب أمة الواحد . . أو تبعاً لسلطان واحد . . إنها أمة الواحد لا إله غيره، ولا سيد سواه . .

فالأفراد ينهزمون ويذهبون . . لكن الأمة في هذه الأرض وراءها تاريخ طويل من آلاف السنين . . كأنها ابنة الدهر الأولى . .

كان في خيالهم صنع الهزيمة في حرب خاطفة تخلع قلب العربي فيسلم بطلب الرحمة، ويعلن الخضوع . .

حتى إذا سألوا أنفسهم أين العربي ألم يجيء مخذولاً وقد هزمناه؟ . . أجابتهم أمة العرب في الخرطوم: لا سلام، ولا تسليم، ولكنه الصمود حتى النصر . .

وتخيلوا مرة ثانية، أنهم بكيل الضربات على الأردن والقناة ومدن وراء النهر، وقرى حول النهر، أردنا باركه طالوت وداود، ونيلاً مباركاً في ألسنة من هم كطالوت بجيش محمد رسول الله ﷺ.

تخيلوا في المرة الثانية أنهم إذا حرقوا وهدموا وقتلوا بالفانتوم والنابالم يفزعون الشعوب ويرغمونها على التسليم . . ولم يحدث هذا . . فسألوا

خيالهم، وجن خبالهم، فجاء الجواب: لا فزع، لا تسليم، إنما هو النصر والشهادة والصمود..

لقد حسبوها أياماً.. فإذا هي سنوات، وسنوات.. أفاق العالم فيها كزمن على أنه صدق الوهم.. وأعان الظالم وسيغرق ـ إن لم يفق ـ دنياه في حروب طاحنة، بدأت تأكل صانعي الحروب من الداخل..

إن يوم التضامن من حزيران.. كان يوماً عظيماً في البأساء أعقبت اليقظة، وكشفت الخبيء وأزاحت العماية عن عيون الكثيرين.. فقبله كان العربي يخاف الموت.. أما اليوم فهو صانع الموت لا يخشاه على نفسه.. ولا يتحرز أن يسقيه كأساً مريرة لعدوّه..

إسرائيل واليهود

● ناحوم جولدمان، رأس الصهيونية اليوم، ويكاد يكون الثالث في التسلسل العددي لزعماء اليهود. . هرتزل، وايزمان، ناحوم. .

هذا الحاخام في دنيا السياسة في أكثر من اتجاه، سواء وراء الأطلسي، وفي أوروبا أو في إسرائيل، هو في يقين اليهودي الموجه والمعلم، فرئاسته لمؤتمر صهيون قد مكّنت له أن تكون الكلمة لليهود، أو أن مكانته قد أوصلته إلى هذه القمة في سلم التدرج اليهودي.

وأكاد أزعم أنه يستطيع أن يقيم ويقعد ويأمر وينهي ويعزل ويولي كل أصحاب المناصب في إسرائيل.

هذا الحاخام خرج على الدنيا القلقة المعذبة يهدي اليهود ورذائلهم بالكلمة اليهودية، يصور للناس أنها لم تكن من طريق إسرائيل الدولة، ولا من طريق الصهيونية العصابة.

ـ قال كما تلطفت في الخبر عنه الإذاعة الوسيط في نشر الأخبار الكائدة والمغيظة لكل عربي، والمرجحة والمزخرفة لكل ما هو عن إسرائيل قال: إنه ينصح لإسرائيل أن تعلن موافقتها على قرار مجلس الأمن وتعترف بالانسحاب، كلام هو طبق الأصل كما يطلبه قرار مجلس الأمن، وكما رضيه فريق من العرب على الجبهة!!

وتدهش الدنيا من هذه الخطوة، كأنها أمر صدر من رئيس المؤتمر الصهيوني إلى إسرائيل!!

غير أن الحقيقة أنها جرعة مهدئة فقد يصدقها كثيرون، فالاتحاد السوفياتي وفرنسا يمكن أن يمكثا زمناً يدرسان ويستخبران ناحوم نفسه عن هذه الخطة ليمضي زمن تنظم خطة جديدة لإسرائيل، أو أنها لتبرئة من يناصرون إسرائيل على المكشوف.

فهي تعطي إسرائيل زمناً يتنفس فيه الحديد النار، والكثير يرسل إليها يومياً.

وهي تعطي دولاً تصر على تطبيق قرار مجلس الأمن جرعة طاردة لكثير من عزمها أو حزمها أو ضغطها.

وأكثر من ذلك فهي كإشارة خضراء تضيء الطريق أمام «سيسكو» لا في فلسطين المحتلة، وإنما في نواحٍ أخرى غير عربية.

كلام ذهب مع الريح لن يكون فعلاً. وإنما هو الفعل المطلوب يخدع أنصار قرار مجلس الأمن ولا يضر إسرائيل قطعاً، فلو كان فيه شيء من الفعالية والجدية لطال أمد ترديده، ونشروا عن سيسكو بعض ما يؤيده.

لكنه قول فقط لا غير، نبعت منه أقوال أخرى.. منها الإعلان عن الشخصية الفلسطينية التي هي صاحبة الحق في مقاومة إسرائيل والحرب معها والمفاوضة.

أمة العرب نهب الأرض، وهتك العرض، وإملاء الفرد من عدو لئيم، كنا نعد وجوده باطلاً بوعد بلفوري لا يملك من أعطاه حق العطاء له، المجد لوعد بلفور، فقد أصبح وبقرار من مجلس الأمن صكاً مشروعاً

ووثيقة مبصومة بتوقيع الدول كلها لأن دول مجلس الأمن هي الممثلة لدول الدنيا كلها، ومنها نحن العرب.

الذين أعطوا وعد بلفور هم الذين صاغوا قرار مجلس الأمن ليزيلوا عنهم وصمة، وليجعلوا منه الوثيقة وعليها البصمة العربية بعد الدولية العالمية.

أهي مصادفة أن يكون وعد بلفور، قراراً يضعه كارادون؟ لا. بلفور وكارادون دولة واحدة!

إنها دعم للتصرفات والختم للحلقات.

إن قرار مجلس يحمله يارنج قد أزاح ذكرى وعد بلفور وجعله صكاً ووثيقة، لا وعداً باطلاً، فلو لم تكن خسارة العرب في يوم ٥ يونيه إلا هذا التبدل في النظر نحو وعد بلفور لكانت الخسارة أكبر.

لكن أمة العرب لن تبالي بشيء من هذا فإذا ما أعدت القوة للحرب أمكنها أن تزيل الباطل بحد السيف، ولا تسأل عن قرار أو عن وعد.

لكن الحرب ثقة في النفس ووحدة في الجمع، وعدة في السلاح وثقة في ميدان المعركة.

ومع كل ذلك شك في الأصدقاء كأكثر من الشك في الأعداء.

فقد يخدع بالصديق بأكثر مما يخدع بالعدو.

ألا قهراً لك يا يوم ٥ يونيه فإن لأمتنا أيامها البيض تمحو بها اليوم الأسود. .

ـ قنبلة. . تفجرت في الحي اليهودي في بيروت. وكثير هي القنابل التي تفجّر اليوم في أكثر من بقعة في الدنيا، ولكنها أشد ما تنفجر على

الأرض العربية، والإنسان العربي من يد اليهود.

القنبلة التي تفجرت في الحي اليهودي في لبنان كثرت الاعتذارات نحوها.. كل عربي تبرأ منها.. لا خوفاً من اليهود، ولا لأن اليهود في أي مكان عواطفهم مع إسرائيل وضد وطنهم، هم لا وطنية لهم.. وطنهم المؤقت الآن في نزعاتهم هو هذه البقعة من أرضنا... لأن وطنهم الدائم هو حيث تكون المراتع الخصبة للتخريب والتدمير!

لقد كان الاعتذار مفاجأة للرأي العام العالمي، ولكن.. ألا نسأل أنفسنا أن هذه القنبلة قد انفجرت في مدرسة خلت من الطلاب، فلم يصب أحد.. ألا نسأل أنفسنا بدل أن نعتذر، فنرد الاتهام إلى اليهود أنفسهم، فهم يصنعون ذلك!

فجّروها في المدرسة كقنبلة تتفجر قنبلة في الرأي العام العالمي.. يشينون على العرب بأنهم يقتلون اليهود المواطنين.. لا أشك في أن اليهود يصنعون ذلك.. وكان ينبغي أن يكون تحقيق يضع الاتهام على الفاعل الحقيقي ليطلع الرأي العام على ذلك.. لكن العرب يحرمون أنفسهم من الوسائل التي لديهم لسبب، أو لآخر.. لا أقول إنه الخوف، ولا المجاملة، ولكنه شيء آخر هو الحساب لبعض الفرقاء الذين يخافون، أو يجاملون.

إن اليهود سيفجرون كثيراً من القنابل.. سيقتلون بعضهم لينالوا شيئاً من الدعاية ضد العرب، فهم حينما يخسرون في أي استفتاء أصواتاً كانت معهم فأصبحت ضدهم يحاولون اكتسابها بشيء من هذا القتل لأنفسهم!

ففي أكثر من مرة في عصور التاريخ يتعمدون الإساءة ليقتلوا.. لتكون النتيجة سرقة العواطف من المخدوعين بهم.

لقد قلنا من قبل إن وجود دولة يهودية تسلبهم هذه العواطف ولكي يحتفظوا بها يقتلون أنفسهم بقنبلة يفجرونها، أو بحرب يستمرون فيها كهذه الحرب القائمة بيننا وبينهم، وخطأ آخر نقع فيه. . هم يذيعون عن أزمة في اقتصادهم فنفرح بإذاعة الخبر، والواقع أن هذه الأزمات الاقتصادية ما هي إلا إسمية يتعمدون إذاعتها تسلية لنا، ويتعمدون إذاعتها سرقة لعواطف الآخرين، وإلا فالخزائن مفتوحة لسد عجزهم. . بل ولزيادة قواهم الاقتصادية. . فأكثر من بنك بتصرفهم، وتبرعات اليهود تنهال عليهم، ودول كبرى تفتح لهم حساباً تهديهم السلاح دون قيمة، أو تبيعهم السلاح، وهذا البائع هو دافع القيمة، لا تخدعوا أنفسكم فإسرائيل لن تكون ـ ما دام وراءها هؤلاء ـ في أزمة اقتصادية!!

ـ بشيء من الوضوح. . وبأكثر من صراحة أطرح هذا السؤال:

لقد شغلتنا وسائل الإعلام بالحديث المكرور عن إسرائيل. . عن اليهود والصهيونية. . كل وسائل الإعلام في الدنيا جميعها كأنما تحالفت على وضعين هما في صالح إسرائيل:

ـ وضع يركز الألم في الأمة العربية. . يزعزع الأمل فيها. . ليثبت كل فكر لها. . ذلكم في الحديث عن الهزيمة. . إزالة آثار العدوان. . أعداؤنا من يعينهم. . أصدقاؤنا من يعيننا. . لا أكتمكم أنه قد تبلبل فكري وانشطر وجداني، وسخرت من كل ما أعرف. . من كل ما أريد التعرف عليه لأن كل ما أسمع قد سخرني لأن أسخر من نفسي!

ـ والوضع الثاني هو النتيجة للوضع الأول. . قصد عامد لتغطية وإخفاء ما ستصنعه إسرائيل في المستقبل!

ومن المؤسف أن الذين ساروا في الوضع الأول يعلمون الكثير عن

الوضع الثاني، ولكنهم لسبب أو لآخر سكتوا عنه أو حتى أسكتونا، ولا أعني بذلك نفسي، وإنما كان الإسكات لكل لسان عربي!!

لقد صرح ليفي أشكول قبل مدة ـ وبعد ٥ يونيو ـ تصريحاً لم أسمع أي تعليق عليه، أو أي تحذير منه، أو أي حملة عليه.. يقول أشكول: (على العرب أن يعرفوا أن الأوان قد آن لكي يعترفوا بقوميات على هذه الأرض).. أشكول لا يتمنى ذلك أمنية يرسلها في الهواء، وإنما يحضر الأذهان إلى عمل سيجري.. من صالح إسرائيل أن يكون لأنه دعامة لوضعها.. تثبيت لكيانها، فهي قومية جديدة طارئة في العالم العربي.. لا يمكن أن تعيش داخل القومية الواحدة.. من هنا كان المخطط.. الغزو أولاً.. الاحتلال ثانياً.. الانحلال ثالثاً (!).

لا بد من أن هناك مخططاً.. ليست إسرائيل صاحبته وحدها بل كلهم: استعمار.. صهيونية.. شيوعية.. أصحابه.. كلهم يعمل له!

إن القومية العربية قوة تساندها قوة الجامعة الإسلامية فلا بد من أن تفتت هذه القوة.. فالشيوعية كمبدأ ـ تحارب القومية، إما بالقضاء عليها وإما بتشتيت قواها إلى قوميات في أقليات.. يعني أن كل ذلك فيه الخطر على الذين ذاقوا الألم من هذه الأقليات!.. تستخدم من ذلك المذاهب الاجتماعية والمذاهب الدينية، والنعرات القومية.. بمعنى أن العالم العربي سيفاجأ بهذا التفتيت.. لا تقوم معه هذه القوميات المتعددة إلا وهي مرتكزة على إسرائيل، ومن هم وراء إسرائيل، وكلهم ـ وبهذه النقطة بالذات ـ سيكونون إن لم يكونوا مع إسرائيل!!

لماذ لا تسلط الأضواء من وسائل الإعلام على حال كهذه.. للوقاية كقوة داخل الشعوب العربية لتحمي قوتها المعدة لإزالة آثار العدوان؟!

ـ وماذا تعني الحرب مع إسرائيل؟

لا أجيب عن هذا، فالمجيب ـ تعبيراً بكلمة ـ هما اليهوديان الصهيونيان الإسرائيليان ليفي أشكول. . ودافيد بن جوريون، والمجيب عملياً رجال هم الذين يمدون إسرائيل بكل عتاد المعركة إعداداً لحرب تشنها إسرائيل، أو استعداداً لدفاع يقي إسرائيل حرباً قد تشن عليها من العرب.

حرب تشنها إسرائيل خاطفة وقاسية ومحطمة وشاملة لا رحمة فيها، ولا أسرى، ولا عمارة ولا حياة لشيء.

إن إسرائيل تفترض أمرين لا ثالث لهما. فإما أن تبيد نفسها وإما أن تبيد العرب. حتى السلم لا تريده فليس لها معه حياة، في الحرب أمل الحياة لإسرائيل!

ليفي أشكول يقول: (إن موت إسرائيل واحد يقتله العرب صعب أن تعوضه اليهودية، أما العرب فلديهم عدد كبير من الرجال ما أسرع أن يصل إلى ميدان المعركة التي تطول. .) كلام صريح وواضح، ولكي يتجنبوا ذلك ينبغي لهم أن يضربوا الضربة القاصمة، تحطم كل القوة العربية، لا ينفع معها تعويض بالرجال إلا بعد فترة ليست بالقصيرة.

وبن جوريون قال: (إن الحرب لما تنته بعد مع العرب، فالحرب التي ينتصر فيها العرب تعني فناء إسرائيل، أما الحرب التي ينهزم فيها العرب فلا تعني إلا حرباً بعدها، وبعدها، وهكذا فإما هزيمة إسرائيل تنتهي معها الحرب، وإما الحروب المتجددة مع العرب).

وهذا كلام صريح واقع، وليس فيه تحذير للعرب يعلن قوة العمق، وسعة المدى، وطول الامتداد، وكثرة المدد، وإنما هو يعني الحرب القاصمة بكل المهلكات، وليست هي في ما يعلن عنه من طائرات فانتوم،

أو دبابات أي شيطان، وإنما هو الأخفى والأشر.

فالحرب ضد إسرائيل لا تقدر عليها خاطفة منا أو منهم، كل القدرة التي أرجوها هي ألا نمكن إسرائيل من حرب خاطفة تشنها سريعة علينا..

فإسرائيل في وضع كوضع النازيين في الحرب العالمية الثانية أو حتى كوضع أسلافهم من الحرب الأولى. انتصارهم خاطف في حرب صاعقة.

والعرب كالآخرين انتصارهم في طول الزمن وامتداد الرقعة وتعطيل قوة ألا تكون صاعقة خاطفة.

ولن يكون إلا بصبر وحشد ودموع ودم كالتي أهداها تشرشل لقومه في تقييم لحرب صاعقة شنها النازيون، وحرب طويلة صبر عليها وأعد لها الحلفاء.

إن إسرائيل تملك من كل دقيقة ساعة صفر تشن فيها الحرب على العرب، كقوة معدة، وكقدرة على عصيان الآراء والنصح..

أما العرب فلا أعلم متى تحين ساعة الصفر؟ لعلّ هذا من أسرار الحرب.

● كثير هي المضحكات المبكيات.. سرحان سرحان عربي، واسم أبيه بشارة، وكوهين يهودي لا أعرف اسم أمه! فأولادنا نحن العرب ينسبون لآبائهم «ادعوهم لآبائهم هو أقسط».. أما اليهود فالولد لأمه «كل من لم تلده يهودية فليس يهودياً»!

هذا العربي أوشك العرب أن يتبرأوا منه لسبب أو لآخر.. فلنلتمس لهم معذرة رغم أنه الجانب المبكي.

أما كوهين فقد قتل المئات.. خرب فرنسا.. أحرج ديجول.. في ليلة

واحدة نادوا على المطافئ ألف مرة لإطفاء ألف حريق . . أمسكوا به . . لم يجلدوه، لم يحاكموه لم يسجنوه . . بل دللوه! رحلوه، وكان في الإمكان أن يرحل من باريس إلى تل أبيب، لكن قوة الصهيونية . . حظوة اليهود عند هؤلاء الناس أملت أن يرحل إلى لندن . . وإلى لندن بالذات . . وهزت لندن أكتافها لا تريده . . سمحت له ساعات وإذا باليهودية . . بالصهيونية . . بكل ثقلها العالمي تملي على بريطانيا أن تمدد إقامته أربعة عشر يوماً!!

لقد اختاروا بريطانيا بالذات . . إعلاناً على مظهر القوة لهم. فأعجب لمجرم يعامل معاملة الأبطال، وأعجب لقوم سرحان يتبرأون من سرحان!!

بأسلوب الغجر، وبأكثر من تعبير وقح كانت الحملة على سرحان، وعلى العرب . . حتى إن اليهود ـ كبراعة سياسية ـ أعلنوا عطفهم عليه . . بالعطف على أبيه . . يبيحون له أن يشهد محاكمة ولده . . أما كوهين فبأسلوب من عهر العقول . . تنظم له كل التسهيلات بكل التوصيات . . فما أشد خطر اليهود على العالم . . هم يغررون بسرحان ليقتل . . ليغتال . . ثم هم يقتلون عربياً في شيكاغو لديه علم عن سرحان . . تغطية للجريمة . . لئلا يظهر غير سرحان!

إن الاغتيال فظيع . . ولكنه أكثر فظاعة من هذه المنظمات السرية . . غررت بسرحان، وبأمثال سرحان!

الآلات يحطمونها . . أما فتاهم فيحمونه . .

ليس همي أن أمجد سرحان، ولكن كل همي أن أظهر بعض ما يصنعه اليهود، فهم وراء كل جريمة . . كل فتنة . . كل دمار في العالم!!

سمعنا في الأخبار . . كما قرأنا في الصحف عن «يوسف سيسكو» وكيل وزارة الخارجية الأمريكية، والمكلف بالتفاوض مع أكثر من طرف بشأن ما

بين العرب وإسرائيل، وهذا يعني أنه سياسي يحمل عبئاً لم يكلف به إلا وهو قد نال كثيراً من المعرفة والمعلومات عن قضية الشرق الأوسط، أو مشكلة الشرق الأوسط.

قالوا: إن «يوسف سيسكو» في هذه الأيام سيزور القاهرة على حد ما أذاعته لندن نقلاً عن صحيفة «الأهرام» وليس هذا الخبر المعني بهذا التعليق.. إنما هما استنتاجان جانبيان حول هذا الخبر..

ـ **أولاً**: ليست السياسة الأمريكية، ولا رجلها في حاجة إلى مزيد من العلم عن هذه المشكلة.. وهذا يعطي الحق لبعض المعلقين المتفائلين أن يتنبأوا بشيء جديد من الولايات المتحدة نفسها تبغي أن يعلمه المفاوض لهذا السياسي الأمريكي كمقدمة لحوار جديد، أو كشيء مغلق جاء في هذا الحوار يبلغ من الرأس للرأس دون مكاتبات.. دون مراسلين.. من رأسه هو إلى رأس يقابله في المنطقة.

ـ **ثانياً**: ويظهر أن هذا التكهن قد باض وفرخ عند كثير من الناس فجاء إسحق رابين سفير إسرائيل في واشنطن، أو مندوبها لدى البنتاجون يقضي على هذا التكهن ليقول: (إن زيارة يوسف سيسكو لا تعني أي تغيير في سياسة الولايات المتحدة أو في موقف إسرائيل)!..

أهكذا يعلم إسحق رابين من أسرار السياسة لينفي كل تكهن كأنه هو الناطق باسم السياستين؟!

من هنا تغتصب إسرائيل هذا الإرهاب الدولي، من هنا تعتسف إسرائيل الرأي الأمريكي.. من هنا ينبغي ألاَّ يجزع أحد من تصريح رابين فخير لنا أن نعرف ذلك من أنفسنا قبل أن يعرفنا إياه رابين!!

ـ إسحق رابين ذهبوا به إلى واشنطن ليكون سفيراً يشتري عدة الحرب،

ويشتري الأصوات المؤيدة لإسرائيل . . ويظهر أنه لم يوفق في صفقة الخمسين . . لم يوفق في شراء خمسين طائرة فانتوم فأخذ يبوح بما يكربه!

ـ قال: إن إسرائيل لن تكسب الحرب في هيئة الأمم، إسرائيل ستوالي القمع بشدة، أحسبه الثناء الأول على المنظمة الدولية . . والكشف الواضح لموقف إسرائيل منها، من قال لك إن إسرائيل ستكسب الحرب في هيئة الأمم؟

لقد خدعوك، يكفي أنها كسبت زمناً من القوة التي عطلت هيئة الأمم.

إن هيئة الأمم كسب للسلام، فيها يكسب السلام، لقد صنعها السلام لتقتل صناعة الحرب.

ولكن هكذا اليهود يحسبون كل شيء للدمار حتى هيئة الأمم يفترضون فيها أن تكسبهم الحرب.

فرغم كل شيء فقد اتضح وافتضح أمر اليهود، وسيعرف العالم الكثير عنهم.

ـ هناك فظائع ارتكبها هتلر والنازية ضد اليهود، أصبحت عقدة الذنب، فأخذوا يكفرون عنها.

وهناك فظائع ارتكبها أكثر من وضع في الغرب مع العرب هي أشد فظاعة من فظاعة النازية، وآخرها هذا الطغيان النازي الجديد في إسرائيل، فلم يكن إلا عن يد الذين وعدوا وأعانوا واعترفوا وساعدوا وناصروا فلماذا لا تأخذهم عقدة الذنب؟

لا نريدهم أن يساعدونا، وإنما نريد رد الطغيان بالكف عن عونه ومناصرته.

إن الشيوعية قد وجدت مجالها بهذه التصرفات.. فحذار.

أحسب أن الوضع في شرق أوروبا قد أسمعهم ناقوس الخطر، إن النصر على هتلر لم يأت من أوروبا لكنه كان من شمال أفريقيا وإن الرد على روسيا لن يكون من أوروبا ولكن من الشرقين الأدنى والأوسط ولا حتى من الشرق الأقصى.

لا تبيعوا الشرق الأدنى لخصومكم، وإسرائيل لو علمتم أداة خفية لخصومكم.

حذار.. حذار.. لا يكفي أن تصرفوا النظر عن إمداد لهم بالفانتوم. وإنما الكافي أن ينفذ قرار مجلس الأمن على صورة مسكنة.

أما السلام فشيء آخر لعلّه لن يكون إلا بالحرب. الحرب المطهرة لأرضنا من هذه لأقذار.

ـ صفر زائد صفر يساوي صفراً.

كلام يطرد في الحساب العقلاني. إذا ما استمرأت عاطفة كعاطفة سعد زغلول أن تقول ذلك في وقت نجد لسعد ألف عذر وعذر.

وصفر مرفوع بقوة قدرها واحد أو أكثر من مليون يساوي واحداً..

رقم عدمي له قيمة في الرياضة العالية يعرف إثباته إنسان تعلم بعاطفة الشاعرين بالناس والخلق والقوة والضعف والوجود والفناء.

هذا الفارق البعيد مداه هو المعادلة الصعبة في الوضع العربي هذه الأيام.. وهو ليس المشكلة الصعبة أمام إسرائيل وما إليها.. هم يعرفون القانون في الجبر. ويعملون بالقاعدة الحسابية، إن الجبر كقانون رياضي هو أخطر وضع يمكن أن تجابه به إسرائيل من العرب إذا ما ارتفعوا بقوة الأس

الواحد. . أو الأكثر ليكون الكم الواحد والكيف الواحد.

والشيطان نفسه تعامل مع الإنسان بالقاعدة الحسابية، كل حرصه نسف المعقول بقانون المقابلة الجبرية رياضياً.

والصغار «كل الصغار» ما كانوا ولن يكونوا إلا تلامذة العقلانيين حسابياً. . والشيطانيون كذلك في تشيطن أكثر من أبلسة الأبالسة. .

والكبار. . الكبار. . يسخرون الصبر والحذر لعملية تقدم جبرية خلقياً، لتتم العملية بالمقابلة الجبرية رياضياً.

والناس كل الناس، هم شيء واحد إذا ما سلموا من تلامذة الشيطان، وأساتذة الصهيونيين.

هذا كلام اليوم عند من يقول هو معلوم، وغير مفهوم عند الذين يفوتهم مجهول لديهم في معادلة جبرية ذات المجاهيل المتعددة.

● جندي أمريكي من الذين يحاربون في فيتنام سمع أزيز الطلقات تصيب روبرت كيندي، فأفزعه ذلك كما لم تفزعه قاذفات اللهب والصواريخ، والقنابل والسموم، يطلقها هو ورفاقه على الفيتناميين، أو يطلقها عليهم الفيتناميون، في فيتنام يحارب عن غرض أمريكي. أما قتل الأمريكي بيد أمريكية وداخل الولايات المتحدة، وفي لوس أنجلوس مدينة الجميلات والممثلات والفن والبهجة فهذا شيء مفزع!

ـ قال: نحن هنا نمنع القتل، وهم في الولايات المتحدة ينشرون القتل والعنف، يا إلهي هذا شيء مخيف!

كلمة أطلقها كما يحس وبما يعتقد، أما قاتل جون كيندي ومارتن لوثر وروبرت كيندي، ثم قاتل الممرضات، وقاتل الطلاب برميهم من مكان عالٍ

فهذا شيء تختلف فيه وجهة نظرهم عن نظرة الجندي، يحارب من أجل الولايات المتحدة..

فما هو السبب؟

السبب سيظهره في تحقيقاته وتقارير لجانه ميلتون ايزنهاور، كلفه الرئيس جونسون بذلك كمخرج من الأزمة، أو كحل للأزمات!!

والسبب تحدثوا عنه أن همفري قدم تقريراً فلم ير النور، فالذين أهملوا رأي همفري هم الذين سيحتالون على ميلتون لئلا يقول الحقيقة وإن أصر عليها فسيلحق بجون ومارثن وروبرت، طبيعة العاملين في الظلام!

أهي مرحلة «النهلست» قتل وجرائم ثم تكون الكارثة كصورة تتكرر لم يمضِ عليها ستون عاماً، كانت في روسيا ومن صنع اليهود، ولا تحب أن تتكرر في الولايات المتحدة، لكن اليهود لا بد من أن يصنعوا ذلك.

يصنعون الخراب في كل بلد يعيشون فيه، يعيثون فساداً.

قد لا يكونون هم الذين دبروا قتل روبرت مباشرة، لكن الأسباب الداعية للقتل هم أساسها. ومن أجلهم قتل روبرت، وبفعالهم يقتل القتلة، والجريمة تلد الجريمة.

والاغتيال قد يكون حماقة طارئة من كل إنسان، ولكنه في اليهودية شريعة وقانون وممارسة وغاية ومبدأ.

اسألوا صحائف التاريخ تجدوا أن الغيلة هواية اليهود وحرفتهم وأساس كل كيان لهم في أي كيان يلجأون إليه.

لقد قتل جون كيندي، وكان روبرت المدعي العام أي حامل الاتهام، ومستخرج الدليل وطالب الإدانة حماية لأمن الدولة والأمة والأفراد. أعني

أن روبرت قد عميت عليه الحقائق فأخابت الدلائل ولم يظهر من هو المجرم. فأي قوة خطيرة كانت وراء هذا الإخفاء؟

ـ وبدأ الخوف يفعل فعله في قلوب اليهود وأعصابهم. . في إسرائيل، فهذه التصريحات التي تنشر على لسان «موشي ديان» ليست هي مظهر القوة ولا هي فعل الشجاعة، وإنما هي من عمل الخوف. . فإن نحن عاجلناهم به. . بالعمل المتلاحق، أو عالجنا أنفسنا بالأسباب التي أدت إلى خوفهم أفلحنا، وإلا فالخوف سلاحهم بعد. . يفعلون به الأفاعيل. . هم لا يقدرون على الشجاعة، وإنما قدرتهم بهذا الخوف، فما عرف التاريخ مثلهم خشية من الخوف يفرون منه دائماً، ولكنهم يعالجون بالدس والتآمر والتمرد والمكر في الشعوب التي تنخدع بهم لتكون آلة في أيديهم يفرون من الخوف إلى أمن بهم، أو يستنفرونهم من عمل الخوف ليكونوا معهم علينا!

الخوف صناعة في أيديهم، ولكن إن صنعناه نحن في نفوسهم جلب لنا النصر على شرط المعالجة لئلا يستعملوا سلاحاً!

لقد انعكس الأمر فيما بيننا وبينهم. . في ميزان القوى، ولا أعني قوة السلاح، ولا عدد الرجال، وإنما أعني القوة في شجاعة النفوس. .

كنا قبل ٥ يونيو نسلط الخوف على أنفسنا منهم، وقد لا يكون هذا الخوف من جيش اليهود ولكنه كان خوفاً من عمل القوى الأخرى التي تجسم لدينا خيالاً فظيعاً بأن هذه القوى ستهلكنا من أجل اليهود إن نحن حاربناهم. .

ثم إنه تجسد وتجسد حتى أصبح الوهم حقيقة فإذا كل طائرة، وكل جندي نحسبه من هذه القوى التي أمدت إسرائيل!

إن الحرب أول كفاءة فيها هو إماتة الخوف فإذا مات الخوف في

جيش.. في أمة محاربة كان لها النصر، ولقد مات اليوم ـ بعد عام ـ هذا الخوف فينا.. بينما هو بدأ يسري في أعصاب إسرائيل.. فكل تصريح لديان و لغيره كان من عمل الخوف، وحتى تصريح مستر «راسك» فإن رأيي يخالف رأي الناشرين له، أو السامعين.. إن مستر راسك حينما نشر رأيه بسطه للدنيا.. لا يسأل عن فَرح به أو منكر له!.. فمن حقنا ـ ونحن من أصحاب هذه الدنيا.. من أصحاب الحق المهدور فيها ـ أن ندلي برأينا فيه.. لا أحسب إلا أن مستر راسك قد عرف هذا الخوف بدأ في إسرائيل فأحب أن يعطيهم الجرعة في «برشامة» مغلفة بالسكر.. لا يغص بها عربي في ظاهر الأمر، وتفرح بها إسرائيل في باطن ما نعني.. كل ما تعنيه في نظري أنه لا تغيير في سياسته.. هي المبادئ الخمسة.. هي قرار مجلس الأمن.. هي مهمة يارنج.. أي إنها ما تريده إسرائيل.

ـ وكثيراً ما تلح فكرة على كاتب تشده إليها ليطرح موضوعها على صورة سؤال قابل للحوار والنقاش!

ولكنه في الكثير من حاله في زمانه ومناخه يفكر أيضاً للفكرة نفسها!

هل هي ملائمة لوقتها أو لوقته تحوطاً بالتوقيت يصلح مناخاً لطرحها؟

أو لما يحن بعد زمان الطرح لها؟ سيان! فلسوف ألقيها عن كاهلي فقد ضقت ذرعاً بها!

الفكرة الحث عليّ في سؤال عن الدروز في إسرائيل؟ هم عرب ولا شك.. أبناء معروف تمتد أعراق لهم إلى المناذرة ولخم وغسان، وهم لم يبالوا باحتلال اليهود للأرض. فلم يرحلوا لاجئين كغيرهم من العرب الفلسطينيين، أمسكوا بالبقاء ولم يطردهم اليهود.

بل إن فريقاً قد كثر سوادهم به قد انضموا إليهم ليتعايش جميع الدروز

مع اليهود في فلسطين المحتلة كمواطنين في دولة إسرائيل وهم أيضاً قد تنادوا للإقامة في إسرائيل، وكجزء من جيشها، وكقوة لها شأنها اليوم في دعم القوة الإسرائيلية!

وحجتهم أنهم قادرون على الثبات في العيش في أرضهم كمواطنين في دولة اليهود. . قاله لي أكثر من درزي تحدثت معه:

وليتهم صانوا القدرة العربية تعيش في أرضها؟ لا. . لا. . إنهم أصبحوا اليوم الطغيان الشرس المفظع المفجع. . ينكل بالعرب والفدائيين. . بل إنهم الفرقة التي اجتاحت غزة بزي عربي كأنهم جيش العرب فخدعوا وأهلكوا، وهم الأداة للتنكيل بالعرب اليوم، كأنما اليهودي يقتل العرب مرتين، القتيل والقاتل، قتل الإراقة لدم المقتول، وقتل من الفرقة في وجدان القاتل، والسؤال أطرحه على أكثر من زعيم بينهم له مكان السيد والقديس في السهل والجبل من أرض عربية، كما أسأل عنه عبد الله النجار بالذات، ألف كتاباً عنهم، يسميهم الموحِّدين المحمديين حتى ليقول لي: هل هذا من عمل الموحدين المحمديين؟

ولو كان كاتب العرب الفذ عباس محمود العقاد حياً ـ يرحمه الله ـ لسألته هذا السؤال كنقاش لما أورده من حجاج يشفع لهم به في كتابه «فاطمة» الزهراء رضي الله عنها.

السؤال قائم فإن النكبة تجل عن الصبر على ما يفعله الدروز من عون اليهود. ولكنه الخوف من شيء اسمه الرأي العام العالمي غرس فينا الخشية من المصارحة عن فعل أقلية أو طائفة. . نجامل ونتحمل فنلقي الضير والحيف خوفاً من الضجة تديرها قوة مغرضة!!

إني ما زلت أسأل عن إجابة، ولكني لن أجدها عند من سألت غير أني

سأجدها تحدياً وتعذيباً وبطشاً من عرب يعيشون في إسرائيل يقتلون عرباً لحساب اليهود.

- تعريفان درجنا عليهما.. تلقيناهما بالقبول والترديد والتأكيد هما:

إسرائيل ركيزة الاستعمار.. إسرائيل جسر للاستعمار قديمه وحديثه.

لكن حرب يونيه وما جاء بعدها أظهرت أن هذين التعريفين لا ينطبقان تمام الانطباق لأن الاستعمار ينصرف على ما نسميه الاستعمار القديم أو الاستعمار الجديد..

لينحصر هذا في فريق معين أتخذ اسماً جديداً: الإمبريالية كتأكيد للحصر وتوكيد للنفي.. تبعد به هذه الصفة عن فريق ثانٍ.

إن إسرائيل لم تعد ركيزة تقفز منها دولة مستعمرة.. تفتح أرضاً.. تستغل شعباً.. وهي لم تعد جسراً يعبر منه الاستعمار الجديد.. استغلالاً.. وانتقالاً وإغلالاً.. قد يكون القصد من معرفتها أولاً أن تكون كذلك في تخطيط الذين يقولون إن إسرائيل ولدت لتبقى.. ولكنها الآن فيما أعتقد أصبحت غير ذلك.

لقد أصبحت مشكلة الجميع حتى إسرائيل نفسها.. هي مشكلة ذاتها.. لا تطيق أن تكون سيدة نفسها.. وهي في خيالنا الآن تتأرجح بين من تختاره سيداً لها.

إسرائيل مشكلة إسرائيل.. مشكلة حلف الأطلسي والرأسمالية والاستعمار، وهي مشكلة حلف وارسو والشيوعية.. وهي مشكلة العرب.. وبهذا كله أضحت مشكلة عالمية.. وأصبحت مدولة كما لا تريد إسرائيل.. وكما لا نريد.. فهي في هذا الوضع ليست أقل من خط برلين

ـ بغداد . . وليست أخف من داتزج وليست هي البعيدة الشبه بفيتنام في سايجون ومن هم حماة السايجون، هم تركوها تصنع نفسها علّهم يستغلونها . . يصنعون بها مناطق النفوذ لهم . . والقبض على المصالح . . فإذا بها تكاد تقضي على مناطق نفوذ سبقت . . لتحل محلها مناطق نفوذ لحقت .

فهم وإن اختلفوا في المظهر على وفاق في النتيجة . . الاتفاق على الغنيمة . . الغنيمة هي المشكلة . . مشكلتنا ألا نكون الغنيمة . .

ومشكلة إسرائيل لمن تكون الغنيمة . . ومشكلة المعسكرين شرقي وغربي متى يتم توزيع الغنيمة؟ . .

فالمعركة المدوخة . . والتي على ضوئها تكون المعركة الفاصلة . . لنا أو علينا . . أو الهدنة القاتلة لإسرائيل لا علينا . .

فالهدنة سلام مؤقت لا تطيقه إسرائيل . . وهي حركة مستمرة لإعداد الجندي العربي وتوحيد الجهد العربي .

المشكلة هي أن الذين صنعوها أول الأمر . . هم الخاسرون لها تالي الأمر والذين يعلنون المناواة لها الآن هم الكاسبون اليوم . .

والذين أعانوها ويعينونها سيضطرون لقبول التوزيع للغنيمة . . فهم في مشكلة منها تتضخم مشاكلهم بها . . هي مشكلة نفسها . . ومشكلة العرب . . ومشكلة الاستعمار جديده وقديمه ومن ورائه يكون الكسب للخاطفين . . أما إسرائيل فلديها الثعلبة لتكون مع الفريق الكاسب . . فعندها رصيد من الرجال في كل مجال ولكل الأحوال ومع كل المذاهب . . يعملون لها عمل السادة . .

ـ ولن ندير الخد الأيسر يا ابن الهمفري. فلقد صفعنا قبلك أيام حرب الصليب همفرياً لعلّه من أجدادك ـ فالاسم لكما اسم عليه طابع الأنجلوسكسوني. صفعه صلاح الدين، حين غزا كرش (أرناط)..

أنت مع إسرائيل بكل قواك.. وليت أنك جعلت التصريح باسمك. بل أنت جعلت نفسك كل الولايات المتحدة. وهذا ما تقضي به الملابسة والملامسة.. لأنك الرئيس الثاني الآن، ولأنك الرئيس الأول بعدُ إذا ما نجحت في الانتخابات.

تصريحك يقول:

أمريكا مصممة على الوقوف بجانب إسرائيل. أمريكا لن تجعل إسرائيل تقف مكتوفة اليدين ضد من تحدثه نفسه بتدمير إسرائيل.

الأمريكيون يقفون بشموخ لمشاركتهم بجزء بسيط في معجزة إسرائيل!

إسرائيل دولة تمثل جزءاً من تراث أمريكا الروحي، ولذا نضحي من أجلها!

هذا كلامك! فهل هو الجديد؟ ليس هو الجديد منك ولا عليك فقد صرّحت بمثله من قبل أوجزنا رداً عليه فيما مضى من أيام.

فهل أجد من يعتذر لك بأنك لم تقل إلا كمرشح في الانتخابات تشتري أصوات اليهود.. حرباً منك على منافسيك.. كنيدي ومكارثي العضوين في حزبك، ونلسون روكفلر ونيكسون من حزبك الخصيم صانع أسباب الحرب كالمحافظين في بريطانيا ليتحمل أثقالها حزبك الديمقراطي كحزب العمال في بريطانيا أيضاً، كسير التاريخ في أكثر من حال.

وهب أنا نقبل هذا العذر الآن! فهل نقبله لننسى أنك لم تقله إلا

كمبادئ تطالب بها يوم تكون الرئيس؟ إنك تعرض على الناخبين برنامجك ومبادئك كرئيس مقبل. فلا وجه للاعتذار عنك بمسؤولية الواحد المرشح. لأنك ستكون المسؤول الأول إذا ما نجحت في الانتخابات. . لا عذر. . لا عذر. إنا لن ندير الخد الأيسر. . فهذه دعوة قد نسخها ديننا. . «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم».

ثم أنت لم تقل هذا كرجل روحي مع أخلاق المسيح عليه السلام. . وإنما أنت وقفت تعزف على أوتار قيثارة نيرون يرقص على نغمها النشاز عصابة من طغمة اليهود.

وقفت على حريق في الشرق الأدنى تغني لليهود. ليس هذا من عمل الروح المسيحية، وإنما هو عمل اليهودية الشرسة.

كل تصريح يناصر اليهود فيه كسب للعرب. فلسنا الغاضبين منك ولا عليك.

إن العرب بتصريحك يكسبون الزيادة في المعرفة. . ليكسبوا أنفسهم. . وإنا سنكسب الشعب الأمريكي كما يكسبنا إذا ما تبرأ فعلاً من قولك حينما يسقطك في الانتخاب. . ساعتها نصدق الاعتذار عنك لأنهم صدقوا في العمل ضد تصريحك. .

● . . وسمعت المخبر من إذاعتنا أمس الأول. يخبرنا أن حكومة سيلان الجديدة برئاسة السيدة «بندرنايكا» قد قطعت علاقتها السياسية مع إسرائيل. . أحسبه توقيفاً على شرط أن تنفذ إسرائيل قرار مجلس الأمن الصادر بحكمه عليها بالجلاء عن الأرض العربية التي تحتلها. بعد حرب الأيام الستة من شهر كهذا الشهر «يونيه» حزيران قبل أعوام ثلاثة.

هذا عمل مشكور من ناحيتين اثنتين:

١ ـ فيه مناصرة للعرب تعلن الحرب على البطل بالصورة التي استطاعت. فقطع العلاقة بين دولتين إعلان للخصومة، بيان عن عدم الرضا من الحكومة التي أشعرت بقطع العلاقة على الحكومة التي تطغى وتهزأ وتتحدى وتصنع في الأرض الموقف الصعب ضد السلام.

٢ ـ مناصرة سيلان لموقف القرار وعمله وتنفيذه. فكأنما تقول: إن قرار مجلس الأمن قد وضعت عليه موافقتي وتوقيعي، فلكي أحترم هذه الموافقة والتوقيع فينبغي أن أكون معه بقوة أملكها دفاعاً عنه. واندفاعاً معه. لأبين لأعضاء الهيئة عموماً. ولأعضاء مجلس الأمن خصوصاً أن يتخذوها من المواقف ما يؤدون به موافقتهم على القرار، وما يدعمون به توقيعهم عليه.

إن سيلان دولة صغرى. لكنها بهذا العمل تصبح في احترامها لتوقيعها أكبر من دول كبرى لم تفعل شيئاً مساعداً لهذا القرار.

إن سيلان حكومة فيها أكثرية مسلمة فألزمت حكومتها صاحبة الأغلبية الحاكمة أن تكون مع إسلام الكثيرين من رعاياها.

وإن سيلان شعب تعايش مع الإسلام والعرب في التاريخ الطويل. فلا بدع أن تبدي عواطفها من خلال هذا الموقف.

وإن سيلان تنفعل بالأسطورة ذات الحقيقة المتأصلة في نفوس أهلها، والتي لها سلطان مؤثر في النفس العريقة من خلال الخبر والتاريخ.

هذه الأسطورة، الخبر، تقول: إن قدم أبي الإنسان قد نزل في سيلان. يعني أن هذه الأرض كانت أماً لأرض الناس جميعاً.

ولا أظن العرب في موقفهم اليوم إلا الشاكرين لسيلان على هذه

العاطفة النبيلة والاتجاه المعين عن عقل مدرك لمشاكل الشرق كله.

تحيتي لسيلان. تقديراً وشكراً. ولا أكثر ولا أقل.

● . . وتصب إسرائيل طغيانها على العرب. . في الأردن الصامد بقنابل النابالم، فيشكو العرب إلى مجلس الأمن شكوى لا تطلب العدالة من مجلس الأمن، وإنما هي تعم الدنيا بالعجز عن رد الطغيان. . كأنما العالم ـ بكل إنسانه ـ قد خلا من وجدان الإنسان، فلا رادع بقوة، ولا مدافع عن قانون!

حال لا تطاق. . من العجز أن نطلب العون أو العدل من أحد، ومن شيء آخر لا أسميه ألاَّ نطلب من أنفسنا. . عن أنفسنا الدفاع عن أرضنا!

افهموها كما شئتم، فلئن عتبنا على الدنيا فإن هذه الدنيا ترد العتاب علينا بإلقاء اللوم. . بالوصمة. . بالمعابة. . كأنما كل ما يصنع بنا نحن الذين صنعناه بأنفسنا!

الشكوى إلى مجلس الأمن أصبحت كقراراته «حديث خرافة يا أم عمرو»!!

لا نقولها هذه الأيام. . فالذين لا يعملون جدير بهم ألا يقولوا!

. . وإنما تقولها الأجيال القادمة تصب سخريتها لا على الطغاة وحدهم. . لا على إسرائيل وحدها وإنما على الذين حاربوا «موسيليني» و«هتلر». كان بعض ما أساءا فيه تحطيم عصبة الأمم. . بينما هم هؤلاء يحطمون الميثاق، وهيئة الأمم، ومجلس الأمن، والقانون الدولي، والأعراف الأخلاقية بأسلوب ناعم. .

لو كان لي من الأمر شيء لما شكوت إلى مجلس يقدم بعض أعضائه

القرار الصريح.. يجمع عليه الأكثرون.. فإذا الأقلون يخضون مقدمي هذا القرار إلى صيغ مائعة كهذا التصريح بلسان دولة تقول إنها تعرض خرق إيقاف القتال!.. أي كلام إنشائي هذا؟!.. إنه لا يضرنا بل ينفعنا.. نتعلم منه كيف تقهر الظروف الدول الكبرى!!

إن أي تصريح، وأي بيان مشترك أصبح لا يفيد كقرارات مجلس الأمن، حديث خرافة.. الفائدة أن نتلمس الخلاص بكل وسائل الخلاص، ولكن بإخلاص.. إخلاص الجميع.. نضع كل سبب للفرقة تحت أقدامنا.. لنعين أنفسنا، وعلى الأقل لا نقف مكتوفي الأيدي أمام هذا الموت المقطر.. نأخذه جرعات في كل يوم ضربة من إسرائيل. فلتكن الضربة الواحدة علينا أو لنا.. لعلّ الدنيا تتنبه.. لعلّهم يعرفون أن العربي لا يموت كالمختنقة.. كالموقوذة.. كالمتردية.. يعني فطيس!

فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم!

الذين يموتون بالأمراض خير لهم أن يموتوا بالقنابل!

إن الشكوى لمجلس الأمن أصبحت المخدر الجديد.. بل هي أخطر أنواع المخدرات.. هو أخطر من الحشيش والأفيون، والطاطورة، والهيروين، والكوكايين، وحبوب الهلوسة، وحبوب الكونقو.. كل هذه تخدر الأفراد.. أما قرار مجلس الأمن فمخدر الشعوب المستضعفة، وهذا أخطر. ومن واجبنا أن نتجنب تعاطي المخدرات!!.

ـ حسبت إسرائيل أنها ملكت بوسائلها الرأي العام العالمي.. تثيره ضد العرب.. وقد نجحت في ذلك إلى حد بعيد في الأيام الأولى. فهو على الأصح في الأشهر الأولى!

شيء من وسائلها، وأشياء ممن أعانها . . لكن الشيء الأكيد تقاعس بعض الرؤوس في أكثر من دولة . . ليس أمام الضربة المذهلة، وإنما أمام الرغبة الذاهلة!

لكن الرأي العام العالمي ـ ولا أستطيع أن أقول إنه خرافة ـ قد اتضح له ما تفعله إسرائيل . . ولم يتضح له ذلك بما جرى في مجلس الأمن، أو في هيئة الأمم من كلام فضح إسرائيل . . إنما الوضوح جاء أكثر وأكثر من مواقف إسرائيل نفسها . . فكثير من الدول في أوروبا تسأل نفسها بإلحاح عن هذه المواقف من إسرائيل:

ـ إغلاق قناة السويس ـ إغلاق المطارات حيناً بعد حين؟

ـ أوروبا تسأل نفسها الآن عن الشلل الذي أصاب المواصلات؟

هذا الموقف من إسرائيل شاهد يفتح آذان الرأي العام العالمي عن طريق الصراخ في أوروبا، وليس أبخس القيمة للكلام في مجلس الأمن لأن هذا الصراخ في الغرب قد أعطى الكلمة في مجلس الأمن الأذن المصغية . . تسمع فظائع إسرائيل . .

من هنا . . جئت في هذه اللحظة أشكر للباكستان، وللسنغال موقفهما يتزعمان الشكوى في مجلس الأمن ضد ما تفعله إسرائيل من فظائع وآثام . . في الأرض المحتلة.

إن الباكستان والسنغال بهذه الشكوى قد منحتانا الفرصة لأن نفتح أعين أعضاء مجلس الأمن . . الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة . . الأعين في التلفاز الأمريكي ليشهد الفظائع . . مصورة بالكلمة، والصورة . . ليعرف أن النازية كانت أقل من ذلك!

فالنازية قتلت رجالاً.. لكنها ما هتكت نساء.. ما جزرت أطفالاً.. ما هدمت بيوتاً على أصحابها.. ما فجّرت في المساجد والكنائس.. ما تباهت بما فعلت.. كنت أيام النازية أتمنى هزيمتها لحساب الإنسان، لكن هذا الإنسان حينما امتلك القوة أصبح يطغى.. بعين نازية أخرى.. هي نازية بالفعل، وشيوعية في المستقبل، ولن تكون غير ذلك!

أشكر للباكستان وللسنغال هذا التمكين لنا في إعلان الفظائع.. فلعلّ إسرائيل ـ إن لم تستح أو تخف ـ يستحي الآخرون إن لم يخافوا!!

ـ فوضى عالمية.. كأن العالم قد خلا من العقلاء، فقد أخذته اليهود بما صنعت وتصنع من كل عاقل. إن حلم الصهيونية قبل أن تسود في الأرض أن تفرض سلطانها على الفكر وعلى النفوس، وكثير من الشعوب والدول قد وقع في ذلك.. فأهدروا إنسانية الإنسان، أما نحن العرب فأحسبنا بالصمود في حرب اليهود سيعرف الإنسان أنا مخلصوه من خدر اليهود وسلطان الصهيونية!

هذه الطائرات التي تفجر أحدثت فوضى عالمية، في خطوط المواصلات ما صنعها إلا اليهود، لو خسروا رجالاً منهم. إن اليهود يريدون هذه الفوضى العالمية، فهم يتهمون العرب بأنهم قد فجروا الطائرة النمساوية. والعرب أنكروا ذلك، فلماذا لا يتهم اليهود أنفسهم بأنهم صانعوها ليثيروا الرأي العام العالمي كما فعل غيرهم قبلهم في قتل السردار، أو إغراق «كتشنر»؟.. هذا احتمال راجح، وهناك احتمال قد يزعم بعضهم أن الذين فجروا هاتين الطائرتين قد استأجرهم «البزنس» من بعض العرب أو من أنصار العرب. «البزنس» له فعله.. الأجر المدفوع له عمله.. لا تعجبوا فإذا كان أكابر الرجال في الدول الكبرى قد طوعتهم

الصهيونية لأغراضها بالأجر المدفوع «بزنس» فلا يبعد أن يغرى عامل في طائرة . . حمّال حقائب . . مهندس بأجر مدفوع . . ليضع المتفجر . فحينما فجرت أخلاق الرجال بالخضوع للصهيونية تفجرت أحوال الدنيا بهذه الفوضى . أفليس هناك عقل يعود إلى شعوب كبيرة تقول للصهيونية : قد رفعنا يدك عن أكابرنا لينقذوا دنيا الإنسان من هذه الفوضى العالمية؟ يحسب اليهود أنهم بما يصنعون يؤلبون الدنيا على العرب؟ . . لا . .

مـواقـف ورجَـال

● هو شاب لم يبلغ السابعة عشرة بعد.. جلس يسمع إذاعة لندن يشاركني في ما أنا فيه، أو يشارك الإنسان تلك اللحظة بكل ما هو له من الهتاف لانتصار العلم، وما كادت الإذاعة تختم الأخبار عن سلامة الهبوط لعابرة الفضاء «أبوللو١٣».. تبسط الفرحة الغامرة بجهد الرجال، والغامرة بنجاة الإنسان.

لقد سمع وسمعت فقال: هل تعتقد أن العطب أصاب المركبة بالمصادفة كحدث عرضي منعها الهبوط على سطح القمر؟!

ـ قلت: نعم إنها مصادفة، فما هي إلا آلة يعتريها كل ما يعتري الآلات. بل إن كل البراعة في دقة ما ركب فيها ترجح كل الاحتمالات للإصابة بالعطب. فالتركيب المعقد الدقيق، والموجه من الأرض، والمدار برجال في الفضاء يحمل في تركيبه الخطر والخلل.

ـ قال: أنا أخالفك في ذلك، إني أعتقد أنه مخطط متعمد فيه إيقاع الإصابة بالعطب لامتحان الكفاءة في مقاومة الجاذبية على القمر لاختبار القدرة في صمود الرجال.. لإبراز الحقيقة في اتقان العلم!

أرادوا أن تصاب بالعطب ليكسبوا التجربة الصحيحة في إنزال سفينة تعطب للمصادفة.

ـ قلت: هذا كثير.

ـ قال: الذي كثره في نظرك هو الإخراج المسرحي في وقوع الحدث وإخراج الأخبار يجعلون الإنسان في رجفة.. يمتصون بها بعضاً من النقمة، ويمتصون بها أيضاً كل النعمة.. نعمة المجد!

ـ قلت: على هذا تصلح أن تكون معلقاً سياسياً. فكثير من التعليقات السياسية لها نفس الملامح التي تتكهّن بها!

ـ قال: النجاح سيجعلهم يقولون إنهم صنعوا ذلك، والفشل كان في مقدوره أن يتقولوا عليه فيزعموا أنها المصادفة.

ـ قلت: حوار أعرضه.. لا أنكره كل الإنكار، ولا أستطيع أن أثبته لكنه أعجبني كإثارة من ذهن، ولو لم يصادف الحقيقة إلا أنه يوائم مشاعر الذين يألمون من سفك الدماء، ويأملون في نجاح السلام حينما ينجح العلم!

ثم قلت: إن عملية السلامة بهذا الهبوط المتقن لا يفترق توقيته إلا في ثوانٍ خمس.. أمر عظيم. أشعر أنه أعظم من عملية الهبوط على سطح القمر!

● أحسن حكاية سمعتها عن البرلمانات جاءت من إذاعة لندن.. البلد الذي أشاع البرلمانات في العالم، فالإنجليز استطاعوا أن يستخدموا البرلمان كصمام أمان، وكضمان من الوقوع في ما يحذرون منه!!

لكن الذين نقلوها عنهم ما كانت توائم طبائعهم، ولا تلائم حتى مصالحهم فتخبطوا بها وأغرقوا شعوبهم التي لم تكن في حاجة إلى خلاف أكثر.. فأوقعوها في الخلاف الأكبر!

كثير هي المساوئ.. غير أن منها: الانحراف بالتعليم إلى درجة أن كثر المحامون ورجال القانون ـ يعني أرباب صناعة الكلام ـ من أجل البرلمان..

الحكاية تقول: إن أقدم برلمان، أو هو أعظم برلمان كان في دنيا اليونان في إحدى الجمهوريات الإغريقية.. صنعوا هذا البرلمان، ومن تقاليده أنه يجب على النائب إذا ما عرض قانوناً، أو مشروعاً لقانون.. يجب أن ينشد أولاً أنشودة، ثم يطرح المشروع على المناقشة، فإذا لم تتم الموافقة عليه يسحب هذا النائب صاحب المشروع على وجهه ـ يعني يسحل ـ ويذهبون به فيقتلونه.. ويشنقونه لأنه رجل فاشل.. عرض مشروعاً لم يوافق عليه البرلمان!

هذا الوضع قد أمد برلمانه بعمر طويل.. مائتي عام، ولكن ليس هذا هو السؤال.. السؤال: كم قانوناً أصدر هذا البرلمان؟!

الإجابة تقول: في هذه المدة الطويلة لم يوافق البرلمان إلا على قانون واحد (!!)..

حكاية لها مغازيها، ومراميها.. يطرح سؤال بعد ذلك:

ـ هل كان الرفض من هذا البرلمان عن اقتناع. ومعرفة، وحجة، ومصلحة؟.. أم أن هناك سلطة فوق البرلمان اتخذت منه صورة للديمقراطية ونفذت عن طريقه الدكتاتورية؟!

أعتقد أن البرلمانات كلها واجهة للديمقراطية.. تستلب بها ثقة الشعوب ليكون من وراء هذا السلب التنفيذ لآراء معينة، أو مبادئ معينة يخطط لها فريق من الناس المنتمين لحزب ما باسم هؤلاء الناخبين!..

حتى البرلمان البريطاني لم يخل من هذه السوآت، وحتى الكونجرس الأمريكي أصبح الآن يتململ لأن كثيراً من الأمور تجري دون علمه.. تستغلها جهات عرفت كيف تخرج من المأزق بتعدد السلطات المربوطة بمرونة!

إن هذه الحكاية قد لا تصلح دليلاً على الحكم بالسوء لأي برلمان، وإنما واقع هذه الأيام هو الحاكم بالسوء على برلمانات تسكت عن الذبح والقتل للإنسان الذي صعد إلى القمر.

ـ وأطبق اليأس على كثير من الفرنسيين حينما هبت النازية بالضربة العاصفة للخطوط والجسور والحصون فتقدمت بزحف الحاقدين إلى أبواب «باريس» فكانت فجيعة عالمية!!

ولم تصل سحابة من وراء الأطلسي. صرخ يناديها (بول رينو) كأنما هو يقول: أيها الشاكرون لفرنسي صديق أعان واشنطن في حرب الاستقلال (لافاييت) ردوا إلينا جميلاً صنعه لكم.

ولم تسرع السحابة. لكن الفدائية في دم الإفرنس. وقائد المقاومة (ديجول) ومن معه ثبتوا أقدامهم على الأرض وأطبقوا على اليأس يزيحونه من نفوس الإفرنسيين فجعلوا السحابة من وراء الأطلسي تجد لها مكان نزول تضع ثقلها فيه. تمطر انتصاراً على النازية ونصراً لفرنسا حققه الفدائي. وجاءت به المقاومة الوطنية حتى عادت فرنسا الدولة الكبرى في مجلس الأمن، والدولة الكبرى يقيم جيش من أبنائها في أرض ألمانيا التي عادت محتلة بعد أن كانت زاحفة تحتل!!

وأطبق اليأس على كثير من العرب. في أيام يونيه الستة منذ عام حينما زحفت نازية ثانية بضربة عاصفة تحتل الأرض العربية وتقيم على أنقاض

هزيمتنا نصراً لها فكانت فجيعة إنسانية!!

ورجونا سحابة من وراء الأطلسي لا تأتي من دولة واحدة وإنما رجونا وصولها من الدول كلها في هيئة الأمم أو مجلس الأمن. فإذا السحاب جهام لا يمطر ما يغيث. الظلة تعبث بالبائسين. ويعبث بنا بها الظالمون.

لكن الفدائية في الدم اليعربي قد جعلت السحاب العربي يمطر العدو وابلاً من القتل والخراب. يكون منه الغيث لنا والعبث بالعدو!

إن المقاومة والفداء هي السحابة المغيثة أمطرت التقاط الأنفاس ورفع الرأس. كأنما هي تطبق اليوم على اليأس تزيله ترمي به وراء خطوط الأعداء. ليكون الأمل في النص قريباً.

لقد أكسبونا الاعتبار، فأعطوهم العون مقابل العزة، ردوها إليكم مقابل ما يبذلون من نفوس. هم يبذلون دم الشهيد. فابذلوا أنتم العون للشهداء.

قرشاً.. سلاحاً.. لقمة خبز.. أملاً فيه.

إن الثقة فيهم تجعل للعطاء قيمة. وإن البذل منكم يجعل للثقة قواماً في نفوسهم.

كونوا أفراداً بالرفد والعون والعدو من كل ما تقدرون عليه.

إن اليهود قد تحدوا الفاتحين الأولين. يتحدون الإسلام في أبي بكر الفاتح الأول. في عمر الفاتح الثاني. في خالد. في صلاح الدين.

أيدوا الفدائية عوناً وتطوعاً وأملاً وحفاظاً تكسبوا اليوم الأبيض رغم السحاب الجهام يأتي من وراء الأطلسي، ألا سحقاً ليهود جنوا من جيشهم.. جيش «باتستا» في الشرق ستأكله عاصفة ليست على اليسار وإنما على المتعسفين الظالمين.

● أسبانيا الدولة نفت ما ادعته ألسنة الصهيونية ودعاة إسرائيل. فقالت أسبانيا بإصرار الرجال الذين يعرفون أقدارهم. ولا يتلاعبون بالقيم الموروثة، ولا بالمسؤولية المورثة.. قالت: لا.. لا.. لم ولن يكون هناك تبادل اعتراف، ولا خطوات تعارف بإسرائيل.. قالت: نحن ما زلنا مع العرب لأنا نحترم قيمتهم في تاريخ الإنسان. وقوامهم في حياة الدنيا فيما سبق. وفيما يلحق.. نرفض الظلم، ولا نتصالح مع الظالمين!

أسبانيا ما قالت ذلك لأن وارداتها، أو مصانع الأسلحة فيها تود لها سوقاً عند العرب، أو أنها تغاضب السوق الإسرائيلية حتى تسحبها بنوع من التراضي لتشتري الواردات، أو لتقتني السلاح. وما تقول ذلك لأنها تود أن ينصرها عرب في المشرق على عرب في المغرب. فهي قد صفت الكثير، وهي في طريق التصفية لكل ما يضر بعلاقاتها مع العرب في المغرب.. بل إنها بهذا الموقف تيسر للصداقة أن تعمل عملها.. يرسخ بها المجد القديم، وتنمو بها الحياة الجديدة!

أسبانيا قالت ذلك بقوة جنرال لعلّه الأول قبل ديجول.. رجل ما كان خلقاً تلعب به الرياح.. أثبت للدنيا كذب الظنون التي كانوا يظنون، فلم يصبح لعبة في يد النازية، ولا دمية في يد الفاشية رغم العون المبذول له منهم. وهو الآن ـ أعني الجنرال فرانكو ـ يثبت أن مصلحة أسبانيا هي التي تلزمه أن كان محايداً في الحرب العالمية الثانية.. لم تسقه عاطفة نحو موسوليني ولم تأخذه نزوة إلى هتلر.. كل عواطفه لأسبانيا.. كل عقله لها، وحتى «صومائيل هور» وزير خارجية بريطانيا سابقاً.. سفيرها في مدريد أيام الحرب (لوردبن) لم يصنع شيئاً ليكون فرانكو المحايد في الحرب.. كان ذلك عمل الجنرال فرانكو نفسه سلمت به إسبانيا خلقاً

وسياسة ومستقبلاً.. هكذا الرجل لا يبيع شعبه مخافة أن يتضافر عليه الأعداء، ولا يهدر حق شعبه في سبيل الكسب من مادة قد تجيء برخاء الشعب اليوم لكنها تنتهي برخائه غداً!!

إن الجنرال فرانكو، والجنرال ديجول رجلان لا يلعبان اللعبة القذرة من أجل إسرائيل، وإنما هما قد جدا في ذيل الصداقة العربية التي باعها أصدقاء لم يحكموا عقولهم وإنما قد حكموا بعقول مدمرة لشعوبهم.. لا خير في رجال تمتلئ جيوبهم. وتخوي قلوبهم!!

- بدت طلائع الكومنولث الجديد!

فهل هي تجربة تخضع للظروف. أم هو مخطط يصنع كل الظروف؟!

كل المعلقين، وكل الأخباريين يذيعون أن «تشيكوسلوفاكيا» قد انتصرت في تحريرها الوطني. ونظامها الداخلي، وحتى قوميتها!.. ولعلّي أبدو شاذاً حينما أزعم أن ما صدر به بيان المؤتمرين في «بتسلانيا» لم يكن إلا انتصاراً للإمبراطورية السلافية.. إمبراطورية الكرملين!.. ولم يكن ذلك تصرفاً عاجلاً.. صنعه المؤتمرون في ٢٤ ساعة. وإنما هو تخطيط مدروس.. صنعت من أجل تنفيذه أحداث في مقدمتها وجود الجيش الروسي في تشيكوسلوفاكيا. وليس آخرها خروج الجيش دون أن يحدث أثراً. أو أن يتولى ضغطاً على شعب يبدو في ظاهر العيان أنه يريد الانسلاخ عن الإمبراطورية الروسية!

قد يكون الدرس الأول ليس هو فيما وقع في تشيكوسلوفاكيا. ولكن فيما صنعته يوغوسلافيا من قبل. أيام سلطان المذهب يفرض فرضاً بالقسر. وفيما صنعته رومانيا!.. إن يوغوسلافيا ورومانيا قد أعطتا للكرملين نهج المؤتمرين في تشيكوسلوفاكيا.. تحقق به الانسلاخ عن الدمج بالقهر. وعن

سلطان المركزية إلى قوة التجمع بالحرية الشخصية في إطار العمل الجماعي. . قد يكون في هذا إضعاف للمذهب. روسيا لا تمانع فقد فرغت من ذلك بالكلمة التي قالها خروشوف: «لقد وصلنا إلى الرفاهية وهذا ما نعنيه أو ما نريده من الشيوعية». حينما وصلوا إلى ذلك رجع الاتحاد السوفياتي إلى مجد الإمبراطورية ليعمل بأسلوب الأباطرة!!

إن روسيا الإمبراطورية في احتلالها من قبل الشيوعية لبولندا وفنلندا، وفي عدائها مع ألمانيا وفي غزواتها للدولة العثمانية لم ترد أكثر مما وصلت إليه الآن مؤتمرات تشيكوسلوفاكيا. . لقد حققت بذلك سلطان موسكو على هذه العواصم. . عاصمة للكومنولث الجديد. وفي هذا يبدو الخطر في أكثر من ناحية. . فقد كان هناك المطعن الأول والأخير. والمحذور منه. والمخيف هو: كفران الشيوعي بالوطنية، والقومية مما أصاب الأحزاب الشيوعية في إيطاليا وفرنسا بالعجز إلى درجة التقلص. ولكن بهذا المؤتمر وبالنهج الذي أعلنه قد أزال هذه المخافة. . فكل الشيوعيين الآن في حلف وارسو أصبح لهم الحق بالاحتفاظ بالقومية والوطنية. . لا يغيرهم أن يكونوا الأعضاء في الكومنولث الجديد ليكون غيرهم مثلهم.

إني أشتم رائحة الخطر من ذلك. . تقف ألمانيا الغربية على حافة المخافة. ولقد كان في تصريح «كيسنجر» ما يلقي الضوء على هذه المخافة فقد جاء فيه: أنه بالرغم مما صدر في هذا المؤتمر فإنه حريص أن يكون على علاقة طيبة مع دول أوروبا الشرقية:

إن هذا العمل ـ وأجد فيه الخطر، خطر التوسع الروسي بالأسلوب الناعم ـ لم يكن مصنوعاً في دقائق أو ساعات وإنما هو صنيع الأيام. . صنيع الأحداث. . صنيع الضمانات. . ضمانات القوة أتاحت لروسيا أن

ينتشر أسطولها وقواعدها العائمة.. في كل المحيطات.. في أعالي البحار.. في البحار الوسيطة. في الخلجان.. فلماذا لم نسمع تعليقات من الغرب؟!.. ألأنه لا يعرف هذه الأخطاء.. أم لأن كثيراً منهم يرى فيها توازن القوى؟!.. لا أحسبهم يسكتون عن ذلك. ولكني أعزو الصمت إلى الشعور بدقة الموقف. وعظيم الخطر لا يحسن إبداء الرأي فيه عاجلاً!

لقد حسب بعضهم أن الجيش الروسي في تشيكوسلوفاكيا سيصنع من براغ سايجون ثانية لتكون بون هانوي أخرى، أو هو العكس.. لكن الروس، وقد أطبقت عليهم الخيبة وكادت تضيق الشباك.. قد انفلتوا منها بقوة الرأي فلم يصنعوا ما تريده حماقة القوة!.. ولعلّ أحداث الشرق الأوسط قد أتاحت لروسيا أن تسلك هذا الطريق.. فهناك سؤال سأله طالب قادم من أمريكا طلب من أستاذه الإجابة عنه.. السؤال: من هو الذي انتصر في حرب الشرق الأوسط؟!

الإجابة: إسرائيل أولاً، والذين أعانوها ثانياً، والذي خسر الحرب هم العرب!

وأجابه الطالب: لا.. إن إسرائيل لم تكسب الحرب. والعرب لم يخسروها بعد.. إن الذي كسب هذه الحرب هو الاتحاد السوفياتي. والذي خسرها هم الذين أعانوها وما زالوا يعينونها!..

فهي للاتحاد السوفياتي في الأمد القصير، لكن فيها كل التضييق على الغرب في الأمد الطويل!..

فهل عرفنا بعد ذلك الخطر!!.. هي آراء أسجلها لا لحساب أحد وإنما لحساب الفهم والفهم وحده لا أكثر ولا أقل!

ولعلّي أنتظر معكم ما يعلق به رجال يقولون الكلمة الصريحة لقومهم كما «والترليبمان»!

- الأمير فهد في الصومال. . وفي الصومال فهد!

فلو لم يكن في الصومال فهد. . قد استأسد على الاستعمار لما استقل البلد الشقيق. . يرتفع فيه الآذان على المنائر المسلمة!

الأمير فهد في الصومال يحمل أمانة التبعات. . لا تقود بها الأتباع ولا تسعى بها إلى الابتداع. وإنما لنكون مع الأخوة المسلمين المتبعين لكلمة التوحيد. . المبدعين توحيد الكلمة!

الأمير فهد في الصومال يمثل الدولة في احتفال الدولة باستقلالها. . رأيته وقد نزل من الطائرة يسير بين تصفيق الجماهير، واستقبال الجمهرة من علية القوم. فنظرت إليه أفتش عن المعاني في إقباله من خلال المعاني في استقباله وجدتني أرى فأل خير. . أرى البشرى في باقة من الزهر يحملها عطراً في وجدانه. . كالرونق في الاحتفاء به. . كالاعتداد والإعزاز في تحيتهم له. . في تحيته لهم!

باقة من الزهر تحملها الفطرة المسلمة في يد المفطورين على هذا الإسلام. . طفل يقدمها إلى الأمير رمز محبة لتوثيق الفطرة. . عنوان صداقة من رسوخ التعاون. . صلة اليد المؤمنة باليد المؤمنة تصافحها. . تساندها. . تنصرها ليشتد شعبي المسلم في الصومال برد كيد من حوله ممن هم الحول والقوة له. . الحول والقوة من الله. . الله يعطينا هذا الحول والقوة بالكلمة المؤمنة بالصداقة لهذه اللغة الشاعرة. . بالصدق مع كل ما ورثناه من تراث. . السابق فيه بلال، سابق الإفريقيين واللاحق فيه لا ينتهي بأحد المنتسبين في أروقة الجوامع المسلمة من «جبرت أحمد» أو «جبرت إسماعيل».

الأمير فهد في الصومال.. ذهب إليها يطل على إفريقيا المسلمة كأنما هو يقول لها: إنا الحريصون على إسلامنا، يعتز بكل المسلمين، ولا يبتز العواطف للأفراد، وإنما هو يكتسي بها كالبز.. يتخذ منها زينة عند كل مسجد!!

إن الإفريقيين لهم أمل كبير.. صهره الألم الكبير فما أحرانا أن نكون معهم نعالج الآلام. ونسقي الآمال.. حينئذٍ لا نخاف أن تتكرر مأساة الصوت المرجح لإنشاء دولة إسرائيل بالإغراء. أو بالتهديد.. من شركة عجلات السيارات «فايرسون».. وحينئذٍ يلتزم الدكتور باندا وأمثاله جانب الأدب مع العرب.. مع المسلمين!

كل هذه المعاني حملها الأمير فهد معه.. ممثل هذا الكيان الكبير.. حكومة وشعباً. ومبادئ.. يعني التمثيل الكامل للدولة كلها!..

إن الذين يمثلون بلادهم ينبغي أن يكونوا على المستوى الرفيع حرصاً على مكان.. وثوقاً بأنفسهم، وصوناً لقيمة.. ثقة بشعبهم.. والأمير فهد من هذا الوزن الثقيل..

أما الآخرون الذين يمتصون المكان الكبير، والقيمة المقدسة لأغراضهم.. فهؤلاء ينبغي أن يكون غرضنا الوحيد ألا يكونوا في غرض لنا.. فنحن أكبر من استغلال المغرضين. أو الانتهازيين.

تحياتي للأمير فهد.. تحية المسلم لأخيه.. تحية واحد من السعوديين لسعودي أمير.

● الحياة.. حلوة جميلة.. يريد الإنسان أن يحياها دون منغصات.. ويتمنى أن يصحو على خبر طيب مريح لينعم بصحوة هادئة، ونوم لا يقظة فيه.. اليقظة منه على الخبر الطيب!

ولكنه لا يصحو اليوم، ولا ينام إلا على صوت العجيج والضجيج، والهرج والمرج. . كأنما الأرض جنت بأهلها، أو أن أهلها أصبحوا الشياطين فوقها. . لم تعد الأرض جُنة ـ بضم الجيم ـ ولا هي جَنة ـ بفتح الجيم ـ يمرحون في حدائقها الغنّاء!

وتحدث إليّ. . أو لعلّها هي تحدثت إليّ. . قالت:

ـ ما بال أوروبا ترقص اليوم على برميل من البارود!!. . أو يمسك جبابرة صغار في صغار نيرون. . وجبروته يعزفون على قيثارة فوق فوهة بركان. . ليس هو حريق روما، ولكنه الحريق في كل روما. . أعني أي عاصمة هي اليوم أغنى من روما القديمة بالزخرف والفن والحياة والقوة!

ـ وأجبتها: ليست هي أوروبا وحدها التي ترقص على فوهة بركان. أو تقذف نفسها وسط الهاوية!. . كان «دلاس» يلعب. . يخوض التجربة. . يجعل منطقته على حافة هاوية ليتقدم خطوة يوطد نفوذه. أما اليوم، فالدنيا كلها صنعت لنفسها الهاوية!. . لا يستطيع «دلاس» ومن إليه أن يتحرروا بالخروج منها. . كل هذا صنعته أوروبا شرقيها وغربيها، وشاركت فيه الولايات المتحدة. . أرادوا لمن حولهم أن يكون في الهرج والمرج ليجلبوا الخبز والزبد والبترول. . فإذا الحريق يمتد إليهم. . في كل مكان من الغرب والشرق زوبعة. . عاصفة. . تأكل القادة. . تخرج القادة. . تشيع الفوضى. . لا هي إلى اليسار المعلوم، ولا إلى اليمين المفهوم. . إنما هي إلى الفوضى التي لا تفهم ولا تتفهم!

ـ قالت لي: وما السبب؟!.

ـ قلت لها: ألم تقرئي «التجربة» لكولن ويلسون. . دعيني لأشرح لك شيئاً منها، والتي أفهم بعض ما قال. . إن فيها الأزمة يصنعها المثقفون. .

هم يعيشون أزمة التفكير فينشرون أزمة الفكر.. كل مثقف أمتحنته الأفكار أصبح فكره محنة عليه وعلى الناس.. لقد ساعدت وسائل النشر على انتشار الأفكار لتتصارع، وهذا الصراع بين الفكرة والفكرة جاء به المثقفون.. رضع منها كل شعب.. فأرادوا التحقيق لفكرهم، بالعمق والعنفوان!

الفكر صناعة الرأس، وكثيراً ما يأتي بهذا الذي نحن فيه.. أما المبادئ حينما ترسخ، والإيمان حينما يتأصل فصناعة القلب.. كل الدنيا تعيش بالفكر لتعبث بالقلب (!).. هذه هي المحبة فكر بلا قلب!!

فالكون ملحمة كبرى جوانبها

دم ونار وأنصار وظلماء

ـ بعد ظهر الجمعة أذيعت النتيجة المنتظرة لنجاح المحافظين، وسقوط العمال في الانتخابات التي أجراها حزب العمال الحاكم، فانتصر في ظل حكمه خصمه حزب المحافظين.

والأمر الذي يعني كاتباً قرأ النبأ، وفهم الخبر، وأحس بالتقييم لذلك كله.. هو هذه الصور البارعة في الشعب البريطاني وتقاليده.

ولقد اكتوى العربي من سياسة البريطاني، غير أن تقدير الشعوب واحترام سلوكها في ما تعمله لنفسها، وتسير به في حياطة حكمها، شيء آخر يختلف..

أعطوني حاكماً في أكثر من مكان قلّد النظام الحزبي والبرلماني في بلاد الإنكليز، وعفّ عن التدخل في الانتخابات تزيفاً وضغطاً إلى غير ذلك من الأساليب الطاغية والفاسدة التي تتنافى مع النظم البرلمانية.

الخصومة حادة، واللسان ينطلق في الطعن والتجريح والمغماز والمعابة، والمعركة تحتدم. . كل ذلك في الشوارع والنوادي ومجالات الانتخابات. . أما دوائر الحكم والقضاء والفرز فلا مجال لأثر من أبحاث الخصومة.

لا شكوى، ولا مطاعن بعد الانتخابات تجرى في المحاكم أو في الشوارع، فمجال ذلك أضحى تحت قبة البرلمان. .

في اللحظة الأولى من ظهور النتيجة، يذهب رئيس الوزراء العمالي إلى القصر يقدم الاستقالة. وفي اللحظة نفسها يذهب رئيس الوزراء لوزارة الظل أمس، والوزارة العاملة غداً إلى القصر يعرض أسماء الوزراء ليتم النطق الملكي بالتعيين بلا ضجة، بلا عقابيل. .

لقد نشأ عن هذه المواءمة كتقليد رسخ أن أصبح الأمر في النتيجة، وكأنه لا تغيير، ولا فرق بين الأشخاص. .

فهناك ظاهرة اتضحت وهي في هذه المفارقة المنسقة بين إدوارد هيث وهارولد ولسون.

إن كل شيء في إدوارد هيث يجعله الرئيس الملائم لحزب العمال بحكم النشأة وما إليها.

وإن كل شيء هو لولسون يجعله الرئيس لحزب المحافظين بحكم النشأة وما إليها. فكيف تبادلا المقاعد؟

تلك ظاهرة الصحة وتقدير الظروف والخضوع لصمامات الأمان.

إن حزب المحافظين من أصحاب القبعات العالية لم يرفض هيث لأن الواقع يتطلب هذا، ولأن التقرب إلى الشعب ينبغي أن يعطي الشعب ملامح

الترغيب كحجر لمزايا العمال. وإن حزب المحافظين الذي قاده السباك والفحام والصائغ قد رضي بأن يصبح هؤلاء لوردات من أصحاب القبعات العالية في الوضع والأنساب وإن لم يلبسوها..

فالأمر هو الكفاءة. والأمر هو أن يتقاربوا في الشكل. في المظهر مع التقليد الراسخ والمنهجية، التي تبلغ حد العجرفة.. فلا ينفر الشعب من أحدهما لسبب لا يلائم طبيعة العصر.

فهل الذين يقلدونهم يطيقون أن يسيروا على نهجهم.. إدوارد هيث من طبقة متواضعة صار رئيس المحافظين، وويلسون من طبقة عالية صار رئيس العمال..

تخطيط لم يضعه فلاسفة، وإنما وضعته يقظة الشعوب واحترام الشعوب.

وأخيراً.. هل سيكون في السياسة البريطانية تغيير مؤثر! لا.. ولا.. كل التغيير وضوحهم في تأييد إسرائيل.

العـــــرب

● وسؤال آخر يشتد الإلحاح به للإفصاح عنه. وقد لا أجد جواباً عنه الآن في وقت زاحم تكاد الزحمة تأكل الرحمة. جهود عدة ومن سنوات بذلها العرب. كل عمل له ليكون نطاقاً حولهم، أو سياجاً يصد عنهم، أو قيمة ترتكز عليها مسيرة ما يسعون إليه كقضية فلسطين مثلاً.

جهود ضاعت، فلقد ذهبت كأنما هي «قبض الريح» أو هي «حصاد الهشيم». . ويرحم الله المازني.

فمثلاً ميثاق «باندونج» أين هو الآن؟

لقد أطريناه. وكأنه لازمة النشيد يذكر في كل بيان ويمجد على كل لسان. . لقد أصدرته دولة كبرى ووقعت عليه. هي الصين حينما أبرزت عضلاتها جنوب الهملايا وضد دولة موقعة عليه هي الهند.

فإذا الجميع يتركونه، ومن بينهم العرب فلم يعد له ذكر عندهم. لأنه لم يعد له قوام يرتكز عليه!. . كسر العكاز فسقط الأعرج المستند عليه. وكل الذين توسموا به نجاحاً لم يلقوا منه أي فائدة تذكر.

إن هذا الميثاق وأمثاله كمواثيق المنظمات «إياها» أفريقية وغيرها. أصبحت كالثوب «الفضفاض» يدخله أكثر من لابس فلا يضيق على الداخلين ولا يستر لابساً ضاق به ذرعاً من شدة أو كرب طرأ عليه يكاد يمزق

الأثواب.. الأثواب تمزقت فعلاً! حتى الذين فرحوا بأفرقة شعوب عربية لم نجدهم الإفريقيين في محنة نالت العرب أسيويين وأفريقيين.

جهود أضاعت الفوز علينا، وأشاعت العداوة لنا ولعلّ بعضها له دخل في تأليب الذين خانوها أول أمرهم ثم عافوا الخوف منها بعداء صريح لنا ولأصحابها، ولئن صرفتنا زحمة النكبة فإنه ينبغي ألا نزحم أنفسنا في ما لا يفيد.

لا فائدة من ذلك، بل هو أخس وأضر.. لا اعتراض على ما مضى، وإنما الأمل فيما يأتي..

ـ الأرزاء التي تراكمت على الأمة العربية كثيرة، ومنهكة، لكن هذه الأمة عاشت رغم ذلك.. غير أنها تركت عقابيلها ورواسبها فأماتت فينا صناعة الموت.. من موت الحماسة.. من سقوط الغيرة. وفقدان الشجاعة. ومن فئام تصدروا فلم يصدروا إلا أن يشربوا اللذة لنتجرع على أيديهم الغصص. لا أعني بهم رعاع الناس. وإنما أعني بهم هؤلاء الحاقدين على الأمة العربية. أو الخوانين لها في كل حين.. حتى إبراهيم الإمام لا أعليه من ذلك، فلأحاسبنه في كلمة على ضالة شأني، عن كلمة قالها لأبي مسلم الخراساني: «وأيما طفل بلغ شبرين يتكلم العربية فاقتله» عيب عليه أن يفعل ذلك، ولكنها شهوة الحكم، ونقمة الحقد، ورزايا الانصياع إلى الذين ليسوا من أهلك؟؟.. فالذين انصاعوا أمس، أو ينصاعون اليوم لسبب أو لآخر.. لغير أهلهم.. هم بقايا الرزايا جلابة الرزايا.. هم يعرفون أنفسهم لا تستطيع أن تخوض معركة دونهم، ولا يعطون الفرصة لنخوض المعركة معهم!

لقد فقد العربي حوافز الاندفاع فأفقده ذلك داعية الدفاع.. فانحاز إلى

نفسه . . يأكل لحم أخيه ميتاً، ويصنع منه أكلة دسمة للآكلين الآخرين ـ وهم كثر ـ والسبب؟! . . ضعف اليقين!!

والسبب . . إضعاف الرجال!!

والسبب . . فقدان الرجال . . الذين يستحيون من الهزيمة لأنهم يخشون العار .

والذين يكسبون النصر لكسب الشرف من وراء الانتصار!

والسبب . . من طغيان عناصر واغلة ومنحلة لم يكبلها داؤها . . بالحقد المذهبي القديم، فأفسدها داؤها الجديد بالحقد المذهبي الجديد . . سواء كانت مستغولة من خارج الحدود، أو غائلة في داخل الحدود!

عناصر شتى . . كل تعلقها بشيء نشأت عليه . أو مكان نشأت فيه أكثر من تعلقها بهذا الشيء الذي يحتويها، وكل عيشة لها، وبها . . كم هي جميلة وجليلة، ونفّاذة كلمة جبران: ويل لأمة كل قبيلة فيها أمة، ويل لأمة تأكل مما لا تزرع، وتشرب مما لا تعصر، ويل لأمة تقابل كل غاز بالترحيب والتهريج والتكبير . وتشيع كل منهزم بالفحيح والصفير . . وي! كأن جبران قبل أكثر من خمسين عاماً يشخص هذا الداء الذي نغرسه في نفوس شبابنا بهذه الأمثال: «إذا طاحت السما على الأرض ما ينوبني إلا قد رأسي . أنا عود من طرف حزمة، أردب مولك لا تعفر كيله تتغبر دقنك وتتعب في شيله!! . .» وهكذا من هذه المخدرات المنومات . . قد يستمتع الواحد فيها بالسلامة لكن الأمة لن تنال بها سلامة .

● عدوان عربي على أرض عربية . . في وقت سبق للعالم العربي أن أجهز على عدوان مثله قتل فيه العربي أخاه في الجبل الأشم . . فأمسك العرب بخبائها المقطع . . فوثقوها ليصان الدم العربي لا يسفك إلا على

ضفاف النهر.. أو على شاطئ الخليج أو على الهضاب لتتمكن اليد العربية من السلامة.. سلامة النفس والعرض والأرض من طغيان اليهود ومخططات الصهيونية وتنفيذات إسرائيل ومعونات الآخرين، عدوان عربي سفكت فيه الدماء على الرمال من تراث محمد عليه الصلاة والسلام.. سفك الدم العربي من الجنوب. يشرع السلاح ليحتل أرضاً ليست له كدولة وإنما هي لنا وله وللمقاتلين على الخليج وعلى ضفاف النهر لأنها أرض عربية.

ليس هناك خلاف على حد في هذه الأرض.. وإنما هو الاختلاف لا يجد من يحده من رجال يقولون للعادين: ارفعوا أيديكم عن أرض إخوانكم واملأوا أيديكم بدم أعدائكم.

ضاعت قيم الرجال.. هم أضاعوها.. لأنهم لم ينتصروا على أنفسهم.. كل همهم سواء كانوا الغافلين أو المغرضين أن ينتصر عليهم أعداؤهم.

كيف تتحد الكلمة العربية في مكان يخضع الإمكان وهؤلاء الأغلبية يشغلوننا بحرب جانبية؟!

لا.. بل هو مخطط يريد أن يدمر توحيد الكلمة.. لأنه قد شبع من دمار في نفسه لكلمة التوحيد.

دماء على ضفاف الماء تسيل بسلاح اليهود.. على ضفاف النهر وشاطئ الخليج.. وشعب يقتل في الأرض المباركة بسلاح عدو شرس بغيض مبغض يصب نقمة التاريخ قد رزح تحتها نقمة على أحفاد الذين كانوا نعمة التاريخ على إنسان هذه الأرض. كل الأرض. كل الإنسان.

نعمة ذاق الإنسان فيها الأمن في الأرض المباركة.. وفي غيره حتى

اليهودي أمن السبي والقتل بالألوف في هذه الأرض التي يقتل فيها الآن الألوف . .

وفي الأندلس والمغرب العربي والأناضول، لكن اليهود أشد الناس عداوة للذين آمنوا . . لا يرقبون في إنسان إلاً ولا ذمة .

الأرض حول النهر خضبت بالدماء . . والأرض في سيناء مرت بالدماء . . بينما التلال صامتة تعارك معركتها الكلامية من أجل ما صنعه راسبوتين الجديد . . لم يلبس ثوب القسيس . . وإنما ألبسوه ثوب القسيس . . يتزهد في الصورة . . بينما قد أزهق الروح العربية . . تعطل فيها الجبهة الشرقية .

شخصيـــــات

● دخل سعد بن أبي وقاص بعد القادسية التي كان فارسها المرجي وقائدها الميمون.. وبعد إمارته للكوفة.. وفي أردائه شيء عظيم خؤولة النبي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام والسابقة في الإسلام.. والحراسة للنبي.. والموقف العظيم في أحد.. وفتح الفتوح للمشرق كله.

دخل على عمر.. فإذا عمر يرى كل ذلك لسعد، يحسبه قد دخل عليه مدلاً به.. فرفع عمر «الدرة» على سعد.. لم ينله بها، رفع سعد يديه، فإذا عمر يخاف الدعوة المستجابة من سعد.. وإذا بعمر يثق بالدعوة المستجابة منه.

لا صراع في النفسين الكريمتين، لم يبق إلا اللحظة الخاطفة..

رفع سعد يديه ولم ينطق بكلمة.. بل ولم يزور الدعوة في نفسه.

وخاطبت نفس عمر نفس سعد.. وتكلم إيمان عمر مع إيمان سعد.. قال عمر لسعد: أتريد أن تدعو.. إذن لن تجدني بدعاء ربي شقياً؟!

سعد معه البراءة.. بدعوة النبي له.. لو دعا لاستجاب له الله (اللَّهمَّ سدد رميته واستجب دعوته) فما دعا سعد على أحد إلا استجاب الله له.

وعمر في وجدانه الإيمان بالله.. والثقة به.. كأنما هو دعا الله حين ذلك أن يستجيب دعوته.

من هنا أريد أن أفقه الموضوع من فقه الموضع، فالاستجابة كانت لعمر . . ما دعا على سعد . . وإنما دعا الله ألاّ يدعو عليه سعد . . فصبّر الله سعداً عن الدعاء لئلا يصاب عمر . .

من هذا المعنى الدقيق يعطينا التأكيد لاستجابة الدعوة لسعد . . وأعطانا اليقين أن عمر قد احتجب دعوة سعد . . حجبها الله عن أخوين أصبحا بنعمة الله إخواناً، لم يلبثا لحظة غل حتى نزعه الله من بينهما «ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا».

حال عجيب . . لو تمكن المسلم من إيمانه لانتصر على نفسه أولاً . . ولانتصرت نفسه على الغل ثانياً . . ولأصبح في مأمن من الذين لهم سلطان سواء كان بالدعوة المستجابة أو حتى بالضربة الطاغية.

قال عمر لسعد . . يستحلب الصفاء من قلبه: رأيتك تتخطى رقاب الناس . . لا ترهب أمير المؤمنين . . فأحببت أن يعلم الناس أن سلطان الله في الأرض ينبغي على المحبين لله المؤمنين به ألا يتخطوا سلطانه!

ورضي سعد . . ذلك أن سعداً أحب الوالي لعدله . . وأحب الولاية راعية للأمة . . وأحب الولاء إخلاصاً للجماعة.

من هنا امتنع سعد أن يخوض الفتنة . . فمات بالعقيق يحمل على أكتاف الرجال . . يدفن في البقيع . . رضي الله عن عمر . . رضي الله عن سعد . .

ـ كان طه حسين الشيخ الدكتور العميد ينكر الارتجال، ويرى أن الحارث بن حلزة اليشكري قد زوّر الرواة عليه المعلقة الهمزية.

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

حتى إذا سمع الكاظمي عبد المحسن شاعر العراق يرتجل المئين بجرس ثابت اهتز إنكاره.

وجاء الذي زلزل هذا الإنكار فانقلب إلى تصديق ذلك الشيخ عقل.

سمعنا الرواة يذكرون كيف ارتجل أمام المرحوم الملك عبد العزيز في منى..

ثم زار المدينة، فجاء يزور السادة أمين الحسيني ورياض الصلح وبشير السعداوي وعزة دروزة في مجلسهم في بيت الأكابر السادة آل هاشم في الساحة. وكانوا منزلين ضيوفاً على الحكومة.

وكنا نزورهم فجاء الشيخ عقل، وأخذ مجلسه ثم انهالت عليه أبيات من الشعر. يرسلون البيت.. فينشد على روية الستين والسبعين بيتاً قصيداً محكماً رائعاً.

وأخذت أرسل هذا البيت لابن معتوق الموسوي:

هذا العقيق وتلك شم رعانة فامزج عقيق الدمع من عقيانه

فأنشد وأنشد.. فما قدر واحد أن يسارعه يكتب عنه. ولم تكن الشرائط

المسجلة قد وصلت.

ثم أنشدت بيت الشاعر المكي «سحراً».

ظبي جاوى قد سباني لفظه الدر الأنيس
ثغره كنز اللآلئ ريقه أنقر منيس

فأسرع كبارق يرسل الستين والسبعين على هذا الروي ونحن نسمع ولا نقدر نكتب.

وكانت ليلة فيها سمر لطيف.

ولم أدر من قال: هذا برهان الصدق في الارتجال.. فما يصنع المنكرون.

أحسب أن المتكلم كان عزة دروزة يرحمه الله.

وهذا المبادع أو المبادعة بين شعراء باديتنا قد نماهم إليه عرق في صناعة الارتجال.

إن العربي قال الكلمة شعراً وهو أمي. وهذا يعني أنهم يرتجلون. يسمعون ويحفظون ويروون ويدون الرواة هذا الديوان شعراً.

فإنكار الارتجال قد سقط، وإنكار الحفظ ساقط، فلا زيف ولا صناعة نسب بها صانعها الشعر لفحل من الفحول.

● أحمد بن أبي داود عربي ضاق بالشعوبية في بلاط بغداد، صبر عليها حتى تمكن عند المعتصم. لكنها كانت قد أرضعته لبانها فتمكنت منه.. جعلته معتزلاً يقول بما أنكره الأكابر من علماء السنة.. من أمثال الفضل بن دكين أبي نعيم، والإمام أحمد يصمدان أمام الباطل، فلا يداوران تحويلاً له أو تحويراً..

وأحمد بن أبي داود كان طليعة عربية في فصاحة ولسان.. احترف المذهب للسياسة فاحترق قلبه في أحبولة السياسة..

صبر في كراهيته لمحمد بن عبد الملك بن الزيات حتى أحرقه في التنور. خلاف الساسة ومحترفي السلطان!!

عذاب، أي عذاب، تصنعه شهوات الرجال، تتخذ من مذهبها ذريعة.. تحرق لحم الإنسان في أتون نار!!

وكان الطليعة العبقري أبو عثمان الجاحظ منقطعاً عن أبي داود، إلى ابن الزيات.

وهذا لا يعجب قاضي القضاة، لا يعجبه أن يكون قلم الجاحظ وفكره في خدمة خصمه، فكراً بعد فكر، ونزهة المجالس في ترف العبارة!!

وطلب الجاحظ يريد القضاء عليه، ولا أحسبه أراد الهلكة له..

أحسبه أراد إرهابه لينضوي تحت لوائه، يجعله حاشية له..

وأمسكوا بالجاحظ يقدمونه في الحديد بين يدي ابن أبي داود..

معتزلي جعله مذهبه في خدمة السياسة والذات.

ومعتزله اسمه الجاحظ، جعله مذهبه في خدمة الفكر والكلمة والجماعة التي يريد أن تكون تابعة لفكره..

وكانت جولة صيال بين لسانين وفكرين ونزعتين مذهبهما واحد ومطلبهما مختلف.

فاسترخى الجاحظ للسلطان، وطلب المغفرة، وبرع في لحن القول بلسان وقلم هما السلاح في يد الإمام في البيان والتبيين صانع الكلمة البيانية.. وعفا عنه قاضي القضاة..

وعاش الجاحظ يعرج من كسر في رجله حين هرب من دار ابن الزيات..

ومات الجاحظ، فترك صيته لم يخفت، وأمانة في اللغة الشاعرة أدركها أحمد بن أبي داود.. ولو عاش لها، ولكنها تركته ليكون الجاحظ حياً يعرفه كل قارئ حرف.. بينما خصمه لا يعرفه إلا قلة..

ـ والشيء بالشيء يذكر . . فقد حدثني أستاذنا أبو تراب، وقد جاء ذكر لتفسير هذه الكلمة: «لحن القول».

ـ قال: انفلت من قلم الجاحظ غلطة في تفسيرها . . فقد كان يقول: يعني تكسر الكلام والثقة والأمانة به في نطق الكواعب الحسان والمغنيات.

فجاء صديق لم يسمعه أبو تراب، فقال للجاحظ: إنك تخطئ في هذا، إن المعنى هو تخريج القول وتشقيقه وتفصيحه «لعلّ أحدكم ألحن بحجته» كما في الحديث! . .

فقال الجاحظ: صدقت، إنها فلتة، ولكن ماذا أصنع؟ . . لقد ذهب الكتاب من يد النساخ إلى يد القارئين ليعلّق القول في أذهانهم، فلا أستطيع إزالته . . دعها، ولأعترف بذلك لعلّ من يقرأ التعديل يعتدل . .

هذه حصيلة الكتب التي تسمونها «صفراء» يا قراء الورق الأبيض!!.

● أستاذنا السيد أحمد مصطفى صقر علمنا الكلمة البيانية. فقد كان يرحمه الله على قلة احتفاله من انشغال باله طليعة ذكية. يعرف من تاريخ المدينة الكثير والخفي. حتى لقد كان الأمين على النسب وشجيراته. يرد البيوت إلى أعراقها. خصوصاً إذا كانت علوية. حسنية أو حسينية.

كان يطلب أن نكتب في موضوع ما . . فلا يتركنا نمسك أقلامنا. إلا وأمسك نفسه يمشي في صالون الدرس يتخصر. كأنما الكلمة تضع له التيه والزهو، فإذا هو يتغير . . يتمعر وجهه، فإذا أعطيناه الورق، وقف يملي علينا وهو يمشي جيئة وذهاباً، يلقي ما زوّر في نفسه من كلام في الموضوع الذي فرضه علينا.

يلقي الكلمة حرفاً، حرفاً، كل حرف من مخرجه بجرس أغن له رنين،

فإذا أكمله تصبب عرقاً من راحة النفس، جاء بهذا النفيس من القول.

وكأنه بهذا يعطينا التصحيح في الأذن والوجدان، ثم يأخذ الأوراق يعيدها بأرقام الصواب والخطأ، فلا تجدنا إلا وقد عرفنا الجيد من المخفق، لا من أرقام الأوراق، وإنما من الكلمة التي ألقاها علينا، كتبناها وحفظناها.

درسه ليس كما يتدفق به ثم يمضه، وإنما كيف يعرضه بالحوار ليسأل، يسأل ونجيب.

يعرف التركية كلها ما أغرقت لسانه فيها، فالأصالة وعمق الدراسة في طفولته على يد العلامة أبيه السيد مصطفى صقر حفظت لفظه وجرسه وقاموسه.

ضحوك لا يتبذل، غضوب لا يسرف، كريم، كريم على قلة. لقد عاش أيام الشظف، فأحالها إلى رغد فيما يظهر به علينا، ما حجب مجلسه ولا مائدته عن طاعم. فلعلّه أحد الذين عرفتهم، لا يحبون أن يأكلوا وحدهم.

طروب، لعلّ الرجل الثالث في المدينة اقتنى راديو، أهداه له تلميذه، ابنه وصفيه صديقنا أبو بكر ناظر رحمه الله. ولعلّه الثاني الذي اقتنى «الفوتوغراف» شراه من جدة، فقد كان وطيد الصلة بجدة وأهلها. فقد كان مديراً لمدرستي فيها في زمن مضى تتلمذ عليه كثيرون.

أذكر نادرة فيها شقوة النفس المحسة. ونادرة أخرى فيها فكاهة النفس المرحة.

كان جالساً في «طاقة الصالون» يطل على «برحة» الباب المجيدي فإذا جنازة بدوي تحملها ثلاث نسوة ورجل، فانقلب إلى القبلة يسترجع

ويلبس مشلحه ويجري يحمل الجنازة، كانت جنازة مجدور يوم فشا الجدري في البادية. . كان الناس يهربون منها. . أما هو فقد أقبل عليها، تربية مسلمة!

● للتاريخ ارتباطه. . حلقة تلو حلقة، وله أسبابه. . حدث وراء حدث، كأنما الشيء متصل به، ناتج منه، معزو إليه، مرتفع به، أو منخفض. . فيه عملية التوالد أو التوليد. . وضع يحتم وضعاً، ومقدمة تتلوها نتيجة!

من هنا قالوا: التاريخ يعيد نفسه، ومن هذه قرروا حتمية التاريخ!!

ما لا بد أن يقع لا بد أن يقع. . خذ مثلاً هؤلاء الرجال الخمسة وعلاقتهم ينساح في الشرق من تخوم «كاظمة» إلى تخوم الصين. . له مقدمات كان حتماً أن تأتي بالنتيجة! هؤلاء الرجال الخمسة في التاريخ القريب من الفتح تلاحقت الأحداث بهم أو عليهم أو عنهم. . لا نريد أن ندخل قضاعة وما ملكت في العراق، وما امتلكت من الأرض، ونريد أن نبعد عن المناذرة، وكيف كانت الركيزة لهذا الفتح في بواطن الأمور رغماً عن ظواهرها التي حاربت بها الفتح.

عدي بن زيد العبادي عرف الأكاسرة والقياصرة، وأراد أن يحدث شيئاً فما مكنته الأسباب، أو تغلبت عليه الأسباب حتى في مرثيته التي رواها خالد بن صفوان يتحسر على الضيزن. . كان يحذر من المناذرة مما فعلته ابنة الضيزن. . خانت أباها، وراء عشقها. . عشقت «سابور ذا الأكتاف» ففتحت له الطريق ليقضي على ملك عريض كان للعرب في العراق!

حقيقة واقعة تزيدها الأسطورة جمالاً. . التزيد فيها خير من التنقص لها. . فليست الحقيقة وثيقة نذهب بها إلى محكمة العدل الدولية وإنما

الأسطورة توثق، ووثوق ترتفع بها همم الرجال من جمال الشعر فيها، وجلال الشاعرية.

وحاجب بن زرارة التميمي عشق الفرس.. أحبهم، لعلّه كان يريد شيئاً من وراء ذلك حتى إنه سمى ابنته باسم فارسي «دوختوش» تركيب مزجي دوخت: البنت، ونوش: الحلو، أو السكر، فلم يصنع شيئاً لما طلب ـ أعني الشيء المباشر لما طلب ـ أعني الشيء المباشر له، ولكنه صنع كل شيء غير المباشر.. طلبوا قوسه الوديعة عند هانئ بن مسعود الشيباني، فعز على هانئ أن يسلمها.. فصمد لقتال الأكاسرة.. لا أدري كيف لا يكون موقف هانئ، أعرق في الوفاء من موقف السموأل.. السموأل صمد لحرب قبيلة.. أما هانئ من أجل القوس صمد لحرب الإمبراطورية.. انتصر عليها في «ذي قار».. قالها محمد النبي ﷺ. (اليوم انتصف العرب من العجم وبي نصروا) وكأنما انقضى دور عدي، ودور حاجب وهانئ، ليأتي دور شيباني آخر اسمه سيدنا «المثنى بن حارثة» الذي هون أمر الإمبراطورية على أبي بكر «كنا نغزوهم فننتصف منهم وينتصفون منا قبل الإسلام» فتولى قيادة الحرب.. استغفر الله.. قيادة الفتح!

وي؟؟.. حتى إن سلمى زوجته، وحتى فرسه هما كالمثنى أبتا إلا أن تكونا في القادسية من الفاتحين.. تلك كانت زوجة سعد بن المثنى، والفرس كانت تحت أبي محجن في اليوم الأبيض: الفرس فرسي.. والقتال قتال أبي محجن. قالها سعد.. سعد بني أهيب..

ـ خبر أذيع فلم أسمعه.. سمعته فجأة، تلقاه الصديق عبد الله جفري من الرياض.. من مكتب عكاظ حرصاً من هذا المكتب ـ لا يركن إلى إذاعته.. وإنما هو ـ أعني فهد العيسى ـ قد تَلْفَن به.

الخبر عن وفاة الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي هذه الديار ـ الكيان الكبير ـ المملكة العربية السعودية.

كان الخبر مفاجئاً لنا جميعاً. . لا عن إنسان يموت، كلنا صائر إلى ذلك. . لكن موت العلماء هو انتزاع العلم وفزع الدين، العلم لا ينتزع انتزاعاً وإنما يكون الانتزاع له بموت العالم.

لقد ارتج علي أن أتكلم. . برهة استوفي بها هدوءاً. . استرجع فيه ذكر الله بارئ النعم خالق الإنسان. قدر الموت عليه كما أعطاه الحياة.

وأرجعت النفس باسترجاع النفس حتى ذكرت كيف ينزع الرجال إلى الأشياخ يجدون عندهم الراحة في حل معضلة أو في إزالة مشكل فناديت: فناديت باسم الشيخ والغيظ جمرة تذيب دماغ الغيب والعقل ذاهل. وتذكرت دمعة حافظ على الشيخ السلف محمد عبده أرثي بها الشيخ الخلف محمد بن إبراهيم:

سلام على الإسلام بعد محمد سلام على أيامه النضرات

لقد حملوا الفضيلة في الثياب على الآلة الحدباء. . ورجعوا يخافون الرذيلة في الإياب. . من فراق الأكارم الأوفياء.

لقد كان الشيخ من غراس الشيخ، علمه وأوصى به وتفرس له أن يكون من بعد أن يحفظ مكانه يقف على الثغرة التي كان هو فيها. فالشيخ محمد بن إبراهيم هو من غراس الشيخ الكبير عبد الله بن عبد اللطيف. . هو الذي صحت فراسته ليكون هذا البصير المبصر وريثه في الإمامة. . إمامة الدين والفكر والفتوى. . تغمدهم الله برحمته.

كان هيبة تمضي على الأرض. . غرسها الله له فليس هناك ما هو ألزم

لحارس النفرة من الهيبة. فلقد كان قائماً على الأتباع.. يدفع الابتداع لا يشد الحبل لئلا ينقطع.. ولا يتراخى به لئلا تنقطع أخلاق الرجال.. كان مناعاً لكل ما هو شر من قديم أو جديد، لا يتمنع أمام ما هو صالح من طارف وتليد. مبغضاً لإثارة الخلاف غير بعيد عن الألفة. لا يتكلّف في هذا ولا ذاك. وإنما هو قد عرف زمانه وإنسان زمانه فسار بالهوينا لا يشتد ولا يتراخى. لا يتحدث ولا يتزمت.

لست في مقام الإطراء له.. ولست من العارفين لأجيد الرضاء.. وإنما أنا من المحبين.

ـ .. والرجال بناؤون إذا ما كملت أخلاقهم.. هدّامون إذا ما فسدت ضمائرهم!

ولقد جربت هذه الأمة طرازاً من الرجال، وهم الغالبون فيها الأكثرون، كانوا البنائين.. إخلاصاً في ضمائرهم.. صدقاً في إيمانهم.. تبتلاً في أعمالهم.. رهباناً بالليل.. فرساناً بالنهار!

ومضى في حياتها طراز أساء فأصبح اسمه في التاريخ منبوذاً!

وإرسال الحماسة إلى الناس قد يكون في الكلام عن البنائين، والمخلصين خيراً من كلمة عن الآخرين!

هناك رجال لهم مواقف.. تذكرنا بهم لنذكرهم بالثناء ولنتخذ منهم المثل المحتذى!

عاش سهيل بن عمرو في جاهلية، فلما أشرق نور الإسلام كان ألباً عليه.. خطيباً بارعاً يرسل الأذى.. يحارب الإسلام، وأسر في بدر مشركاً، أطلق بالفداء.. فقال عمر يخاطب رسول الله: «دعني يا رسول الله

أنزع ثنية سهيل . . يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً . . !» .

علم البشر، لكن علم النبوة قال: «دعه فلعلّه سيقوم مقاماً تحمده!» .

ولحق الرسول بالرفيق الأعلى فإذا هي الردة وإذا هي الفرقة، وإذا أصوات ترتفع في مكة . . كأنما تريد إعلان الفرقة . . فيقوم سهيل وقد أسلم خطيباً يسكن النفوس . . يدعوها للثبات نبايع أبا بكر، وإذا عمر يتذكر المعجزة فيقول: «الله أكبر» . . أهي بشارة من النبي . . بإسلام هذا الكبير للموقف الكبير . . ؟!

إنها بشارة في دعوة لتكون معجزة:

وفي حنين يرتد الجيش اللجب . . لم تُغن عنه الكثرة، فإذا أبو سفيان يقول: إنها هزيمة لا يردها إلا البحر وإذا صفوان بن أمية ـ ولما يسلم بعد! ـ يرد على أبي سفيان . . يقول له:

ـ «أتبشرني بظهور الأعراب؟ . . لأن يربني رجل من قريش خير من أن يربني رجل من هوازن! . . » .

أخلاق عالية ليست من العصبية، ولكنها من الحصافة . . هكذا يفعل كبار الرجال حتى لو قتل آباؤهم في بدر أو قتل أعمامهم في أُحد! . .

سهيل بن عمرو يعظم في الإسلام . . لا يسأل عن موقف له في الحديبية، ولا عن مواقف أخرى لأنه الكبير، هداه إلى الخير عقل . . حتى أصبح أحد شهدائنا في اليرموك . . رضي الله تعالى عنه، وصفوان يكبر ويكبر حتى يكون الثقل في مكة . . كأنما هو شيخها!

مثلان . . تضر بهما لإيمان الرجال . . لا تأخذهما الأحنة ينتقمون لآلام ذاتهم، وإنما هم ينتصرون بذات أمتهم.

وهناك مثل ضربه التاريخ العربي وقع على الأدنى من حدود نجد، والأدنى من حدود العراق في مدينة الزبير.. كان شيخها إبراهيم العبد الله مستقلاً فيها يحوطها طوال أيام الحرب العالمية الأولى.. فلما قام حاكماً في العراق راوده «سير بير سيكوكسي» أن ينفصل بمدينة الزبير عن العراق كيانه، فأباها الرجل الكبير.. أي إنه رفض أن يكون أميراً على قرية ليكون مخلصاً لكيان لا يرضى أن يتمزق.

ذرية بعضها من بعض يكثر فيها الصالحون، وينبذ منها الطالحون من قوة الصهر بقوة الإيمان.. لتقوى أمة عاشت على الدنيا منتصرة على الباطل.. ناصرة للحق.. ناشرة للهداية!!

● مارتن لوثر كنج.. قتله رجل أبيض.. الرجل الأبيض قتل إنساناً.. أماً «مارتن لوثر» فقد مات ليقتل الحقد.. الحقد أراد «لوثر كنج» ألا يكون في البشر لئلاّ يكون في شعب الولايات المتحدة!.. ولكنه ما استطاع.. فقد قتله الحقد ليكون الحقد مقتولاً به.. في اللحظة التي أصيب فيها! إنسان ما كان ينبغي أن يقتل لكنه كصاحب رأي.. داعية سلام.. كان لا بد من أن يقتل! كلمات ثلاث سمعتها من الكلمات الكثيرات التي صكت مسامع الدنيا في رثائه... كلمة انديرا غاندي.. كلمة كارمايكل.. كلمة جاكلين كيندي. هذه الكلمات الثلاث لها طعم ومذاق، أحترمها.. حفظتها.. ولكن سأدلي بفهمي وسأؤيد ما أراه جديراً بأن يكون النتيجة أو الحقيقة لهذا الدم المراق.

ابنة نهرو قالت.. إن في قتل لوثر النكسة.. تحول دون الوصول إلى الضوء! كلمة مجنحة، ومليحة. ليست بالغريبة على أنديرا.. بل هي من طبيعتها لأنها عاشت في حضن أب تعلم من أستاذه غاندي اللاعنف!،

لكني لست معها في النتيجة عن الضوء. . إني مع كلمة «كارمايكل». . قال. . الآن قد بدأ الضوء!. . نعم لقد بدأ الضوء. . لقد شدت أعصاب الشعب الأمريكي على الكارثة. . ليست هي قتل مارتن، وإنما هو القتال في الشعب الأمريكي كله. . أبيض قتل أسود. . السود يقتلون البيض!

إن الزعيم الزنجي كان خصيماً في الاتجاه لمارتن لوثر. . لوثر كان يسير على اللا عنف. . وكارمايكل يريد العنف. وقد انفتح له باب العنف، ولا أحسبه يتخطاه. العنف المباشر، وإنما يريد أن يتوطأه تهديداً لتستفيق نفوس البيض من أحقادها. . وجاكلين كيندي. . وهي أم أمريكية لا تحب الفناء لأبنائها، ما أرادت أن تسير بكلمة قتل مثل أنديرا غاندي. وإنما أرادت أن تفسر الكلمة لكارمايكل. . كأنما هي وهو في خط واحد وإنما الفرق في الأسلوب الأبيض والأسود. .

ـ قالت جاكلين. . إن الشعوب التي تعيش على السيف. . أي تبني حياتها ومجدها بالسيف سوف تفنى بالسيف!

أليست هذه كلمة الزعيم الزنجي بأسلوب محذر لا بأسلوب يتوعد. . ليس من همي أن أرثي غاندي الزنوج ففي نفسي منه شيء. . كان يحارب العنف. ولكنه زار إسرائيل. وهي الطغمة التي تمارس أقوى أنواع العنف، لكنه على كل حال إنسان ما كان ينبغي أن يقتل. . لكي ينتصر كان ينبغي أن يقتل.

ـ في كتاب «إعلام الناس عن أخبار بني العباس» حكاية السقاء والأصمعي. . وفي جريدة البلاد أمس خبر قرأه كل الناس. . هو ذلك الإعلان في الصفحة الأخيرة لا المتأخرة. . ولا أسميها الثامنة. . فالثامنة صفحة في «عكاظ».

حكاية إعلام الناس ـ قالوا: إن الأصمعي إمامنا الموسوعة أحد حفظة الذكر ولغة الذكر يرحمه الله.. سمع سقاء يحمل قربة ـ يظهر أن القربة كانت شعاري ـ وأنتم يا جيل اليوم لا تعرفون القربة الشعاري.. قد أضاعها التنك أولاً وأضاعتها المواسير ثانياً وأضاعها ضياع المهن اليدوية.. كل شيء «براني» حتى القرب والمراوح والزنابيل أما «الجواني» فذهب.. أضاعه أهله.

كان السقاء يحمل هذه القربة.. وينشد هذا البيت:

وأكرم نفسي إنني لو أهنتها وحقك لم تكرم على أحد بعدي

ويظهر أن السقاء الشاعر كان ذوّاق أدب.. عطشان كلمة.. ريان معانٍ، وسمعه الأصمعي وهو ينشد فأقبل عليه.. قائلاً سائلاً: يا هذا.. أي كرامة لك وأنت تحمل هذه القربة؟!

فأسرعت المعاني على السقّاء الشاعر يقول للأصمعي: لقد أكرمتها عن سؤال مثلك.. وسكت الأصمعي ليرويها.. يلقن الدروس لسامعيه والرواة بعده والقارئين له.

ولعلّ صاحبنا الفتى المعلن في البلاد بما نصه "بكالوريوس إدارة أعمال من الولايات المتحدة الأمريكية يطلب عملاً لفترة الإجازة الصيفية تلفون "٣٢٦٣" لعلّه يُحِبّ أن يكرم نفسه.. جاء في العطلة يشم تراب أرضه.. يضمه حنان أم وأب فلم يرد أن "يتلقح" في البيت.. أو "يتصرمع" في طريق المدينة.. أو يفعل كما يفعل الفتيان إياهم فأحب أن يشغل فراغه بعمل. قد لا يكون في حاجة إلى الأجر.. وأنا باسمه ولا أعرفه أرفض

أي عون له يأخذه وهو قعيدة البيت . . فوهم كبير أن هذا الفتى طالب عون . . إنه طالب عمل .

الذين تأخذهم هزة من النخوة . . متأثرين بالترف الفكري بهذا الشاب والوفرة في قوة أعصابه ينبغي لهم أن يفتحوا له عيونهم وآذانهم وقلوبهم لإيجاد المجال . . مجال العمل لهذا وأمثاله . . كفانا مثلجات . . كفانا سلع استهلاكية . . المجال في إحياء الصناعات اليدوية . . في توظيف رأس المال . . في صناعات ما أغنى التراب مجالاً لها . . مادة خام .

تحيتي لهذا الفتى . . ومعذرة لعكاظ . . تنشر إعلانه . . دون أن تدفع قيمة الإعلان . . لكن المثوبة لقاء الدعوة الخيرة شيء لا يقدر بثمن .

● القاضي عياض يرحمه الله أورد في ترجمته للإمام الشافعي محمد ابن إدريس المطلبي الهاشمي . . ملحاً ومواقف تخيرت منها ثلاثة . .

ـ لما قدم الشافعي على الزعفراني نزل عليه، فكان الزعفراني يكتب للجارية ما يصلح من الألوان كل يوم لطعامه. فدعا الشافعي يوماً الجارية، ونظر في الكتاب، فزاد بخطه لوناً اشتهاه، فلما حضر الطعام أنكر الزعفراني اللون الذي لم يأمر به، فسأل الجارية فأخبرته، فلما نظر في الرقعة وجده بخط الشافعي، أعتق الجارية فرحاً بذلك . . أيهما الكريم . . أحسب أن الشافعي أكرم. لم يأنف أن يأكل من بيت صاحبه ما يشتهي، لأنه قادر أن يعطي صاحبه ما يشتهي، ثم هو الذي أعتق الجارية بما صنع وهي أعتقت نفسها بما صنعت . . تلك كرامة المعاني أرجحها على كرامة المادة!!

* * *

● وروى أن الشافعي كان عطيراً ـ يعني يتعطر حباً في الطيب ـ وكان غلامه يأتيه كل يوم بغالية يمسح بها الأسطوانة التي كان يجلس إليها. وكان

إلى جانبه رجل متزهد، فعمد إلى عذرة ـ الغائط ـ فجعلها في شارب نفسه ـ يعني دهن شاربه وغاصه بالغائط ـ مضادة لما يفعل ويفعل غلام الشافعي بالأسطوانة. وكان يسمى الشافعي البطال..

فلما شم الشافعي الرائحة ـ يعني كانت أصص خراء ـ قال: فتشوا نعالكم، ثم قال: ليشم بعضكم بعضاً، فوجدوا ذلك بالرجل. فقال الشافعي: ما حملك على ما فعلت؟

ـ قال: رأيت تجهرك فأردت أن أتواضع لله!!

قال الشافعي: اذهبوا به إلى صاحب الشرطة ليعقله حتى نتصرف..

فلمّا خرج الشافعي أمر به فضربه ثلاثين درة وقال له: هذا أراه لجهلك، ثم أربعين، وقال له: هذا لتخطيك المسجد بالعذرة..

* * *

ـ قال الشافعي: من ولي القضاء ولم يفتقر فهو سارق، ومن حفظ القرآن نبل قدره، ومن تفقّه عظمت قيمته، ومن حفظ الحديث قويت حجته، ومن حفظ العربية والشعر رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه..

ملحوظة:

نقلاً عن «ترتيب المعارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك" ج ـ ٢ ـ تأليف القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي ـ نسبة إلى سبتة ـ جبل طارق ـ المطبوع في المملكة المغربية.

ـ قالوا: إن مالكاً بن أنس وصف أبا حنيفة بهذه الكلمة:

رأيت رجلاً لو قال لك إن هذه السارية ذهب لقام بحجته!.

وقد أخذها المنفلوطي فوصف "فارس نمر" هذا الوصف نفسه..

كاتب لو قال لك إن هذه السارية ذهب لقام بحجته!.

ويباح لنا أن نقلّد هؤلاء الأكابر فأقول في مشعل السديري في يومياته، وفي دفاعه عن شاكر النابلسي: إنه قال:

ـ قال لنا هذه السارية ذهب فقام بحجته!!

ـ في عهد التدوين يضيع الكثير. وفي عهد المطبعة والكهرباء ودور النشر يضيع الأكثر. أما في عهد الرواية والسماع فقد حفظت الرواية ودوّن السامعون في نواديهم الأكثر والأجود والأصلح.

ويظهر أن الوفرة تسبب الاتكال فالتواكل. وإن الفاقة تحض على الجد والجهد والحفظ والصون.

فكم من خبر طريف ضاع، وكم من ملحة ذهبت تذوب في إهمال، وكانت لا تذوب من نسيان.

وقرأت في الأغاني في أخبار المخزومي عمر بن أبي ربيعة. تحت عنوان «المفاضلة بين عمر بن أبي ربيعة وقيس الرقيات» ص ١١٣ ـ ج ـ ١ ـ طبعة التراث!

أخبرني الحزمي، قال: حدثنا الزبير.. قال: حدثني محمد بن عبد الله البكري وغيره عن عبد الجبار بن سعيد المساحقي عن أبيه.. قال: دخلت مسجد رسول الله ﷺ مع نوفل بن مساحق.. فإنه لمعتمد على يدي، إذ مررنا بسعيد بن المسيب في مجلسه وحوله جلساؤه.. فسلمنا عليه. فرد علينا.. ثم قال لنوفل: يا أبا سعيد، من أشعر؟ صاحبكم أم صاحبنا؟

يريد: عبد الله بن قيس، أو عمر بن أبي ربيعة:

فقال نوفل: حين يقولان ماذا يا محمد؟.. قال حين يقول صاحبنا:

خليليَّ ما بال المطايا كأنما نراها على الأدبار بالقوم تنكص
وقد قطفت أعناقهن صبابة فأنفسنا مما يلاقين شخص
وقد أتعب الحادي سراهن وانتحى بهن فما يألو عجول مقلص
يزدن بنا قرباً فيزداد شوقنا إذا زاد طول العهد والبعد ينقص

ـ ويقول صاحبك: ما شئت!!

ـ فقال نوفل: صاحبكم أشعر في الغزل، وصاحبنا أكثر أفانين شعر!!

ـ فقال سعيد: صدقت.. فلما انقضى ما بينهما من ذكر الشعر، جعل سعيد يستغفر الله ويعد بيده حتى وفى مائة.

ـ فقال البكري في حديثه عن عبد الجبار.. قال مسلم: فلما انصرفنا، قلت لنوفل: أتراه أستغفر الله من إنشاد الشعر في مسجد رسول الله ﷺ؟

ـ فقال: كلا! هو كثير الإنشاد والاستشهاد للشعر فيه!!

ولكن أحسب ذلك للفخر بصاحبه..

فهذا الإمام الجليل، وبقية الناس، قد أنشد الشعر وحكم فيه.

● كنت أقرأ في تاريخ بغداد ترجمة لإمام المسلمين قاطبة "محمد بن إسماعيل البخاري". فوقفت عند هذا الخبر: كان الإمام يملي "يكتب" يملأ المحبرة تلو المحبرة، يبري القلم تلو القلم، والسامعون، والناقلون يأخذون عنه.. يعجبون كيف يتحمل هذا الرجل ما يصنع في رواية الحديث، وصون السنة، وقتل الكذب على رسول الله ﷺ!

ـ قال أحد تلامذته: لقد رأيته وقد أجهد نفسه. . ترك المحبرة، والقلم، والتحدث، واستلقى كأنما هو يستريح، فسألته: لماذا. . لم تكن هذه عادتك؟!

ـ قال: يا بني. . دعنا نستريح قليلاً، فلعلّ العدو يغامصنا ـ يشرع بعدوان علينا ـ فيجدنا وقد أعطينا أجسادنا الراحة لعلّنا نجد دفعاً في مقاومته!

عجيب!. . هذا الإنسان الذي شغل عمره بالكلمة الصادقة يقولها ويرويها يأبى إلا وأن يعمل العمل الصادق؟!. يصون به الصدق الذي يتبع. . فهو لا يترك العمل وإن شغل بالعلم. . لقد كان عمله في طلب الراحة صناعة الرباط كأنما هو في كل ثغر مسلم. . في كل أرض مسلمة. . في كل سجدة مسلمة. . يحافظ على أن يكون مرابطاً ليجاهد في سبيلها لحمايتها. . لا يكفي الصدق في القول، بعض حماية الصدق في العمل!

لو سأل الناس كلهم: هل يكلف محمد بن إسماعيل البخاري فوق ما يعمل في صيانة السنة أن يحمل السلاح ليحارب؟!

لو سئل الناس كلهم. . لقالوا: كلنا نحمله دون أن يحمله البخاري، لكن الإمام يعرف أن هؤلاء الذين يحبونه أن يستريح لا يحملون عنه السؤال في اليوم الآخر. . إنه يريد أن يحتمي من هذا السؤال. . يريد أن يزيد الأجر. . يريد أكثر من ذلك أن يعلم الناس معنى الرباط لمواجهة العدو إذا ما غزا ثغراً مسلماً!

لقد أعطتني سيرته هذا الخبر. . كما أعطته لغيري ممن هم أدرى ولكني أعطيه للناس أمانة الحرج أن أكتمها في وقت نحن في أشد الحاجة إلى أن نكون كلنا المرابطين. . فإن الثغور المسلمة قد احتلت، والعدو لم

يشرع في الغزو، وإنما غزا واحتل، وانتهك، وطغى.

هكذا الإمام البخاري كان جندياً يرابط في كل أرض سكنها.. إنه يحمل السلاح لحماية العلم.. لحماية الدين!

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

* * *

إني لأغمض عيني ثم أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا!

رجل واحد.. هذا قليل، لا بل هو كثير!!

هنا يتحكم الكيف لا الكم، والأمثلة كثيرة على ما يفعله رجل واحد أودع الله فيه قوة فائقة من قوة غير منظورة.

لا أريد أن أتحدث عن مثل من الشرق أو الغرب الآن.. من الصالحين والطالحين الذين آثروا في هذه الدنيا بعض ما أعطوا من الخير، أو كل ما زرعوا كثيراً من الشر.

المثال نضربه من تاريخنا: كان المثنى بن حارثة الشيباني رجلاً تمرس الحرب يغير ولا يمسكه عدو كأنما هو طليعة الفداء العربي الأولى، أصبحت بفقه أبي بكر قيادة فاتحة تستخلص الأرض العربية. وتنشر الهداية المسلمة. هذا الرجل الواحد المثنى بن حارثة طلب من أبي بكر المدد، فأرسل إليه رجلاً واحداً. قال عمر: أيستمدك المثنى فتمده برجل واحد؟!.. فأجابه أبو بكر: بالقوة غير المنظورة فيه.. الناظرة إلى كل القوة في القعقاع بن عمرو.. قال أبو بكر: إن جيشاً فيه هذا لا يغلب!

فراسة الصديق غلبت فراسة المحدث عمر.. كانت خبراً ثم صارت

كرامة فقد قاد القعقاع مشاركة النصر في اليرموك، ومعركة كل النصر في القادسية. . قال في الرجل الواحد هذا القعقاع قائده سعد بن أبي وقاص يوم قاد ليلة الهرير ولا يلقى السيف من يده ليل نهار «اللَّهم لم أمره، فأيده بروح من عندك» هذا خبر ينكر القائد العام ما فعل قائد الكتيبة لتكون الكرامة لسعد انتصار القعقاع.

تذكرت هذين المثلين عن واحدنا الأول المثنى. . عن واحدنا الثاني القعقاع. . لأني قد رأيت الواحد في الثورة الفلسطينية: أبو عمار ياسر عرفات، وي! مالي غفلت. . كيف اجتمعت له هذه الأسماء الثلاثة؟. . عمار. . ياسر. . عرفات.

عمار كان صاحب قوة غير منظورة. . كان أحد المعذبين في الأرض، من أول السابقين حمل العذاب لأنه سيحمل الهداية لبنات في بناء المسجد، تراباً ثقيلاً في حفر الخندق، حملاً أثقل في صفين، حمله ليقتل، ولكنه حمله غيره حينما ظهرت بقتله الواضحة!. . ياسر: أول شهدائنا ـ أبو عمار!. . كأنما الاسم يلتقي بالاسم لتكون القوة غير المنظورة في قيادة فتح والعاصفة، ثم لتكون الساحة في فلسطين تكسب شعاعها من الساحة في عرفات. . عرفات موقف الحج، مدرسة تعلم الشهادة. . عرفات الساحة في فلسطين موطن الشهادة. . في عرفات ألسنة تعرب عن إيمانها في الساحة، في فلسطين قلوب وأيد وألسنة تعمل لإيمانها. . الإيمان في فلسطين ألاَّ يترك الفدائي سلاحه فإن لم يقتله عدو فسيقتله قاتل غدراً النكول والكفر ما قال عمار. . ما استطاع أبو جهل قتله ولكن أبا جهل نال ياسراً، وسمية. . ذلك أن عماراً كان يؤمن بعقل استطاع أن ينجو من براثن الختل.

أبو عمار الفدائي بالقوة المنظورة يتمتع بالقوة الناظرة. . عاطفة لا تسأل

أن يسيل الدم، وعقل يريد أن يصون الدم لا يبذل إلا في سبيله.. لا يهدر من قبيلة. تلك حصافة الزعامة تجعل الرجل الواحد كل الرجال. أبو عمار يمسك القيادة يقول: «ألف بندقية تزيدها نفعاً بندقية واحدة» من هنا اكتسبت أن أقول عن الرجل الواحد بعض ما أعرف من منال كل ما لبسني من هذا الرجل في زعيم الفداء أبو عمار ياسر عرفات!!

ـ لم أكن أعلم عن خبر وفاته، لم أقرأه في جريدة.. وعجيب أن يموت علامة.. أستاذ كبير تنشر له المجلات الكبرى بحوثه وتعرفه المجامع ثم لا أرى حتى الخبر عن وفاته.. ما عرفت ذلك إلا من رجل كبير له وزنه يعتذر للدكتور فاضل قباني لأنه لا يعلم. وأخذ يواسيه بعبارات التعزية لفقده والده الدكتور خيري القباني رحمه الله.

عرفته أول ما عرفته حينما قرأت له في مجلات كبرى بحثه عن الخط العربي.. مصوراً الحروف التي يرى استعمالها خروجاً من الالتباس.. تتضح الكلمة دون سباق ولا سياق.. وكان أيامها البحث حاراً يقظاً أمام المجندين والرافضين والمناصرين والمقبحين.

وقرأ صديقي فهمي الخشابي يرحمه الله طرفاً من البحث فقال: إذا ذهبت إلى مكة يمكنك أن ترى الدكتور خيري القباني.. إنه سيبهرك بعلمه في التاريخ واللغة والأدب، ولم أذهب إلى مكة في تلك الأيام ولكني رأيت الدكتور خيري في المدينة ثم طال اتصالي به في مكة وفي الطائف.. فكان متعة لفكري.. موسوعة.. ليست المصندقة في الصناديق وإنما هي المتحركة إذا ما أثارها طالب علم يسأل.. وكنا جماعة الأصدقاء.. نتمنى أن يكون الدكتور خيري أستاذاً في جامعة.. لا طبيباً في مستشفى.. فهو من الأطباء الذين فتح الطب عواطفهم كعلم بالإنسان ليكونوا بالإنسانية..

فالمبضع والروشتة علاج الإنسان. . أما الثقافة والأدب فوقاية الإنسانية.

لقد فتح الطب عيون السابقين والمعاصرين للدكتور خيري على أمراض الإنسانية فأخذوا يعالجونها بتطبيب فكرها. دوهامل، سومرست موم، ديكنز حافظ عفيفي، إبراهيم ناجي، مصطفى محمود، يوسف إدريس.

وكبرت السن بالدكتور خيري فلم يعجزه فكره وإن ضعفت يداه. . هكذا عمل اليد قصير اليد. . أما عمل الفكر فرحب الامتداد.

يرحم الله الدكتور خيري لم يستوحش من غيابه عن الربوة ذات القرار فقد استعاض بالأنس بهذه الربوة على السراة اسمها الطائف. . كأنما أنا وهو نتعشق الأسطورة في الخبر تقول:

إن الطائف جنة من جنان الشام، قطعت منها، حملها الملك على جناحيه يضعها بين الشفا والهدا. . على سطح السراة.

يرحم الله الدكتور خيري وعزائي إلى أبنائه وذويه. . وأخص بالعزاء صديقه أستاذنا الحبيب الصديق الدكتور بشير الرومي ـ أمد الله في حياته.

● لماذا لم يقتلوه؟!

كان في إمكانهم أن يصدروا عليه حكماً بالقتل بدل السجن المؤبد في محكمة العدالة البشرية التي صنعت في نورمبرج!

ماذا يضيرهم لو قتلوا «رودلف هيس» كما قتلوا «جورنج»؟!

تلك قصة ليس فيها عمد من الذين صنعوا هذه المحكمة، وليس فيها وازع التاريخ الألماني. . يأبى هذا الوازع إلا أن يبقى مثلاً حياً مكتوباً عليه: وما زال الإذلال مرسوماً بالبقاء على ألمانيا المنهزمة. إن حياة هيس في السجن هي حياة المذلة المرهقة. . كان بقاؤه حياً إشارة بإصبع منه تشير

إلى هتلر، وجوبلز المنتحرين: لقد أضعتما كل تاريخ ألمانيا بهذا الانتحار. كانت إضاعة فيها شرف لأنكما قتلتما نفسيكما، لو قتلوني لكنت أقل شرفاً منكم لكن سرمدية العذاب عليَّ هي في الوقت نفسه سرمدية اللعنة على الجبارين قاتلين ومقتولين!.. كأنما أنا الشاخص تنتشر اللعنة من شخوصي حباً.

إن الذين حرصوا على الحياة فوقفوا أمام هذه المحكمة قتلوا بطريقة غير شجاعة.. هم فقدوها لأنهم لم ينتحروا، والذين قتلوهم فقدوها لأنهم خافوا حياة المنهزمين.

ليس هناك جبن أشد من خوف المنتصر من المنهزم.. شعوره بالباطل يفقده لذة النصر. الحكم عليه بالظلم لعنة سرمدية.. أصبحت أنا المثل لها. لأسباب تافهة أبقوا على حياتي. لم يقتلوني أول الأمر كمعتمد على أرضهم.. افترضوا أني لاجئ، وافترضوا أن مشروعي للسلام بيننا وبينهم أنه صالح للاستعمال في وقت ما. وحينما لم يصلح افترضوا أني أسير.. أرادوا الإبقاء علي لذلك.. لعلّهم يستأهلون مدحة مؤرخ يثني على أنهم لم يقتلوا أسيراً.

أيقتلون الملايين، ويذلون الشعوب ثم يرغبون من مادح أن يرسل الثناء عليهم لأنهم لم يقتلوا رودلف هيس؟!

من هنا جاء الوازع الألماني من تاريخ هذا الشعب يمسك على حياتي ليعلم شعبي أنه مازال يعيش في الهزيمة. لست المعذب بألم الجسد ولا بألم النفس، وإنما أنا أصنع التعذيب لهؤلاء الذين قتلوا ألمانيا في شخص المنتحرين.. المقتولين والسجناء من أجل لعبة يهودية!

هذه اللعبة أصبحوا يمارسونها في الشعب العربي، ويستمرؤونها لأنهم

لا يتوقعون أن تصنع محكمة مثل محكمة نوربرج . . تصنع الانتحار والقتل وعذاب السجن . . لكن الشعب الألماني لن يموت رغم الهزيمة . . لكن الشعب العربي لن يموت رغم الطغيان!! .

● . . ومات أبو رجاء . . أستاذنا أحمد حسن الزيات . .

يرحمك الله فقد أمتناك الموتتين . . ميتة بالخبر الخاطئ كان دافعها أن نسمع عنك، لنُسمع عنك ـ بضم النون ـ وفاء الأستاذ . . فكأنما أراد الله في الموتة الأولى بالخبر الخاطئ أن تعرف قدرك عند قارئيك. وأنت بكبرياء الحي كرجل، وبفرحة النفس كإنسان قلتها كلمة . . رأيت كلمات الرثاء . . إنه لخطأ كبير أن يذاع موت إنسان لم يمت، ولكنه الخطأ المحبب الجميل . . شعرت به كإنسان أن لك في القلوب عيوناً تدمع . ترثيك . وكنت أحد الكاتبين . . ففرحت بعدها الفرحتين . . فرحة الحياة لك، وفرحة الوفاء مني . . الوفاء . . أتت من أكثر الناس تفقداً له، وفقداناً حتى لا أحسبك وقد مت الميتة الثانية يصدق الخبر عنها . . لا نسمعه إلا أخيراً . . كنت تنشد وأنت على فراش الوداع بيتي «النواسي»:

وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

الدنيا ليست هي العدو، فما أرادها أبو نواس إلا نجزاً . . مكاناً للمكانيين فيها . . تجرعت منهم وفاء ولا وفاء فيه. أعطيتهم من وجدانك تعلمهم اللسان . . اللسان المبين، فلم يعطك الأكثرون منهم شيئاً مما في أيديهم، ولا الشيء من قدرتهم، ولا المشاء من ألسنتهم.

وأردت نفسك في الموتة الثانية أن تستريح من عذاب القلم . . كنت

تسير به مالكاً، ولا تسير ـ بتشديد الياء ـ من أحد مملوكاً به.

مملوكاً به! فأغلقت الرسالة، وحطمت القلم.. حطمت القلم حتى لو كتبت به! فليس ما كتبه الزيات بالتسيير هو الزيات باليسر!

لقد عابوا على المنفلوطي ـ فاتح الطريق أمامك ـ أن يكتب بأسلوب هذه البادية، فجئت أنت ترسخ قدم البيان ليكون أكثر من كاتب عرباً أعرابيين، ولقد أراد صديقك طه حسين أن يكون الوسيط بين نهج لطفي السيد ونهجك.. خضوعاً لرأي لطفي، أو تخضيعاً لمن حوله.. فإذا هو يكتب الشيء الكثير عن نهجك.. إخضاعاً منك له.. من عمل العاطفة بينكما.. يرسخها الوفاء، ولا يمسخها عدم الوفاء!

الذين عابوك يحسبون أن في قدرتهم قصر لغة الضاد على أسلوب غير مبين.. فإذا هم بالمران والممارسة، والمدارسة تقصرهم اللغة الشاعرة على أن يكونوا على الطريق.. لا فرق بين نهجك ونهجهم إلا في بعض الشكول والألوان!

أنت اليوم من موتانا، وقد أمرنا أن نذكر محاسن موتان.

ولقد أحسنت إلينا كثيراً.. كنت تحب لغة القرآن.. تنافح عنها.. تكتب بيانك جاحظياً كصنوك الرافعي.. وحتى الذين نازعوك لم يكتبوا أسلوبهم جاحظياً فأرغمهم العلم أن يكتبوا مقفعياً. وعلى نهج ذلك الآخر «أبي حيان».. كلكم نبع الدوحة الواحدة: لغتنا الشاعرة.. الدوحة الواحدة التي فقد كنهها أحد إخوان الصفاء «عزيز أباظة» حين قال ينافح عن اللغة: إن التطوير غير التدمير.. ولقد كنت مثله.. أو هو كان مثلك، تريدان التغيير للتغيير بالتغيير.. ولا تريدانه بالغرور للتغرير.. لقد أبت وعلى سنان

أقلام مثلك هذه اللغة التي تنتصر فيموج بيانها كما أبت بك وبأمثالك أن تتكسر فيموج لسان الكاتبين بها . . فاللَّهم زد في حسناته لتمحو سيئاته فما هو إلا بشر . . لقاء ما أحسن إلينا إذ علمنا . . لقاء ما أحسن إلى اللسان العربي المبين!!

شعر وأغان وأمثال

شعر وأغان وأمثال

● ونقلاً عن الأغاني.. قالوا:

مات كثير «عزة» وعكرمة مولى ابن عباس في يوم واحد، فاجتمعت قريش في جنازة كثير. ولم يوجد لعكرمة من يحمله!

اليوم الواحد كان في سنة خمس ومائة.

هكذا ولع الناس بمن يدغدغ عواطفهم.. وهكذا ترك الناس لفقيه إمام يعلمهم.. يربي مداركهم وعقولهم!

حتى قالوا: مات اليوم أفقه الناس، وأشعر الناس.

ـ وقالوا: مات عكرمة وكثير عزة في يوم واحد، فأخرجت جنازتاهما، فما علمت تخلف امرأة بالمدينة ولا رجل عن جنازتيهما.

ـ قال: وغلب النساء على جنازة كثير يبكينه، ويذكرن عزة في ندبتهن له.

ـ فقال أبو جعفر محمد بن علي: «يعني محمد الباقر»: افرجوا لي عن جنازة كثير لأرفعها.. فجعلنا ندفع عنها النساء، وجعل يضربهن محمد بن علي «علي زين العابدين» بكمه.

ـ ويقول: تنحين يا صواحبات يوسف.. فانتدبت له امرأة منهن

فقالت: يا بن رسول الله لقد صدقت: إنا لصواحبات يوسف وقد كنا خيراً منكم له!

ـ فقال أبو جعفر «جعفر الصادق» لبعض مواليه: احتفظ بها حتى تجيئني بها إذا انصرفنا. . فلما انصرف أتى بتلك المرأة كأنها شرارة نار!

ـ فقال لها محمد بن علي: أنت القائلة أنكن ليوسف خير منا؟

ـ قالت: نعم! أتؤمنني غضبك يا بن رسول الله؟

ـ قال: أنت آمنة من غضبي فأبيني. . قالت: نحن يا بن رسول الله دعوناه إلى اللذات من المطعم والمشرب والتمتع، والتنعم، وأنتم معاشر الرجال ألقيتموه في الجب، وبعتموه بأبخس الأثمان، وحبستموه في السجن، فأينا كان عليه أحنى وبه أرأف؟

ـ فقال محمد: لله درك! ولن تغلب امرأة إلا غلبت. . ثم قال لها: ألك بعل؟ قالت: لي من الرجال من أنا بعله!

ـ فقال أبو جعفر: صدقت. . مثلك من تملك بعلها ولا يملكها. .

فلما انصرفت قال رجل من القوم: هذه زينب بنت معيقيب. . أو هو معيقيب. .

حلم الإمام. . وترف في البيان. . ورجعة إلى جواب في ظاهر اللفظ. . وإلا فالتحية جاءت من يوسف بما صنع الرجال. . وبما امتنع عنه من عطاء النساء.

كلمة طريفة ليس فيها فرض الحقيقة. . وإنما منها افتراض المران لصناعة الكلام.

ـ المعري شاعرنا البصير المتبصر. . لا أعرف ـ وهو لم ير نجماً

واحداً ـ كيف ملأ شعره بالكلام عن النجوم؟!.. لعلّه قد اعتصف نفسه بعاصفة حجبت عنه النسمات فاشتهى أن ينجم.. لا بطريقة المنجمين. وإنما بطريقة عشاق النجمة!..

المعري أحسبه عاشق نجمة.. كأنما كان يجري وراء الزهرة.. يطرد عنه زحل!.. لكنه لم يستطع، فقال:

وقال السهى للشمس أنت ضئيلة وقال الدجى للصبح لونك حائل

أعمى ويرى السهى.. نجم صغير لا يراه المبصرون.. تمهل قليلاً، بعض المفتحة عيونهم كما يقول المتنبي لا يرون الشمس!.. لا يعرفون عنها أنها نجم.. لكن لأنه يحرق يهربون منه!

كثير هي النجمات التي تحرق.. «بس بعضها يحرق على الناعم»!!..

وقال:

لا تطلبن بآلة لك رتبة قلم البليغ بأي حظ مغزل
سكن السماكين كأن كلاهما هذا له رمح وهذا أعزل!

كم منا نحن المبصرين يعرف السماكين؟!.. دعونا من معرفة الرؤية، ودعونا من معرفة العلم.. أريد أن تعطوني معرفة الوجدان.. يناغي النجم.. هذا الزينة في السماء!

القمر أصبح وقد «تبحلقت» عيناه يهرب منه الحالمون.. لكن النجمة ساهية غير لاهية.. وإنها آمرة ناهية تسمع منها حلو اللاغية.. تشتم منها في وهدة الليل شذى الفاغية!.. حلوة هذه النجمة عشقها حتى العميان!!

ليس ضرورياً أن أكون أنا الأعمى، فما زلت والحمد لله مبحلق

العينين . . لكني حينما أرى بأذني، وأسمع التعابير بعيني، وأتعلم الوجدان من الوجدان لا يعنيني أن أكون في عماية عنها لأني في صحوة منها . . «بس يا ليت ما توريك النجوم في الظهر»!!

ويظهر أن القاضي عياض رحمه الله لم يلتفت إلى القمر إلا أنه ذكرى لها . . فهي في نظره أجمل من القمر! . . قال:

رأت قمر السماء فذكرتني ليالي وصلها بالرقمتين
كلانا ناظر قمراً ولكن رأيت بعينها ورأت بعيني!

على فكرة . . القاضي عياض الإمام لم ير الرقمتين. لكنه حن إليهما حنين العلم، والمعرفة!

- «يا قمرنا يا مليح شد حصانك واستريح . .».

ولا أدري بما أجاب القمر، فالذين كانوا يسمعون همسات الأقمار ذهبوا . .

والذين يناغون القمر شحوا بالخبر عنهم . . أين هم؟ ما لهم؟ هل تناولتهم الفزعة من الذين زعموا أنهم قد كشفوا القمر؟!

هم كشفوا. وما كسفوا . . البديل لا يصلح إلا «يدك» «واستبن» يعني تصبيرة، تسلية . . لقد جربوا حينما هانت عليهم الكلمة التي قالوا، أو يقولون. كأنهم في مكان الشموخ من المتنبي! وما دروا أن شمخة المتنبي ليست في الحب، حب القمر . . وإنما هو كان عتاباً للصداقة مع الشمس. كان صديقاً للسيف والقلم والقرطاس والشمس . . فما رأى القمر . .

كانت «خولة» هي القمر . . ولكن المتنبي صادق الشمس بديلاً أو دليلاً فما ظفر إلا بهذا يسير في دنياه الشاعرة به.

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون همو

كلام فخم لجرسه رنين، وينفح فخراً، ولكن ليس فيه أنين الحنين. وإنما فيه رنة الذي خسر البديل.

ولكنه لا ينفع عتباً ولا وعيداً.. فعاشق القمر لا يتوعده، هكذا قالوا: «لنا كهنة الليل، سدنة الحب، سمار القمر، الذين لا يتبدلون، ولا يستبدلون».

حينما يصبح الوعيد لفظة بين جبين، يسمج حتى الصدى والندى والمكان والليل والسكون.

الصلة في هدأة من ظلمة نيرة في ليلة مقمرة، همس، مناغاة، صدى مناجاة يعني: السكون، في حركة الشعلة التي تسعرت في قلبين.. السكون يتحرك. وحركته تسكن بقدر يوقته الوميض المرئي لهما. المحجبون عن غيرهما، فإذا نفر نافرهما بكلمة أخرى ذات موضوع على غير موضوع الوميض.. الحب فإن السماجة تصبح هي الحركة لا سكون فيها، يسقط الوميض، يذهب النور، في ظلمة دامسة عليها «برجكتور» يحدد أبعاد البعاد طويلة المدى.. الوعيد، والبديل، وهز الأكتاف غشاوة أرسلها وهج لم يحبس بعداد خطاب القمر.. أسلوب ذهب مع أهله، وبقي أسلوب فاضح كعملية الكشف بسفن الفضاء.

- «يا عيني ع الصبر..».

أصبحت على لسان المكلومين بالحرمان.. الواجدين كل ما يجدون.. المحرومين المتعة بهذا الموجود..

عذاب أن تجد، وأن تفقد في الوقت نفسه!!

وعذاب آخر أن تتفقد ما لا تجد حتى إذا وجدته فقدك هو!!

«يا عيني ع الصبر . .».

صبها في آذان المكروبين . . في قلوبهم . . في ألسنتهم . . في الوجود المفتقد هذا المغني الخشن المتمرس «وديع الصافي» . .

الصبر قوة، القوة وحدها قد لا تكفي.

الصبر برهان الحق ينتصر به، أيما حق لك ليس برهانه شهادة أحد عليك لأن الباطل يمتلك أقوى البراهين . . بسرعة يتحكم لأنه، وقد أنهك الحق، قد امتلك كل الوسائل التي جعلته يتطاول على الحق!.

الصبر يعطيك الفسحة، والتروي . . يفطنك بالغرة . . يحتفظ الحق بوجود لأن انتصار الحق استمرار، فوز الباطل مؤقت . . كالحب . . الحب كالحق استمرار لأنه حقيقة نفسين، وما يعتري هذا الحب من شوائب باطل، وعجل . . فالصبر علاج لهذا الحب الحق!!

ـ قالت لي، ومن زمن بعيد: لو كنت تقدمت لما كنت لغيرك!.

ـ قلت: أنت لست لغيري الآن . . فامتلاك الزوج لك يعني الحرمان، لكنه حرمان الشخوص . . أما الوجدان . . القلب فيعيش مع الحقيقة المستمرة . . مع الحب!.

من هنا . . لا ألوم، وإنما أقدس . .

الكبار في الحب يعيشون في رهبانية الشخوص كشيء «براني» لكنهم يحيون «بجوانية» السلوك الممتص لخيال يتجسد . . المقتص من حرمان يذوب!

وخطرت على بالي . . لو بقيت حية لكانت في وهم الشخوص مثل «كرامة بنت عبد المسيح» في نظر الصحابي شويل . . أعني حياة التجسد،

لكنها ما زالت حية في صومعة راهب أمام محراب يستكنه.. يشتم يذوق حتى ليعربد نفسه مع نفسه. كأنه هي.. كأنها هو!..

ـ «أشوف خيالك في الوحدة دي قدامي أكلمك واسمع حسك وأشكي غرامي وأقوم أضمك.. مالقاش غير أوهامي»!! في قلب الرهبة قداسة ليست أوهاماً.. يصنع ذلك الصبر!

ما أجمل «وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر».. إنها مشاعر ظهر فيها شيء من القهر لكن ليس فيها هذا الشيء من الهزيمة!!

ـ جعلني أطبق جفني.. أطرق حسرة من فجيعتي على الكلام الفصيح والرجيح كيف يظل محبوساً في صدر شاعر، أو على أسطر قرطاس!!

جعلني أتحسر كأنما أراد أن يكسر شيئاً من الفرحة في نفسي.. به.. وبأمثاله، وحتى بنفسي!!

جلس يقرأ لي كلاماً لغيره.. كأنما هو يفاخر به نفسه.. حينما تعجب الكاتب المفتن الكلمة البيانية تكون لغيره يصبح من إعجابه بها كأنما هو قائلها.. لأنه ـ على الأقل ـ يحفظها.. ينشدها كالمشائين.. بينما صاحبها لأسباب لا يستطيع أن يكون مشاء بها يكتمها.. هو لا يقتلها، وإنما هو يذبح نفسه أجزاء أجزاء.. فالحبيس وراء قضبان قد ينطلق الكلام منه على لسان مشاء، أما الحبيس كلامه فليس هو بالمنطلق.. حين ذاك لا يكون الجسد وراء قضبان إنما يكون القلب والوجدان وراء هذه القضبان التي يصنعها غيره له، أو هو يصنعها لنفسه.. لأنه ليس هو مصنوع زمانه. وإنما يريد أن يكون صانع زمانه.. هذا القسر يحترفه.. لا يستطيع أن يغترف منه إلا الصمت الناطق لأن الفنان تصنعه الروعة التي تملك وجدانه ليصنع بها الروائع يملك بها وجدان الآخرين.. فالفنان ـ أي فنان ـ هو مصنوع

بالفتنة، وصانع الافتنان!

الفتنة . . في صورة . . في أسطورة . . في لقاء . . في وداع، بعض الوداع لا يرخي الستور على شيء. وإنما هو يفضح المستور . . هذا الوداع الفاضح حينما يكون اللقاء فيه لا يعني إلا أنه حب الحب . . أما اللقاء السرمدي فهو ملالة للحب، وإن أمتع المحبين!!

حتى في اللفظة العامية تجد سحر البيان لأن قائلها أحب الحب حينما أرخى عينيه للحظة الوداع . . يتكلم بما جاش في نفسه حتى إنه ليرى في البعد ساعة الوداع قرب الغرب!!

اللفظة العامية التي تناغي هذا «المصندق» في أضلاعه . . المهندم بكل مشاعري . . هو قلبي . . يرفع يديه تحية لما أسمعني صديقي المفضض من شعر لشاعرين . . ما أباح لي أن أذكر اسميهما . . كما يصفق ساكن الجوانح لهذا المعنى جاء بلفظ عامي في قصة سيد درويش . . حوار بينه وبين البطلة هكذا!

ـ جليلة تقول لسيد ـ أعني الموسيقار العظيم ـ «يعني انفتح لي قلبك يا سيد؟!». فيأتي الجواب من الموسيقار بمسكنة المحبين، وعظمة الوالهين يقول: «هو بقيلوا ضرف يا جليلة؟!» أي أصبح قلبه دون باب، ينفتح بالجروح . . جروح الحب للفتنة القاتلة حتى يسمع اللحن الفاتن!!

أي بيان في هذه الكلمة العامية؟ . .

ـ وهذه صورة رائعة من مناظر المخابر في نفوس شاعرة نقلناها من الذخيرة، لتكون ذخيرة قارئ راوية . . قال:

ومن أحسن ما جاء من توقع أهل التمائم، والاحتيال لكتمان الدموع

السواجم، ولا سيما قد أزف الفراق، وعصت بما فيها من الدمع الآماق، قول بعض العرب:

ومما شجاني أنها يوم ودعت تولت ودمع العين في الجفن حائر
ولما أعادت من بعيد بنظرة إليّ التفاتاً أسلمتها المحاجر

وقال آخر:

ولما أبت عيناي أن تحبسا البكا وأن يمنعا در الدموع السواكب
تثاءبت كي أبقى لدمعي علة وكم مع لوعاتي بغاء التثاؤب
أعرضتماني للهوى ونممتما علي، لبئس الصاحبان لصاحب

وأنشد ثعلب:

ومستنجز بالحسن دمعاً كأنه على الخد مما ليس يرقأ حائر
ملأ مقلتيه الدمع حتى كأنه لما انهل من عينيه في الماء ناظر
فعيناي طوراً تغرقان من البكا فأعشى وطوراً تحسران فأبصر

وقال آخر:

وقفنا والعيون مثقلات يغالب طرفها نظر كليل
نهته ريبة الواشين حتى تعلق لا يفيض ولا يسيل

وأنشد:

ومن طاعتي إياه أمطر ناظري إذا هو أبدى من ثنايا له برقا
كأن دموعي تبصر الوصل هارباً فمن أجل ذا تجري لتدركه سبقا

والبيت الأول من هذين البيتين كقول المتنبي:

تبل خدي كلما ابتسمت من مطر برقه ثناياها

وقال أبو الشيعي:

وقائلة وقد نظرت لدمع على الخدين منحدر سكوب!
أتكذب في البكاء وأنت خلق قديماً (قد) جسرت على الذنوب
قميصك والدموع تجول فيه وقلبك ليس بالقلب الكئيب
نظير قميص يوسف حين جاءوا على لباته بدم كذوب
فقلت لها: فداك أبي وأمي رحمت بحسن ظنك في العيوب
أما واللَّه لو فتشت قلبي يسرك بالعويل وبالنحيب
دموع العاشقين إذا تلاقت بظهر الغيب ألسنة القلوب

● أهداني الموسيقار الأستاذ طارق عبد الحكيم كتابه عن مشاهير المغنين من العرب، فشكرت له التذكر والتأليف، فتح به طريقاً لأمثالنا من المحجمين عن مثل ما صنع.

ثم وجدتني أتذكر طارقاً وما أعطى!

لقد أعطى للغناء في هذه الحقبة التي عشناها ونعيشها ما أعده من أجله رائد الموسيقى في هذا البلد.. منح زمانه وإخوانه فرصة أمسك بها فلم يفلتها حتى نشر الآلة، كل الآلة، فجمع الهواة ليصبحوا المحترفين. كنا لا نعرف ضارب القانون إلا سعيد شبانة وتلميذه حمزة، ونادراً أن نجد غيرهما، ومثلهما الضارب على العود، والعازف على الكمان.

كان هذا الشيء من الموسيقى خاصاً وخفياً، يمارسه علية، ولا يعرفه

إلا جماعة من صحاب كونوا لأنفسهم شيئاً من ذلك فجاء طارق فإذا هو يعطينا الكثير من هؤلاء وهؤلاء.. ولا أحسبه حينما ترجم لكثير ممن ذكرهم الأصفهاني في موسوعته الكبيرة «الأغاني» إلا وقد أعطى للعين ما تقرأ كما أعطى للأذن ما تسمع. وللسان ما يهندم بالنغم.

طالعت الكتاب فإذا هو تراجم فهرست، لا أمثلة، لا تاريخ، هو فهرست يحمله قارئ ليهتدي إلى الأصل. ولقد أهمل كثيرين من أبناء القصور. كما نسي أن يضع للأثر من المجتمع وأحواله الأسباب التي جعلت الغناء أول ما يطلع في فترة ما في المدينة ذلك من أثر الدعة والترف والفراغ والإرزاء.. والحقن العمد تعطى جرعات على صورة من بدرات الدنانير وما إليها، ثم الأثر للترف وما يجره في قصور بغداد.. واللقاء الفارسي بالعربي وما إلى ذلك من لقاءات مع ثقافة اليونان والهند. هذا ينبغي أن يذكر. ولعلّه يتبعه بعد.

والشيء الثاني الذي أحسبه سيأتي به في جزء تالٍ.. هو الكلام عن البارعين في الغناء هنا ممن عرف أو سمع عنهم. من أمثال: حسن جاوى، أحمد شيخو، الحلواني، إسماعيل كردوس، سعيد أبو خشبة، الخطابين آل شاكر من مؤذني مكة، حسن لبنى، محمد علي سندي.

وفي المدينة كان هناك من يعرف النغم على أوسع وأشد من القباني وسلامة حجازي وزكريا أحمد وعلي محمود. من أمثال: البناني وكامل توفيق، أسد توفيق، عبد الستار بخاري، عمر عبد السلام، محمود نعمان، عبد الرزاق نجدي، وطالب توفيق، عقيل توفيق، حمزة حبش.. وغيرهم هنا وهناك ممن كتموا غناءهم فلا يعرفون إلا عند حملة الأسرار وكاتمي الأخبار.

كما لا أنسى ضاربي العود والكمان . . حمزة شحاتة . طلعت وفاء، عثمان خميس .

● قرأت الـ «قطوف» أمس . . أورد فيها أستاذنا ضياء الدين رجب شعراً حلواً للشاعر الإنسان . . شاعر الناس للناس «بيرم التونسي» . . ذلك الذي يمنعه أن يرى الحق مزهقاً للباطل ويرهقه أن للباطل سوقاً رائجة . .

ويهمني من ذلك في تعليقي اليوم هذا البيت . . ورد في مختارات الأستاذ :

يصمت الطائر المغرد في الدو ح إذا كان تحته ثعبان

لعلّ طائر بيرم كان من الطيور الزقاق المترفة . . بلبلاً، أو عندليباً، وهي ليست من طيور أرضنا . .

الصورة رائعة من شعر بيرم . . غير أني أريد أن أدافع عن بعض الطيور كالعصافير ـ مثلاً ـ فإنها لا تصمت حينما ترى الثعبان . . بل تهيج به . . تهيجه . . يتلمظ . . تهاجمه وهي توصوص . . تجمع ـ أول ما تجمع ـ العصافير كلها كأنما كل عصفور يلبي النداء . ويسكن الثعبان كلما اقترب عصفور منه يريد أن ينقره ابتلعه، والعصافير تشاهد صرعاها في فم الثعبان ولكنها لا تبالي . . تنهال عليه رديفاً وراء رديف لتنبه إنسانها أن يعينها على قتله فلا تنصرف . . أعني لا تهرب لأنها لا تخاف . . لا تعرف الجبن . . حتى إذا انتفخ الثعبان من كثرة البلع أصابه وهن في الحركة يتضخم سحره وتتفتق أضلاعه، وينتفخ كرشه فيأتي الإنسان يقتله، وإن لم يكن الإنسان فيجيء العصفور النجدة ذلك الطائر الأسود واسمه «المجبية» أسود غطيساً . . يحرك ذيله كأنه مروحة يابانية من صناعة هيروشيما! . . فينقض هذا العصفور

النجدة على الثعبان.. لا يأتيه من أمامه وإنما هو يعلو فوق رأسه يسقط عليه ويطير عنه أكثر من مرة.. يسلط منقاره على رأسه يحفره حفراً حتى يقتل الثعبان!

هذه العصافير تصمد أمام عدوها.. لا تصمت صموت الطائر عند بيرم!!

العصافير.. لم يملكها الترف، ولم يبطرها صوت الناعي.. ليس فيها الصداح، وإنما فيها المهاجم للثعبان لا يبالي بمن يبتلع الثعبان منها لأنها ستقتله في النهاية لتعيش آمنة في أعشاشها.. والعصفور «المجبية» عرف بمقاتل الأفعى يصب النقر على رأس الأفعى فيقتلها كأنه أحد الفدائيين.. لا يبالي بالموت وإنما هو صائن الحياة لجيل من العصافير قد ابتلاه اللَّه بثعبان فتجمعت عليه تقتله بسلاح هو أضعف السلاح أمام الثعبان: منقار عصفور!

كم في دنيا الحيوان من عظات.. لو عرفها الإنسان لما صمت أمام العدو صموت العنادل، ولصمد في جماعة أمام عدو يقتله، ولو بأضعف السلاح.. أضعف السلاح لا شيء.. قوة السلاح هي الإيمان، والتجمع، ومنقار المجبية!

● على غصون البان.. عصفورتان.. تتناجيان.. بأعذب الألحان.. أغاني الوجدان!! أغنية.. فطن الشاعر إلى حب العصافير.. كان غيره يتخذ من اليمامة، أو الحمامة أو القمرية معلماً لدروس العشق.. غره من هؤلاء بطيء الحركة.. ثبات الملامح.. لا يتغير منهن شيء عليه!! فلم يعر العصافير التفاتاً.. العصافير لم تضع أمام المشاهد من الناس صوراً من حبها كما تصنع الحمامة، ومن إليها.. لأن العصافير سريعة التحرك.. تقفز من غصن إلى غصن.. تنتقل من مكان إلى مكان.. تتعمد إخفاء الرؤية على

الإنسان . . كأنما كل حركة فيها مفرضة للتعمية . . فالعصفور المشهور بالحرص يعرف فضول الإنسان . . يريد أن يعجزه بالتخفي . . تبعد الرؤية عن الناظر بسرعة الحركة، ويحكم التشابه السرمدي في العصافير . . لا يستطيع أن يضع علامة على واحد ليعرفه حتى إذا رأى عصفوراً وعصفورة . وإن استطاع أن يميز بين الذكر والأنثى، فإنه يحكم أنهما ليسا زوجين في علاقة دائمة بينهما . . بل إنهما يزدوجان في لحظة . . يحكم عليهما بإباحية لا تعرفها حياة الطيور، ولا حتى حياة بعض السباع!!

يرى في كل عصفور يطارح عصفورته أنشودة الصباح . . يناغيها . . تساعده في بناء العش إنه عصفور طارئ عليها، أو هي عصفورة طارئة . . حتى أنكر إنسان ما أن العش لا يضم زوجين، وإنما هي عصفورة تائهة . . تاهت فبرز لها عصفور ناجاها . . جاءت تبرك على بيض تلك التي شاركت في بناء العش ثم تاهت . . حتى لعلّها، وفي اللحظة نفسها، قد احتضنت بيض التائهة الأولى!

إن رؤية الإنسان لن تعطيه الحكم الصحيح على هذه العصافير . . لكنه لو عرف أن السرعة، والتنقل، والوصوصة كلها قبل بناء العش عش حياة مزدوجة بين عصفورين حبيبين!

لقد ضاع حكم الإنسان برؤية غير صادقة . . يأنف الأجرام الكبيرة، والحركات البطيئة، والجمود الثقيل، فيصدر حكمه على تلك بالرضا، وعلى العصافير بالملامة!

العصافير أصدق من الحمام . . بين الحمام أحمق وبليد، وليس من الحماقة والبلادة صدق . . أما العصفور فذكي، وسريع، وحريص، ومتقن لبناء العش . . يعني أنه «حريف» حياة!!

● وكنا لا نفهم السبب في جريان هذا المثل على ألسنة أهل الطائف وأحبابه.. «الطائف رخا».

اليوم فهمتها تاريخاً مضى وحالاً يحكى عنه بأسلوب الرضا..

لقد كان الطائف قرية يصل إليها بعض ما هو ضروري وكل ما هو كمالي أو ضروري عند الصاعدين إليه بطريق «القدو» قافلة الجمال، وبطبيعة الحال لا يطلب تاجرها أو لا يرسل تاجر إليها إلا ما يباع بكثيره وما يصبر على الحمل والشدة والزمن..

أما اليوم فأصبحت مدينة كبيرة.. وخاطئ من يقول إنها من صغرى المدن في بلدنا.. لقد استطالت واستعرضت وكثر سكانها وكثر القادمون إليها.. سواء من أتخذها طريقاً، أو من صاف فيها..

في عصر الخميس ألزمتني ضرورة أن أطلع ببعض ولدي إلى الطائف فلمحت الخربز.. فتلفت أشتهي أن أشتريه هدية للطائف.. ثم انتهيت إلى أن الخربز في الطائف موجود مثلما هو في مكة وجدة..

وقلت لولدي: أصبح الخربز لا يهدى إلى الطائف.. فقال: وحتى السمك الناشف فالأخضر أغنى عنه. وهكذا، تقارب المدن بالمواصلات والسرعة بالسيارات أراحت الطائف من تكاليف التفضُل عليه بهدية خربز، أو حوت يابس، أو غير ذلك مما كنا نحمله معنا إلى المصيف.

إن الطائف رخا كل يوم الآن.. فذاب المثل وصفا لحال واقع الآن.. وإن بقي إشارة في التاريخ على وضع كان قبله..

ولكني رأيت في طريق الهدا «بكس ونيت» يسوقه طفل تعثرت السيارة وراءه، عجز أن يدفعه بسرعة لازمة وقوة لصعود النقب الأحمر.

فلما مررت بجانب «البكس» ورأيت الطفل أشرت إلى أبيه، أمسك ذقني، إشارة أن هذا عيب.

وسرت . . فإذا بي أجد «البكس» يلحقنا بسرعة يسوقه الأب . . سمع النصيحة . .

● شدت القافلة وشد خالي معاها . . وأصبحت في الفِريش يا ليت عيني تراها

أغنية شعبية سمعناها أطفالاً فلما أفقنا لأنفسنا بالإغماءة في بحبوحة من الولع والشدو والألم والبوح والنوح والضحكات فإذا بنا نصحو على شيء مليح ومريح . . يسوقنا إلى التمسك بتراث ورثناه من أعراق أصيلة ممتدة إلى زمن بعيد . . نمسك به إبقاء على حياته وتنويعه بالارتفاع . . لا نرفض أغنية عربية هي للجميع، ولا نميت الشعبية . . فإنا حينما نحييها ونرتفع بها تصبح شاملة منتشرة يسمعها الجميع من كل الناطقين باللغة الشاعرة.

آذان من أجيال لم تألف هذا الأسلوب الشعبي «الفلكلوري» قد لا ترتاح إليه، لأنها لم تتعود السماع له . . نعذرها تساهم، ونكرانها لا نرفضه دون معالجة . . فالتكرار عليها يثقل في مسامعها ما لم تألف لتتآلف، فتستسيغه بعد. وأجيال أكثر تعرف، سمعته من قبل، فلماذا نهملها فلا نسمعها هذه الألحان؟ . . إن محمد علي سندي ومن غنى بعض ما يغنيه له ولهم آذان تسمعهم، فهم في سوق رائجة وقبول واسع . .

شاهد بعض النابهين من المخضرمين ومن جيل بعدهم الحلقة، الأغنية الشعبية، ترجيع أهل الهدا، أو ترجيع الحاضرة في مكة، فصفقوا لها، مسرة بنغم، احتراماً لتراث، مباهاة بأنموذج يمكن أن يعرض في عالم غير عربي دليلاً على حضارة وذوق.

هذا شيء.. وهناك أغاني البحارة.. والنماذج يمكن تسجيلها في الرويس أو في ينبع أو في الوجه.. ولا أنسى جيزان، فهناك في العشاش في جيزان وصبيا وعريش فن، وحضارة..

فلو دخلت عشة لرأيت ديكوراً بسيطاً، عوداً، كمنجة، طبقاً.. كل أعصاب الساكنين هناك نفس سامعة أو أنشودة، كل هذا إذا تكون بأسلوب فني وتلحين متقن موائم لا يخرج عن الأصل ليضم مع العرضة وأغاني الخليج.. إنه سيكون عندنا فناً نباهي به.. ونغني.. ويصلح بعده نواه لشيء أكبر، يأتي به الزمان من الأغاني الرفيعة والتمثيليات والقصص..

إن الأغنية هذه، نواة أسطورة، روح شعب، ثمرات أمة، فحبذا لو عنى الناجحون من المغنين والمطربين، فعملوا لذلك يجمعون ويزينون ويستحلون وينشرون..

إنهم إن فعلوا ذلك كسبوا الشيء الكثير حتى المال الوفير.. ولربما بيعت «شرائط لبلاد بره».

● ونكتب اليوم عن وادي «آش».. جاء استطراداً في «كلمة ونص» فلأخذ السائلون يتراسلون بينهم هامسين، أو جاهرين: من ابن زيدون؟ وما هو وادي آش؟!

وجدير بي وأنا أحب الحب، ولا أنغمس في أخبار الحب.. فالحب ليس خبراً، إنما هو ـ الخبر ـ بضم الخاء وسكون الباء!

وابن زيدون.. كان حب الحب حينما يقول:

أما رجا قلبي فأنت رجاؤه يا ليتني أصبحت بعض رجاك
يدنو خيالك حين شط مزاره وهم أكاد به أقبل فاك!

كان نظيفاً . . فحزنت أن يتسخ شارع لاسم نظيف!

وابن زيدون . . شاعر الفردوس المفقود «الأندلس»، وفي هذا الفردوس «جنة» بستاناً في الأرض اسمه وادي «آش» . . لا أريد أن أصفه من ياقوت . ولا أريد أن أرجع إلى عاشق الأندلس . . شكيب أرسلان، فإن الصورة يجلوها شاعرنا الذي يقول . . ويصف وادي آش:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

أي صورة أبلغ من هذه؟ . . تخيلوا كيف أن العذراء ترى الحصى وسط الماء كأنما هو حبات من عقدها، فترفع يديها تتلمس عقدها . . تحسب أنه هو الذي انتثر!

أليست هذه نظافة في جمال أنيق؟!!

إنها نظافة في وجدان الشاعر . . من نظافة من وجود الأرض.

الإنسان ابن بيئته . . جمالها جمال في نفسه . . جلالها جلال في كبريائه!

ولوادي «آش» قصة أخرى . . جلس أستاذنا أبو إبراهيم عبد الوهاب آشي إلى أمير البيان . . حفيد ابن ماء السماء شكيب أرسلان، قال الأمير شكيب لعبد الوهاب آشي بفرحة عاشق الأندلس: هل أنت من وادي آش؟! كأنما هو يريد أن يقبض عليه فقال عبد الوهاب: لا . . أنا من آش الأخرى: في الشرق الأقصى . . لا في المغرب الأدنى . . آش الذي أنتسب إليه هو في سومطرة! وضحك الأمير، وضحك عبد الوهاب. لكن عبد

الوهاب لا يدري أن صلته اليوم كرجل بيان هي الأعمق لآش الأندلس كما هي العميقة لآش سومطرة وهكذا.. لا تمنع قرابة النسب قرابة السبب.. السبب دين واحد. ولغة شاعرة.. الأمير وعبد الوهاب فيها شاعران!!

● هما كلمتان في كلمة.. أولاهما عن مثل.. والثانية عن رسالة من لبنان!

المثل يقول: «والولد اللي ما بال على كراعي ما أخليه لشاتي راعي»! سمعته من صديقنا فهد المارك.. في تلافيف حديث ذي شجون.. على طريقة: ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع! قالته عجوز من جداتنا المكتويات بنار التجربة. والظامئات الراويات من عد القلوب الخيرة.. فأعجبني كأنما هو كية أصابت المجنون.. كان يحس بوخز من ذات الرئة «الجنبة».. فلما وضعوا المسمار الأحمر المشتعل على الوخزة طرقع لها صوت.. فسمعها مثلي كاوية.. فقال: قم.. قم سالماً، وقمت سالماً أتلمظ المثل.. أذوقه.. أشربه.. أشبع من معانيه حتى عدوت وكأني حامل القصعة.. أطوف بها على أصدقائي أرويه لهم.. لأرويهم به.. هو أحد وأشد وأوقع من المثل الفصيح:

«ما حك جلدك مثل ظفرك».. فتول أنت جميع أمرك.. وهو ألصق وأدق من المثل أخيه:

«النار ما تحرق إلا رجل واطيها!..».

لأن في تلك صرخة بالذات.. أما في هذا فصرخة الذات ونداء الأم، وترف التعبير، وتحديد الحاجة، والنص على الشاة.. أمنا على هذه الأرض!

أترك لكم تفسيره على طريقة: كل يغني على ليلاه، متخذاً ليلاي من

الناس أو ليلاي من الخشب، كاد العكاظيون أن يهربوا رسالة لا أراها في أيديهم! . . تواضع جميل، ولكنه مخيف!

الجميل ألاّ تبخس الناس أشياءهم، والمخيف أن تبخس نفسك! . . فتستجري بعد الممارسة لبخس النفس على أن تبخس الناس!

فتاة من لبنان كأنما هي أملت من قلم «فارس الشدياق» أو «اليازجيين» أو «الخوريين» أو من قلم أبي محمد «مارون عبود»! . . لترجع إلينا تقرؤنا . . ثم تكتب لنا . . تشيد بما تقرأ . . عددت الأبواب والأسماء، واشتكت بكبرياء أنها لا تقرأ عكاظ إلا مجموعة في أسبوع، وليته كل الأسبوع . . تريد أن تقرأها يومياً، ولدينا القدرة على ذلك . . أريدها أن تتصل بالخطوط السعودية، فيرسلون لها نسخاً توزعها على صديقاتها من عكاظ! أنا فرح بهذا . . لا من أجل عكاظ، ولا من أجل الكاتبين فيها . . «ظلاليين» و«موقفيين» و«فجريين» ومقطري «قطرات» و«قطوفيين» حتى إنها لم تنس الإشادة بالصفحتين السابعة والثامنة . . وإنما من أجلها هي قارئة رجعت إلينا! أحييها وأستزيدها أن تزيدنا من عدد القارئات لنا!!

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل

ليست هي وقد أنشدت هذين البيتين . . مطلع القصيدة من قصائد اللغة الشاعرة . . كأنما هي إحدى المعلقات . . قائلها عربي تهود، أو يهودي تعرب اسمه «السموأل» هكذا عرفه العرب . . لم ينطقوا اسمه بالعبرانية «صومائيل» وأنا مع العرب في ذلك فلا أحسب السموأل في مروءته ووفائه وفصاحته يهودياً تصليب، وإنما هو عربي تهود، وكثير من العرب دخلوا في

اليهودية.. لأن اليهود كانوا في حاجة إلى تكثير سوادهم في وادي القرى. وما إليه، في المدينة، وفي نجران أن يقبلوا العربي إذا تهود، وأن يدخلوا في ظل حلف مع القبائل.. اعتزازاً وصوناً لهم.

ليس من همي ذلك، وإن قدمت بعض الشرح، وإنما همي أن أتكلم عن اللؤم والضيم!

الرجل اللئيم لا مروءة له.. لا نجدة عنده.. لا كرم.. لا وفاء.. كل هذه أخلاق المروءة، والمروءة ضد اللؤم حتى إن اللئيم ليبخل على نفسه.. يأكل موائد غيره.. واغلاً يلحس كل صحن حتى إذا شبع ذهب إلى الصحن الآخر ليلغ فيه، فهو الواغل الوالغ، وصاحب المروءة هو الذي يحمل الضيم إذا ما انصب عليه صبراً في كبرياء الرجال، وارتفاعاً عن الشكوى، فلا يجهر بها إلى أحد!

الرجال الذين يتحملون الضيم عافون.. من شيمة الصبر فيهم، ويعفون من سيمة الكبرياء!

الذين يتحملون الضيم في سبيل الهدف الكريم دفاعاً عن عقيدة.. دفاعاً عن وطن.. اندفاعاً لنجدة صديق، أو إغاثة مكروب، أو عوناً لضعيف، هم الكرام.

إن هؤلاء الرجال يصبحون على الألسنة.. كل لسان يثني عليهم، فالسموأل تحمل الضيم والحرب، والحصار من أجل الوفاء، والوفاء مروءة بل هو في الذروة منها:

الذين لا وفاء لهم لا خير فيهم، لا يؤتمنون على شيء خشية العقوق! لإن الجفاء عدم الوفاء.. يجلب الأذى!

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة

من أين تأتي مضرة الصديق؟ لأنه لا يعرف كيف يتحمل الضيم في سبيل صديقه، أو من صديقه. . لأنه قد حرم نعمة الوفاء!!

● يقول أحمد بن الحسين شاعر الدنيا المتنبي:

ستألف فقدان الذي قد فقدته كإلفك وجدان الذي أنت واجده
ولكني ما ألفت غيرها. ولا كلفت إلا بها!!

هي. . يا بنات الهنود يا فاغية في العمائم.

الفاغية زهرة الحناء. . هي التي تكلفني كثيراً فيما تحملني من النظرة إلى بياضها، والروحة إلى روحها. . رخيصة الثمن والتكليف، غالية العطاء، شذا. عطراً، ما أحلاه. لها رائحة جمالها في التجمل بها. ولاسمها في أذني جرس لأحرفها كأنها المناغية بالفتنة المليحة.

أحبها. . اسمي الغوالي باسمها إذا ما كتبت عن واحدة منهن لا تريد أن تصرح باسمها.

عرفتها. . هذه الفاغية طفلاً في أحواض في المبارك، الخيف في سفح رضوى من ينبع النخل.

أحواض يجملها أهلها بزراعة الحناء. . يتخذون من ورقها خضاباً، ومن زهرها عطراً، وشارات على العمائم.

الخضاب في اليد نقشاً، نقشاً يساوي فيه النقش حتى تسود «كأنها» «الروميل» في اليد لا في العين. فالعين العربية لا تحتاج إلى سواد.

والخضاب في القدم تحت الخلاخيل والحجل يحمر. حتى لتحمر خدود الناظرين.

زينة كانت مغنية من الأحمر والأسود والأزرق الجليب المجلوب بالدولار.

وسرقتني هذه الحلوة المحلاة بالحناء تلويناً لجمال. وتلويحاً بشذى العطر جمالاً في الجميلات.

سرقتني وأنا راكب جملاً يتهادى راكبه من ينبع إلى بدر، فالمربع الأخضر الفوّاح في وادي الصفراء، أعاد الله إليه بالغيث ماءه إليه.

شنفت سمعي بخرير الماء في عين بعدها عين.. وفاحت بأريجها الفاغية، فإذا هي تسرق النوم، وتعطي الوسن.

حلم غرقت فيه «جوانيا» اغتسلت نفسي بعطر الفاغية في ليل صحا فيه النسيم. وصمت هامساً النغم.. يعطي نسمة تناغي من بعيد، كما يناغي صداح باغمه. نسمة تلمس منها البوح، لأنها لا تكتم الفوح.

وصافت نجمة بخيط من شعاع بين سعيفات النخيل، نخيل نصف.. لا هي بالباسقة، ولا هي بالواطئة إلى مستوى اليد الجانية «القاطفة».. تنحسر عنها العاصفة، وتتكسر عليها روائح النسمة.. بسطر نور لا يفضح، ولكنه ينفح بشيء عجيب الفتنة. تكون لك فيه «فيك» المؤنسة من وحشة أثارتها عاصفة أبعدت عنك النسمة فجاءت النتيجة تقرب إليك البعيد عن نفسك.

وحينما أيقنت بدورة الفلك هذه النجمة، أرسلت نورها في عطر الفاغية.

اجتمـاعيـات

عادات وعيوب اجتماعيَّـة

● ونشأ الفتى في قرية ذاق فيها حلاوة الطبع، وصراحة العشراء، ورقة القساة..

هم قساة من قسوة الحياة في القرية. قساة على أنفسهم من تذوق الصبر على مكاره الحياة. فالقرية دائماً تعطي المدينة كل ما تعيش به. بينما المدينة لا تعنى بأي التفاتة إلى القرية. كأنما هي السخرة المفروضة على القرية تعمل للسارحين في حلكة الليل. الناعمين في أضواء خافتة. كأنما هم في حلم. يصحون في تذوق الملاذ. ويغفون عن صانع الترفيه لهم.

وذاق متعة جارمة في صحوة الفتوة. فندم. يذهب إلى القس في الكنيسة!

وأعترف أمام كاهنها بالزلة ليعطيه الغفران.. لعبة الكهنوت. يسخرون من الناس ببيع الرحمة. ويسخرونهم عبيداً بشراء الجريمة، فهم وهم ودجل.

وتفرس رجل الكهنوت في هذا القس، شام فيه الذكاء.

وعرف بذكاء الكهنة أن لهذا الفتى شأناً بعد. فالكهنة لهم حساسة الفيران، يشمون الخطر من تطور الأحداث. فهم قراء الأماني والأفكار من كثرة ما علموا من أسرار الناس.

فطلب أن يكون الاعتراف مكتوباً لتكون المغفرة سرمدية لأن القس يدعو له كل يوم ما دام الاعتراف في ورقة لديه.

وكبر الفتى حتى أصبح من أبرز الرجال في المدينة. يقترح، ويقدم المشاريع للإصلاح. ومنها ما يمس الكهنوت.

وكبر القس حتى أصبح سيد الكهنوت في الدولة، وما كاد يسمع بمشروع الفتى حتى جاءه في ليلة.

ـ أيها الفتى المحترم. إنك ستلغي هذا المشروع.

ـ فقال الفتى: لا.. لا.. سأمضي به إلى النهاية!

ـ فقال القس الكردينال: أي نهاية؟ إنها نهاية المشروع في قبر هو صدرك. ألم تقرأ هذه الورقة؟ إنها بخطك.

وصرخ الفتى: سأذهب ماضياً في إنجاح مشروعي لأقتل هذا الدس والخداع في الكهنوت.

أبرز هذه الورقة. ستكون دليلي على خسة ما تفعلون.

● خبر غريب، ارتحت إليه، أنشره مع التعليق.. وأرجو أن يحظى بنقاش واستيعاب وفهم له.

ـ قالوا: إن بلداً كبيراً ومسلماً كثير السكان لا يبيع الكماليات أو حتى الضروريات بالتقسيط.. وإنما هي برسم الأجرة.. فمكائن الغسيل والمراوح والثلاجات وما إليها تؤجر بتعريفة معينة لطالبها.. وهذا يعني أن المستأجر ينتفع بها طوال حياتها معه، عنده، ثم هناك معنى امتلاك الشركات لها بأنها مطالبة بإصلاح ما تملك من هذا المستأجر فالمنتفع سالم من الإصلاح والصيانة والمصاريف العارضة لذلك.. لأن الشركة تؤجر وتقبض الأجرة..

وهي التي تلح وقد يكون هناك مبلغ إضافي للإصلاح إذا كان الخراب بفعل المستأجر.. شيء لم يتم له به علم.

فالخلاصة أنهم سلموا من شبهة الربا في التقسيط، فبعض الخيرين يستوحش من رفع القيمة على السلعة المبيعة لأجل.

ثم هناك السلامة من الشكاوى والدعاوى الناشئة عن البيع بالتقسيط.. وأكثر من ذلك حصر الاستعمال للضرورة الملحة لا للمفاخرة والتباهي..

وهناك أيضاً التعميم بهذه الآلات والأدوات والزينات وما إليها.. ففي قدرة الفقير والمقل أن يستأجر ويدفع الأجرة. حلالاً يدفعها.. حلالاً تقبضها الشركة والمحلات..

أنا لا أقول بإلغاء التقسيط، وإنما أدعو إلى وضع نظام للتأجير..

لقد اتبعنا التأجير المؤقت للكراسي وما إليها.. فإذا وضع نظام بشكل لطيف وحازم أمكن إدخال الحضارة لكثير من البيوت والأسر دون تضخم الآلة المدنية بهذا السرف.

صحيح أن الأجرة ستطيل الأمد حتى تستوفي الآلة قيمتها. لكن التعويض سيكون بالكثرة المستعملة المنتفعة بهذه الآلات..

ومرة أخرى هناك السلامات من تبديل التيار وقطع الغيار لا يرهق بهما المنتفع، لأن الشركة تعرف ما يصلح وما يكفي وما تصلح به أدواتها.

● الذباب ناقل لكثير من الأمراض.. نسأل الله السلامة منه. فقد أصبحت الحرب الساخنة التي كانت بيننا وبينه.. المتمثلة في حرقنا للقمائم، وقتله بالغازات الخانقة.. «كالفليت» وما إليه أصبحت هذه الحرب رغماً منا، وبانتصار الذباب علينا المعايشة الاستسلامية.. فقد استطاع أن

ينتصر هذا الذباب لأن المحاربين في الجبهة وقيادة هؤلاء المحاربين قد أصيبت بنكسة . . كثرت القمائم واتسخت الشوارع فشبع الذباب وأمرع، وهو يستطيع أن يشكل في كل بيت منصة فضائية!! . . لأنه بالنسبة إلينا نحن سكان البيوت هو من رواد الفضاء . . يهبط على موائدنا كيف شاء . . يسقط على ملعقة الشاي . . في زبدية الشوربة . . فوق الخبز . . فوق السكر . . هو يحب الحلاوة! . . سواء كانت طعاماً أو هذا الدم الزكي النقي في الإنسان . . يمتص، ويقتص . . يمتص الحلاوة ويقتص بزراعة الميكروب . .

ما دام هذا الوضع أصبحت المسؤولية على وزارة الصحة أكثر من البلديات!

إن الذباب يستملح الحلاوة حتى إنه ليلطم الخدود الناعمات . . ويتغازل مع السوق المنقرسات . . تصوروا خداً ناعماً تلطشه ذبابة فتلطشها اليد الناعمة؟ . . تعقص الذبابة فوق هذا الخد . . يعني هذا ذوقاً؟!

رفقاً بالقوارير من هذا الذباب . . ورحمة بالمصابين بالنقرس يصرخون كما كان يصرخ الجاحظ، فلا يتخلصون من الذباب إلا بالأغطية!

تصوروا أن الخد الناعم إذا ما أصابه «القرف» كيف تصبح الحياة في شهر العسل؟!

غلطت وجبت سيرة العسل . . هذه من أخطائي كإنسان . . يسمع الذباب سيرة العسل، فيسقط على العروسين لأنه يحب العسل!!

الذباب . . لو عرفنا ـ وبجد أقول ـ وسيلة من وسائل الهزيمة في الشعوب المحاربة!

تصوروا لو فشا مرض من الأمراض التي ينقلها في المحاربين أو في من وراء المحاربين.. كيف يكتسب العدو النصر؟!

حاربوا الذباب بغير «الفليت» فقد أصبح «الفليت» لا ينفع لأن الذباب قد اكتسب المناعة كما تكتسب الشعوب المرهقة بطغيان الأعداء المناعة ضد الخوف!

أرجو من رئيس البلدية، ومدير الصحة أن يأخذاني معهما.. نلقي نظرة على النظافة في البلد، لعلّهما قد صانا بيتيهما من الذباب لكنها صيانة لا تحمي أحداً ما لم تكن صوناً للجميع، فالعدوى لا تعرف الحجز، والوباء لا يحجبه غطاء.. لكنها رحمة الله تجنبنا ذلك بما ودعته في هذه الشمس المحرقة تقتل الميكروبات، لو كان هذا الذباب في أرض لا شمس فيها لفعل، وفعل!!

● إذا حرص واحد منا على أن ينال حقه، أو أن يمتع نفسه بما يريح فإنه ينبغي له أن يحرص على حق الآخرين، وألا يشقيهم بما يتعبهم من تصرفاته.

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

«خالق الناس بخلق حسن».

«عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به».

فقد عملت عصر أمس جندي مرور، والسبب هو حرص البعض من راكبي السيارات. سائقين أو متفشخرين. أن يقفوا حيث شاءوا.. وأن يمروا قبل الآخرين. فلا يفكرون بما يضر غيرهم، أو يحول دون غيرهم أن يسيروا كما يحبون هم السير لأنفسهم.

في الشارع النافذ من أيسر الشارع الجديد المدخل من حارة اليمن إلى حارة الشام. الموصل إلى باحة البيت الكبير، بيت نصيف، والموصل من وسط المظلوم إلى دكان «الشلبي» أبيح للسيارات أن تذهب وأن تروح. شارع ضاق بالناس. فمن العسير أن تمر فيه سيارات ذاهبة راجعة لكن سد الطريق إلى باب مكة وما إليه ألزم بذلك. ضرورة يمكن استخدام الشارع من أجلها لو أنصف السائق ألا «يدور» سيارته في مدخل الشارع.

سائق كان يمكنه أن ينفذ من زقاق إلى المنشية. لكنه أبى فدوّر واستدار. وراءه سيارة، أمامه «فيسبا» السيارة التي وراءه واقفة. والفيسبا واقفة. وانسد الطريق فهو لا يستطيع الحركة. سيارات ذاهبة توقفت. سيارات راجعة توقفت. وليست منها سيارتي. فقد أوقفتها في براح في الشارع الأوسع ومشيت على رجلي.

ضقت ذرعاً بحيرة الناس، سألت لماذا لا تتحرك الفيسبا. خاطبت راكباً فيها بجانب السائق. نزل دون أن يرد جواباً كأني طلبت منه السير؟!

ـ قلت لسائق الفيسبا: تحرك مترين. يستطيع المدور أن يلف وتنتهي الأزمة. فسكت ولم يجب وتبرع المشاة: «ما أنت شايف هي خربانة».

ـ قلت: لأنها خربانة. يجب أن يدفعها صاحبها إلى البراح ويفسح المرفق العام. فليس هو أعني الشارع بالمكان المتسع للخربانين والخربانات.

● هل تصدق إذا قيل لك أن الخبز في الرياض والقصيم أكثر من خمسة أرغفة بالريال؟

لم أصدق ذلك لأن الفرق في أجور التحميل يجعلنا نعتقد أنه إن لم

يقل عدد الأرغفة بالريال عن جدة فعلى أكثر التقدير يكون المساوي لا الأكثر..

صدقوا أو لا تصدقوا.. فاليقين أن خمسة أرغفة بريال في جدة أصبح مبدأً ثابتاً لا يتغير نتعلم منه الثبات..

فقد وصل كيس الدقيق إلى أكثر من ثلاثين ريالاً أو فوق العشرين بما يقارب الثلاثين ريالاً.. والخبز خمسة بريال.. ونزل السعر إلى أقل من خمسة عشر ريالاً أو ستة عشر ريالاً للكيس من الدقيق، والخبز خمسة بريال.. أو أن الرغيف الواحد من خبز الحنطة الكبير اسماً بستة قروش..

ما سبب هذا الوقوف والثبات؟.

إهمال من الرقابة، وتواكل من الذين لا يراجعون البلدية!!

أضع هذا أمام بلدية جدة لتسأل.. لتراقب، لتحل مشكلة..

إذا كان هناك ادعاء بما يفرضه الأجر للفرن والدكان الكبير والعمال.. فإن التعويض لهذا الأجر وما إليه في القدر المبيع من الخبز.. الفرن الكبير قالوا له أن يعجن أكثر من خمسين كيس دقيق.. هذا القدر جزء من ربحه يكفي النفقة التي يحتجون بها..

وهناك وعن الخبز أيضاً الدقيق.. فبعضه مرّ ذو رائحة.. لقد رأيت فرناً كنت أشتري منه الخبز قد وضع أكداساً من أكياس الدقيق في العراء تحت الشمس والريح وربما المطر، فعدلت عن شراء الخبز منه.. والسبب مرارة الرغيف.

دقيق رخيص فاشترى هذه الكمية.. فهو إن لم يخبزه صرفاً يخضعه للخلط بدقيق آخر يستر عيبه بقدر يلزم به الغش.

حاسبوا ترى شيخ الفرانة من أعز الناس عندي سببها صلات كبيرة وغالية . .

أرجو من البلدية أن تتحرك قليلاً فتنظر في سعر الرغيف ودقيق الرغيف . . فرمضان غداً أو بعد غد . . والصائم يجب أن يأكل ما يستأهله برياله . . ولا يرضى أن يؤكل جزء من هذا الريال . .

ويريد أن يشتري لعياله خبزاً حلواً لا مرارة فيه . .

وأضيفوا إلى ذلك الكنافة . . صانعها أصبح يغش . . دقيقها مر . .

يا ناس ذوقوا لتعرفوا . .

وهل أسأل الغرفة التجارية . . أم فرع التجارة بجدة؟ . .

كلهم لو تحركوا بذوق لطردوا الدقيق المر وألقوا به في البحر . .

● التسعير مرفوع. فلا تفرض تسعيرة على سلعة، أو على بائع.

هذا مبدأ أساسي من حرية التعامل، لكن هناك تسعيرة تذاع في الإذاعة . . يظنها بعض السامعين على أنها تقنين لسعر مفروض يلزم به بائع السلعة المسعرة، وهم معذورون في هذا الظن الحسن بالتسعيرة المذاعة . . أما غيرهم وقد أكون واحداً منهم فلا يظنونها. أو لا أظنها إلا خبراً يذاع لإعلام السامعين بوجود السلعة المعلن عنها، والإخبار عن ثمنها، وذلك بدليل هو أن الأسعار المذاعة تختلف بين سوق وأخرى، وبين دكان وآخر . .

يعني أن فرض السعر يدعو إلى عدم الاختلاف . . أما الخبر عن السعر فلا يمنع الاختلاف، ولا يعد عيباً منتقداً . .

ولكن عندي سؤال تحيرني الإجابة عنه!!

حينما تنجم أزمة في مكان ما، وهذا المكان ما نجلب منه مأكولاً يومياً.. بصلاً، ثوماً.. بطاطس وما إلى ذلك.. وتحدث فيه أزمة يشم البائع بالجملة يعني تاجر البضاعة رائحة الأزمة ومنعها للاستيراد من هذا البلد. فلا تكاد تمر دقيقة على سماعه خبر الأزمة إلا ويرفع سعر البصل والبطاطس!!

الخبر عن الأزمة أذيع في الليل، وتذهب صباحاً إلى «الحلقة» والسوق وتجد المخزون الوارد قبل الأزمة، قد لبس سعراً فاحشاً.. ليه زاد؟.. ما هو يجي من لبنان؟..

بكل هذه الجرأة يقول لك.. أصبح ما يجي البصل من لبنان..

لم يتذكر لأن غيره لم يذكره بأنه مستورد قبل الأزمة.. فلا ينبغي له أن يستغل المنع المتوقع فيرفع سعر المخزون!!

الأزمات أكثر مما تحصر، وقد يأتي غيرها، فلعلّي لا أبالغ إذا ما طلبت تدخلاً لحصر كل ما هو موجود من أي سلعة حتى نعرف على أي أساس نتصرف حينما تدعو الحاجة..

إن ترك الخزانة والمستغلين سواء كانوا تجاراً أو أن أكثرهم من غير التجار يتحينون أخبار الأزمات فيدخلون السوق شارين بسعر ليحجزوا ويبيعوا بسعر فاحش.. فما أظن ذلك إلا أنه ضار بالعامة التي تسأل عن زيادة قرش في السلعة فكيف بمضاعفة السعر.. لو كان مجلوباً بهذا السعر لهان الأمر.. لكنه موجود في البلد فقبل ساعة اشتراه واحد بسعر، وبعد ساعة يتضاعف السعر!!

العامة تحتاج إلى حماية من شيء هو أسوأ من تلقي الركبان..

إن تلقي الأخبار هو من نوع التلقي للركبان، النتيجة منه غلاء الأسعار . . والتلاعب بها .

● حينما تدخل إلى مكان ـ أي مكان ـ على صاحب، أو أصحاب، تعرفه، أو لا تعرفه تقول: السلام عليكم. تحية مسلمة . . تتبرع بها أدباً لدخول المجالس، ويفرض على واحد منهم الرد نيابة عن الآخرين .

هذه الطريقة نجدها عميقة، وعملية في عامة الناس، ولكن بعض الخاصة من الناس يدخلون على مجلس فيه صحاب لهم، ومن أوزانهم، أو معهم غيرهم. فلا يلقون التحية السلام . . كأنهم يريدون أن يتمثل لهم الناس قياماً! . . إن تعجب فاعجب بأنهم من الذين يفترض فيهم إشاعة الدعوة إلى الخير، ومنها إفشاء السلام . . هم يعلمونه في دروسهم، لكنهم في تعاملهم ينسونه . . شيء من الورم، أو هو الشيء من الورقة البيضاء أعطوها لأنفسهم كأنها صكوك غفران تحميهم من العتاب، أو مما هو أعظم .

أسلوب كنسي، وكهنوتية لا تليق بأمة مسلمة!!

أو هو أسلوب عنفواني على طريقة: نحن هنا . . .

عجبت . . لكني ترحمت على الذين كان لا يفوتهم ذلك، وسألت الله أن يصلح الأمر لهؤلاء .

كنت مرة أجلس في مكان، فأقبل شيخ لباسه من السواد لأنه من أهل السواد . . دخل مجلسنا، وجلس على كرسيه في صالة الأوتيل تكاد أيدينا تلمس يديه. كأنما الركبة تحتك بالركبة . . أردت أن أترك الموضوع لا أسأله: لماذا؟! . . لكن ورقة سقطت عرفت منها اسمه، فقمت تواً لأعود لحظتها فأجهر بالسلام، فكان أول من رد هو!

عجيب؟!.. إذن هو من العارفين؟!.. كان كذلك..

هو السيد الجليل العلامة النبيل.. أحد شعراء العراق.. عضو مجمع اللغة «محمد رضا الشبيبي» قلت له:

ـ دخلت علينا ولم تسلم.. لماذا؟!

ـ قال: لا أجد عذراً، فمعذرة!

ـ قلت له: أولست القائل:

فتنة الناس ـ وقينا الفتنا باطن الحمد، ومكذوب الثنا

هذا رجل كبير يعترف أنه أخطأ حينما لم يرد السلام.. حين وجد من يناقشه.. كانت المناقشة حباً في أن يبقى هذا الخلق ـ السلام ـ وكانت الكرامة منه حباً لهذا الحب.

ما أجمل الكبراء حينما يتواضعون!!

● اليوم صنعت لنفسي عملية جفاف أو تجليف.. على طريقة صديقنا «أحمد لاري» ـ يرحمه الله ـ كان يقول لنا: ينبغي على الساكن في جدة أن يغيب عنها شهراً إلى بلد جاف.. يابس لتزول هذه الرطوبة.. ليس عن الجلد فحسب.. وإنما عن العظام!!

وكان رحمه الله يعمل بهذه النصيحة.. إذا لم يستطع أن يسافر يصعد إلى مكة فينام تحت السماء في الصيف.. يفر من الرطوبة والمكيف.. ويظهر أن «أمين المميز» سفير العراق السابق قد أخذ هذه النصيحة من «أحمد لاري» وذكرها في كتابه.. وهي لم تذكر من الاثنين عن طريق المعابة.. ولم أسر على هذه النصيحة غير أني اليوم شعرت بصحتها.. فقد

طلعت إلى مكة فشعرت بشيء من الجفاف على الجلد: بشيء من الترطب في النفس! . .

ولو أمكنتني الفرص لسلكت أسلوب اللاري . . ولعلّها تمكن فيما بعد .

ونزلت إلى جدة رأيت ظاهرة أعجبتني . . فقد انصرف كثير من الناس عن طريق المدينة المزدحم والمضطرب بسلوك السائقين فيه . . فذهبوا عنه إلى طريق مكة . .

فمن بعد الخزانات، ترى السيارات، والأطفال والأمهات والآباء ينسربون على الرمل . . يسرقون الجفاف من فوق الهشيم . . لم تعد تصلح لهم أبحر . . لأنها أصبحت «زحمة» أكثر من اللازم بالناس . . بالجدران، وبالاستحواذ الحوشي . . كل حوش طوله ألف وعرضه ألف كأنما هي حواجز عن البحر . . فانصرفوا من الزحام ومن الرطوبة ومن ضيق الصدر بالحواجز إلى طريق مكة . . عملية توزيع صنعها الناس لأنفسهم .

حبذا لو تنتشر هناك ملاعب للأطفال . . حديقة كبيرة . . وراءها خزانات مباحة للجميع على قسميها . . قسم للنساء والأطفال وقسم للرجال . . وحبذا أكثر لو عملت توزيعة أخرى في الساحل الجنوبي يخف به الضغط على أبحر . . والزحام عن طريق المدينة! . .

● وكم مرة كتبت عن التسويق للناتج الوطني! ولا ينبغي أن أمل الكتابة عنه، فالواجب يقتضي مني أن لا أنط وأعرض، لعلّي أجد أذناً مصغية . .

هي إذن ثلاث . . وزارة الزراعة . . وزارة التجارة . . ملاك الثلاجات الذين يصونون المستورد من خارج البلاد، ولا يساهمون بالدخول إلى

السوق شارين ليحفظوا السعر عن الهبوط المجحف، والتصعيد الفاحش، مساهمة وطنية وتجارية..

فمثلاً الفلفل الأحمر، وهو غذاء، ومادة أساسية يحتاجها كل بيت على مائدته ومطبخه.

فقبل أيام شرينا الصندوق.. وزن خمسة كيلو أو أكثر بريال واحد، لأن الوارد عرض في السوق بأكثر من العادة، بأكثر مما اشتراه «الخضرية» يوزعونه بالقطاعي!!

وفي يوم بعده لم يبعد أصبح هذا الصندوق بخمسة ريالات.. أي إن الكيلو أولاً بيع بربع ريال، وفي هذا دمار للزارع، لا تفي القيمة بأجور الحمل وما إلى ذلك، فكيف بقيمة ما أنفق عليه حتى نزول السوق.. وفي المرة الثانية بيع الكيلو بريال، وهو سعر متزن أقل من سعر الوارد المحجوز في الثلاجات.. وحين نقص الوارد أصبح الكيلو بريال ونصف وأكثر..

هذا الاختلاف سببه عدم التسويق في السعر والتوزيع على المدن والتصدير لكل جهة ومقدار ما تستهلك..

ومثل آخر أخبرني من لا أكذبه.. رجل كبير القيمة قال: نزلت إلى السوق كمية من التمر. فعرضها الدلال في المزاد، فكانت سبعين كيساً تمراً.. فرسا المزاد بقيمة الكيس خمسة ريالات.. ثمن بخس معناه القضاء على عمتنا وزادنا نحن العرب.. النخلة.

ذهب صناع الخل، ذهب الحيوان المعلّف تمراً، ذهبت الشيكولاته والحلويات المستوردة بالتمر تلقي به بعيداً..

والسبب يرجع إلى العمالة. والعمال، والتسويق والتصنيع، الاستيراد

المفتوح، لنضع خطاً مشيراً إلى هذه الأمور كحالات ثم تخطط لها علاجاً . .

أحسبني لا أنسى الجبن . .

هو القليل الوارد، يحظى بفرض تسعيرة جبرية عليه . . إنكم لا تسعرون أي منتوج وطني غير الجبن في رمضان حينما يشتريه الناس كموسم له . .

اتركوا الجبن مثل غيره يربح جدتنا الصانعة . الباقية من صانعات الخير . .

وأحسبني مرة ثانية في نظر بعضهم متجاوزاً ما يفرضه واقع الحياة!

لا . . لا . . نحن الذين نصنع كثيراً من الواقع القاهر لثروتنا وجهدنا . . إن الاستسلام لشيء اسمه الواقع، لن يكتب السلامة لاقتصاد وزراعة وصناعة .

شيء من التنظيم يرفع عن كاهل الزراع والمستهلكين! . .

الإجحاف والفحش . . لا ضرر، ولا ضرار!

● القصيم . . القصيم . . يتحدث كل قادم منه عن وفرة الماء، وعن نجاح الزراعة . . يضيفون إليه شيئاً جديداً إنه بدأ يصدر ما ينتج إلى الرياض وإلى إخوتنا في الخليج، وحتى صدّر إلى بيروت . . يصدر أكثر من مائتي سيارة كبيرة من الخضروات، والباذنجان، والبطيخ والثوم، والبصل .

هذا خبر يرويه كبار وصغار، ولكن هل هو الجديد . . خبر عن القصيم؟

. . وإذا لم يكن هو الجديد في الخبر فما هو المتجدد للأثر، أو التأثير؟ . .

القصيم على حوض نهر جوفي فيه الماء الغزير الوفير المتدفق.. رأيناه اليوم نستخرجه بالآلة، ورآه آباؤنا من زمن بعيد، فهناك مثلاً في الجاهلية الأولى يقول: «إذا سالت الرمة ربعت العرب». والرمة عودنا أن يسيل فيرتع طلاب الكلأ.. أهل النجعة، واليوم.. الرمة بدأ ينبع من الأرض لترتع الجزيرة كلها في خيرات القصيم.

كنا قبل سنين وسنين نسمي القصيم «أوكرانيا» بلاد العرب.. لأنه الأرض الخصبة.. فيها الماء الخصيب كأنها هي حوض النيل، أو حوض المسيسبي، أو حوض السند والكنج.. هذا النهر في الأرض.. أعطانا الخير من قبل، وقد كتبت أكثر من مرة عن ذلك.. أعيده اليوم لتعرف السبب الذي سمينا القصيم من أجله «أوكرانيا»..

فلقد شهدت شبع قومي في المدينة المنورة ومن حولها من حنطة القصيم.. تأتي الحنطة منه بوفرة تغني.. كانت المدينة في مجاعة.. في حالين مضيا.. في الحالة الأولى: لم تكد تفتح للحاكمين الجدد إلا والجمال السود تحمل «العدل» الأسود.. العيبة السوداء ملآنة «باللقيم» والحنطة.. فتأكل بعد جوع، فلا أدري أين ذهب ذلك الخير؟.. هو لم يذهب من النفوس، ولا من الأرض وإنما أذهبه صارف من هذه الصوارف.. يجعلنا في بعض الأحيان نأكل «الدردي»! دقيقاً مسوساً معطفاً.. مخزوناً، وبالأحرى مرتفع الثمن.. فوضى الاستيراد، والغفلة عن حماية الزراع.. بل واسميه التقاعس عن معونته، ولا أتهم الدولة فقد صنعت للزراع الكثير، وإنما أريد أن أناقش فقد صنعت للزراع الكثير، وإنما أريد أن أناقش رأس المال.. ماذا صنع من معونه.. لهذا القصيم؟..

لا أريدها مالاً يصب في الأرض، ولا قروضاً تعطى، وإنما أريده

الاستثمار . . بالتعاقد والتوثيق . . أريد من أصحاب الثلاجات أن يتوجهوا نحو القصيم، فلا عذر لهم بعد تنظيم الطريق وتمهيده بخط مسفلت . . أصحاب الثلاجات عليهم أن يكونوا المسوقين لهذا الإنتاج، وليس هناك ما يمنع وزارة الزراعة ـ ولا وزارة التجارة أن تتفاهم مع أصحاب الثلاجات.

قبل عام أو عامين اشتريت كيلو الثوم بثلاثة عشر ريالاً . . وهو في القصيم «بلاش» ومثله البصل، والقوطة أصبحت في ارتفاع وانخفاض كأنما أصابتها أزمة الأسترليني أو أزمة الذهب! . .

نستطيع في هذه المدن أن نستهلك إنتاج القصيم بسعر أقل من هذا المستورد، وبسعر مناسب ينعش المزارعين في القصيم، قد لا يتحرك فرد واحد لهذا الأمر . . فالرجاء أن تتحرك وزارة الزراعة ووزارة التجارة لتحرك الذين لم يتحركوا بعد!!

- الالتزام ما هو؟

كثير من الكلام يقال عنه، حتى لقد عدوا منه هذا السؤال في باطنه جوابه . .

والسؤال في باطنه جوابه هو . .

هل الأدب للرغيف؟ أم هو لآكل الرغيف؟

الرغيف مادة بها حياة معدة. وقوام حياة الجسد. لكن أكل الرغيف هو حياة الحياة، ومادة العيش . .

آكل الرغيف الإنسان ليس كله معدة، وإنما هو فكر وقلب واتجاه وعمل ومصير وعراك وفشل ونصر. حتى الموت حياة جديدة بعمله الذي أقامه. أو بعمله الذي ينتظره في معاده . .

كثير من الكلام عن الالتزام قرأته، وحاورت فيه.. وكل الخلاف بيني وبين هؤلاء هو.. أنهم يفهمون الالتزام على أنه مثالية تنسف الواقع، وتطرد الحاضر وتضع دستور المستقبل.. كأنما المستقبل هو الشيء الجديد بذاته لذاته.. لا تكون دعائمه على ركائز من ماض وخلق وتراث وتاريخ.

هذا لا أقرأه، فالالتزام أعرفه، هو اتخاذ الموقف لمواجهة الخيال المثل مع الواقع العمل.

الالتزام يعني الثبات على دعائم من مبادئ الجماعة، تشد أزرها وتوائم ما تريده لها من تطور وتقدم. فلا تعصف ولا تنسف ولا تطفر.

الالتزام اتجاه الفرد في اتجاه الجماعة، وتوجيه الجماعة للمثل التي يراها الفرد صالحة لحاضره.. عملاً لمستقبله.

أما الانفرادية أو هي الشذوذ بدعوى الالتزام فهذا شيء لا يطرح نفسه مادة عمل.. وقوام أحياء.

أنا ملتزم في اتجاه الجماعة لتوجيه الجماعة.. لا لتخوينها أو تهوينها أو الحرب عليها.

● وكنت أحد المرحبين بنظام العمل والعمال، ظهر في حينه كدعامة من دعائم التنمية والتقدم. فقد منح نظام العمل والعمال المجتمع بجميع أشكاله وأسره ومرافقه الواجبات، لأنه حدد مسؤولية العامل، ومسؤولية المعمل.. فرداً وشركة ومؤسسة ووسيطاً.

ونظام التأمينات المكمل دربنا لنظام العمل والعمال قد أوضح الحقوق للعمال، فأعطاه الرعاية في أشكالها المتنوعة، والمتعددة، والناجمة عن العجز والمرض والشيخوخة، والتقاعد والعطب وحتى نتائج التعاقد.

فأمسكنا البداية المتطورة لمجتمع نام . . لأنه جعل الجماعة كل الجماعة مسؤولة عن تطبيق هذا النظام المتكامل!!

فلا فائدة من نظام لا يخضع للتطبيق، إما لأنه غير ملائم أو غير وافٍ، وإما أن يكون هناك رفض من أناس يريدون أن تسير الجماعة على هواهم، يكسبون التشريف والثراء، ولا يعطون التكليف حق الوفاء بما ينمي المجتمع حضارياً في عصر تزاحمت فيه المصالح إلى حد مربك ومزعج ومثير، وتراكمت المفاسد إلى حد موجع ومرهق.

إن المجتمع يشعر بصحة ورشاد حينما يخضع لنظام يحدد الواجب ويصون الحقوق.

والدولة عرفت ما تريد، وضعت ما يحسن، وأفلحت حينما سبقت بهذه الدعامة المنمية لبداية التنمية.

إن التنمية تتم بأمان حينما يشعر العامل بعدم الإجحاف . . وحينما يشعر صاحب المال بضمان الاستقامة والأمن بهذه الواجبات التي أعطيت له على العامل. هي عملية أخذ منه لعطاء. يعني يعطى هو مقابل ما يؤخذ منه.

وإن الذين فرحوا بهذا النظام لم يفرحوا لأنه كسب للعامل فحسب وإنما لأنه تأسيس لضمانات مؤكدة كصمامات أمن.

أما إذا كان هناك من لم يغتبط بظهوره وإبرازه بهذا الشكل والموضوع المتكاملين، فإنه في ظني خاطئ في حق الأمانة التي هو مسؤول عنها . . سواء كان ذلك بالنسبة لعمله الخاص، أو هي للعمل المسؤول عنه كمدير أمين يمثل الشركاء والمؤسسين أو بالأحرى من حق الجماعة التي هو عضو فيها.

العرضحالات، أو المحامين المستجدين لذلك!!

السطح بعد أن كانت مغطاة!! إن هذا الإبراز سيشعر الجماعة بصحة وسلامة ووقاية، الوضوح، الوضوح، والجهر، الجهر، إنصاف للجماعة لنفسها، فلا يأتيه المغطى بما يفاجئ!!

وصحيح أن هناك ستكون عقابيل ومشاكل وتأثيرات، فإنها ستأتي من وراء الجهل، ومن عبث المغرضين.. ومن استغلال كتاب العرضحالات، أو المحامين.

لكن التحديد الصريح، والسلطان اليقظ والقوى سيحدد الحواجز التي تمنع التلاعب والعبث والنكول والفوضى.. فالنظام كلمة تعني القضاء على الفوضى.

أرحب بهذا النظام المتكامل دعامة من دعائم التنمية لمجتمع نام.. يسعى جهده أن يعمر. وأن يحول دون المرهقات سواء كانت من أحلام المراهقين أو من تصرفات الذين لا يفرحون بالتنظيم والتجديد!!

وأسأل الله أن يمنحنا الرضا والقوة لتطبيق هذين النظامين على مستوى المسؤولية كواجب وعلى مستوى الطموح كتحقيق.

● ونسال الله أن يتم على جميع العرائس والعرسان نعمة الفرحة في ليلة العمر، وفي أيام العسل، وفي الأيام التالية من عمر مديد وحياة سعيدة. يغلبها بالمال وتغلبه بالعيال.. ويتغلبان على حياة زاخرة بالمتغيرات والمتناقضات بالعلم والمعرفة والصبر والشكر..

مقدمة لا بد منها.. نـدخل بها على الأمهات والآباء.. فهم يأبون إلا «الزيطة والزمبليطة» تكثر فيها المصاريف ذاهبة هباء. لو صانوها لصانوا

الكثير من المربح والمفرح والمعين.

تسأل الجدات والجارات: «كيف ما توسعوها! إيش يقولوا الناس؟!».

والمسألة ليست في قول الناس.. وإنما هي من قول فارغة تريد أن تشغل نفسها بقتل فراغ.. سهرة ليلة تأكل النوم من عيون الجيران إلى مسافة كيلومتر مربع. أي مليون متر بالميكروفون المصرخ في أذن النائمة.. كأنما الفرحة بالغناء لا يكفي سماعه على الضيق في مكان الحفل.. وإنما الشهرة ما تجيء إلا بإزعاج الناس بالميكروفونات.

في ليلة أمس وفي «الكندرة» أكثر الناس ما ناموا من إزعاج المكبرات سهرة صباحي.. والصداح الوطني شرع الله با زيد..

من الجيران المريض إما من الحمى من ردود الفعل بالتطعيم. وإما من الأنفلونزا «أنف العنزة» المستشرية في الدنيا. كأنما الأرض أصبحت مرتعاً لهذا الداء الناعم النجس.. بسيط في مداخله.. خبيث في معاشرته.. ما أكثر شروره في عقابيله ومضاعفاته. رفقاً بالجيران افرحوا، وغنوا «بس» بلا مكبرات تزعج سكان المحلة..

● وعلى فكرة.. كم مرة نصحنا المذيع ألاّ يدخل أمام الميكروفون بجريدة الأخبار إلا وهو يقرأها قبل أن يذيعها يعني يأخذ «بروفة» ولو على نفسه.. فقد أعجبني «ماجد الشبل» في هدوء أعصابه!!

وأزعجني الآخرون عدا «بدر كريم» الغلط كثير، والخوف أكثر. كأنما المذيع في ربشة. أذكياء ويفهمون. «بس» الإعداد ناقص من عدم الكفاية.. يتمشى المذيع فلا يأتي إلا قبل دقيقة من قراءة الأخبار.. الحظوة لا تكفي.

● أبوها لا يريد أن يزوجها إلا لدكتور لأنه مضمون الدخل.. دكتور يدفع مهراً كبيراً، ويشتري لها سيارة، ويسكنها في «فيلا» ملكه!!

كلام عقلاء يعيشون هذا الزمان، فعلى حد إدراكه، أو كإشباع لمطامعه كل شيء بقيمة اسمها الريال، أو الدولار، أو السيارة، أو «الفيلا» ولم يدر أنه بهذا قد جعل ابنته سلعة أغلى ثمنها كأنه هو يطرد الشارين لها.. فهذه الاشتراطات لا تمكنه من التخيل. وإنما هي تستمكن منه بإعلانها على كل خاطب.

إنه يعطل الحياة.. يعضل فتاته، بينما فتاته قد تعلمت ونضجت، وهي حريصة على أن تتزوج. كانت ترضى بواحد من الذين ردهم وأقصاهم بهذه الشروط. وزاد شرطاً عندما لامه بعض أصدقائه هو أن تتعلم شؤون البيت.. ينبغي أن تجلس في البيت عامين حتى تصبح ست بيت.. أضاف هذا الشرط على ابنته لئلا تكون عليه حجة بالشروط الأولى!

وتكلمت الفتاة مع الراحمين لها، وتكلموا معه، ولكنه لم يبد أي حجة.. هي شروط يفرضها هكذا، وإذا ما غلبوه برغبتها قال: «بنتي ما تدري عن شيء.. أنا أبغي أضمن له مستقبلاً حتى تعيش في غنى!».

ـ قال له واحد: هل المال هو الضمان للزواج؟!.. لنفرض أنه طلقها لأنهما لم يجدا راحة، ولم يتم لهما وفاق، فهل تجد في المال تعويضاً عن الزوج؟.. إنك تتخير لنفسك زوجاً تباهي به ولا تتخير لابنتك زوجاً يسعدها!!

ـ فقال الأب: «أنا أعمل بكيفي.. هي بنتي وأنا أدرى...!».

ـ قال له صديقه: هي بنتك أمس، ولكنها بنت نفسها ومستقبلها اليوم. لا تجدف ضد التيار إذا جاءك خاطب اسألها هي فهي تعرف الناس لأنها

وصلت إلى السن التي تفضل فيها معرفة ما يطيب لها!

وسمعت الفتاة هذا الحوار فسكتت أياماً، وجاءت لأبيها تقول له.. لا أريد «فيلا».. لا أريد سيارة. أريد زوجاً طيباً أعينه على الحياة، ويسعدني في الحياة!

فسمع الأب، وذهب لأصدقائه.. كلهم قالوا له: الحق معها. فخطأ من الآباء أن يفرضوا ذوقهم، ومباهاتهم على مصير الأبناء والبنات.. يكفي أنك أحسنت التربية.. يكفي أن تعطيها فرصة.. تهبها لها الآن. فإنا نخشى أن تفوت عليك وعليها.. فإما أن تبقى البنت عانساً، وإما أن تزوج نفسها على يد القاضي!

ما زالت المشكلة معلقة. لكن الأمل في حب الآباء في ألاّ يكربوا الأبناء على ما يضطرهم إلى شيء من الخروج أو العقوق!!

● وما آفة الأخبار إلا رواتها..

مثل عن حكمة تقبلناها أول الأمر آملين أن يرتدع رواة الأخبار.. رواة الأخبار حينما ينخفضون قد يفرقون بين المرء وزوجه، بين الصديق والصديق. وقد يرتفعون على مقاس الحجم.. حجم الأخبار التي يروونها، وحجم السامعين الذين يتلقونها فيخربون العامر على هذا المقاس أيضاً.

والشيء الذي أريده الآن، وقد عمت به البلوى، ألاّ نلوم رواة الأخبار، ولا نرفضهم، فهم من الكثرة، تعينهم الأوضاع الممزقة في البيت والأسرة والعمارة ذات الشقق، والحارة والمدينة، والمجتمع.. فالتمزيق فيها ما هو إلا معمل لتفريخ الخبار ونشرها والعمل بها والشتات منها.. فالبغضاء (ونز العسل) أو زيد الشيخ كأسه.

الواجب الآن أن نغلق آذاننا عن السماع.. نرفض المخبر قبل الخبر لنهدأ.. لنستريح.. إن الرفض لهذا كله يعني نماء الثقة.. قتل الشك.. حين تنمو الثقة يفقد التمزيق كل مادة يمزقها.. ينمو الحب تطمئن النفوس..

هذا الرفض.. علمنا كيفية أن نرفض.. قال سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ﴾ (الحجرات: ٦) صدق الله العظيم.

بعث الرسول وليد بن عقبة إلى بني المصطلق يجبي الزكاة منهم فنظر فإذا جمع لم يتثبت.. ظنه الجمع المناوئ له.. المحارب، فرجع إلى النبي يخبره أن بني المصطلق تجمعوا لنكر فخاف أن يفعلوا به شيئاً فرجع. وجزع رسول الله ﷺ، فما ظنوه إلا أمراً بشد الحملة عليهم ليرجعوا عن نكرانهم، فأدركت رحمة الله رسوله أن ينتهي الأمر به إلى خبر كاذب، وأن يدرك المؤمنين ألاّ تنتهي حياتهم بخبر كاذب، فإذا طليعة من بني المصطلق تفرست الأمر فعرفت ما يجلبه رجوع الوليد دون تبيان الأمر، فأسرعوا إلى رسول الله يتقدمون بالطاعة، ويعلنون التمسك بالإيمان، ويكذبون ما أخبر به الوليد، فنزلت هذه الآية تصدق المؤمنين وتفسق العجلين الذين يخبرون الخبر الكاذب بسوء الظن.. سواء قصدوا الفتنة لتعمل عملها، أو جاءت الفتنة عاجلة بالفعل العاجل منهم وهم لا يريدون!!

أحسب أن رفض السماع للأخبار من تقوى القلوب!!

- هناك مثل يقول: من أحب نفسه كرهه الناس!

مفهوم ومعلوم.. بينما هو لا مفهوم ولا معلوم عند الذين يمارسون الحب لأنفسهم طارحين وراء أظهرهم كل الاعتبارات والليقات والتراكات

على حد المفهوم لدى عمنا وصديقنا القديم يرحمه الله الفنان الصيدلاني الشيخ «جميل ودل».

أنت تحب نفسك هذا صحيح ولازم ولا نكران عليه. فمن لم يحب نفسه لن يحب الآخرين. حتى حب الولد هو من حبك لنفسك. لكن المقصود هو ألا تكون «الأنا» «وبس» عنزة ولو طارت من سرداب، في خندق، لا يستطيع أن يتحرك فيه إلا الخفافيش.

فمثلاً إذا جاءك رب أسرة، يشتري الثلاجة بمفتاح ويضع المفتاح في جيبه، أو يربطه على «التكة» كما قالوا عنه، فهذا أحب نفسه وحرم عياله من الماء البارد.

إنه قد غرس عقدة في نفس كل من عطش وشرب من «الزير»!

ومثلاً ذلك الذي يشتري المحمر والمقمر والعنب والتفاح، فيغلق عليه الثلاجة، أو الدولاب، ليأكل هو دون غيره.

فإن الذين معه سوف لا يحبونه. لأنه أحب نفسه ـ الأنا ـ فعقد العقد في نفوس!! نحن. .

والعناد برأيي رغم التبصير بالخطأ، والدوام على الزلات رغم الدقات والضربات، هو شيء من حب الذات «الأنا» يجعل الناصحين والمشفقين والراعين ومن إليهم في عقد من كراهية هو صنعها، ولم يحيلوها عليه، ولم يجتلبوها لأنفسهم.

حذار حذار، من فرحة تطغى على الاعتبارات، ومن ترحة ترزأ بها اللياقات، والتراكات.

● حمار، بلغت القيم المدفوعة ثمناً لبيعه أكثر من خمسة آلاف جنيه

ذهباً مسطرة على سندات مكتوب فيها مبالغ متعددة.. قرض حسن يرد عند الطلب.. كل سند بقيمة ثمن الحمار.. اشتريت وقبضت الحمار بمائة جنيه، باقية في ذمتي لصاحب الحمار فلان.

وهكذا بلغت خمسة آلاف جنيه قيمة الحمار وهو لم يخرج من العزلة.

بيع الحمار بمائة توثق بسند مشهود عليه.. محدد فيه الأجل، أو مذكور فيه القرض الحسن.

وبعد توثيق السند يقوم شاري الحمار يمسك برشمته ويجره أمتاراً ثم يعود به قائلاً: عدلت عن شرائه.. أبيعك الحمار وتعطيني الثمن.

ويشتريه صاحبه بقيمة لا تبلغ الربع أي خمسة وعشرين جنيهاً يقبضها الشاري الأول «المدين» من صاحب الحمار الفاتح بنكاً متنقلاً يقرض الناس ويدينهم على طريقة بيع الحمار بثمن فاحش ويشتريه بثمن مقرر لا يتعداه حمار آخر!

حيلة على الربا، يضطر لها من يستدين حتى موسم الحج..

هي ربا ومقامرة واستغلال.. وأخيراً توقف كل مدين لا يدفع.. ذلك شيء باهظ.. لكن الوثاق مشدود، سند مضبوط. ويدخل أولاد الحلال بالحل صلحاً.. يدفع النصف.. وهذا أيضاً كسب بقيمة كبيرة قيمة حمار.

والحمار أمثاله كثيرة وكثيرة.. تلك طريقة قديمة في الربا والاستغلال.. ولعلّ الزمان أثبت طرقاً جديدة في هذا الشأن.. والحاجة أم الاختراع.. «والشبعان ما يفت على الجيعان، وإن فت فلأمر ما باعت سمسماً مقشوراً بغير مقشور».

وصور أخرى من التي ينبتها الزمان. صور العم «جعيدان» كان في

الحوش، ويسكنه المتحضرة أي دلالو الفحم، فيصدف أحياناً أن يهبط جلابة. . وليس عند الدلال ما يقدمه عشاء لهم، فيذهب لعم «جعيدان» يستقرض أرزاً وسمناً ولحماً، أو دراهم.

ويتم الأمر بشراء فحم تعدد أكياسه عشرة أو أكثر، بأكثر من خمسين مجيدية. . ثم يبيعها الشاري المقترض كعملية بيع الحمار بمبلغ عشر مجيديات يقبضها نقداً. يشتري عشاء الضيوف ويكون قد كتب السند بالخمسين ريالاً. .

صور بدائية. حمار وفحم. فهل هناك صور حضارية، ارتقت وسائلها وتساوت غاياتها؟. .

الفرق في الأسلوب، أما النتيجة فواحدة.

● قلت له: ما هو الشيء الذي بدل حالك؟. . لقد كنت تستر محاسنك. . لا تطيق ثناء عليها. ولقد كنت تتخفى بمساوئك. . تخاف مذمة الناس، فأصبحت الآن تجاهر بما تحسن، وتعاهر بما تسيء. . من بدلك؟!

ـ قال: ليست هذه شجاعة، كما أن الحالة الأولى لم تكن إلا شجاعة الجبن، أتشجع لأخفي محاسني، وإخفاء المحاسن مرهق، وأجبن أن يرى أحد مساوئي. . حتى ظهر «فلان» فأعطاني أن أكون أشد وقاحة من جبان، وأقوى وقاحة من شجاع، فمن الضروري أن أظهر المحاسن لأتحدى الذين يعيبون مساوئي. ومن الإحسان إلى نفسي ألاّ أبالي بما يقال عن المساوئ. فأنا بما أظهر منها أتحدى الشاتمين. . كنت لا أستطيع ذلك قبل أن يظهر فلان. ولكنه ـ حفظه الله ومتعني الله بطول لسانه، وزاده فضولاً على فضول

ـ قد أخذ يجري وراء أخباري.. يظهر الإشفاق عليّ حيناً عند الذين يحبونني، وحيناً آخر لا يكتم الشماتة.. إن أحسنت تأول الإحسان إلى سيئ.. يقول: أتركوه كذاب، مراء.. يريد أن يضحك على الناس.. انظروا ماذا فعل بعدها، ويعدد المساوئ، والأخطاء، ويبالغ في تجسيمها، وكان كل ذلك يبلغني.. تحاشيته أول الأمر.. حزنت.. رجوت أصدقاءه أن يكفوه عني، وأخيراً تنبهت.. عرفت أن كل مذمة قد قالها، وكل الناس قد سمعوه، فخرجت عليهم أعلن حالي.. لا أخفي حسنة، ولا أدس سوءة، بل أتعمد أن أجاهره بكل ذلك.. كأنما أصبحت أنا شاتم نفسي لأفوت عليه سوقه الرائجة.. كنت أتعمد كل مجلس هو فيه.. أبدأه بالسؤال: مالك قد فرغت من أخباري؟.. اليوم فعلت كيت، وكيت.. أنا أزودك بها. اذهب إلى مجالس أخرى وأخبرهم عن ذلك.. أتعبته.. فوت عليه كل الفرص. أنا مدين له بهذه الشجاعة، قد قطعت لسانه. واستمرأ الناس ألا يسمعوا منه. واستمر الناس ليكذبوا الأخبار الشائنة عني.. أصبحت بينهم إنساناً يخيف.. يقولون إن وراء هذا سراً، لو لم يجد من يحميه، أو ما يحميه لما فعل ذلك.

إن الحقائق قد لا تنفع الناس عنك، أو بك، فإذا استطعت أن تصوغ لنفسك الأوهام بمثل هذه الشجاعة التي فعلت فإنك تكسب الاحترام.. فالناس قد لا يحترمون من يحسن إليهم بقدر ما يحتملون قاهريهم!!

بهذه الوسيلة لو كبّرنا صورتها لوجدنا أن كثيراً من الناس قد وجدوا السلامة في إذاعة معايبهم، وإشاعة الشتائم عنهم.

- وكنت أشتري السمك!

فوقفت أفتش عن المقشر حول الضحل يقشر فيه. فإذا بأكوام من الزبالة على الضحل. وإذا واحد من هؤلاء يفتش في القمامة فوجد سمكة من النوع الناجل ملقاة على الزبالة. أي إنها زبالة فأخذها يشمها. ثم مضى يضمها كشيء طيب وصرخت فيه: ماذا تصنع؟ ارمها.. ارمها.. وقال: هي ناشفة..

ـ قلت: إنها من القمامة. تغش بها مسلماً أو تأكلها أنت! وخاف مني كأني مفتش بلدية أو هو استحى. فألقى بها في الزبالة.

وعزمت ألا أقشر السمك في هذا المستنقع.. أقشره في البيت.

* * *

● الحجر الكبير يضعه صاحب بيت في جانب الشارع المسفلت يحمي جداره.. يصنع العجب في إرباك السيارات.. وكلما رفعته البلدية أعاده.

شيء من الشعور بإحساس الآخرين، وشيء من الرحمة بعدم الإضرار بالآخرين.

ـ قال له صاحبه: ولدك يصل غداً إلى جدة.. فلوى رأسه وقال: أدري. أدري.

ـ وقلت له: ألا تسعى لتقابله في المطار.. إنه قادم مع الكبير.. الكبير.. فقال: لا.. لا.

ـ قلت له: قسوة. لقد كتب الله على ولدك الرضا لك وكتب عليك الرضا منك.. الطاعة منه، والرحمة عليك له. فارحم يرحمك الله ويرحمه.

ودمعت عين الأب ونزل يقابل ابنه. فإذا هما على صفاء بعد جفاء

كلمة خير تذكر بها.. لها أجرها ولها أثرها..

ـ سمك يأكل السمك.. أما السماك فيأكل الأسماك، والحيتان، والديدان، وقد لا يتورع عن أكل بعض السماكين..

صراع الحياة في البر والبحر. آكل ومأكول.

السماك ليس هو السارق، ليل وفجر.. يصطاد ليأكل، أو ليشتري قوت عياله بالثمن الذي باع به صيداً.. السماك الكبير هو غير من يصيد.. هو الذي يتصيد الصائد بأي أسلوب. السماك الصائد قد يكون هو العجوز صائد الحوت.. عجز عن حمله في «الهوري» فربطه وراءه يجره، فجاء القرش ينهش مزقاً حتى إذا وصل لم يجد شيئاً! مأساه أن يضيع جهد في ساعات مظلمة إذا طلع النهار طلعت الخيبة معه!

تلك هي سخرية «هيمنجواي» بالحسرة القاتلة له ضد القوى الناهشة القاتلة لحياة الذين لا يجدون سمكة يصيدون، أو هم إن وجدوها أكلها ناهش مسعور، أو هي عاطفة قد برزت من عتمة الظلمة تعيش فيها حياة قومه هو منهم في كل حين، وهو لهم حتى إذا غضب منهم.. ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يتخلص من الذين هو منهم حتماً أن يكون لهم!

عاطفة ساقته إلى ذلك في استرخائه.. جاءته من إغفاءة النزوات والشهوات إلى صحوة الإنسان.. يصحو ضميره لحظات.. يرتكب فيها الخطأ الكبير وهو التعبير عن إنسانية الإنسان!..

الضمير عند الأخلاقيين خلق ولو تمزقوا به لكنه الآن هو نقطة الضعف.. لا يمزق الأخلاق فقط وإنما هو قد مزق الخليقة حين أنكره بعضهم كشيء في وجوده. وحين حاربه بعضهم كشيء لا ينبغي وجوده.

حينما سخر «هيمنجواي» أسرع الناهشون الذين كربوا بهذا الكاتب فساقوه إلى «القرف» منهم . . «فالقرف» من حياته . . فإلى الشرف ـ كما يزعم ـ في ميتة منتحرة! . . انتحر الجسد وبقي الكتاب، وما زالت الكلمة تصارع . . تنهش الناهشين .

إن هيمنجواي صوت كبير لم يستطيعوا صيده . . فصاد هو نفسه باستلقائه على الساحل يتمرغ فيه لينتحر كإعلان عن السوءة التي حدثت في مرقده داخل مغارة الحيتان، في جوف البحر حوت ما أراد أن ينتحر في البحر فالنهش فيه طبيعة . . أراد أن ينتحر في البحر لأن النهش فيه صناعة ابتكرها الإنسان فغلبت على طبيعته!!

ـ في أيام زمان كانوا يختنون أولادهم الذكور وهم في سن كبيرة، بعد الخامسة أو حتى السابعة، يخافون على الطفل الصغير . . وهم معذورون .

أما اليوم فالختان في اليوم السابع عند الطبيب بدلاً من الحلاق . . الطب تقدم . . والطبيب موجود!

وفي حفلة الختان يعملون «زيطه وزنبليطة» على طريقة ما يدونه «الجبرتي» وهذا لا يهم الآن! فالمهم هو أن الطباخ المشهور لعمل الأرز بالحمص كان ماهراً في طبخة الأرز . فمهما بلغ من كيس أو مد ومهما كثرت خلوف الضأن فهو مجيد . . غير أن فيه واحدة فهو غالباً ما يحرم عن غذائه من هذا المطبوخ بيده . يتركهم يغرفون ويذهب هارباً . لماذا؟

إذا أحد الخبثاء علّق وراءه بذنجانة «حمراء» أو لفظ اسمها، فإنه يجن ويترك المطبخ ويجري هارباً، يضرب كل من هو أمامه .

كانوا يقولونها أو يفعلونها قبل أن يبدأ عمله . . فيتركه ويعطل الحفل .

فبرعوا في التنكيد عليه، يعاملونه بها بعد الاستواء.. اسمه «سعيد»، ولقبه «شرشورة» يا سعيد، لبيك، شرشورة، هاه، أيوه.. بذنجانة حمراء. يلعن.. كلاب، ويهرب.

عنده عقدة من اسم البذنجان!

كما العقدة التي عند بعض الناس من اسم «شوقي» إذا ذكر اسم شوقي. جنوا الجنون البذنجاني كما شرشورة!

من يطبخ لكم مثلي.. من يعرف مثلي.. أنا أبو الحفلات الختانية. والأعراس غير البذنجانية!

وقد فعلها «شرشورة» في ختان قريب لنا. فلم يأكل الآكلون إلا بعد العصر، حتى راقت زحمة البذنجان في أعصاب «شرشورة» وحتى وضع صاحب الحفلة حرساً يحرسه يمنع رؤية البذنجان عنه.

وحين قال: تكمبل. زعق شيطان.. بذنجان.. بذنجان.. فألقى بالعدة على الأرض، وخرج يجري. لكن الناس غرفوا وأكلوا.

هكذا العقد تفعل في صاحبها ما يفعله الجنون حتى لو كانت العقدة آرية عن شوقي!

كما هي العقدة عن غيره في نفوس تتوهم أنها نابحة القمر!

● قال أحد القادمين من المدينة المنورة:

إن الصيف ويعني الرطب سيتأخر شهراً عن كل عام مضى!

قلت له: إن عهدي به أن ترطبوا من صيارينكم، أو صيرانكم في أول يوم من السرطان. يوم ٢١ يونيه، ويتوالى كل يوم في الزيادة فبعد الحلية يأتي ما هو أطيب وأمتع وألذ.

ـ قال: إن شيخاً من العارفين بأحوال عمتنا النخلة هو الذي ذكر لي عن هذا التأخير. وما العلة؟

السبب هو الربيع. الغيث. المطر. فلم تعطش نخلة. تستجم. تستجمع في الجفاف قوة العطاء فقد شغلها المص وألهتها الرضاعة من الثرى أن تعطي ما يكمل به النضج للسدى فالزهو فالرطب.

أهكذا يفعل المطر؟

وأخذت أنظر حواليّ وفي جدة فوجدتني أتطلع إلى شجرها. . النيم؟ ليس فيه الدلالة فهو الأخضر كل يوم!

ورأيت البنسيان قد ازدان خضرة كأنما هو الورق الجديد نبت بعد أن حت ورق قديم. . إن هذه الشجرة شجرة الشتاء، تمرع، وتزهو فيه، خريفها الصيف، فكيف بقيت خضراء في الصيف على غير ما عودتنا؟

أهو المطر إن عبث به، كأنما هو قد بدل البيئة تحتها وفوقها وبها وعنها ولها؟

سؤال أطرحه على العالمين بالزرع والشجر. أرجو الإجابة عنه.

فلقد زرعنا الذرة وهي صيفية، فلما حصدناها وجدنا تحتها في ظلالها من الحنطة وهي بنت الشتاء ما يربو على أربعين كيس حنطة صاحبة صلبة كأنها في وقتها، كأنما الذرة ومن ظلها وبردها قد صبرت الأرض المنثور فيها القمح بقية «الجرين» بيئة صالحة نبت فيها الحب. . حب الحنطة.

النتائج أمامنا، والعلّة واضحة. فهل هذه من تلك.

الحمد لله على الغيث. أغاث النفس والأرض والحيوان حتى الأبدان أغاثها بهذه اللطافة، قهرت الجوزاء أن تكون كأعوام سبقت.

● وتفاءلت بما كتبه «العكاظيون» عن الرشوة.. كأنما أمسكت يدي النهاية الحتمية لها.. فشيء طيب وحسن أن نعالج الداء.. نعرفه.. نصارح المريض به.. نصنع العلاج نشفي به المريض.. نصنع العلاج يشفى به المريض، ونخطط للوقاية منعاً لتفشي المرض.

ولعلّ بعض المرضى ـ ولو أزمن مرضهم ـ يفتشون عن الشفاء بالتقوى.. بالتوبة.. بالخلق. بالرحمة.. بهذا الإسلام حرم عليهم الرشوة ليكونوا المسلمين.. يسلم إخوانهم مما تفعل شهواتهم وتستبيحه أيديهم!

السرقة ملعونة.. كبيرة، والرشوة سرقة، بل هي شر منها لأن فيها العلنية المتبجحة.. فيها التفشي الوقح حتى لينام بعض الجهلاء من كثرة ما يرونه من آثارها إنها الشيء المباح!..

هي سرقة جيب من يد طمعاً في المزيد، وإغراء لصرعاها.. يتساقطون حولها كما يتساقط الذباب على القذارات، هي سرقة الواحد من أخيه حتى لتكبر لتكون سرقة الواحد من الجماعة.. أي من المال العام حتى لكأن الراشي هو الرائش في الوقت نفسه لأنه وسيط الصفقة.. لا دافعها. هو يدفعها شكلاً لأنه الوسيط فيها موضوعاً وفعلاً أما الخاسر بالفعل والنتيجة هي الثروة العامة.. فكأنما الدولة التي أقامت الأمن مضرب مثل في الدنيا كلها أخونها إذا ما ارتشيت، وهي التي تأمنني بهذه الرشوة أصنع من الفساد إفساداً!!

الخاسر بهذه الرشوة هي الأمة كلها يسرق أبناؤها مال أبنائها.. مال بنائها، والخاسر بعد كل ذلك هو المرتشي نفسه يعيش في مخافة وعذاب من هذه الأصابع تشير إليه.. وحتى ليندس في نفسه من نفسه!.. يخاف صورته في المرآة.. ليست مرآة من زجاج إنما هي عيون الراشي

والمشاهدين والسامعين، والرائشين والحيارى يرجون . . يرجون الهداية للجميع!

تفاءلوا مثنى . . فمقاومة الرشوة، والقضاء عليها جاهز نظامها . . موجود سنته الدولة، والأمل كبير أن يتم تطبيقه . . هو نظام! من أين لك هذا؟!!

إن نظام «من أين لك هذا؟» ليست بدعة، وليس هو تقليداً لأحد فيه إلا للدولة الآمنة المطمئنة . . آمن شعبها بها. وما أحسن، وما أكبر أن يأمن كل شعبها . . هو سنة الخليفة الراشد سيدنا أبي حفص الفاروق عمر بن الخطاب . . الإمام العادل رضي الله تعالى عنه . . الذي حكم بنظام الإسلام ليعطينا الدرس كيف ساد نظام الإسلام . . ليمحو الكذبة أن الإسلام دين فقط . . سلطة روحية فقط. إنه دين ودولة، وعمل، وسيف.

حديث الجدات والعجائز

● يظهر أنني منذ زمن ما سمعت كلام العجائز.. لا لأني فقدتهم، وإنما لأني بعيد عنهم نوعاً ما!..

لكن العجائز من الرجال يظهر ـ مرة أخرى ـ أنهم تركوا كل شيء وانشغلوا بأنفسهم.. أما جداتنا فأكثر ثباتاً على «الدقة القديمة»!!.

ـ قالت إحداهن لواحدة من البنات: «اعقلي يا بنت.. ترى المرعة ما تنفع!!».

ـ قالت البنت: «ليه يا ستي.. أنا ممروعة؟!.».

ـ قالت: «فيه أكثر من هادي مرعة.. تكسري كلامك زي ما تكسري أجفانك.. هوا لسانك اللي يتكلم ولا أجفانك؟!! المرعة ما تصلح.. ترى اللي يشوف بخته.. لا يسويها تحته!!».

ضحك غيري حينما سمع ذلك حتى الفتاة ما بكت.. اعتبرته كلام جدة «مخرفة» وراحت تلعب الحبلة، أو تتكلم في التلفون.. تسأل زميلتها سؤالاً في الجبر.. اليوم البنات جدهن جد، ولعبهن لعب!!

لهذا.. النجاح أصبح ظاهرة فيهن.. أما أنا فحين سمعت كلام العجوز تذكرت بعضهن.. تعطي إحداهن الفرصة لتفعل ما تجيد، وهي تفعل ذلك وتجيد إذا ما بقيت على ما تحسن.. أما إن تخطت ذلك لتقلد غيرها.. إما

برغبة في التفوق، أو بدافع من الغيرة التي هي في المرأة أكثر . . فإن هذا يصبح «مرعة» أكثر!!

لتدع أن تكون ظاهرة، فإنها حينما تدع ذلك تصبح ظاهرة . . بالوقار . . بالإجادة . . بالسلوك المتزن! . .

وذهبت استقرئ حالات أخرى . . وجدت الكثير لكني ما زلت في الكبير أعيش . . ذلك هو حكمة العجائز . . حكمة الجدات . . أما الرجل العجوز فأصبح خاوي الوفاض لأن «الدوشة» والقلق النهاري أضاعا منه حكمة الليل . . في «البلوت» حيناً، أو في أي شيء آخر . .

لقد سلمت جداتنا إلا من الجد . . فهن أشد صرامة، وأشد ملاحظة للحكمة . .

إن الجدة في البيت رحمة وصيانة . . لقد رحمت فتاتها حينما انتبهت إلى أن «المرعة» ما ترعى . . «المرعة» ما هي صنعة . . يمكن تكون صرعة تتستر بها القرعة!!

● بعد ظهر أمس رنّ جرس التلفون، وجرى الكلام بين جدة وجدة . .

ـ قالت الطالبة للجدة في بيتنا: «من العائدين . . كل سنة وأنتم بخير! . .» فأجابتها:

ـ «محرم خلص، فبأي عيد؟!» قالت: «بإبريل . . أنت لا تعرفين أن اليوم أول إبريل؟!».

ـ قالت: «وما شأني بإبريل؟ . .» فأجابتها العجوز الطالبة التي تقلد أحفادها في تفاهات أول إبريل: «ألم يكذب عليك أحد اليوم، أو لم تكذبي على أحد؟!».

ـ قالت جدتنا: «الكذب حرام.. أعوذ بالله، أتريدين أن أكذب تقليداً لغيرنا واتصرف بهذه الرقاعة؟!».

ـ قالت لها: «ما هو ضحك، أنا اليوم صحيت من النوم على التلفون وجدت فلانة تنادي: تعالي يا استيته أنا وجعانة جداً.. ماني قادرة أتكلم.. فأسرعت إليها فإذا هي تضحك.. كذبة إبريل!».

هذه المحادثة التليفونية جرت حقاً بين جدتين.. لم أتزيد فيها، لكن المفجع أن تأتي كذبة ليس فيها مثل هذه الدعابة.. كذبة مفجعة تصيب بالصدمة العصبية، أو بالشلل، أو بالإغماء، أو بالنكد المفزع، فمن الظلم أن نكذب هكذا..

سمعت ما وقع للأخ «يوسف شابو».. ناداه أحدهم بالتليفون وقال له:

«الأتوبيس العائد للمدرسة اصطدم، واتكسروا البنات، وقالوا إن بناتك نقلوهم إلى المستشفى!..» فصعق الأب يوسف شابو، وصعقت الأم، وأغمي على الجدة، وخرج الأب والأم لا يعرفان طريقهما.. يطرقان أبواب المستشفيات يسألان عن الأتوبيس المصطدم والبنات.. لم يجدا شيئاً، فاطمأنا قليلاً، وذهبا إلى المدرسة، فوجدا البنات في خير ونعمة.. ولم ينته الحادث بعد. أحدث عقابيله السيئة من ردود الفعل في نفسيهما، ومن فعل الفعل في جدتهم.. أخذوها إلى المستشفى يعالجون إغماءها!..

أهذا يليق؟! لو كنت مكان الأخ يوسف شابو لسألت عن هؤلاء الرقعاء وتقدمت بشكوى إلى الإمارة ليأخذوا جزاء ما صنعوا.. وسألني أحدهم: «هل تجازي الحكومة من يفعل ذلك؟..» قلت: «لقد دفع الجزاء عمر على نفسه من نفسه حينما فعل ما هو حق.. لكن الرحمة فيه جعلته يدفع الجزاء» عمر أمير المؤمنين حاكم دعا امرأة لقضية لكنها روعت بدعوته

فأجهضت فلما سمع عمر سأل أصحابه: «لقد دعوتها، فروعت فأجهضت فهل أنا قتلت جنينها؟» قال الكثرة من الصحابة: «لا . . ليس عليك شيء . . إنما أنت حاكم دعوت امرأة في قضية». وكان عليّ كرم الله وجهه حاضراً لم يتكلم، فسأله عمر: ما تقول يا أبا الحسن؟ قال: «أنت روعتها فقتلته».

● وجلست إليّ أفسر لها حلماً رأته. كانت جدة قد وصلت إلى سن اليأس.

ـ قالت: «رأيت في المنام موسى . . سألت من هذا؟ قالوا: موسى عليه السلام فارتعدت هيبة وإجلالاً لاسم نبي وصوت نبي».

ـ قلت: «هذا خير . . كنت كاربة في ضيق وشدة، وهذا فرج لها . . فموسى كان فارج الكرب عن قومه» . . فارتاحت وطفح سرور على أسرتها.

وتذكرت لتقول: «وقبلها رأيتني مع الناس وهم يقولون لي: أنت مكروبة، حبلى، ستلدين» . . وكنت أقول لهم: «لست حاملاً، لا أشعر بحركة الجنين». فما صدقوا وأصروا على أني حامل . . ثم رأيتني نفساء . .

ـ قلت: «لماذا لا تسلكي السرد الزمني؟».

ـ «هذه مفسرة لرؤيتك موسى . . فالنفاس فرج، ما تأكد بولادة الطفل. فأكدته رؤيتك لموسى».

ـ «أبشري فسيأتي إليك الفرج تسرين به وتحملين معه ثقلاً . . فموسى حمل قومه أثقالاً وإن كان فرجاً عليهم . . والطفل يحملك أثقالاً وإن كان فرجاً لك . . لكنها أثقال مسؤولية وتبعات تحملينها في سبيل ولد أو زوج أو قريب».

ورضيت فرحة بهذا . .

فهل عند مفسر الرؤيا خبر يصدق به تفسيري أم لا؟..

قد يقرأ واحد لا يصدق الحلم والرؤيا فهذا لا شأن لنا به..

ولكنا من المؤمنين بصحة الرؤيا، لقد جاء مصداق ذلك في القرآن والسنة..

حتى صاحبهم فرويد لم ينكر ذلك وإن جاء يعلل.. ليكن ما يقوله صحيحاً في اجترار المختزن في الشعور الخفي.. وليكن ما يقوله صحيحاً في الأحلام العضوية.. لكن الصحة في عقيدتنا عن الأحلام الروحية في كشف الروح من صفاء الروح..

هذا هو ما نصدق وما نؤمن به..

فكم رأى أناس فصدقوا الرؤيا، شيء واقع لا ينكره إلا من فاته صفاء النفس.

ـ صورة في حكاية ترويها لنا جداتنا حيناً، وأشياخنا حيناً آخر.. نتعلم منها حرصهم على صون ما ورثوا، ونصحهم للذين ورثوا..

أشياخنا في القصيم يقصون علينا هذه الحكاية:

قالوا: إن رجلاً أتاه الله صحة في الجسم، وكفاءة في العمل، وإرادة للعمل.. يملك مزرعة في كل عام يزيد فيها وينميها.. قدم لها كل فنه وعلمه، وماله، فنمت وأمرعت وأفرعت، وأثمرت، وأنبتت من كل زوج بهيج، وكان يعشق النخلة كأي عربي يحب عماته النخل، وفي أواخر عمره خاف على مزرعته إهمال الأبناء ينصرفون عنها.. إما بإسراف يضيع، وإما بكسل يميت!. ففكر في موعظة يعظ بها أبناءه.. لكن المواجهة بما يريد صعبة لأنها لا تفيد، فاحتال عليهم.. قال لهم:

ـ «هذه المزرعة نامية، وفيها خير كثير، وهي لا تحتاج إلى جهد كبير، وقد زرعت لكم بين كل نخلتين أثمرتا وكبرتا نخلة تحل محل السحوق التي تسقطها الريح، وتعرفون حبي للنخل، وقد دفنت تحت نخلة من هذا النخيل «الزلعة» وفيها كل ما أملك. . ريالات برم، ومجايدة، وفرانسا وذهب مسكوفي، وبنتو، وجورج أيمن، وأبو فرج الله. . كلها في الزلعة، فإذا تواريت في قبري احفروا تحت هذه النخلة التي لا أعينها لكم، واقتسموا المال. . ».

وعاش مدة، وهم يفكرون أين النخلة التي تحتها الزلعة؟!

كان يعرف تفكيرهم، فيذهب إلى نخلة بعيدة. . يقف عندها يوماً، وإلى نخلة أخرى، وإلى نخلة أخرى ليبعثر التحديد عليهم. .

وتوفاه الله، ونزلوا إلى المزرعة، وأمسكوا بالمساحي، والفواريع، والمناجل يحفرون الأرض. . يكسرون الصخر. . يزيلون الأوساخ. . حفروا تحت كل نخلة. . يعني جددوا التربة. . حفروا كل النخل. . لم يجدوا الزلعة. . تعبوا أياماً، وشهوراً، ولكن النخل أفلح، وأمرع، وزاد حسناً من خدمة التربة التي لم يقصدوها، وجاءهم جارهم، وكان شيخاً كبيراً يعرف السر. . قال لهم: «هل وجدتم الكنز؟!. . » «قالوا: ما وجدنا شيئاً. . أبونا أضاع الكنز. . حفرنا تحت كل النخل لم نجد شيئاً!. . » قال: «يا هؤلاء. . لقد وجدتم الكنز. . إنه في أيديكم. . أليست هذه الفلاحة للمزرعة، وخدمة التربة بهذه الحفريات قد أحسنت إلى المزرعة، وجعلتكم تألفون خدمة النبات؟. . هذا هو الكنز الذي أراده أبوكم. . أراد منكم أن تفلحوا الأرض. . ».

● رب كلمة قالت لصاحبها: دعني!

وضربوا لذلك مثلاً.. جعلوا منه حكاية، تحكيها عجوز من كثرة ما تحمل أصبحت تتخفف بسرد الحكايات.

وهكذا الفراغ والسأم يصنعان قاتلهما.. مع أنهما ما دخلا نفساً إلا أرادا قتلها.

فقاتل الفراغ والسأم هو المشغلة بشيء.. أي شيء فالعجوز مثلاً لا تعرف القراءة، ولا تقدر على عمل اليد، فالمخرج هو في عمل اللسان، في حكايات. تجمع دنيا حافلة بمسرة من هؤلاء الأحفاد، تسمع منهم وهي تحكي.. آه.. أيوه.. كمان.. كل تأمينة، كل استزادة شحنة قوية تقوي بها نفس العجوز فلا يبقى لديها فراغ، ولا يبقى في نفسها سأم، أو قلق أو كآبة.

والفراغ باعث الجنون ألاً يقصيه، فإن عز العمل لطرده، أو الكلام لقتله فهناك أحلام اليقظة (!!) فقد تكون وسوسة، همسات النفس لذاتها. لكنها على خفيف فهي طاردة الجنون.

إن أحلام اليقظة قصور في الهواء، وثروة من سراب، لكنها تقضي على أوجاع الحسرة واليأس.

سرحة النفس والخاطر في الأماني تطرد الموجعات.

ـ قالت العجوز:

ـ كان الفلاح يثني على حمار وثور.. يسقي نخيلات.. غير أن الحمار الذي يثني عليه يزيده كرباً بعمل خارج «المجار» السماد، الماء للشرب، الحجارة، فشكى إلى الثور حاله. فأشفق عليه الثور، وقال كلمة:

ـ قال: «تمارض. لا تأكل فإن صاحبك يخشى عليك الهلكة فتستريح أياماً».

وسمع صاحبهما الكلام، فالعجوز تفترض أن صاحب الحمار فهامة للغة الحيوانات.

فجاء وشد على الثور عربته، وجره يعمل بدلاً من الحمار، فنهق الحمار شامتاً في الثور.

فخار الثور بصمت يعترف لمالكه ويعتذر له، فعفا عنه وجر الحمار على قفاه يشغله مضاعفاً جزاء له.

وهكذا، كلمة قالت لصاحبها: دعني، لهفة الشماتة، أعادت الأحمق إلى الإرهاق.

● وحكايات العجائز من جداتنا تبدو وكأنها من لوازم (كلمة ونص) نعود إليها ضرباً لمثل نذكره ونبصره. لعلّه إن لم يطبق الفعل، أو لم يأت على المجز يصل إلى حد الإشارة تغني عن العبارة.

ـ قالوا. . إن رجلاً أعوزته الحيلة في بلدة، ففتق له ذكاؤه أن يهجر أرضه إلى بلدة مجاورة فيها أناس يمكن التفاهم معهم أو استغلالهم.

واتخذ سمة الدرويش، فوثق به كثيرون. . هذا يضع عنده أمانة، وهذا يأخذ النصح منه. . الأمانات ترد والنصح يفيد. عملية الذكاء وعن خط مرسوم. . عشرات تعاملوا معه فما أنكروا عليه شيئاً!

وحان الوقت ليستغل السمعة الحسنة غرست له في مهجره. فأخذ يتربص، يتحين فرصة حتى واتته على يد رجل جاءه يحمل كيساً فيه ألف دينار. يضعها أمانة عند الدرويش! فأخذها منه. وأحضروا له سجلاً يقيد فيه

الأمانة، ومضى يكتب وهو لا يكتب. يصور لصاحب الأمانة أنه حريص بينما هو لم يضع رقماً أو حرفاً على القرطاس.

وعاد الرجل يبغي أمانته، ففتش الدرويش الدفتر فلم يجد فيه شيئاً لأنه لم يكتب فيه شيئاً. فأغلظ الدرويش القول لرجل يطلب ما ليس عنده!

وذهب صاحب الأمانة يعض ناجزيه. يأكل أصابعه، ويشكو لطوب الأرض.

وسمعت سيدة كريمة قصته فأرسلت إليه تقول له: «إسمع إني ذاهبة إلى الدرويش فاتبعني. ولا تمكث دقائق بعد أن أدخل إلا وأنت داخل تطلبه الأمانة، فإنه في الحال يعطيها لك، ولا تسأل عن السبب!».

وحزمت أمرها على صندوق جواهرها ـ تذهب إلى الدرويش، ومعها تمشي وراءها جارية معلمة ـ علمتها ماذا تصنع حين تكون هناك.

ودخلت عليه. تقول له: «إني امرأة وحيدة، بعلي مسافر، وخشيت أن تسرق جواهري. لهذا أضعها أمانة عندك». وبسطت الجواهر ليعدها الدرويش. ليسجلها في السجل. وبينما هما كذلك دخل صاحب الألف يسأل أن يعطى أمانته. فالتفت الدرويش يوازن بين الألف والآلاف. ففتح جرابه ونقد الألف لصاحبها.

ولم يكد يخرج بألفه حتى دخلت الجارية تقول: «ستي.. ستي.. ستي.. سيدي جاء» ولها صوت له رنين الذهب من الفرحة المعلمة للصناع.

ونهضت السيدة تلم جواهرها. تضعها في صندوقها شاكرة الدرويش ونظر إليها نظرة حسير كسير. ونظرت إليه نظرة فاحصة. كأنما هي تقول

له: «في حارة العرج وتعرج؟».

وجمع الدرويش أثوابه وركب حماره يذهب إلى مكان ليس فيه امرأة ذكية.

وهكذا جداتنا يحكين، ولعلّ الحكاية تصل إلى مضربها بذكاء الفاهمين أو غباء المتغافلين.

● وعن الموت والكفن والشباب والعجائز، نحاول أن نبرز خطرات نفس أو هو الحوار مع نفس أخرى.

ـ قالت لي عجوز عندنا: «خذ هذه الريالات البيض من الفضة خزنتها في صرة، أيام كان المجيدي والبشلك والريال، وصرفتها سعودية.. احفظها ليومها وهذا يومها...

خذها اشترِ لي كفناً وحنوطاً وليفاً وصابوناً والباقي تصدق به بعد إعطاء وارثي الوحيد ما يستحقه من إرث! هذا ولد لا تعرفه ولد قبل أن تكون، وهو بعيد عني حيث يكون، لا أدري أين هو؟ لعلّه حي.. لعلّه ميت. فحقه يحفظ له».

ـ وقلت لها: «حساب طويل.. لماذا الكفن من البفتة أو الحرير ومعه القطن؟ لقد كان مصعب بن عمير شهد أحداً في ثوبه، وقد كانوا إذا غطوا رأسه انكشفت رجلاه، وإن غطوا رجليه انكشف رأسه فأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يغطوا رأسه بالثوب ورجليه بالأذخر».

ـ قالت: «تلك منزلة.. وهذه حيطة.. ولا فرق إلا في حسن الختام.. رضي الله عن مصعب وأسأل الله الرحمة لي ولك».

وأخذت أذكر أن الشبان يطردون التفكير في الموت وهم الأقربون إليه

من هوجهم.. من سرعتهم.. من عدم مبالاتهم.. كان طرد التفكير فيه.. يعني نسيانه.. فلولا نسيانهم الموت لما غامروا بهذا النشاط.

والشيوخ الكبار في السن أكثر تفكيراً في الموت لا يطردون ذكره، فهم بتذكره أكثر تباعداً عنه، بالتعقل والمشي على العكاز والدواء والعلاج والنزهة والراحة. هم الذاكرون له.. المبتعدون عنه.. كأنما التذكر له قربى، فكر ونفس ويقين، والتباعد عمل العقل والرزانة.

ولا هؤلاء ولا أولئك بالناجين من الموت.. حال يلابس بعض النفوس.. وحال يلامس الآخرين.. كجدتنا هذه، والعجوز تخزن ريال الكفن، وكفتانا ذلك السابح في أبحر!

«وكم فاطر شربت بجلد حوار».

● الجدات يعلمن البنات شيئاً ليس في كتب التدبير المنزلي!..

وحملت البنت الحفيدة ـ وقد كانت عروساً ـ الدلة تصب القهوة، فذاقتها الجدة.. ثم نظرت إلى البنت، وقامت إلى موقد النار لم يكن «وجاقاً» ناره حطب.. وإنما كان «بوتوجاز».

يا خسارة!.. القهوة ما تصلح إلا على وهج الحطب، أو على الجمر!.. لكن ما باليد حيلة..

وأسرعت البنت تريد أن ترى ماذا تصنع الجدة!.

ـ وقالت الجدة: «تعالي.. ما أحببت التكلم أمام العريس خصوصاً أن أمه جالسة معانا.. ما شفتها حين ذاقت القهوة مدت بوزها».

ـ «إيش بها القهوة؟ أنا طبختها وأصلحتها مثل ما تعلمت منك».

ـ قالت الجدة: «هات الدلة أشوفها.. الدلة يا بنتي طرشت.. صارت

طرشة . . يعني ما تتجاوب مع البن والهيل . . ينبغي أن تعرفي أن البن مثل الشاي يريد التجاوب . سريع الالتقاط لروائح جيدة، أو روائح كريهة» .

ـ «الدلة تصير طرشة من الإهمال والركنة! . .» .

ـ «هيا خذيها . . فوريها أولاً بماء وملح . . وثانياً فوريها بماء وقرنفل تنظف من أي رائحة زنخة» .

ـ «وثالثاً أتركي الحثل فيها، فالقهوة تطيب القهوة . . إذا أبقيت الحثل في القهوة، تسمعك الدلة، لأنها تطرد أي رائحة تعلق بالدلة» .

وجاءت الجدة، فسألتها أم العريس: «هيه علمتيها كيف تسمع الدلة»؟ .

فقالت الجدة «سامعه . . يا فاغيه . . ترى الحيطان لها آذان . . أسمعي كلام ستك . . أهي عرفت عيب القهوة! . .» .

ـ وقال العريس: «الدهن في العتاقي . علميها يا ستي، علميها تشرب قهوة . وتصنع قهوة» .

ـ قالت أمه: «وليه ما علمتها أنت . . أنا ما علمتك الكثير من شغل البيت حتى لا تغلبك العروسه» .

ـ قال العريس: «حلو على قلبي أن تغلبني الفاغية في شغل البيت . وأنا أغلبها في شغل السوق . . البيت ستر وغطاء علينا . . كبب وليس يطلع كويس!» .

وتهامست الجدتان . . «أهو نحن أدينا ما علينا . ربنا يهنيهم ببعض . . متى تبغين نتم الزفاف؟» .

زفاف ريم على أحمد!

ـ قالت: «لما تمصعي إذن أحمد . . ويقول هاتوا عروستي . .» .

ثم قالت أم ريم لأم أحمد: «أهو أخوان وسلائف وأختان وسلفتان؟!».

● ونسي بكاء جدته، تركها تحضر ثوبه فقد سلم الثوب يصنع من قماش يصبغونه بلون «الكميت» وقد لا يشتريه بلونه المصنوع قبل نسجه، فيتخذ المصبوغ بالعرعر، فهو أقل ثمناً وأشد تحملاً لغبار الحوش المشبع بدهن الأباعر، وجلة البقر، أو روثها.

وذهب يلعب مع صبيان الحوش «جزي، ومطلق، وبادي!! وتوقف اللاعبون يسمعون دق النقرزان».

لقد رجعوا غالبين.. هذه أهازيج النصر.. الباشا سيعطي قائد الجلك نيشاناً، ويزيده رتبة والشواويش يرفعون إلى أومباشية!!

وذهب «ينطح» الرجال.. منهم من ذهب إلى حوش الباشا في أول الساحة، ومنهم من ذهب إلى زقاق الطيار.. أما القائد «سيف» وخال الفتى وزميله «صالح القرفلي» فقد رجعوا إلى حوشهم.. حوش خميس..

واجتمع الرجال في بيت جدته، ينثرون الغنائم.. كل واحد يباهي بمغنمه ونحن الصغار.. نقول: الحذبة الحذبة، ويقولون أبشر بالعطية!! وأخرج أحد الرجال خاتماً يلمع بفص. ولم يكن خاتماً هذا الذي نظروه في يده! ماذا كان؟.

كان إصبع أنثى.. قطعه لأن الخاتم استعصى عليه.. فقطع الإصبع يلتصق فيه الخاتم..

وصرخت الجدة، تبصق عليه، وتقول: «إنها أم، إنها أخت، إنها مني ومنك.. كيف أطقت أن تفعل؟ أتركتها تموت؟ قتلتها؟».

ولم يسمع.. فقد كان الخاتم لماعاً مغرياً.. فخرج به.. يلتفت إلى

خال الفتى . . «أمك خرفت . . لقد كان هؤلاء الآلهة في قيادة الذين جلونا من أرضنا، وحرقوا زرعنا . . وقتلوا ما في القصيم وفي كل الربوع» وذهب يعرض الخاتم على صائغ . . فقال الصائغ: «هذا الخاتم مسروق . . قطعت إصبعها فسرقته» فقال: «لا . . لا . . هذا كسب!!».

وصرخ الصائغ: «هذا أنا صنعته وبعته قبل يومين لها، أنها بنت الفلانية كانت عروساً يوم اشترته!! أتعرف كم يساوي؟». قال «خمسة عشر ريالاً مجيدياً . . القيمة للفص . . هل تشتريه؟ . .» «لا . . لا . . أشتري نكد العيش . . لو رأيتها بثوبها البناوي لقتلت خنجرك قبل أن تقطع إصبعها . . اذهب يا قاتل دمك، ومهلك الجمال!!».

وذهب بالخاتم، يكسره بين حجرين: ليذهب الإصبع . . ورمى الإصبع في الطريق.

وكان الطفل يتبعه. فأخذ الطفل الإصبع يدفنه في التراب، كأنه غراب هابيل يواري سوءة قابيل.

لكن الطفل قد وارى سوءة هابيل هذه المرة.

المَـــرأة

ـ شيء يشرح الصدر، ويتنفس به النفس الأمل والمرحب، حتى ليشعر الناظر إليه بأنه يقتل اليأس بحياة الأمل!!

لقد افتتح بعد عصر أمس سمو الأمير مشعل بن عبد العزيز معرضاً شاملاً في دار الحنان، جمع جهد الفتاة ـ نماذج من الفن والزخرف والديكور والصناعة لما يؤكل، والصناعة لما هو نموذج لآلة..

فرأيت الناس الزائرين المدعوين يلتفون حول كل معروض، يلتفتون إلى نوعه وكمه وجماله، غير أن بعضهم التفت إلى عملية التقدم بتشجيع هؤلاء، وبالأصح «أولئكن» البنات.

تقرأ الدرس عملاً لفكر، تغذية لذهن، إثارة لوجدان، وتعمل باليد حركة اليقظة لذاكرة اللمس، وداعية التمسك بما تصنعه صغيراً اليوم لتصنعه كبيراً غداً..

يقظة في فكر البنت، الزوج، الأم، المعلمة، وسلطان في يدها تعرف به كيف تمسك بالآلة.. مطرقة، مقصاً، منشاراً، فرشاة، مقلاة، فرناً.. تصلح نافذة، تدهن جداراً، تزركش غطاء، تقدم على المائدة ما تستغني به عن المعلبات، تخيط لبنتها غداً الحلو الجميل الفرحة.

الآلة، كل الآلة في يد الفتاة معناه توفير المال.. وحياة الإنسان في

فراغ يقتل لو لم يعمل الإنسان عملاً نافعاً فيه . .

الإبرة . . حياة، كانت تعطي ثروة أيام زمان حينما كان البنات يشتغلن اللف، النسلة، المنيباري، طوافي السيم، البراقع، حلية الملاءة، والبرقع . .

ليس هو الجديد عمل البنت، كل الجديد أنه يتطور، بالأمس كانت دابغة جلد، خارزة غرب، فاتلة زمام وارشية، ناسجة من الشعر الزولية والشملة وبيت الشعر، والصفتة والخرج وحلية الشداد . .

صانعة الجبن والمغبر، هي صانعة الكيك والبسكويت، والتريكو . .

أحيـي دار الحنان في شخص ناظرتها ومعلماتها . .

والتحية من قبل ومن بعد لراعيتها، التي لم تأل جهداً إلا وبذلته حماها الله بقدر ما صنعت وحمت للبنات العلم والصناعة اليدوية . .

إن دار الحنان أعطتنا الفتاة التي سلكت طريقها إلى مراحل أكبر في العلم والمعرفة .

كل الذين يرعون بيت العلم، إنما هم في رعاية من رحمة الله، فالراحمون يرحمهم الله، ولا شيء خير من رحمة الفتى والفتاة بنور العلم الهادي إلى خير، العامل بإيمان، الخادم تراثه وتاريخه ووطنه .

● وكانوا ثلاثة في «كفتيريا» . . الفندق الكبير يغص بالسواح والمستريحين والفضوليين والطامعين والحيارى، فصادق ذلك الكاتب، سمى الحياة فندقاً كبيراً .

تصور المدينة وشوارعها الغاصة بالرجال والأطفال والنساء، تعرف الفندق بأنه دنيا أخرى تعيش في مدينة .

وطلبوا مشروبهم المفضل . . شاي بالليمون، فالوقت عصر، وهم

يشربون الليمون بعد العصر!!

هم أحمد ومحمد والياس.

وجاءت تضع الشيء تحمله في يدها على الطاولة الشاي وبطاقة الحساب!!

أما الشيء الثالث الذي تواضعت في صناعته تواً، لا تأخير فيه فإحساس بها. نحوها بالاحترام المشوب باللهفة.. فلا جمال يبهر في تقاسيم، ولا فتنة تقهر في لفتة باهرة، ولا تبذل في حركة مفتعلة هامدة.. تتكسر بها الأنثى.. وإنما هو منها فيها الآخذ بكل ما هو أصيل منسق متسق في قوامها وقيامها ومقامها.

ـ وهنا قال أحمد: ماذا فيها؟

ـ فقال الياس: السؤال ليس هو ماذا فيها؟ وإنما هو ماذا به.. ليكون الجواب هي فيه.. حلت وما تخلت!!

واسترد أحمد أنفاسه الباهتة اللاهتة من سعير بارد ليتوقد في حرارة ما تنفعل به نفسه، فما كان يستروح كلمة سمعها حتى قال أحمد: معذور هو.. أهي لسعة عارضة؟ أم دفعة لا مفر منها ولا خلاص؟

ـ وقال محمد: أتحسبني مثلك أشوي القطة المتنمرة.. كأنها من أولاد ...).. إنك تأكلها وهي تنهش عينيك بسعار السبع.. إنها يا أحمد شرسة الجسد، غائمة المنظر، نائمة الطموح، تخربشك بصحوتها العارمة.. تأكل بها عاطفة كنت تسمو بها إلى فوق.. لتأكل أنت منها نزوة ساقطة إلى تحت.. أما «ل. ق» فشيء سمح مرح.. فلا تلمني.

ـ وقال أحمد: أتريدني أترك الشحم واللحم إلى هيكل من عظم؟

ـ قلت: لقد نزعت إلى عرق. . فأنت تمشي بقهر الوراثة. . فلا أريد أن أتأفرق مثلك. . فخذ آكلة «المغلط» و«المفتقة» و«لوزة» البقرة، والفطير المشلتت المعجون بشحم «اللية».

● فوزية أبو خالد؟!. . فوزية أبو خالد؟!. .

فتاة أعرفها من خلال ما تكتب إليَّ حينما استطلعت رأيي قبل ثلاثة أعوام. . معرفتي بها عن طريق القرطاس، والقلم. . عن طريق التلفون، وليست هي معرفة رؤية، وإن كنت أنا كأبيها. . هي قالت: أنا جدها. . لعلّ صغرى حفيداتي ـ وهي زميلة لها في المدرسة ـ في مثل سنها. . أبوها من العارض. . من اليمامة المشمخرة. . أمها من مكة. . ومن الوادي. . كأنما اليمامة قد عانقت خندقة وقعيقعان. .

دعوني لأقسم بأن أرضكم، وجبالكم تعشق بعضها. . تحن إلى بعضها أكثر من حنينكم. . لأنها تعرف أن كل هذا الثرى تراب واحد، ولكنكم لا تعرفونه!

تكلمت معها بالتليفون. . قلت لها: أنت أحضرت في ذهني ذلك النجدي ـ الحجازي. . فارس بني هلال. . أبوه من نجد، وأمه خضرة الشريفة من مكة. . قاتل الله من يفرق هذا التراب. . من يبعثر هذا التراب!

أكتب عنها اليوم. . لأن بعض «الأغيلمة» من سفهاء الأحلام يحسبون أنها لا تكتب لنفسها. وإنما يكتب لها غيرها، وهذا كذب. . فسوق في الرأي من فسوق في النفوس، وحتى الأنثى أختها تكتب عن ذلك؟. . تكنى. . وترمز. . إن هذه ـ وأعني أختها ـ كاتبة اليوم، ولكنها قبل أعوام لم تجرؤ أن تنشر شيئاً حتى جعلت بعض كاتبينا السفراء يعطونها جواز المرور لأن تنشر. . فهل هم حين فعلوا ذلك كتبوا لها؟!

عيب.. فوزية تكتب لنفسها.. أعرف هذا قبل سنوات.. دفعت بعضه إلى «البلاد» فنشر.. دعونا ـ يا سفهاء الأحلام.. يا عجائز الأفراح.. من الكلام الفارغ.. إن هذه الفتاة ينبغي أن نحترمها.. نعطيها الفرصة.. فمن العيب أن نضع الغصص في طريق هذا النشء.. هذه البراعم!

تحيتي لفوزية أبو خالد.. ولا عتب لي إلا على أختها التي كنت أجيرها أن تكون مثل غيرها!!

● صورة:

ـ لا يعيب المرأة أن تفضح معايب رجل لأن في هذا إنقاذاً لغيرها.. ولا تستطيع المرأة أن تصدق نفسها لتعيب أختها.. لأنها تخاف أن يرجع إليها العيب!

ويعيب الرجل أن يفضح معايب امرأة لأن في هذا فضحاً لأخلاقه، وسلوكه قبل أن يكون بياناً عن أخلاقها!!

ـ طفولة أن نصف النملة بالجنون.. فالنمل يتمتع بإدراك عاقل.. لا يعقله إلا حكيم ذكي، ولا تسمعه إلا أذن نبي!!

ـ المجنون العاقل.. هو الذي يرى كل الناس عقلاء لا مجانين، والعاقل المجنون هو الذي يرى كل الناس مجانين في أثواب العقلاء.. ثم يرى نفسه العاقل الوحيد!!

ـ حينما أذهب إلى البيت يكون طريقي من شارع أبو عبيدة.. في هذا الشارع مدرسة للبنات، لم ألتفت إليها حتى أعرف اسمها.. لكن الذي لفتني إليها فشرح صدري رؤيتي للطالبات وهن خارجات منها في حشمة ووقار.. كل منهن أدلت جلاليبها عليها ساترة.. وأجمل ما في الستر

الوقار في الشارع من وقارهن . . أظهر هذا كله أنهن المشاءات . . لا أتوبيس ولا «أتوموبيل» .

وفرحت . . وقرأت ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ (الفلق : ١) أكملت السورة كأنما هي الرقية أتقي بها فحيح الحسد .

والأنثى كل الأنثى في هذه الفتاة تتعلم . . تعطينا معنى القوة فيه . . كل القوة لنا . . سيدة بيت كأم تربي أولادها . . معلمة، كاتبة، شاعرة وطاهرة .

وتذكرت قيمة ما تعطيه فتاة . . تكتب لنا كلمة في جريدة . . أي جريدة سواء كانت وعلى سبيل المثال عكاظ أو اليمامة أو الرياض أو الندوة . . إنها تعطينا الاحترام لها، صاحبة رأي تبديه، والاقتداء بها اقتداء يحملها هي على أن تكون قدوة في مسلكها . . هناك عطاء كبير تجعلني لا أفتح صفحات الأدب لأقفله على الأسماء اللامعة في تاريخ أمتي، الخنساء رضي الله عنها، ليلى الأخيلية، ولادة، ملك ناصف، عائشة تيمور وحتى إذا أغلقت لا يجعلني ألتفت إلى الأسماء المعاصرة حملة الدكتوراه من كرائم بناتنا في أمتنا العربية . . وإنما بنات بلدي .

إني أول ما أقرأ في صحفنا لأغذي عاطفة الأبوة . . ولأنمي أفراح القلب لا أقرأ إلا هذه الكلمات للكاتبات من بناتنا .

وهناك . . ما الفرق بين أدب الأنثى وأدب الرجل؟ . .

لا فرق . . كله أدب . . لو نشرت مقالاً لفتاة دون توقيع لما عرفت أنه لأنثى . . ولو نشرت قصيدة كذلك . . ولو كتبت أنت مقالاً واستعرت توقيع فتاة لما رجع إليك، كان هذا رأيي .

وقد زدت ثباتاً عليه بهذا التأييد . . سمعته من الدكتورة سهير القلماوي

قالت: لا فرق بين أدب المرأة والرجل.. الفرق كل الفرق هو الإمضاء تحت ما ينشر.

أعجبني رأي الدكتورة.. وقد كان رأيي.. ولعلّه رأي النابغة الذبياني في خناس قاله لها يوماً في عكاظ وقد أنشدته شعرها: لولا أن الأعشى سبقك لفضلتك على شعراء هذا الموسم.

وأخيراً فما دمنا أنا علمناها.. ينبغي أن نتعلم منها فلندعها تكتب كل ما نرجوه أن يكون ما يكتب التزاماً بما تعتقده.. ولزاماً بما يصلح لنا.

لا خوف فالمرأة حريصة على أن تكون السيدة في الثناء عليها. كما هي الزوجة في السكينة إليها.. كما هي الأم في الرحمة منها، اقرأوا لهن ليكون في عملكم المدد لهن عدة واستعداداً.. فإن كنتم الأغنياء عن المدد منهن فإنكم في حاجة إلى الامتداد لهن ليكون المدد منهن سعادة بيت.. رقي مجتمع.. حضارة أمة.. ارتفاع أدب.. أي إن المدد منهن لكم نفحات غير مباشرة.. أما منكم فهو النفع المباشر.

حـــوَار

حـــوار

ـ الأصيل تعطل اليوم.. أخرج في لحظاته أرى كما قالوا: ذهب الأصيل على لجين الماء.

لم أجد هذا الأصيل.. كأنما الشمس قد تبرقعت بالحياء.. من هذه المزنة.. هتانة على جدة فأصبح لجين الماء.. قد أذاب ذهب الأصيل.

كان عصراً من أيام الجنان.. لا هو بالمظلم المعتم ولا هو بالصاحي الوضوح!!

كانت مزنة في السماء.. أشرقت بها فرحات في القلوب.. كأنما النعيم قد توخانا وما تخطانا نعيم نحسه على أجسامنا من روح في وجداننا.. واستراحة لعضلاتنا.. وأمل في نور الربيع، من نور اللجين على ذهب الأصيل.

هتانة فتانة.. أنعشت شاباً كان بجانبي.. كاد يطير.. قلت: تطير يا عروس الندى لتترك أرملة القدر؟!

لم يعد صاحبك أرملة... فإن العشق زوج لا يموت.. بعيد هذا العاشق عن الترمل والثكل واليتم.. لأنه كل يوم في حياة.

وسألني: أحينما سألت فناناً.. أن ينغم بالعشاق.. كنت تستمطر المزنة؟!

ـ قلت له: أوتشك أن تلباثية العاشقين . . ما هي إلا واقعية المزنة؟!

ـ قال: وما هو العشاق؟

ـ قلت له: نغم لا أغنيه . . وإنما أتغنى به . . لعلّك تعرفه كضارب عود أكثر من معرفتي كضارب قلم.

ـ قال: أعرف فقد أنكر عليك بعضهم أن تذكره هكذا دون معرفة؟!

ـ قلت له: قد أكون عرفت اسمه بالسماع . . وما أتقنت رسمه بالتسمع قارئاً لما في الكتاب عنه أتحب أن تعرفه كسطر من ثقافة؟!

خذه . . هو قسمان: العشاق المصري من مقام «الدوكاه» والعشاق التركي . . من مقام «البيات» فلئن كان محمد عبد الوهاب سيد من غنى «بالبيات» فإن أم كلثوم هي الصوت الذي أحسن «للسيكا» بما لم يحسنها أحد مثلها.

وما زلنا نغني للسماء . . تسقي العطاش الذين عرفوا عشقهم لأرضهم فلم يرضهم أن يعقوا . . ولو أسقاهم حيناً جدب . . لكنه غنى النفوس بالحب للتراب . . جعل من بيت الشعر القوة والمدد والعدد.

وتركني الشاب . . ذهب ليطير . . ولم أذهب لأقعد . . فما زال قلبي يطير حواليه . . يتلو عليه آية تحفظه ليغنم وينعم بالمزن الهتون.

● تلفون . . تلفون . .

«الو . . الو . . مين أنت؟».

ولم يفصح عن اسمه، إنما قال:

«يعني يا أستاذ مشتهي تسوي مدير مستشفى؟ أهو!! ما بقي إلا هذه؟؟ عاوز تنافق وتداهن علشان الفترتين، تقوم تفتح دهليز، تدهلز به هكذا؟!»

ـ قلت له: «الجواب حاضر، بس أولاً قل لي: اسمك إيه؟».

ـ قال: «ما فيش لزوم وما أريد جواباً.. يعني راح تقول إيه، ولا إيه؟؟».

وأرخى السماعة بشيء من الغضب. على طريقة المراهقين حينما يعاكسون في التلفونات!!

وضحكت لأنشد هذا الشطر من شعر أستاذنا التونسي محمد عبد القادر الكيلاني.. ابن خلدوننا:

«تسعى لهم وهمو عليك شقاق».

يا أيها المراهق المدلع، إني أعرف: أن طالب الوظيفة لا يوظف!!

بقي أن تعرف أنت ومن إليك، أن شر أيامي واردأها تلك الأيام التي كنت فيها موظفاً عبداً. وجهلت بسببها الكثير، وتعلمت منها ما جعلني أشفق على الفكر أن يوظف. يضيع وراء خشب، ويذوب زمانه في تقليب الأوراق روتينياً، يشرح بما يلزم، أو ينفذ ما يلزم مشروحاً من غيره.. يجري وراء رئيس مشغول فلا يتلقى جواباً إلا من وراء الأكتاف في الدهليز الموصل من الصالون إلى باب السيارة..

وخير أيامي تلك الأيام التي كنت فيها معلماً ولا أحسبني إلا فيها هذه الأيام وأنا أدير الحوار معك مفهماً باسمي على القرطاس لا كما كتمته في أسلاك التلفون.

إن الاختصاص والفن والعلم مجال أوسع من أن يحصر على مكتب.. «فلأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» ولئن يشفي الله بك مريضاً أو عاجزاً خير لك في نماء العلم، وحسن السيرة من الجري

وراء الفاكهة المعطنة، واللحم المشفت. . والفرّاش المكلف بكنس وتنظيف الطريق والغرفة، ثم هو يثقل ويرمي عقب السيجارة في مكان كان قد نظفه وهو ماش.

أما النفاق والمداهنة، فهي في الهمس، أو في الرقص وراء الفازة.

هو ليس في الجهر الواضح تقول ما عندك. . وحسابك لا تخشى به إلا الله. .

لو شعرت أنت، وأنا معك وغيرنا معنا بعمق المسؤولية وواجب المرحلة التي نسير فيها لوقفت على الثغرة تسدها قدر جهدك. .

سامحك الله. .

● عبد الرحمن العلولا. .

شاب لا أعرفه، ومن الرياض. . كتب إليَّ كتاباً أتجاوز عن ذكر ما جاء فيه من ثناء واستملاح، لأذكر الإجابة عن سؤاله. .

سألني النصح فيما يقرأ؟!

الكتاب كان قدامي على ركيزة لا هي بالخوان، ولا هي بالمكتب. . شيء مستطيل من خشب، ورفعت لأقوم. . أعود إلى البيت. ولعلّي زورت في نفسي تأخير الإجابة إلى ما بعد. .

لكن المظروف سقط، وتناوله هذا الجالس بجانبي. يمنعني من القيام!

ـ قلت: اقرأه. . وقرأه فأخذ يضحك بوقار عليه طابع الفجاءة لي. .

ـ قال: أتعرف من هو هذا العلولا؟

ـ قلت: لا أعرفه!!

ـ قال الصديق الشاعر الأديب محمد الفهد العيسى: هذا أنا خاله!!

ـ «أنا خاله» قالها بجرس يعربي، فيه غنة المدينة، وفيه رقة نجد، فذكرني بهذا كله.. باللفظ نفسه، والجرس، كأنه هو.. سمعتها مرة.. «أنا خالها» من أديب خان الأفغاني الشامي خال الملكة ثريا، ملكة الأفغان. كانت شامية أفغانية، شامية لأن أباها محمود طرزي باشا، وأفغانية لأن زوجها أمان الله خان رحمه الله.

جرس أديب خان قد اكتسبه من القرآن، هو في أذني أحلى من جرس طه حسين وناهيك به، ومن جرس أحمد فتحي ومن مثله!! ومحمد فتحي وقليل أمثاله. وجرس الشيخ أبي الفتوح نادرة الوجود في حياة اللفظ تخرج من أشداق ملبية للقرآن.. هذا الجرس يجعلني أقول للعلولا: اقرأ القرآن.

فبالقرآن يفقه قلبك، ويسمو بيانك، ويصلح إيمانك، ويلاقي الكلمة لسانك.

أتعرف السماجة تجدها على أسلوب الكاتب؟ لا تحسبها عن جهل باللغة.. وإنما هي عن الجفاء للقرآن.

القرآن صان العربية أن تنتصر على لسان.. حتى فحول العرب من النصارى حينما بلغوا الذروة في البيان فإنهم ما بلغوا ذلك إلا بقراءة القرآن وتفهمه.

ثم اقرأ كلام الأكابر في تراجمهم، ونهج البلاغة والبيان والتبيين والبخلاء وكليلة ودمنة ورسائل الأكابر.. حتى إذا تمكنت اقرأ لكل أحد.. وفي الشعر عليك بالأحمدين الثلاثة.. المتنبي، المعري، شوقي، ولا تنس ابن الرومي والشريف الرضى، والثلاثة الإسلاميين من قومك: الفرزدق وجريراً وشيخ النصرانية الأخطل.

● . . وجاء يحمل الغضب في عينيه . . فقد تواضع سلمه الله، فلم يحمله في لسانه، ولا تعامل به معنا في يديه، وإن كان هناك تعبير يزيد على ما حملته عيناه . . فهو بهذه التكشيرة . . فتح بعدها فمه ليتكلم . فظهر في الفتحة ناب قد اصفر، واستطال على المجموعة من الأسنان والأضراس . . حتى لحسبته لم يذهب إلى طبيب الأسنان!

ولم أشأ أن أعبأ بعين غاضبة، ولم ألتفت إلى اليد الفارغة من الغضب، فكل ما «استرعى انتباهي» هو هذا الناب المصفر البارز .

وسألت هواجسي: هل عنده شيء طفح به هذ الناب؟!

فلئن سأل، وسأل فسأجيب، ولكني لن أترك سؤاله عن نابه الناتئة كمنشز على سطح الفوهة التي هي فتحة الأشداق . .

ـ قال: لقد قرأت كلامك عن الشيطان . . لا يتجسد لأصدقائه، والمطيعين له . . لأنهم من طاعته يسمعون الوسوسة فيمتثلون!

ـ قلت: وأي شيء في ذلك أغضبك! . . ألا تكون أنت الشيطان قد تجسدت أمامي؟!

وانتظرت أن يجيب، وهنا كان ذكياً تشيطن بجواب بارع أعجبني لذة السخرية بي . .

ـ قال: دعك عن الورم يا أستاذ . . تريد أن أفهم أنك لست من أصدقائه فجعلتني إياه أتجسد أمامك لتباهي غداً بأنك قد طردتني؟!

ـ قلت: أخجلتم تواضعنا، وآثرتم كبرياءنا فما نحن وذلك، لكن هذا الغضب والعناية بالحضور، والحماسة والناب الأصفر كلها تجعلني أتخيلك كأنك هو!

ـ قال: اسمع.. أنا لست الشيطان نفسه، ولكني من أصحابه.. أنت وأمثالك جعلتموني من أصدقاء الشيطان.. تتظاهرون بالبراءة منه وأنتم أصدقاؤه.. تصبون الكلمة الرحمانية في آذاننا وقلوبكم شيطانية.. تظهرون بيننا على أنكم الآباء المعلمون بينما أنتم ـ بالاستعلاء ـ تحرموننا من أن نمارس تجاربنا، وهي باب العلم.. تستعلون حتى بما تقطعونه في سبيل الشيطان. وتنظرون إلينا بحقارة حتى لو كنا من جنود الرحمن.

لقد رأيت الشيطان اليوم فقال: اذهب لهذا الذي يحاول طردي من حظيرته وقل له إنك ما زلت في حظيرتي، فما كتبته عني كان من وسوستي، وجئت إليك لأقولها لك.. قلت له: «وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء» ولكنك حين وصلت إلى هذا الحوار مع الشيطان فإن الإنسان فيك سيغلبهم كما غلبتني أنا حينما بصرتني ببواعث الانفصال والفصام بين جيلين!!

● سؤال أطرحه على نفسي هو:

هل أكتب عن الاقتراح البريطاني.. بنسف قرار مجلس الأمن، وهو ـ أعني قرار مجلس الأمن ـ اقتراح بريطاني في الأصل صدر بالإجماع؟

أم أكتب عن قرار مجلس الأمن هذا.. أبطل أي مشروع قبله حتى النقاط الخمس؟

الإجابة: لا أريد أن أكتب عن ذلك!!.. فمثلي كمثل ذلك العجوز، ومعه حرمه المصون عجوز أخرى أقبلا على الشيخوخة، وجلسا وحدهما في البيت لأن الأبناء والبنات كبروا.. كل منهم، أو منهـــن ذهب إلى بيتــه. ولا طفـــل صغير لديهما يقولان له: «افو.. امبوه.. بشبش.. حبوه.. دحه.. كخه (!!)» .

ففتق لهما العجز، ومن حبهما في التدليل ألفاه. . عاشا عليه السنين الطويلة. . وقد اقترحت السيدة حرمه المصون عليه ـ ولا أقول أنا! ـ أن يجعلا من نفسيهما طفلين. . كل منهما يعامل الآخر على أنه طفله. . فأقول لزوجي بدلاً من اسقني ماء: امبوه! . . فتسقيني. .

وإذا نهتني عن شيء قالت لي: افو. . !

وإذا رغبتني قالت: دحه! . .

وإذا نهرتني قالت: كخه! . .

وعلى هذه الصورة أعاملها، فأقول لها: أف. . دح. . كخ. . حبوه!!

وجرت الأمور على هذه الصورة. .

وبينما كان الرجل ـ الأب ـ الذي هو نحن يملأ الدلو من الصهريج انزلقت رجله فسقط في الصهريج، فأخذ يعالج الغرق بالصراخ والخبط بيديه، والرفس برجليه.

وسمعت الزوجة صراخه فوقفت تنظر إليه وهو موشك على الغرق، وأخذت تدلّله وتقول له:

«اسم الله عليك! . . بتسوي بشبش؟ . . يا عمري. . خليني افسخ وانزل معاك! . . ».

ـ فقال لها: «يا حرمة أنا بدي أغرق. . جريني من إيدي بطلنا دلع!!».

وجذبته من يديه، ومن يومها تركا لغة الأطفال. . لعلّهما قد وصلا إلى لغة الرجال. . الآباء. . إلى لغة الأمهات صانعات التاريخ. . منجبات العظماء!

صورة قد تكون تافهة، ولكنها تنطبق على وضع تافه!!

● قال لي: ألم تجد غير بشار، جعلت الكبار يجرون ذكره وشعره على ألسنتهم؟.

ـ قلت: وأي شيء في ذلك؟ إنه مولى مضر من هؤلاء الذين نالوا العلم المعلق في الثريا.. ثم هو رأس المولدين.. أي إنه ثالث الرؤوس في طبقات الشعراء بحسب الترتيب الزمني، جاهليون ومخضرمون، ومولدون أو محدثون.

ـ قال: إنه كثيراً ما مارس المجون!

ـ قلت: وكثيراً وأكثر ما قال أجود الشعر سارت به الأمثال وطارت به الركبان.

إن هذا البصير المولى قد فخر بمضر فقال بيتين ما سبقه إليهما مضري على الكثرة الكاثرة من شعرائها.. وما لحقه بها مضري، فلا زهير وعنترة ولبيد، ولا ضرار بن الخطاب وابن الزبعري، ولا المخزومي والعرجي، ولا جرير ولا الفرزدق ولا المتنبي والشريف الرضي.

إنه قائلها:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلما

ـ قال: كلام هجص وورم.

ـ قلت: لا، لا تقس هذا على وضعك اليوم.. فما قالها إلا وفي يده إمبراطورية في الشرق لم يكن غيرها.. وملك في الأندلس ولا أرقى منه في زمانه..

إنه يرى بوجدانه ذلك السماع للصوت الزبطري في عمورية . . فقد كان السيد المضري في بغداد يقول: حيث أمطرت فخراجها لي . .

وقد كان السيد في قرطبة يقول: لئن ذهبت بغداد بدمشق فإن حضارة الحمراء ستذهب في فم التاريخ مجداً تسيل عليه الدموع في بغداد والمشرق كله، وتحفظه الضلوع في كل شبر عربي.

ـ قال: وغيرها أنشدني:

ـ قلت:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافي قوة للقوادم

ـ وقال:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

ـ وقال لي: إن أمسكت عن اعتراضك.

ـ قال: لقد سكت.

ـ قلت: واسكت عجوز الأفراح التي وسوست لك بما تندرت به هذه الساعة.

● حوار سمعته بين جيلين . . جيل الذي نيف على الستين وجيل لم يبلغ الثلاثين بعد . . لمست الفارق بين مشاعر الاثنين . . لا أقول إنه الفصام أو الانفصال، وإنما هو الفرق الدقيق، أو الكبير بين القناعة والاندفاعة! . . بين اللذة من فتور اللوعة، وبين التولع في تطلب اللذة!

القناعة في جيل الستين حمد وشكر، وليست هي الجمود.. فبعض الشيوخ أكثر تحركاً، ولو لابستهم القناعة.. وبعض الشباب بطيء الخطوة ولو كان شديد التطلع!

ـ قال الشاب للشيخ: ما بالي أراك تفرح بالقليل.. ترضى به بينما حولك في العالم الكثير، والكثير لا يرضيني إلا أن أكون المستحوذ عليه.. لا لنفسي وإنما لبلدي؟!

ـ قلت له: اضرب لي مثلاً بالقليل الذي أرضاني، ودعني عن الكثير الذي تريد أن ترضى به؟!

ـ قال: إذا فتحت مدرسة في قرية صفقت لها، وإنك لتصفق لمدرسة فيها مائة تلميذ وتلميذ أكثر من مدرسة فيها مائة تلميذ حتى التلفاز في القصيم أكبرته وصفقت له.. حتى المستوصف في وادي العيص تريده.. إن هذه الأشياء ليست بالكثيرة، ولا بالكبيرة.. هناك ما أطمع فيه مما هو أكبر وأكثر!

ـ قلت له: هو الخيط الرفيع فارق بيني وبينك.. أنا رأيت العدم.. عشت الألم.. لهذا أفرح بأي مصباح كهربائي في شارع يحل محل «الأتريك» حل محل الفانوس.. حل محل القنديل.. الذين قرأوا على الشمعة يفرحون حينما يقرأون على الكهرباء.. الذين كاد يغشي أعينهم الرمد يشترون قطرة «البوسيد» كأنما هي الإكسير أراحتهم من «التشمة» و «الصرافة» و«الحك» بحجر جهنم..

إن بعض هذا الوجود ـ مما تستقله ـ هو خير من العدم الذي كان يستقلنا.. يركبنا وكثير هي الأشياء، فلا تحسبني أريد أن أجمد على القليل.. إنما أريد أن أتطرى مع نفسك بالطراوة في نفسي.. تلمس بعض

جوانب ما تختلف عليه لنتفق على حمد بعض الموجود، وبالأماني نجد فيها ما تريد . . إن بعض الشكران تسجيلاً قد يكون فيه جانب من التحفظ أو الاحتفاظ، ولكن لا تنس أن فيه جانباً آخر هو الحض على المزيد ليتحقق الكثير الذي يرضيك!!

● الوقت السريع يمر، واليوم امتحان، فأخرج سيارته وركبها يسرع بأطفاله إلى المدرسة يؤدون الامتحان . .

هو من أهل هذا البلد . . لكن عمله ألزمه أن يلبس القميص والبنطلون! . .

وبينما هو حريص على الوصول مبكراً، أشعلت الإشارة الحمراء فوقف من شدة حفاظه على النظام . . لأنه واعٍ وفاهم ويحترم نفسه وبلده ونظام حكومته . .

وكان وراءه سائق وقف، جزع هذا المحجوز به وبالخط الطويل أمامهما في شارع المطار .

وأفسح الطريق فسار يميل إلى شارع في الشرفية فيه المدرسة . . وما زال السائق الذي كان وراءه يمشي خلفه . . ولم يكد ينتصف الشارع حتى سبقه من كان خلفه يعترض طريقه .

كان مثله في لباس . . قميص وبنطلون . . بجانبه طفله كما أن في جانب صاحبنا طفلين .

وأخرج السائق الغاضب الذي تقدم يعترض لسانه بكلام حاد وشرس . . «ما تعرف تسوق كان تخطيت قبل الإشارة حتى أسرع وراءك . .» أنت «فلسطيني» فقال: «تراك . . الخطأ على من جعلك سواقاً عنده ومسكك سيارة . .» .

وسمع السعودي هذه الشتائم.. وعرف من لهجة شاتمة أنه هو الفلسطيني. فوقف أمامه وقال له: يشرفني أن أكون فلسطينياً!.. ألست أنت فلسطيني؟.

ـ قال: لا، لا، أنا لبناني..

ـ فقال صاحبنا، لا تنكر.. أنت فلسطيني فأنا أعرف كل شبر في فلسطين فقد كنت هناك.. لماذا تسب نفسك؟!.

ـ اسمع أنا سعودي من أهل هذا البلد.. وسأحتملك لأنك ضائع في نفسك لو احترمتها لما شتمت نفسك..

وجاء شاب يسلم على السعودي باحترام ويقول: ما عليش يا عم..

ـ فقال: أنا حزين لمثله.. وهنا احمر وجه الشاتم واعترف بأنه شتم نفسه واعتذر..

حكاية.. كل الخطأ فيها على ضياع النفوس بإرهاق الأحداث..

● رائد الفضاء المخلف عن الرحلة بسبب الحصبة أو «العنقز» كان يعيش طوال الرحلة أمراضاً ثلاثة.. في أول الأمر، ولكنه قد صحّ الآن من هذه الأمراض الثلاثة ليعيش المرض الوحيد..لا يشفى منه إلا إذا كان أحد الرواد في أبوللو ١٤!!

قبل أن يصعد كشفوا عليه فخلفوه لأنه مريض. أمر عادي، ولكن حينما وقع العطب في السفينة نسي مرضه، وتنازعه المرضان المثلثان لأولهما: مرض الأنانية في الإنسان.. يرتاح لأنه سلم من الهلاك. ومرض الطموح في الرجل. والتربية في المجند ذلك يقول له: أحمد السلامة. أما الثاني مرض الطموح فيقول له: لقد فاتك المجد.. لقد فاتتك هذه الصور

المتلفزة. . هذه الروعة في جوانح الفاقدين. . هذا الصمود في مشاعر المفقودين. . هنا جاءه المرض الرابع، فالطموح قد تحقق الآن بسلامة الرواد. لم يحمد السلامة بل إنه يحمل على مرضه وحتى على الأطباء الذين اكتشفوا مرضه، لقد صنعوا له الشفاء من مرضه العضوي، ولكنهم لم يصنعوا له الشفاء من مرضه النفسي إلا إذا صعد إلى فوق. . فوق في أعالي الفضاء!

ولكن. . هل يكون هناك عطب ليكون له مجد الناجين، أم أنها ستكون رحلة عادية؟!

أحسب أنه حتى ولو وطئ القمر فلن يشفى من نكسة الطموح! أو نوازع الطموح.

هو الآن يشعر أنه فاته الشيء الكثير!

وفكر معي صديقي: إنك قد أمرضته فلا يشفى أبداً، قلت: هو كذلك لكن صعوده مرة في أبوللو ١٤ يضع البلسم على الجراح. قال: وهل هناك رابعة عشرة؟!

ـ قلت: نعم. . إن لم تكن قريبة فإنها كائنة، فالعلم جشع لا يشبع.

ـ قال: ألا ترى أنها مناورة للتعطيل أو للتأجيل؟!

ـ قلت: قد يكون التأجيل، أما التعطيل فلا، فلئن شبعوا من القمر، فهناك كواكب أخرى، العلم جشع لا يشبع!!

● نجلس في أبراج عاجية، ولو كانت أكواخاً، أو غرفاً ليس فيها رياش وأثاث «مدوكر» المهم أنها غرفة تعزلك عن الناس، وتفصلك أن تكون ذاتاً متحركة تشغل نفسك بما يفيد الآخرين.

نحن هؤلاء الذين نجلس في اعتزال عن الآخرين المتطلعين نرتكب خطأ ضاراً بنا وبغيرنا.

بنا، يعني نحرم أنفسنا من متعة الاستزادة والفهم والتطلع، فلربما يأتيك سؤال من شاب.. يفتح لك باباً من المعرفة حينما يحملك على التقصي والبحث.

وبغيرنا.. هم هؤلاء الذين يحبون أن يعرفوا عن طريق الحوار والنقاش أشياء كثيرة يفهمون ملامح منها.. ويريدون الواضح أكثر وأكثر.

ومنا نحن يحدث شيء.. هو الذم والحملات على هؤلاء الذين لا يعرفون مثلما نعرف.. ويعتقدون ما نعتقد..

هذا إجحاف وجور، لا نعطي، ولا نتصل، ولا نعلم ونحرم أبناءنا من كل ما عندنا.

اللوم أساسه ينبغي ألا يصب إلا على الباخلين والمنعزلين والحارمين والوارمين..

فلكي نقضي على انفصام وانقسام ينبغي مرة ثانية أن تكون حركة فكرية تعطي الصواب، وتأخذ التصويب إذا ما أخطأت، وتمنح الفرصة للسائلين أن يتحركوا في اتجاه الحوار معك.

لست في هذا أشير إلى واحد بعينه، ولا إلى آخر، وإنما أضع الإشارة على كل من يلبس ثوبها، وكان مسلكه هو ما ذكرت..

لقد جلس إليّ شاب مترف الذهن والبيئة والشباب، ما كنت لأقترب منه. حتى وجدتني أتقرب إليه بسؤال منه عن انفتاح ذهن ورغبة ملحة جعلني أشتد من اشتداد القوة في تطلب الإجابة.. أذكر ما أعرف،

وأعد بأن أرجع متى أعرف . .

هذا الشاب هو الذي جعلني أشعر بما نقترفه من إجحاف بهؤلاء .

● حوار معه . . كانت الكلمة فيه طارئة فرضت نفسها لأنها أصبحت التحويلة للحوار . . لم تكن في الأصل بدايته، ولكنها في النتيجة هي مداره ونتيجته . .

ـ قلت له : إن الصفحة ذات الرقم المعين لها اليوم طعم جديد فيه شيء حريف ـ حراق ـ لم تصنعه الحرافة، وإنما تصنعه بجهد التطويق . . لا من فوات الطاقة، وإنما هو الهروب من سرمدية المعطى جرعات متوالية لقارئ تخم بهذا الشيء . . قد ابتلعه لأنه ما وجد غيره يبل الريق، أو يسكت المعدة!

ـ قال : ليس هذا صحيحاً من فعاليتي، ولا هو بالجديد من افتعال أنتهجه، وإنما هو تفاعل الناس المحسة باحترام الكلمة أولاً . . لاحترام القارئ أولاً مرة أخرى! . . إن هذا التفاعل هو من مكاسب القراءة المستمرة، والالتقاء الجيد، والانتفاء عن كلمة لا يحتار بها قارئ . . الانتفاء اختيار، وهنا تكمن الصعوبة، أنت تقرأ وتقرأ ستجد ما تطلب . . أما الاختيار لتعطي فهو الصعوبة، وأيضاً ليست الصعوبة أن تختار، لكن الصعوبة أن تعطي ما يحترم . . فالاختيار صعب من ناحيتين . . من ناحية أن أذوق فأعطى، ومن ناحية ثانية أن أعطي القارئ تذوقه!

ثم أردف . . كأنما انتهى هذا الشيء تقريراً منه لحقيقة ما هو فيه . . عن ما أراد، أو ما أريد به، وانتقل بسرعة ليسأل : هل هو واقع صحيح ما يقومه الجيل عن جيل جديد . . من أن الجيل الجديد لم يأت بشيء، ولا يستطيع أن يأتي بشيء حتى لو أراد؟!

ـ قلت: ليس هذا هو الواقع الصحيح، وإنما هو الشيء الطبيعي.. اندفاعاً للدفاع عن الذات. وبالتالي عن العمل.. عن الفعالية خوفاً من التحطيم، ليس في طاقة القديم أن يحول دون نهاية الحياة، ولكن في طاقته أن يدافع عن حياة حياته: عمله الذي أنتج، فهو يخشى أن يمارس جيل جديد عملية تحطيمه.. هو طبيعة لإثبات الذات لا أكثر ولا أقل، فليس منه تحطيم التالين بعد، والجديد طبيعي أن ينتقص من أقدار القديم لأن في ذلك ليس الدفاع عن الذات وإنما هو إثباتها، وتثبيتها ليسير دون معوّقات.. ذلك يحول دون أن يضيع، وهذا يحاول أن يشيع، وإلا فقديم الأمس كان جديده، وجديد اليوم هو قديمه غداً.. المسألة تنتهي بخاتمة هذا الحوار!

ـ قلت له: إن الرائد ينبغي ألاَّ يهزم. والناشئ ينبغي أن يخدم.. الفعالية لا يمكن التسامح فيها.. أما الاكتساب فمن الممكن المصالحة في اقتسامه، ونمائه.. الفعالية هي الموهبة، وقد تكون هي العبقرية في أصحابها، الاكتساب هو تنمية العبقرية.. تنشئة المواهب، إن الفعال الصحيح هو الذي يتقبل بفرحة فعالية الآخرين حينذاك سيكون هذا التقبل جزءًا من فعالية ـ إن لم يأت بها مباشرة ـ فإنها قد أتت منه، ولو بكف الأذى عن السارقين، طريق الانتقاء لما هو أجود وما هو مقبول!

● هو صديق أرتاح إليه، ويرتاح إليَّ.. كنا في سيارة ذاهبين قادمين من زيارة واجبة! ورأى صاحبي شيئاً أعجبه. فقال: كان في مقدوري أن أملك هذه ومثلها وأكثر!

ـ قلت: أهي ندامة عن حسرة؟ أم هي الذكرى تحمد بها الله على ما أنت عليه من قيمة وقوام، وتشكره على أن لم تكن لك هذه ومثلها وأكثر؟!

أتحب أن تكون لك هذه، وتفقد ما عندك مما أنعم الله به عليك؟

ـ قال: ما عندي شيء أفقده، أو أتفقده!

ـ قلت: تعني العقار والنضار والنشب والعروض؟

ـ أما هذا فما عنيته ولا خطر في بالي. . فالذي أعنيه هو شيء آخر أغلى من كل ما يملك من عروض!

ـ قال: تحدث دون أن أسأل. . أريد أن أسمع.

ـ قلت: كان لي صديق كثير التأوه، كثير الشكوى، فسرت معه في زقاق، فأوقفني أمام بيت كبير في حارة الباب، فأنظرني الحجر والطين، يلمسها بيده.

ـ وقال: هذا الحجر، هذا الطين، حملته وأنا يافع. . كنت أعمل في الحجر والطين بأجر يومي قدره نصف مجيدي، أي عشرة قروش، أعول أباً كان مريضاً.

ـ قلت: وأنت اليوم ألا تقدر أن تشتريه أو تنشىء أكبر وأجمل منه؟

ـ قال: نعم. . نعم.

ـ قلت: هذه ذكرى ينبغي ألا تؤلم، إنها عنوان الحوافز لأن تكون كثير الحمد لله. أنعم عليك بمعرفة وتعلم وغنى، فلماذا تتأوه كلما رأيت إنساناً منعماً عليه، أفلست أحد المنعم عليهم؟

ـ أما كان من الجائز أن تصبح قرارياً، أو معلماً ينادونك «يابا» بدلاً من هذا الذي أنت فيه؟

المعلم إنسان كادح حمد الله على ما ناله. . وأنت إنسان أقل كدحاً وفي مكان مرموق. . أفلا تشكر وتنفرج نفسك عن هذا الضيق؟

هذا مثل..

وهناك الآخر!

أتذكر فلانة وفلانة وهما أختان، زوج الكبرى قد اتسع له ما يملك من قيمة في الذات والامتلاك والعزة، وزوج الصغرى على باب كريم.

فهل تعرف أيهما الأسعد والأهدأ بالاً؟

إنها الصغرى، انظر إلى بنيها، جمالاً في الصورة وكمالاً في السلوك وغنى عن الناس. وسلاماً من كل الناس. يتعلمون ويحترمون فما أكبر فرحتها إذا ما نظرت إلى واحد من ولدها.

أما تلك فماذا تراها؟ إنها في كبر، إنها في قلق من كثرة ما تملك فتهلك!

ولقد ماتت الكبرى فما وجدت بجانبها إلا عناية الصغرى وأبناء الصغرى.

وماتت الصغرى فما سار وراء نعشها واحد من أبناء الكبرى.

ضياع البطر! وصون الشكر، ذلك ما وقع!

وسكت صاحبي يقول: اللّهم احفظ لي ما أملك من نعمة الخير في نفسي، والخير في أهلي وولدي..

واللهم لا تشمتنا بمبطر، ولا تبطرنا بمقبل! وأنعم علينا في الحامدين الشاكرين.

● قال لي: حضرته ـ وأشار إلى ابنه ـ لا يريد الجلوس في الدكان.

ـ قلت: مخطئ، ومصيب في آن!.. هو مخطئ ألا يرغب الجلوس..

يتعلم منك . . يحفظ عنك، ومصيب أن تفرض عليه أن يكون معك طوال النهار تحبسه معك، إن في هذا حجزاً له يكربه، فهو قد ألف قسماً من الوقت أتاحته المدرسة له، حتى المذاكرة هي فسحة لأن فيها تغيراً من وضع أمام الأستاذ إلى وضع أمام نفسه. دعه يجلس في الأيام الأولى ساعة أو ساعتين، ثم أفسح له الطريق ليذهب إلى البيت . . إلى فسحة أخرى.

إن فرض القيود السرمدية هي فارضة التفلت من هذه القيود. لا تكن يابساً فتكسر، ولا ليناً فتعصر.

أعد تاريخ حياتك طفلاً . . تصور ما جرى لك، كثيراً مما ضايقك وتمنيت إن لم يكن.

إن حبس الفتى على رغباتك كلها لا يطوعه لك، وإن إطلاق الفتى لرغباته كلها يبعث العصيان في نفسك عليه . . من هنا يكون الانفصام والغياب، وسوء التفاهم.

أذكر مرة في حياة إنسان ما أن والده قد زرع أحواضاً كثيرة من الحنطة، فلما أينعت، واستوت السنابل على السوق كلف زارعها ابناً له يحرس هذه الحيضان من الطير لا تأكل الحنطة، استمر أياماً لكنه استوحش . . لم يكن هناك أحد يؤانسه . . ضاق، وكأنما أبوه أشفق عليه، فجاءه قبل المغرب بأقل من ساعة، وأخذه إلى حفل كبير، وتركا المزرعة، وفي الصباح، وجداها خاوية على عروشها . . نزلت عليها العصافير فأكلت الحنطة كلها . . لسبب: الضغط على طفل، والرحمة من أب. لو تركه يحرس ساعات، وناوب بينه وبين أجير للحراسة لما تأزم الطفل، ولما أشفق الأب، ولما خسرا الحنطة، هكذا . . القسوة تضر، ولو برحمة متأخرة، والكزازة، البخل عما أشد ضرراً لأنهما السبب في حجز الطفل،

وفي الرحمة الفجائية، وفي خسارة القمح!!

● قال لي: أنت مكبوس.. يعني مكتوم النفس لا مكتوم التنفس!

ـ قلت: ليست المشكلة أن تكون «مكبوساً» تطحن أعصابك أزمة عابرة، أو مستديمة حتى الأزمات في النفوس تصبح هذه الأيام كالعاهة المستديمة!..

المشكلة هي أن تعجز عن التنفس بالبوح.. تعبر عن ما تأزمت به حال لديك، والمشكلة أكثر هي ليست من فقدان الشجاعة، وليست من الفرس، وإنما هي من الاستحياء.. تعرض لك الأزمة النفسية من خبر مدمع، أو حال موجع ليس هو خبرك، وليس هو حالك وإنما هو حال ودموع من تعرف أحياناً، ومن يعرفه لك إنسان آخر!

ـ «مكبوس».. لا من الاستحياء أيضاً، وإنما من الآذان التي تنغلق أتوماتيكياً إذا سمعت كلمة خيرة عن أحد، أو دعوة خيرة لغوث أحد، وتنفتح أوتوماتيكياً إذا ما سمعت المعابة، أو تلمظت على خير عرض حالاً لمسكين!

ـ «مكبوس».. لأن الصمت إرهاق، ولأن النطق ضياع!

وسكت.. لأنه انقلب مكبوساً أكثر مني.. ونطقت أكتب لأنه سألني وأجبت، فتنفست.. بقي هو أن يسأله غيري ليتنفس!!

● أصبحنا لا نقرأ.. يعني هذا التجميد في ميوعة الحياة..

عندما كانت حياتنا صخرية كنا نتسلق صخورها بالقراءة.. حينما ذاب كل شيء أمسكت الحاسة القارئة نفسها تصونها عن الميوعة، فلا تجد إلا أن تجمد..

التجمد فيك كقارئ توقف عن الحركة في متابعة الفكر الإنساني، والميوعة حولك كقارئ تبعثر جهدك، فلا تمسك بشيء. أفضل أن أتجمد على ما أمسكت لئلا أذوب في هذه الأشياء التي لا تمسك!!

الأشياء الثمينة في المكتبة الإنسانية، أو مكتبة اللغة الشاغرة أصبحت بعيدة المنال لأسباب نحسبها مانعة ألا تذوب.. بينما هي وافدة كالحمى تصيب إنساناً في فلاة لا يجد العلاج، أو الطبيب.. العلاج والطبيب لقارئ هو ألا يتجمد، وأن يستورد كل ما كتبه الفكر الإنساني.

أصبحت ـ بعد سطرين مما كتبت قبلُ ـ أفضل أن أذوب مع كل ما يقرأ.. ولا أتجمد مع الذي قرأت!..

تناقض؟!.. لا.. هو هكذا الكاتب قارئاً.. والقارئ كاتباً، لا بد أن يعيش التناقض ليصنع المواءمة.. هو مسؤول عن ما يعطيه للناس، لكنه ليس مسؤولاً عن ما يأخذه لحساب الناس.

● في حوار بيني وبينه قال: أريد أن أحب ولكن الزحمة ضيقت عليّ أن أجد من أحب. أنا لا أحب الزحام..

ـ قلت: أنت مثلي تماماً.. كنت لا أحب الزحام حتى إذا زاحمني أحد تخليت دون ألم.. لماذا!.. لو تخليت عنه دون من يزاحمني عليه لأشبعت نفسي من ألمها. لكني حينما يطردني الزحام عنه لا أشعر بهذا الألم.. أهذا حب؟.. كنت أحسبه الحب.. عشت عليه في أكثر من حالة.. غير أني الآن أكاد أمج هذا الأسلوب.. أحسبه تفاهة، فالفرار من الصراع جبن الأنانية. لو كنت شجاعاً ـ يعني أتحمل الألم ـ لكان الرفض في الزحام أكثر إيلاماً لأنه الهزيمة!..

أما التخلي لسبب منهم.. لسبب مني فهذا شيء غير ذلك.. إنه

بانتصاره هو عليّ فانتصار الحبيب حبيب إلى النفس، فعلى أقل تقدير كنت ميدانه.. نتصارع فيه.. أفقده، ولا أخسر هذا الميدان الذي هو أنا، وإن كان بانتصاري عليه فشيء حبيب إلى الأنانية أسترخصه ولكنه من ناحية أنه ميدان فيه بعض العزاء.. على أقل تقدير أرى في وجداني هذا الميدان فيه شيء من الذكريات، فالمنتصر والمنهزم هو نوع من أوضاع الصلة.. أما المنتصر دائماً فهو الأصيل دائماً.. الحب نفسه وذكرياته!

الذكريات حياة الجمال في هذا الجميل. وحياة المحب على كل الأحوال!

وحين أفلست بعد أن تعلمت لم أجد في نفسي قبولاً لأن أجد من أتصارع معه.. يعني ذلك أني فقدت إلى حد بعيد الحبيبة والحبيب!

بصراحة.. لأني غير صالح لذلك.. لا إغراء.. لا زخرف.. ولا حتى ما استبدل به المتنبي ماله وخيله!.. لأن منطقي أصبح غير معجب.. قديم عف عليه الزمن.. لكني سأنتصر.. لن أكون منهزماً.. حيث لا حبيبة ولا حبيب، ولا كفاءة في أن أجدهما فإن عندي كل الكفاءة لأن أحب ما هو أغلى، فلئن فقدت من هو أغلى فلا عائق إن هو الأغلى.. ذلكم هو حب المحب!..

هذا ميداني أتحدى من يلقاني فيه، فإني سأنتصر عليه.

حب الحب.. جمال الشيخوخة، وكمال الإباء، وفضيلة الأصفياء!

● قال: أنت شيخ تصابى.. تتعلق الشبان ليزفوك في هودج!! فحينما فقدت عرس الحياة جئت تطلب التعويض..

ـ قلت: هذا غير ملائم للواقع.. فحبي للطفل أبى الرجل.. أملى في

الرجل صانع التفوق في المستقبل . . هو دافعي من أول يوم وقفت فيه معلم صبيان . . في كل مرحلة لم أبخس إنساناً حقه . . في كل رحلة رافقت المقدمين على نجاح . .

برئت من إلحاد . . وتبرأت من كلمة قالها أحدهم قبل خمسة وثلاثين عاماً : أنت تشجع فلاناً! ألا تعرف أنه إذا تفوق سينساك ويهملك؟

ـ قلت : إذا ما ذكر نفسه بالتفوق فيه . . فإني لن أنسى نفسي واضع لبنة في بناء أعتز بصونه ونمائه . .

* * *

● وقال آخر : أنت تجبن عن مصارعة هؤلاء الشبان ومقارعتهم . .

ـ قلت : لم أختلف معهم على شيء ينالني منهم . . بل إني أحبذ أن يكون أول حجر يرمون به هو الحجر المسلط على الخطأ ولو كنت هدف الحجر إذا ما كنت من الخاطئين . .

أما إن اختلفوا على أنفسهم . . فلست عليهم بمسيطر! . .

وإن تخلفوا عن الحق، فشأن غيري أن يردعهم عن الباطل . .

فقد أسعى جهدي لتمرير رأيه . . ولا أحب أن أكشف اللحم في السوق!!

ـ هما قالا ذلك . . فلم أنهزم . . لأنه جرأة على الحقيقة، ولا يهمني إلا دافعي ووازعي، ولكن .

ـ قال الثالث : لا . . لا . . إنك تسوس عقولهم، وتوسوس لهم وتفسد رأيهم . .

ـ قلت: هنا يكمن الخطر.. هنا دافع حقدك، وسوء قصدك.. فليت ولدي من صلبي يسير على إيماني ورأيي في ترابي وقومي ووطني.

قل غير هذه..

إني أدفع الجرأة.. وأتسلط بالنشاط.. وأحاور الرأي لأني أحب الجهر.. وأكره الهمس.. وأرفض الكبت..

ثق أنك حينما تقول هذا لواحد، فإنك تريد أن تسلبه كفاءته في تمييز الأصدقاء والرجال.

لا حقد، لا إفساد.. إنما هو الحب لكل المتفوق والمتفوقين.. أما سواد القلب والحقد القاهر فمتاع الذين يحبون أن يعيشوا وحدهم.

● والفتى الذاهب إلى بعيد يتعلم.. جاء اليوم يتكلم.. ذهب يحمل تكليفاً.. وجاء يضع تشريفاً، كان حمله الأول أماني الوالدين.. وأصبح عمله الأول العمل للقادمين والحاضرين حتى تحسبت أن شيئاً جديداً ورائعاً قد تجسد أمامي في كيانه.. من لسانه..

طفل كنت ألعب معه.. أناغيه وألاغيه، فإذا هو رجل يلعب بي بجد من القول.. يحاور ولا يداور، يصاول ولا يتطاول، يحاول ولا يتحول.. يتناول خير ما يعرف.. ولا ينالني بسر مما عرف.. يرسل كلامه كأنما هو في الواقع يحدد قانون مسيرتي معه في قابل.. أعطيته من عاطفتي حياة مسيرتي له.. ويعطيني من عقله الشيء المفروض غير المرفوض.. يفرضه هو، فأصبحت بهذا كله صديقاً لا أباً.. وأصبح بهذا كله الابن الصديق.. يلتصق بي بالانطلاق، لا أسبغ عليه قيداً.. يجتر به الشقاق إلى فراق.

ـ وسألته: كل هذا مسلم به.. ولكن ما أنت صانع له؟

ـ قال: لا تجزع. . أحسب أن غيرك يفجع إذا ما أخبرتك بقراري. . فبعد عام سأنتهي لأكون منك بك معلماً في أي مجال. . لا يغريني أن أكون معيداً في الجامعة. . ولا يبعدني أن أكون مدرساً في قرية.

ـ فقلت له. . أتصنع التهجم: ماذا تتوقع من إجابتي؟ هل تحسبني أقول: لا؟. . لقد سعيت قبل أن أسمع هذا منك ليكون الذين سبقوك على النهج الذي أردت. . أساتذة ومعلمين. . ولكني فجعت بما لا أقدر عليه إن استجاب لي طالب عز عليه مطلوب. . حتى الذين كانوا الحريين بأن يستجيبوا. . فيكثرون من المعلمين. . وجدت في وجوههم استغراباً. . يستنكر عليَّ هذا الطلب. . يحسبونه المطلب الرخيص. .

ـ قال لي واحد منهم: كيف؟ أتريد من ابنك أن يكون أستاذاً؟. .

ـ قلت: نعم. . فالبلد في الحاجة الماسة إلى المعلم لا إلى المدير. . فأعجب لحامل الإجازة العلمية ألا يستفاد من علمه إلا توقيعاً على استمارة. . أو حديثاً بالإشارة!

وضحك. . فقلت: أنت محق في أن تضحك. . إلى أن تسخر. . لأنك إنسان قد سخرتك البطنة. . إلى أن أماتت الفطنة. . أما غيرك. . فلم يسخر لأنه مسير بما يدعو إليه نهضة في هذا البلد. . يرجو أن تسير بالعلم وبالمعلم. . فلا تتعثر بالمسلطين الساخرين؟. .

وسكت الفتى. . لأجد دمعة أخرى كان فيها بلسم الجراح. . وكان بها الطلسم. . لا تختفي به ذخائر المحبة. . وإنما هو شيء من الرقية الطيبة الحلال. . ألقوها عليه. . أسأل الله أن يحفظه من نكسة تقتل عواطف الرجال وآلامهم.

الحب. . حب هذه الأرض وقاية من كل شرور المستقرضين بالعلم. .

بالمعلم.. نقضي على هذه الشرور.

● سمعتهما يتحدثان على قارعة الطريق، ولشد ما تسمرت قدماي!! أسلم عليهما، وأسألهما عن فحوى الكلمة التي قالها سالم لسعيد..

هما كهلان من كهول الحارة القدامى.. وأنت في بلد قلّ أن ترى في شارع.. أي شارع واحداً من الجيرة الأقدمين. كله جديد، كله طريف، ذهب بالتليد، فالشيء المقرر في حياة المجتمعات أن القادم الجديد يطرد الساكن القديم.. فقريش البواطن.. أجلوا قريش الظواهر، والأحابيش أجلوا البواطن.. وهكذا.. حتى أصبح اسم دار أبي سفيان القبان، وحتى أصبحت سقيفة بني ساعدة شيخ النمل، أو السحيمي.

ـ وسألت الشيخ.. إيش قلت؟

ـ قال: قلت: الحمد لله على نعمة الجهل، فاعترضني سعيد ينكر عليّ ذلك، ينكر أن الجهل نعمة أحياناً.

ـ قلت له: فسر لنا..

ـ قال: الجهل النعمة هو الذي لا يخرج بك إلى ضلالة ولا يدخل بك إلى أذى الناس.. تعلم ما ينفع لخاصة نفسك، ولا تتبعثر بشك ولا تهلك بالحيلة.. انظر إلى هؤلاء الذين جعلوا العلم نقمة..

النقمة في العلم، أو بالعلم هي في حامليه، ما استطاع أن يصلح أخلاقهم فزادهم العلم نباهة ذكر، وذكاء ذهن صلحت لأدوات الشر والفساد بين الناس.

إنك تعرف فلاناً صاحبنا، وتعرف أني بعيد عنه، جهلي النظيف، أبعدني عن علمه المتسخ «يفتي على الإبرة، ويبلع العتلة» كم مرة أبكى

يتيماً أضاع حقه، وأرملة استرذلها في غمط حقها.

كرهت المعايشة معه، وقد كنت أحب أن أتعلم منه.

وهكذا.. فالجاهلون في الأدغال لا يعملون على قتل الإنسان.

فالجهل تجد منه الحماية، أما العلم فأين نجد الحماية إذا ما سلطه إنسان على إنسان «حيلة» «خدعة» «قنابل» «غارات» قوة حماقة.

● للمرة الثانية. وفي المطير حملني صديقي الشاب في سيارته إلى البيت.. لا أدري أذلك مصادفة أم هو العمد منه. يعجبه في هذه اللحظات التي تضحك فيها الأرض من بكاء السماء، أن يضاحكني وأضاحكه!.

كان الحديث في المرة الأولى عن شجونه. وكانت شجونه شجون المترفين الذين يعلقون عيونهم على أهداب البلكونات!. أما الحديث الثاني فمن شؤون أخرى ليس فيها شجن. وإنما فيها شدو!.

ـ قال لي: كيف يستطيع أن يكتب أخونا «عبد الله جفري» كل يوم.. يعنى هذا من القراءة، أم أن هناك شيئاً آخر؟!.

ـ قلت: هما واحد.. القراءة أولاً والشيء الآخر أولاً!

ـ قال: أسلوبه يعجبني. ويعجب الكثيرين!

ـ قلت: والكثيرات أيضاً!.. أحسبك تسأل عن هذا؟.. انظر إليّ لتسمع.. لا أريدك الآن أن تعلق أهدابك إلى فوق. فليس هناك إلا حبل الغسيل!.. أحياناً النظرة إلى تحت تعلو بك إلى فوق، فالذين لا تحث لهم لن يكون لهم فوق. الجذور تحت.. يعني الحياة تحت.

وهنا مستنى عصا المعلم المشاء.. لأقول له:

ـ في هذه الخمسين عاماً التي عشناها. يعني وعينا أن نعيش لها..

نبتت عندنا أساليب.. كل أسلوب أعلن عن كاتبه.. إذا ما قرأته، ولم تر توقيع صاحبه قلت هذا فلان. هؤلاء أصحاب الأساليب كأنما برزوا في حياتنا الكاتبة على نسق متسلسل... تحسبهم المتوارثين يحفظون للأسلوب مكانه: حمزة شحاته، فحسين سرحان، فعزيز ضياء، فمحمد عمر توفيق... لكل واحد من هؤلاء الأربعة تمطى أسلوبه علينا.. غطانا.. ولحفنا. فلقد قرأت في «رانجون» قطعة لحمزة شحاته في صوت سفري إلى الهند، ولكني قلت لصديقي الشيخ محمود شويل: «كاتب هذه حمزة شحاته» ذلك لأنى. ولكي أقيم الدليل على نفسي، قرأتها بصوت مسموع فكان الجرس هو جرس حمزة. وقد وقع لي قبل أن أصل إلى التوقيع أن أعرف الكاتب حسين سرحان، وعزيز ضياء، ومحمد عمر توفيق. لقد حجبت الأيام هؤلاء إلا في النزر القليل. فجاء صديقك «عبد الله جفري» خامساً لهؤلاء يكتب بأسلوب مميز كأنما هو صحوة من فترة غفوة!.. لهذا يقرأه الكثيرون والكثيرات... غير أنه أوفر من أولئك حظاً لأن الكثيرات أصبحن يقرأن!.

ـ قال: وأنت؟!

ـ قلت: هم.. يمتصون قصب السكر.. وينضحون بالشهد... أما أنا فأغترف وأتدفق!

● سؤال ألقاه أخونا م. ع:

س ـ ما هو أحب شيء إلى المرأة؟

ج ـ هو أن تكون أماً.. فالأمومة أحب شيء لها. فهي قوامها وقيمتها ومدار رغبتها ومسيرة حياتها.

س ـ والجواهر والفساتين؟

ج ـ هذه «محدقات» وكماليات. شهوات. تتزين بها المرأة حينما تتبدى للذكر. «من ذكر وأنثى خلقهم».

هي أم ولا شيء غير هذا. . وكونها الأم يعنى ذلك أنها الأنثى. . والأنثى لا يمكن أن تكون بلا زوج. . الذكر. . «من كل زوجين اثنين».

س ـ إجابة ما كنت أتوقعها. لقد «فهمت الحقيقة» وأفرغت الفهم الدقيق لي.

ج ـ الأنثى الأم غالية. فلم استرخص الإجابة عنها. فرق كبير بين الأم والأب!

فالأب الذكر قد يصرف ماء الحياة. وقوام الحياة في كل مصرف نبلا لشهوة. ارضاء لنزوة. لأنه لا يحسب حساب الأبوة قطعاً وهو يتشهى ويفعل.

أما الأم فهي مورد ومصنع. لا تنصرف إلا وهي تعرف البنوة والأمومة. فإنها في التشهي والنزوات والهفوات تنقطع نفسها حسرات. هي الباكي بعضها على بعضها، غالية البضع. مرهفة الحس. . في أشد حرصها على غواليها!.

ماء الحياة في الذكر بعيد عن القلب. أما هي فحول القلب في هذه الترائب في صدرها. .

تعطيه لطفلها طعاماً.

لطفلها طعاماً غذاء من ثدييها.

«يخرج من بين الصلب والترائب».

هي مصنع البنوة، وغذاء الابن، ورحمة الخالق، من هنا. . «الجنة

تحت أقدام الأمهات» «أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك».

ومن هنا أيضاً، «حبب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة».

س ـ لقد قسوت على نفسك ذكراً أباً!

ج ـ لأعطي أمي حقها، لئلا أبخس أم ولدي حقها، لأرحم البنت في هذا الزمان المستغول، إنها عاشت تحت غول من الكبت.

● قلت له: هي واحدة من ثلاث. من صالحك أن تسأل عنها قرينة حياة: الفاغية تخاف نفسها، والغالية تخاف غيرها، والفارغة لا تخاف نفسها، ولا تخاف غيرها، وإنما هي تخاف الخوف، وتأمن الخوف في كل لحظة لها مذاق!

ـ قال: هذا كلام يسأل الوضوح، ويرفض التعمية، ويرغب التعريف بالدليل، والعلامة والميزة. وحتى المعابة، عن كل واحدة منهن.

ـ قلت: إن التي تخاف نفسها رفضت أن تعيش تجارب عدة فهي تكبح الرغبة لا تخضع لإغراء، وترفض الافتراء، وتود أن تجد الأمين المؤتمن، وهي أيضاً لا ترجئ الحبيب إذا ما كان الأمين، ولا تلجئه إلى ممارسة الحيلة معها، فهي تتعرف وتتعرف حتى تعرف، ثم تعترف فتقع في شباك إنسانها الذي يحترم خوفها لأنها به حافظت على نفسها حتى حفظته هو لنفسها!

ـ قال: والثانية؟!

ـ قلت: التي تخاف غيرها؟!

ـ قال: نعم.

ـ قلت: إنها هي التي تقع من تجاربها مع الذي يجسد الخوف فيها. كان قبله مزاجاً فأضحى طبيعة. إنه يمتلكها بهذا الخوف، فتصبح عبداً له يسومها بالحذر منه وبأسلوب المخادع الملاين. . الخوف الطبيعة حينما يتربص بها ساعته المريعة فيمثل لها نفسه الرجل الرائع. فتقع بين يديه سيداً لها يحكمها بالخوف، ويتسلط عليها بالمذلة!

ـ قال: والثالثة؟!

ـ قلت: التي لا تخاف نفسها ولا غيرها؟!

ـ قال: نعم!

ـ قلت: هذه ستكون عبدة نفسها من تصورها أنها سيدة نفسها حينما تأمن بالوهم لتكون المرفوضة من إنسانها، لأن وضوح الاستقلال فيما يمنعه من أن يمارس حياة إنسان مع إنسانة لأنها تشمخ بالأمن في نفسها طوال أيامها الشابة المرحة. حتى إذا فرغت النفس من حماية النفس جاءت تجري نفساً جديدة تسأل إنسان فيصعب عليها أن تجده لأن الزمان قد صنع لها الخوف من نفسها ومن غيرها لتكون كالثانية. . حينئذٍ تعيش الحيرة والحسرة. إن ملاك الأمر في نيل الأنثى رجلها السكن والمطمئن هي أن تخاف نفسها فلا تخاف غيرها. أو لا تأمن نفسها، فمخافة النفس هي مجلبة الأمن في الأنثى، ولا شيء غير ذلك. . إن التي خافت نفسها عاشت حياتها آمنة برجل لا يخيف ولا يذل!!

● ليس كالحوار جالب ثقة. . مثبتاً لقواعد كرامة. وطارداً لرأي لا ترضاه. . معلماً لفكرة تفيد. . به لقاح الفكر وغذاء المعرفة. وتفشي الرأي، وهو بهذا كله لا يصدر إلا عن عدة كقوة في عارضة الجدل.

أو هي القوة في المعروض للحوار. . يستأهل نطاح قرنين، ولو كانا،

ولو كانا غير قرنيين.. به تنمحي الفوارق بين الاثنين المتحاورين فرداً أو جماعة.. الفوارق تنمحي ولو ساعة جدل، والحجاج يكبر صغيراً.. يرتفع بالرأي ويتواطن كبيراً احتفالاً بالرأي.

وكثيراً ما تكون غير عارف بمسألة أو فكرة.. فإذا بالحوار يفتح لك باباً تجد المسألة عندك.. وجوابها في المخزون رصيداً في عقلك الباطن، أو أنت تأخذه من عندي سؤالاً ليكون عندك الجواب، أو يكون الجواب من عندك لمسألة وجدتها في لحظة الحديث تطرحها ليجيب.. فإما أن ترضى بما أدلى به ـ أعني تقتنع ـ فلا مجال للغضب في الحوار، وإما أن تناقضه ليكون صوابك صواباً عنده، أو لا يكون.

إن الحوار مران، ومعاناة.. لا تعنت.. يأتي بالممارسة للمدارسة.

فمثلاً.. تحدثت إلى صديق مثقف من الهند قال:

ـ نحن نخوض التجربة المريرة في برامج التنمية تعجزنا عن تمامها مشاكل ومشاكل.. سواء من الداخل أو من الخارج.. ليست هي الأفواه الجائعة التي تحيرنا، وليست هي الأرض تريد الحرث والزرع، والمصنع ليكون الإنتاج نواة النماء. وإنما هو هذا الشره.. أو هو الإسراف في توقي عدوان علينا.. لو استرحنا من نفقات التسليح لخطونا خطوات كبيرة في التنمية.. هذه المرارة التي نشعر بها ليس سببها ما ذكرت لأنه سبب عارض.. السبب الصحيح هو أنا حصلنا على الاستقلال دون أن نقدم كثيراً من الضحايا.

ـ قلت له: الاستقلال هو الهدف والغاية، أما الضحايا فوسيلة.. لم تستطيعوا استعمالها.. بهذه الفلسفة أو المبدأ أصله غاندي فيكم. «اللاعنف».. اللاعنف يعني لا ضحايا كأنما تريد أن تمسك بالاستقلال وقد

سالت دماء يرهبها الشعب . . بالعكس . . إن الدم يبعث الجرأة على الدم . . إن الهند في آلامها الطويلة كانت هي الضحية الكبرى، وغاندي في مصرعه كان ضحية يعادل الآلاف . . لقد ذهب واحداً ولكنه بالكيف لا بالكم ضحية كبرى رسخت في أعماق الهند كألم طويل المدى . عميق الأثر . . إن الضحايا لا يجري وراءها إلا من يريد التصفية على طريقة هتلر، أو من يتذرع بالتطهير على طريقة ستالين!

ـ قال: لا أريد هذا . . لو قدمنا كثيراً من الضحايا لوقانا شعبنا كثيراً من نفقات التسليح حينما يكون كله جيشاً يدافع عن أرضه ولو بالمدي والفؤوس والعصي . . هذا الذي أريد!

ثم أردف قائلاً:

ـ إن مشكلتكم مع إسرائيل لم تكن وليدة وعد بلفور، ولا أنشئت باعتراف ترومان، ولا طغت بالمعونات . . كل هذا كان يمكن ألا يؤثر لو أنكم قدمتم كثيراً من الضحايا . .

الشعوب التي تقدم الضحايا لا تمكن عدوها أن تكون ضحيته . . يسيطر عليها كل يوم بعدوان جديد . . لو أنكم في عام ٤٨ استمررتم في الحرب ولو على صورة العصابات، أو الكومندوز «الفدائيين» لانتهيتم من إسرائيل لكن بعضكم دخل الحرب وهو ينتظر الهدنة . وبعضكم رأى الهدنة نهاية المطاف، وحتى في حربكم الأخيرة خفتم من تقديم الضحايا على صور شتى .

ـ قلت له: لقد تعلمنا هذا الدرس . . لقد بدأنا نقدم الضحايا . . كما قال شاعرنا شوقي:

ولا يبني الممالك كالضحايا ولا يؤتى الحقوق ولا يحق
وحررت الشعوب على قناها فكيف على قناها تسترق؟!

● حوار كحديث بين أكثر من واحد، وأقل من خمسة!

ـ م: كنا في مرح ليلة أمس، نسينا ما نطلب لنعيش في ذكرى ما نحب، ومن نحب!!

ـ ج: لم أكن معكم لأني لم أكن ضائعاً خارج نفسي. ولم أكن ضائعاً من التي هي نفسي.

ـ ز: يا للشباب المرح المتصابي روائح الجنة في الشباب.

والشباب مصاص تفاح، يطرد الترحة وينسى الفرحة، يتقابل المنعشات ويقتل المنغصات.

ـ ع: والشيخوخة؟

ـ ز: هي امتصاص واجترار، تبلع وتختزن، ولا تمثل فتطرد، كل شيء يأتيها تحمله حتى إنها تستثقل الفرحة خوفاً منها وتستدر الترحة راحة فيها، فإن اليأس هو أملها الملح، فمن أعاجيبها أنها تغترف القلق راحة وديدناً فلا تمله.

ـ ج: أو تقسو على الشيخ إغراء للشباب؟ أم هي الحسرة؟ أم هي غير ذلك؟

ـ ز: لا قسوة وإنما اعتراف، ولا إغراء وإنما هو تحذير، ولا حسرة وإنما هو الحرمان ألم لذيذ.

ـ س: ما هو الفرق بين الألم اللذيذ واللذة المؤلمة؟

ـ ز: الحب والهجر والوصل والعذاب ألم لذيذ وتهذيب مريح. أما التشهي والنوال وعقابيل الجنس فلذة مؤلمة.

فما من ألم ملذ تبغي عنه توبة. لكن اللذة المؤلمة هي الرغبة قسراً بالندامة إلى التوبة.

ـ ش: ما هو الجمال؟

ـ ز: الجمال كل شيء. كل حي، كل حياة تأخذك فقوة الأسر في أي شيء أو حي تعشقه، أو حياة تعشقها هو الجميل، هو الجمال.

أما ما يبعدك يقصيك، فلا تأخذه، فلا يأخذك فهو القبح، القبيح.

من هنا تفاوتت النظرة إلى الجميل والجمال.. فارس يبهرك، ملاكم ينتصر، زين يخطر خطرة الهيفاء.. حلوة.. زهرة.. حصان.. بناء.. كل هذه حين تأخذك نفسك لنفسها هي التي أسميها الجميلة.. والجمال.. لا مقياس.. ولا نظام.. وإنما هو التجاوب والتلاقي كهربة يرسلها إليك تمغنط ذاتك لذاتها.

هذه القوة المغناطيسية هي دفق الجمال واندفاعه وأخذه وأسره.

فالطاعة له جمال في نفسك من جمالك في نفسه. لنفسك أخذها. لتأخذه بها.

صحافة وكتابة

صحافة وكتابة

ـ حتى في الحب لا أحب الزحام، ولا يعني هذا أني أحب الوحدة، وأعشق الغربة.. ولكن ليس من طبعي التباهي بالانتصار على أحد.. لا خوفاً من الهزيمة، فالهزيمة لا ضرائب عليها.. تدفعها هي فقط لا غير.. إني أخاف الانتصار لشخصي في أي معركة وجدانية.. لأن ضرائب الانتصار قد لا أستطيع دفعها!

من هنا، أتخذ في بعض الأحيان من «كلمة ونص» متنفساً ابتلع فيه الهزيمة، واقتلع الانتصار!.. محطة استراحة.. فمثلاً: أجد بعضنا لا يقدم على موضوع يكتبه ابتداء، فأتقدم لأكتب فيه، فلا أجده في اليوم الثاني إلا فاقداً «السقاطة والأنقرفيس».. أصبح «كل جماعة يشتري يا واد»!

يذكرني ذلك بالحجاج الجنوبيين أيام زمان.. يرحم، أيام السقاطة و «الأنقرفيس»!.

وفي حال آخر.. أجد موضوعاً كلهم كتب فيه.. زحمة.. تكاد تضيع الفكرة.. أهرب من هذا الزحام إلى فكرة جديدة أرسلها بعد!

لا يجزعني أن أكون الأخير ما دمت وراء الجماعة رداء لهم، أو حتى «قشاشاً»!.. ورضي الله عن صفوان بن المعطل!..

مزاج، أو حالة . . لهذا سأتبجح في اليوميات عن مواضيع حجبتني عنها الزحمة!!

* * *

● في المأتم عادة يجلس الناس للعزاء بأدب، وسكينة، ووقار . . صمت من الكلام إلى درجة الهمس، أو السكوت . . عدم استعمال أي شيء باليد . . السكون يخيم على الجميع كأن على رؤوسهم الطير . . لا أحد يستطيع أن يجرؤ على «شخطة» كبريت . . يولع سيجارة . . لأن الإنصات إلى القرآن يعلم الناس الأدب . .

لكني رأيت صديقاً لنا هو أكثر صداقة لأصحاب المأتم قد وضع «الغليون» في فمه . . هم يسمونه «البايب» تقليعة جديدة يجربون فيها طريقة تشرشل، أو «جون بول» آخر، يتكلم والبايب في فمه . . ذلك أحدث لهجة جديدة في اللغة الإنجليزية أخنت على اللهجة أيام شكسبير من اعوجاج الفم!

استكثرت ذلك منه . . كيف يشرب الدخان وهو جالس للعزاء!!

نصحته حين قمت إليه، فانصاع . . اعتذر بأنه قد نسي نفسه!!

حالة قلق . . الله يعين الناس هذه الأيام، وتذكرت الأستاذ حمام في قصة رواها لنا . . قال: كان أحد الشيوخ من الأكابر يقرأ القرآن في مأتم لمصري كبير من حقه أن يحضره الكبراء حتى رئيس الوزراء، والتفت الشيخ فوجد أحد الوزراء قد وضع السيجارة في فمه فقال الشيخ: صدق الله العظيم، وهب قائماً يترك المأتم، فلما أمسكوا به قال: لن أجلس حتى يتأدب هذا الذي يشرب السيجارة والقرآن يتلى.

● يظهر أن الزمن والأوضاع والأحوال هي التي تملي على كاتب هنا وهناك أن يقول مثلما يقوله الآخرون.

كل الفارق هو اتساع النشر لما يقولونه، وضيق الانتشار لما نقوله..

ذكرني هذا بكلمة فاخرة من صديق كبير حضر قبل خمسة وعشرين عاماً مؤتمراً ضم كباراً من العرب في بلد عربي..

وانتهى المؤتمر، وجاء صاحبنا إلى بلده، فجرى حديث معه.. فقال وهو فرح فخور: كلهم مثلنا، سرنا معهم حتى تحاذت الركب.. هم «زينا ولا فرق»..

ـ ومرة أخرى يذكرني ذلك كله بكلام سمعته.. كنت قائلاً له من قبل.

تحدث به صحفي كبير في إذاعة عربية.. هو يروي كلامه، ونحن صناع كلامنا..

ـ قلت من قبل: إن القارئ هو كاتب ما يقرأ حينما يرفضه أو يقبله..

والكاتب قارئ لما يكتبه إذا وجد ما يلاحظ عليه من عيب أو نقص أو ندامة..

ـ وقال الصحفي الكبير: إن القراء هم الذين يغيرون ويبدلون ما يكتب يومياً أو دورياً.. فما يعجب القارئ تستمر الجريدة في نشره، وما يرفض تلغيه..

وليس هذا بالشيء القليل.. فإنه يعطينا الفهم لقيمة الجريدة من الفهم لقيمة القارئ.

إن يقظة الجريدة لمطلب القارئ هو أساس نجاحها، تعطيه فكرها من فكره..

وهو يأخذ فكرها لفكره، ويعطيها فكره لتفكيرها . .

إن أي جريدة لا تعبأ بالقارئ فسوف تجد نفسها قارئة نفسها . .

وإن أي قارئ لا يعبأ بأن يفكر لجريدته، فإنه سوف لا يجد نفسه قارئاً ما يفيد . .

قسر الزمن، وتشابه الأحوال يعطيان الكلمة الواحدة لحال واحد لا يختلف من مكان إلى مكان، فليس هناك كبير أو صغير عن التفكير المحتد بمقتضى تداعي الأحداث والأفكار . .

● لم أسمع أن البنات يلدن الأعداء أو هم الأعداء إلا أمس، فلقد وجدت بجانبي «كليلة ودمنة»، فأغراني أن أطالع فيه تسلية .

قرأت باب «الطائر فنزة» فوجدت فيه هذا الكلام . . فهل هي عقلية ابن المقفع الفارسية حملته على ذلك، أم هي شبعة من الثقافة العربية الحاملة عليه؟

لا أرى أن أمة من أمم الأرض قد ذاقت طعم العداوة بأسباب البنات إلا الأمة القبلية في عصر العرب الجاهلي . . يتقاربون بالتزاوج كعمل العقل لتقارب الأرحام والأنساب . . هذا يحميه أخواله إن جار عليه أعمامه . . فالخال عندهم والد . .

فكم من إخوان أنصفوا ابن الأخت فأخذوا حقه وصانوه . . فالقربى بالخالات والأخوال جلبت الصداقة والصدق . . وهي أيضاً في أوضاع شتى جلبت عداوة ولد البنت إن جار أخواله على قومه وأعمامه، أو قتلوا أباه . .

أحوال شتى فيها الكثير من الطيب والجميل جلبته البنات . .

وأحوال أخرى جلبت عداوة ابن كليب على أهل أمه حين قتلوا أباه وحاربوا قومه..

وأحسب هذه الأخيرة ولادة الأعداء، لا تكون قانوناً يفرضه سابق البلغاء.. معلم البيان عبد الله بن المقفع..

فالبنات حبيبات، يضعن الحب ويلدن الأحباء كما هو قليل أن يلدن الأعداء..

فابن المقفع كان يشخص حالة مر فيها.. إنه قد بلي بنكبة الأعمام من ابن الأخ.. لا من الأخوال.. فما نكبة المنصور وهو الخال لعمه عبد الله ابن علي، وإنما كانت النكبة لأنه عم.

فهل ولد الأبناء الأعداء؟

وقليل ذلك.. وهو لا يصلح قانوناً.. يرحم الله ابن المقفع فقد قدم على رب واسع المغفرة.

● أستاذنا الرافعي كتب تحت عنوان «كلمة ونصف» فلا عيب علينا إذا ما قلدناه.. بل إنه يسعدنا أن نشعر قارئنا بذكراه.

ـ عندما يتحول الفكر إلى حب نسميه عقيدة.. أي عقيدة، كل وما فكر وما أحب، أو من أحب.

وحينما يتحول الحب إلى فكرة نسميه عقدة أو فلسفة.

وحينما يكون الحب مجرداً من الفكرة نسميه طبيعة.. أو هو العادي.

وحينما يكون الفكر مجرداً من الحب نسميه الواقعية، التجرد.

وحينما يكون الحب جموحاً في تحقيق رغبة نسميه شهوة، مطالب حيوان.

ـ وحينما تكون السرقة مجداً يصبح المسروق مستضعفاً أو راشياً . . وإن خلا من هذين فهو السارق لنفسه . . أباح لسارق أن يسرقه . .

ـ وحينما تكون الأمانة أو العفة ضعفاً أو بلادة في نظر بعضهم . يصاب المجتمع بردة أخلاقية تنزع الفضائل وتزرع الرذائل . . يذل بها الكريم ويكرم من أجلها اللئيم . .

ليكـون رد الفعـل فـي الصورة التي تنسب فيما أذكر للإمام علي . . «احذروا صولة الكريم إذا جاع وصولة اللئيم إذا شبع» .

الكريم لن يكون واحداً . . وإنما هم الذين أصيبوا بالردة الأخلاقية . . وأما اللئيم فواحد وإن تعددت الصور .

ـ حينما تمضغ الشاة ورقة برسيم فإنها لا تفكر باجترارها . . كل عملها أن تأكلها الآن وإن اجترتها بعد . . عملية ديناميكية . . قصرية . . لا اختيار لها .

لكن الإنسان حينما يأكل لحم أخيه يمضغه يجتره . . هو ليس له معدة تجتر لكن عملية الاجترار في عواطفه . . يجرجر صاحبه إلى موقف مرذول، علّ الناس يصدقونه فيما قاله فيه .

ـ التفوق أو النجاح ستار سميك يغطي كل المعايب . . فيه فتحة . . يظهر منها وجه يشير إلى الناس . . كل الناس : اتبعوني!

ـ والفشل ثوب فضفاض فيه مئات الرقع، كمضربية الدرويش، كل رقعة يطل منها وجه . . وعلى كل رقعة يمتد لسان . . الوجه يقول : ابعدوا عن طريقي . . الجربان يعدي . . وألسنة البشر تقول : مسكين!

ـ بعض الشعوب تطرد الموت بالحياة . . وبعض الشعوب تطرد الحياة

بالموت.. سلاحها في يد الجبناء وأموالها في يد البخلاء.. ورأيها إملاء الدخلاء.. وحكمتها من أفواه السفهاء.

● وأمسكت باليد الأكرة أريد أن أفتح الباب، فعندي إذن سابق ـ ندخل البيوت من أبوابها ونستأذن من أهلها ونسلم، فوجدته مرتجاً أغلقه إنسان يكتب.. كانت هوايته الكلمة فاحترفته الكلمة!.. يريد أن يخلو من غوغاء تأتيه سائلة عن الأخبار، والجو والسيارات والسواقين، والبصل والبطاطا، والفليت والذباب والإنفلونزا ومشلحي الكفرات وهي على أبواب العمارات!

وأذنت لنفسي بالدخول أسحب لساني إلى سكوت.. أمنعه عن أي سؤال من هذه الأسئلة الرتيبة يتخذها الناس مداخل لمخارج.. يأتي منها بعض ما يريدون.. أقله العكننة. وبعضه سرد الأخبار في مكان آخر!

وجلست في مكاني أتسرمد فيه متقمشاً في لحظات أعيشها، نخوض حيناً فيما يخوض فيه لاغ من هؤلاء اللاغين، أو نخوض معاً في حديث وحديث.. إذا ما اجتلينا أو خولنا.. نلمس جوانب الفكر والنفس والحال والأمل والسأم.. أتعلم فيه الإجابة وأتعامل فيه مع السؤال في حوار لا يعجزنا من يلغو لنكتب، ولا يلهو بنا من يتلهى عن وضع الحرف في سطور بيضاء سؤددها في سوادها من سيادة الكلمة المصفاة بالوازع النظيف للغرض النظيف!..

غرض الكلمة دائماً نظيف حتى ولو كانت مقزعة جارحة، فالعصا آلة نظيفة في يد المربي.. يزجر فيها من هو راحم.. فبعض الناس يستأهلون أن تشوى آذانهم بكلمة لعلّ قلوبهم تصحو من لؤم يركبون به الناس!

الكلمة بوازعها من كاتبها، ولموردها لا بد أن تكون لها هذه الركائز

الثلاث، فإذا وجدتني أحبك لا بد أن أجدك صاحب وضع أو أهلية لهذا الحب. . لكن الضريبة عليّ ألاَّ أرضى لك أن تعيش السارق المسروق، أو الراشي المرتشي، أو الكاذب في غفلة زمان خدع الناس فصدقوه!. حبي لك يجعلني أمسك بالكلمة المقذعة كعصا المربي أرجو منها الصنو للحب فلا يذهب هدراً كموضوع فشل. . إن غوالي الوجدان يحرص على صونها الأمناء لتاريخهم وأحبابهم. .

الحياة ليست عطاء من يد تسيطر بها على آخر، وليست استعطاء تستخذي به أمام مستعين. .

الحياة عطاء من وجدان المعاني وأخلاق وسلوك وصداقة، يحترم فيها الصديق صديقه. . يحترم الذين يحترمونه.

إنه بهذا الحشد من الكرامة يستطيع أن ينتصر على المخزلين والناكرين. . تلك كلمة. . قلتها وأعترف بأن كل حرف فيها له ظله الواضح على مقاس إنسانه الذي لم يتضح بعد.

● في الصيف يستجم الإنسان. . يستريح ـ يعني يأخذ إجازة «يغير هوا». . !!

وفي الشتاء يستجم الحيوان، ولو دفن نفسه في جحر من الثلج. . هي راحته، بل هو دفؤه. . كما النبات يصوم في وقت معين ـ يعني يستريح من الامتصاص ـ الكفاء فيه ـ يعني بقاء الكفاءة ـ من قوة امتصاصه لنفسه، وأنا كإنسان أسأل قارئي لعلّه يمنحني إجازة. . فقبل أن أمنحها لنفسي، أو استمنحه عكاظ. . أستأذن القارئ. . أي قارئ؟!. . لا تحسبوني أعني المستجيب. . يستحسن كل ما تحسن فيه. . فللقارئ السالب المناقض كل الحرمة. . مثله مثل القارئ المستجيب. . كلاهما يزودني. . على الأقل

بالحرص على الإرضاء كالتصميم على الإغضاب.. فمتعة الكاتب أن يكون بين هذين.. موجب يحثه، وسالب يستحثه!!

أفكر.. إذا رزق الله، وطلعنا إلى الطائف.. نكون لعبنا وبطلنا!!.. وإذا حالت العقابيل، وأبقتنا «صاردان طاح على بردان» نصبر على الندى.. الندى يعني الضباب، وليس هو الندى يعني الجود (!!).. فالجود من الموجود.. يعني وجود الكرم في النفس.. لا وجود المتخمين بما لا يجودون به، وليس هذا المتخم الذي أعنيه هو المتخم بالمعرفة.. إنما هو المتخم «بالمغرفة»!

قوة أن يستمر القلم في يدك تكتب الكلمة.. لا تستعيرها من المنفلوطي، كما يفعل بعض المتخمين بالمعرفة الآن ـ أيام زمان!! ـ ولا تستعيرها من مسخر باليد العليا تخضع لها اليد السفلى.. تسخره أنت بالإكراه لأنه يمد يده، أو تخضعه بالود لأنه يفتح قلبه، أو تحتال عليه بالمسكنة.. تعطيه خلجاته.. كما إنسان استسعر عليه حيوان!..

وكفاءة أن تكتب ما تريد.. وقدرة أن تكتب ما لا تريد.. سواء أكان هو المراد منك بالتسخير، أم المراد لك بالسخرية طلباً لمنفعة، أو إرضاء لمن تمسكن بين يديك حتى إذا تمكن «تملعن»!! فالقوة طاقتك المعدة يعني هي «الفولت» و«الأمبير» والكفاءة إبراز الطاقة مرونتها.. تلوينها.. حتى تلويعها، والقدرة زخرف هذه المرونة في الكفاءة والقوة.. ليس هذا تعريفاً كقانون المدلول، وإنما هو قانون الحرف المطلول.. أتعرف به على فهم لتفهم ما أريد، أو لأفهم ما تريد، لكن هذا الاستمرار بالقوة، أو بالقدرة، أو الكفاءة، تكتب وتكتب.. قد يكون مبعثه من تضاعيف الاستضعاف، أو مفعول الضعف هو مسخر القوة والقدرة والكفاءة لتكون

السخرية من عجزك، وحتى الاستعلاء ليس هو من مظاهر القوة. . لأنه القوة المفتعلة لستر الضعف!

السخرية من عجز تموت به الحروف على سنان القلم. . يكتب ما لا يريد ليرضيك بما تريد!. . وحتى انصراف السائمين منك عنك قرأوا. . وقرأوا حتى إذا أصابهم «القرف» من السرمدية المملة نفد صبرهم على الطعام الواحد!. . لا يسألون عن القوة والقدرة، وإنما سؤالهم عن تقصير الكفاءة. . عن الضعف في التلوين والتجديد!.

الضعف لك فيك. . من نفاد الصبر. . يلقي بك القارئ في سلة المهملات ومن الإنفاق المستمر ينتهي به رصيد: «جبال الكحل تفنيها المراود، وكثر المال تفنيه السنون»!

رصيدك ينتهي وينفد من نضوب المعرفة، وجفاف الإحساس وانعدام الصدق في العبارة. . لانعدام الصادق من التعبير!! الأكفاء لا يسخرون من الأكفاء، وإنما المضحلين. . المقحلين ابتلانا الله بهم ولو بالتحدث معهم. . لا تجدهم إلا الساخرين من كفاءة الأكفاء!

صياغة السيف كفاءة لكنها تبدو الكفاءة الأروع إذا ما نقدها وحكم على جودتها صائغ «كابن باني» ولكنها تبكي حتى وإن لم ينقدها، أو أثنى عليها صبيان الصاغة الذين ما صبوا لهم الفنجال، ولا حزموهم حزمة الرجال!!

والملل الطويل قد تقدر عليه بالتمرس السرمدي. . أما الكلمة «الأصانعي» القصيرة. . يعني الإيجاز فصعب أن ترسل إنشاءها ترسلاً، أو خبرها مرسلاً. . الإطناب سهل بالممارسة قد يستطيعه الذين ألفوا الإدمان على الكتابة، ولو كانوا من سراق المقالات، أما الإيجاز فصعب لأنه

ممارسة للفكرة والرأي والكلمة، ولأنه العبء.. الامتلاء من كل ما حولك بما هو فيك ولك منك.. بهذا البسط من مقام الكاتب والقارئ نصحت لنفسي أن أتوقف قليلاً استجم شهراً في الصيف.. أستريح من عناء، وأريح القارئ من غثاء.. فهل أمنحها؟!.. إلى الآن لم أقدم الاستدعاء لمنح هذه الإجازة!.. الاستدعاء عليه طوابع ببضع قروش.. يعني شيء يطير الريال!.. قد تكون هذه القروش السبب في العدول عن الإجازة!!

● .. وكثير هم الذين تغيظهم هذه الكلمة: «كما».. أشاعها العكاظيون.. بعضهم يتهامس باسترذالها، وبعضهم يملك من الحب ـ ولا أقول الجرأة ـ أن يصارح بخطئها!..

كأنما من يكتبها قد اقترف الانحراف عن البيان ـ بالانحراف عن تقنين اللفظ!..

هي لا تدخل إلا على الأفعال.. قانونها، نحترم القانون، وعلى رأسنا ما سنه البصريون من أن التواتر في السماع هو القاعدة، والشاذ لا يؤخذ قاعدة، ولكن.. لماذا لا تضعون قانون الكوفيين على رأسكم؟.. ولنعم بهم.. من أن لكل سماع قاعدة؟!

البصريون أكثر احترازاً، والكوفيون أشد احتراماً وتوسعة! وما زلت ـ ورغم تبذّل اللهجات ـ فإني أحترم سماع باديتنا في سلامة النظم.. في تركيب الجملة، وصحة اللفظ، ولو تبذّل النطق به كلهجة..! فألفاظهم أصلها فصيح.

ويعجبني قول طه حسين: إن اللغة ينبغي أن نملكها.. نتوسع فيها.. كما هي تملكنا.. نعتز بها، أما أن نكون عبيداً لا نتحرك في الاشتقاق الواسع والتعريب المتسع فهذا شيء أحسبه الجمود يضر ويحجر فلنفصح

الكلم الإعرابي العامي ليرتفع، نغلق الباب على الانحدار بأسلوب كله العامي لا أصل له! . .

كنت أنكرها كالمنكرين، ولكني قد أحببتها، فأرغمني حبها على أن أتنكر لإنكاري! . . وكيف أحببتها؟ . . ألأن كاتباً في عكاظ كتبها؟ . . أم لأن كاتباً عربياً آخر نقلها عن السودان فكتبها؟!

لا . . لقد أحببتها ظهر يوم في الهدا . . كنت مقبلاً من الهدا في مقهى يملكه إعرابي من ثقيف . . من هوازن، ولما أردنا الرحيل حمل طفل معي قطاً أصفر اللون . . مطعماً بحبات باللون الكميت . . كان «البس» في المقهى سرحاً ولكن يظهر أنه «خرج بيت» طيب! . . أنيس . . لم يشاكس الطفل حينما حمله، وقلت للهوازني: أهذا قطك؟! . .

ـ قال: أخذتموه؟! . . وشعرت بهزة من الطرب لهذه اللفظة «أخذتموه» . . لم يقل أخذتوه، وإنما زاد الميم انتماء إلى عرق . . جعل هذه اللفظة من أعلى الفصيح، فكأنما أسمع نافعاً مولى بن ابي نعيم يقرأ بها القرآن! . . طربت كثيراً . . حتى إذا ناولناه حسابه قال لنا: ما طولتم . . ليت كل الناس «كما كم»! . . قال هذه الكلمة . . فتنكرت لإنكاري . . لأن بدوياً من بلدي نطق بها، فلا عيب على «عكاظي»! أن يكتب بلهجة إعرابي!

والسودان أخذها منا . . فإذا كان أعرابنا يقولونها، والسودان يتكلم بها . . فإن السماع منهج يصبح دليلاً يعذر فيه كاتب إذا ما وضع هذه اللفظة طرفة . . كتحفة من وجدان الأعراب!

وفي اسطنبول لقيت «صالح أوزجان» عضو الرابطة الإسلامية فلما تكلم معي نقلتني ألفاظه ولهجته إلى «الحرة» . . إلى خيبر كأنما أسمع أحد

قبائلها، يتكلم مثل ما تكلم «صالح أوزجان».. فهو من جنوب الأناضول ومن أصل عربي، فكيف انتقلت لغة «الحرة» إليه. ولهجة بني رشيد ومن يقاربهم في المنزل لا في المنزلة من عنزة، وولد محمد؟!

إن السماع أعطى «صالح أوزجان» لهجة الحرة وألفاظها.. انتقل بالهجرة إلى شمال سوريا، وجنوب الأناضول!..

عيب هؤلاء الحاجرين أنهم لم يرضعوا لبان العربية من الثدي، وإنما تجرعوها من المرضعة الزجاج!!

● كدت أتمزق من ضيق الضيق.. كان مضاعفاً كأنما هو ركام في وسطه نار لما تترمد بعد.. عليه رائحة الدخان كأنما هو شياط لحم.. كأنما القلب في توهجه جمرة لم تتفحم بعد!!

ليس هذا في نفسي من نفسي، وإنما هو بما فيها، وبما هو عليها.. ضيق تعيشه وضيق يتراكم عليها من حيث المعايشة معها!..

ودخلت إلى المكتب نفسه في عكاظ، فوجدت حرفوشاً لما يبلغ الدرجة الكبيرة للحرافيش قد تسلطن على كرسي عريض، وقفت على الباب أنظر إليه، وكأنما كنت أعشى النظرة من جهرة الشمس تظلم العين حينما تدخل مكاناً ضوؤه حالم. نظرت إلى هذا الحرفوش فحسبته إنساناً آخر من الذين تقمصوا بمكانة في نفوس الآخرين، ونظرت مرة أخرى حين قاربته..

ـ قلت له: ظننتك الفلان.. تعال اخرج من كرسيك، وانظر نظرتي لترى أنك تشبه هذا الفلان!.. وضحك الجميع، فإنه إذا قام من الكرسي لا يبقى فلان فوقه!..

ـ قلت: لا تعتبروها نكتة.. هي سرقة الضيق.. صور لي بالعشوة أن

أراه غيره . . حتى إذا سرقتني لأنسى أنه غير هذا الفلان جئت بهذه النكتة! .

إنها ليست نكتة لأنها فاضحة الضيق . . أراد أن يسرقني من بهجتي فسرقته البهجة بالكلمة لتنفرج النفس فأصبح في لحظة ذات أبعاد . . بعدها الرابع تقبل الكلمة . . هذا التقبل لم يطرد الضيق . وإنما أوجد سعة السعة . . إذن . . حينما يأكل الإنسان نفسه بالاجترار لشيء ضاق به فإنه يضيع، وحينما تأكل الكلمة المبرقشة الضاحكة مع صحاب يفهمون فإنك طارد لهذا الاجترار لا تبقي أثراً منه، فلقد خرجت أضحك لا بملء شدقي، وإنما بما تسعه رئتاي . . بما ينبع من هذه المضخة : القلب . . لقد ذهب الضيق بضحكة صديق . . بكلمة رفيق . . ما أيسر المسعدات، وما أغنى المكربات، إنك لن تكرب إلا بما يعتري غواليك، ولكنك لن تكرب إذا ما طرحت غوائلك تغتال نفسها . . هكذا ذهب الضيق، جاءت السمعة، واضحكوا معي!!

● . . وتنسمت أشم عبير ترابي . . فإذا بي أشعر بيقظة الوجدان قد أصابته نعمة من أمنة النعاس، فكأنما أنا أصحو لأنام في خدر العبير، وأنام لئلا أصحو على هدير محركات الطائرة . . وليس ذلك نومة العجوز وصفها حكيم يوماً فقال :

ـ لقد أصبحت أنام في الملا . . وأسهر في الخلا .

أي ينام وسط الناس، ويسهر في الخلوة بعيداً عنهم يتطلب فيها النوم، وكأنما هو يطرد الكرب بالناس . . ينام آمناً . . بصوت الإنسان يسمعه .

وهو لا ينام في الخلوة لأنه يكون وحده . . يطوي نفسه على كرب موقظ . . لا يطرد إلا بشيء مخيف من أحلام اليقظة تطرد إرهاقاً غيرها ليكون بها كل الإرهاق . .

إنها نومة السكينة.. اطمئن إليها وبها بعد سفر طويل مرهق من بومباي إلى بيروت، ومن بيروت إلى جدة.

وإنها لصحوة السكن.. أسكن في غبطة الوجود بين الأهل والإخوان.. يلقاني كل ومقاس حبه.. أو مطالبه.

وكل يطالبني أن أكتب عن الهند.. كيف رأيتها أمس قبل خمسة وثلاثين عاماً، وكيف أراها اليوم بعد الاستقلال ومخاض التجربة؟..

ولست بمستجيب لكل ما يريدون.. فالكتابة عن الهند ليست الخطوة الأولى فيها الملاحظة بالإعراب عن المشاهدة وإنما هي تكلف المراجعة والمطالعة والتفكير والتحليل والقبول والرفض، وطرح ما يعتقده الإنسان صواباً لأنه أصبح الخطأ الآن، وكل هذا محفوف بالأماني والمحاذير والإرهاق والانطلاق.

أعد أني سأكتب الفصول عن الهند.. لا للهند، فهي في غنى عن ذلك، ولكن لغيرها من الذين يحبون البقاء على صواب قديم أدركته التخطئة بالفهم الجديد.. فالصواب والخطأ ليسا في واقع ما هناك، ولا في دوافع من هناك ولكنهما في التصور عن هناك.. والصورة عن الشيء في ذهن قد تختلف عنها في واقع أمرها أو في ذهن آخر.

دعوني عن الكتابة عن رحلة خمسة عشر يوماً.. إلى رحلة طويلة.. هي رحلة الإنسان مع واقعه ومطالبه وآماله وترابه.. سواء كان لذاته.. أو كانت كلها لبيئته.

فإن البيئة تحكم السلوك.. وهي طليعة الحياة.. فعلى الذين أرادوا النقل بالمسطرة من تطبيقات بلد ليطبقوها في بلدهم هم خاطئون لأن ما يصلح لبلد لا يصلح لآخر.. والمسؤولية تحتم انتزاع الفرحة بما يستحسنه

الآخرون لزرع تطبيقات توائم عقائدهم وتقاليدهم.

إن النقل بالمسطرة لأي تجربة.. أو لأي تطبيق.. هو تقليد لا يأتي بالأصالة.. الأصالة تبني الذات لبناء في البيئة تقبله ولا ترفضه ومن هنا يصعب الموضوع على الكاتبين وإن سهل على الفرحين بالتقليد والانبهار بما رأوا..

ومن هنا أيضاً لا أتعجل لأني سأتمهل وفي العجلة الندامة وفي التأني السلامة.

● وتجيش في نفسك الأحاسيس.. كل الأحاسيس.. وتنفعل أفكارك، يصهرها عمق التجربة.. وتكاد تقرأ في الهواء كل ما تشعر.. كل ما تفكر، سطوراً منسقة..

وتتلفت حولك.. إنك في «الشارع» تسير!

فتجري.. تتجه إلى غرفتك.. أو إلى عالمك الصغير!

تريد قبل أن تتبخر انفعالات نفسك وضعها على الورق..

أنت تعشق الكلمة، بواسطتها فقط تستطيع رؤية ما بداخلك.. في حروفها تثق.. فتسكب نفسك وروحك معاني لا تكتمل إلا عندما تصافح أعيناً أخرى، ومشاعر آخرين..

وها أنت تجلس إلى مكتبك.. قلم بين أصابعك.. وورق طوع إرادتك.. والابتسامة، بطموح ما زالت على وجهك..

لكن شيئاً يحدث!

الابتسامة تتحول إلى تقطيبة على جبينك.. والقلم بين أصابعك يتسمر.. لا يريد حراكاً.. والأفكار والمشاعر قد تجمدت في زاوية ما بداخلك.. وتكاد

تحطم القلم بين يديك.. أو ترميه أرضاً، تدوسه بقدمك..

ولكنك فجأة تتذكر معاني فلسفية كتبها الوالد «الزيدان» ذات يوم:

«إن العلم لا يفسر بالإرادة، ولا يكسر بالهوى.. هو دائماً الآسر حينما يعبر عن النفس.. لئن كان مجرد آلة فإنه بنوازع النفس هو محركها.. والقلم بالتعبير كالمبرد إن لم يحطم القيد دفعة واحدة.. فإنه يفتت الحديد بالاستمرار.. بمحاولة الانتصار».

وهنا نترفق بالقلم.. وندرك بأن علامة السخرية التي رأيتها ترتسم على محيا قلم إنما هي انعكاس لشيء ما بداخلك.. وتتجه صوب نافذتك.. تتأمل محتويات تلك الفلسفة.. وتحلل الفلسفة الكامنة خلف المعاني.. وتستند برأسك إلى زجاج النافذة.. ترقب الطبيعة.. السماء.. تستمد منها معاني الحياة.. كل المعاني.. كلها.. وتهمس..

نعم إنني أدري.. إنه ليس القلم.. ولكنه أنا! أو تغمض عينيك لتعترف! إني أخاف، فتنتحر انطلاقاتي..

لا أخاف يأساً.. ولا أخاف «خوفاً».. كما أني لا أخاف انطلاقاتي، ولكني أشفق عليها..

إني أخاف على نفحات روحي من أعين لم تر قط من خلال منظار «هوفمان».. أعين لا ترى وإنما تعسف فقط!

وقد ترد عليك نفسك قائلة:

إن السبب غير مقنع.. إن الأعين ليست كلها متحجرة.. وليست كلها رؤية من خلال منظار «هوفمان».. هناك ظلال أخرى تصل ما بين اللون الأسود واللون الأبيض! إن الانطلاقة حين تخطها أحرفاً.. تصبح ملكاً بكل

تلك الرؤى . . وليست بملكك . . إنها عطاء نفسي وفكري يجب علينا ألاّ نقبره بداخلنا لمجرد أن هناك من لا يستوعبه . . وبالتالي يرفضه .

وتستمع إلى حديث نفسك . . أو ربما هو حديث إنسان ما أو أناس آخرين يشاركونك حياتك ثم ترتسم . .

وتجلس إلى وريقات تفرشها . .

ثم تفرغ . . لتقرأ ما كتبت . . فيشوب ابتسامتك شيء من الحزن .

إنك تقرأ صورة لرواسب ذلك الخوف في نفسك . .

إن الصورة تؤلمك . . وقد تؤلم آخرين معك . . فهل يقدرون؟

ولكن سرعان ما تتلاشى نغمة الحزن . . أنت الآن تعيش دون خوف . . دون رواسب . . أنت الآن تملك انطلاقتك، ولا تملكك!!

لقد ملكتها فقط عندما تأكد لك بأن منظار «هوفمان» حقيقة تتعمق من خلالها كل الرؤى في مشاعرك . .

وتتأصل الابتسامة في داخلك . . ولا تملك إلا أن تبكي سعادة . . وتتمنى أن تحل سعادة مماثلة في نفوس الآخرين . . بل في نفوس كل الآخرين!

● بعض الناس يجلدك بكلمة . . أنت في حاجة إلى عملية سلخ لهذا الجلد السميك . . إذا ما تقطع بالجلد تفسح القلب كأنما النزف عملية حجامة لتطهير الدم!!

الجلد هنا ليس «بكرباج» فصاحبي الذي جلدني بالكلمة لا يستطيع أن يمسك «الكرباج!».

ـ قال لي: كنت اليوم في دار التربية . . رأيت أشغال اليتيمات . . كلاءة

الشؤون الاجتماعية لها أمرها. وتفوق اليتيمات نحن الكاسبون لثوابه.. لنا.. رحمة.. عناية تكتنف مشاعرنا بهذه التحية للقائمين على الميتم أو المشغل للطلبات فيه.

ـ قال لي صاحبي: رأيت أشغال اليتيمات رائعة.. يتيمة من غلاوتها كأنما هي الدرة في تاريخ نفسنا الإنسانية.. رأيت الأشغال والتحف ستعرض في مزاد علني في الحفل الذي تقيمه الشؤون الاجتماعية تحت رعاية سمو الأمير مشعل، فسألت ـ يعني صاحبي سأل.. اسمه محمد عبد الواحد ـ ذهب من عكاظ يواكب الاستعداد للحفلة لتغطية عكاظ حق الانتصار واسع الانتشار ـ قال الصحفي المذكور!!.. سألت القائمين: ماذا تصنعون بالقيم المدفوعة؟.. وكنت أحسب الإجابة: أن تأخذ كل يتيمة قيمة ما صنعت. أو أن يكون بعض الدخل عوناً لتحسين في المشغل.. لكن الإجابة قالوها لي: لقد أجمعت اليتيمات على أن القيمة كلها المدفوعة لكل قطعة فنية تجمع فترسل فداء للفداء.. عوناً للفدائيين!.. هنا ليست الكلمة للمال.. الكلمة للحوافز والدوافع.. الكلمة لقلب يتيم أعطى اليتامى في فلسطين بعض ما كدحت من أجلهم!.. وأتم قوله يستظهرني الإجابة عليه!.

ـ قلت: الألم يحس بالألم.. اليتيم يعرف معنى اليتم و.. و..

ثم قلت:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها!!

● تقرأ في بعض الأحيان ما يكتبه إنسان ما، فتتعثر في الفهم.. تلقى بهذا القروء أرضاً.. تقول: لا نفهم.. لم نفهم..

هذه مشكلة بسيطة . . المشكلة المعقدة ـ لأنها ليست صحيحة ـ أن تقول: لن نفهم ما كتب هذا الكاتب.

تظن أنك تجرحه . . تتهمه بالإغلاق. هذا صحيح حينما قلت: لا نفهم، وهو صحيح أيضاً حينما تقول: لم أفهم . . ففيهما التجريح، أما لن نفهم، فإهانة لك ليست استهانة به.

لو أعدت القراءة مرة أخرى لوجدت الفهم الصحيح . . تفهم ما أراده، أو أكثر مما أراد، أو حتى النقيض لما أراد.

بالأمس قرأت عبارة في سطر واحد . . تجاوزت عيني لفظة واحدة، قلت: لم أفهم.

ـ قلت: لا أفهم لكني أحجمت أن أقول: لن أفهم، هذا عيب.

ترفضك القراءة إن قلتها . . يطردك الكتاب إذا ما تعاملت معه بهذه الجملة . .

فأخذت السطر أقرأه مرة ثانية فإذا به يستقيم للفهم لأني حين دققت النظر أنهضت الكلمة التي سقطت، فنهض بي الفهم لهذا السطر.

قد يقول واحد: كيف يكون السطر معجزاً في فهمه؟! إني أقول له: الإيجاز المكتوب معجز، والإيجاز المقروء له المرتبة نفسها في الإعجاز، الكثير من القارئين يفهم الكلمة المطولة لأن السباق، والسياق والترجيع والتردد عوامل موضحة . . أما السطر المضغوط فليس هناك سباق أو سياق، وما إلى ذلك. وإنما هناك ألفاظ معدودة تكوّنت بها كلمات محددة حصرت معانيها في شيء محدد، فإن تجاوزت عينك لفظة منها قلت: لم أفهم . . لا أفهم، وإن تجاوزت نفسك بالسأم حتى تقول: لن أفهم حكمت عليها ـ

أعني على نفسك ـ بالاستنامة إلى التردد والسأم.. إلى الانصراف عن الكد والجهد في فهم الكلمة.

الكلمة كثيراً ما تجبر على الكد والجهد.. لتكون مفهومة..

لكن.. كما قال أبو الحصين.. ذلك الثعلب: من يقرأ.. ومن يسمع؟!

أو كما قال الريحاني أمين: لكي تفهمني.. ينبغي أن تقرأني وأنت جالس!!

● الكاتب الرتيب ـ أعني الذي يكتب يوميات ـ ملزم أن يجعل موضوعه: الناس.. يكتب عنهم.. يكتب لهم، يدغدغهم حيناً، يقسو حيناً.. يعدو كذلك، أو يتهافت إلى تحت كذلك..

مزاح!.. أساسه طبيعي فيه، لأنه هو الذي سحبه إلى هذا الموقف، ثم زاده الانطباع التزاماً به، لكنه لا يحب أن يثقل على الناس بشيء من أزماته.. بحال من أحواله غير أنه واحد من الناس.. بشيء من التجريد يصنع من إنسانه إنسانين.. واحدهما من الناس، والآخر هو!

قبل أسبوع فاجأتني لحظة مؤلمة كاربة من خطأ المترجم لبرقية باللغة الإنجليزية.. ـ قال: من سميرة؟.. قلت: ابنتي، فسكت قليلاً، ثم قال بشيء من الأسى: إنها مريضة بمرض غير قابل للشفاء، قلت: سرطان؟.. سل.. سكر.. أماتت؟.. قال: مريضة بمرض لا يشفى، كدت أنهار، تماسكت.. حملت نفسي أجرها إلى مكتب الصديق السيد ياسين طه، قال: ما بك؟ قلت له الحكاية، وأنفاسي تنقطع (إنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض) فنهض السيد ياسين وجاء بالبرقية مكتوب عليها

بالحرف العربي الفصيح كترجمة لها: عظم الله أجرك ـ سميرة! . . فإذا هي برقية تعزي فيها بزوج خالتها أو هو زوج أختها من الرضاع كقرابة ثانية، حبيب كوثر رحمه الله.

ورغم الترجمة الفصيحة التي أراحتني قليلاً، فقد شغلت، فسجلت مكالمة إلى لاهور، وما اطمأننت إلا حتى كلمتها يوم الجمعة!

هكذا نكون آباء. . نسعد بالطفل بعض السعادة ويكشفنا شقاء بالاهتمام بهم والحدب عليهم والحنان والمسؤولية.

وأخيراً. . تمت فرحتي اليوم. . جاءني تقرير من المستشار الثقافي يثني عليها لتقدمها ونجاحها فغمرتني سعادة أزالت تلك الشقاوة التي جرعنيها خطأ مترجم أراد ألاَّ يفجعني بأسلوبه الذي استطاع، فأوجعني كثيراً حتى أفقت اليوم.

أتحسبوننا نكتب لكم وكلنا خلي؟!

لا. . إن شجوانا مضاعفة بشجوى كل قارئ. . لا نريد أن نعلن له هذه الشجوى لأن رحمتنا له تلزمنا ألاَّ نشقيه بعاطفة نحونا.

القارئ. . قال: كل أمانينا أن يكون سعيداً، فإن هذه السعادة له وفيه هي السعادة نرتاح لها من كل ما يشجي!!

● حقوق الطبع محفوظة شرط يوضع على كل كتاب طبع في حياة مؤلفه، إذناً منه، حجزاً لحق، تحملاً لمسؤولية واستفادة من غلة ثم التشريف لصاحبه.

وبعد وفاته ينتقل الحق للورثة كميراث ورثوه فأصبح ملكاً لهم كان يملكه أبوهم، إلا أن يحبسه على عمل خير أو جهة معينة أو أن يبيح لطابع

أن يطبعه لينفع الناس به، كل وقيمة ما يعطى مما ألف، ومن حكم في ماله فما ظلم.

وقد اتفق الإنسان في كل مكان على احترام هذا الحق، ولكن ما بالنا لا نلتفت لكتاب مات مؤلفه من زمن بعيد فأصبح طبعه مشاعاً لكل مستفيد، ومستغل ونافع، فمثلاً تفسير ابن جرير أو أحد الصحاح أو المعاجم، أو أمهات أخرى في التاريخ وما إليه يطبع كل منها على غفلة من يريد، أو في مطابع ومكاتب تطبع وتستغل، حق ضاع على أصحابه فأصبح المشاع بين الطالبين والشارين والبائعين.

من هنا أريد أن أسأل مقترحاً.. ألا يمكن وضع حد لذلك لا حجزاً له، وإنما لزيادة الانتفاع به انتفاعاً جماعياً؟

الاقتراح أدعو إليه، وهو تشكيل هيئة على مستوى الفكر العربي، أو مستوى الأمة العربية، والإسلامية أيضاً.

نضع نظاماً لطبع الأمهات، ولو عن جامعة الدول العربية، ليكون الطبع وفق هذا النظام. وفيه ما يوجب على طابع لكتاب مؤلفه من القدامى، أن يودع نسخاً لهذه الهيئة، وبعض نسخ لمكتبة في كل بلد، ثم جزءاً ولو قليلاً من القيمة من ثمن الكتاب كنواة لصندوق الكتاب العربي، لتكون الحصيلة معينة لطبع كتب لم تطبع بعد، وليكون للأمة سلطان على كنوزها!

يعني أن الأمة سترت حق المؤلف القديم، تصرفاً وإجازة واستفادة، حفظاً لسمعة الكتاب المطبوع، ورصيداً لطبع غيره، اقتراح ظريف، قد يكون خطيراً، أرجو أن يكون تليداً بعد، وخميراً نأكل الطيبات منه.

● ورق أسمر أو أبيض تشرق صفحته بشيء يدعوك أن تلاعبه بكلمة تكتب.. أو بحرف لم يتم كلمة بعد.. أو بخطوط عرجاء عوجاء يداعبك

بعض المستكنهين لأحوال النفس، ليقولوا: أنت قلق. . أنت تعب. . تفكر في شيء لم يستقر فهمه ولا الشروع في عمله.

وترخي أذنيك. . تسمع ما يقولون، فتصدق مرغماً بحكم الوضع النفسي لك، وبتحكم الصورة المشوهة التي كتبت أو رسمت على الورق. . ثم أنت بعدها ترجع إلى نفسك. . تلتقط أنفاسك فتخرج ناطق الحرف. . لسانك لهؤلاء وتقول: هراء. . تخريف!

وأمسكت الورق قرطاساً يتلوى تحت عين غير باصرة ما فيه. . وإنما هي متبصرة باليقظة الوافدة لصحوة من خمدة الصمود أمام القلق. . إلى وثبة بالزحف الشجاع على كل عدم حولك. . تجد في وجدانك وجدان الشيء الذي فقدت، وهو الانصراف فالابتعاد عن الخطوط العوجاء والعرجاء. إلى خط مستقيم واضح، وحرف مستملح مليح. .

فإذا القرطاس الأسمر أو الأبيض قد تزين بحلية عنبرية، قطرات من رعاف القلم. . تكتب بها عنها لها كلمات. . تقرأها فتجد راحة البوح، ولا يعنيك أن يقرأها أحب الناس إليك فيرمي بها على الأرض ويقول: ماله يصدعنا بالقرطاس وما عليه من معايب هو صنعها، ثم يزيدها عيباً آخر بهذا المرح المستخلص من الترح.

وأود أن أقول له: أنت بهذا لا تعرف قيمة الطرد لأتراحك باصطناع الفرح والمرح!!

هبه تمثيلاً تتستر به، هبه حبالة تصيد بها إغضاب الذين يشفقون على قلقك ويقتلعون بالإشفاق كل الجلد في نفسك. ليكون هذا الصنيع منهم شماتة مقنعة واضحة في نبرات العيون الناطقة بالومض. غير فاضحة بانحرافات اللسان يعوج بالمعاريض.

وأخذت القرطاس، أدفعه ليكون موضوع «كلمة ونص» أفهمتهم شيئاً؟

لم تفهموا، ولا أنا، لم أفهم..

خطوط عوجاء عرجاء على قرطاس، نظلمه بها، ونظلم أنفسنا كذلك.

● عجوز يدرج نحو التاسعة والسبعين من عمره كما يقول هو، ذهب إلى مكة يحسبني هناك. وأخذ يسأل عني. فلم يدله أحد.. لا شأن لواحد أن يقول له في جدة..

لكن موظفاً وكبيراً تبرع فقال: هو في رابطة العالم الإسلامي.. وذهب الشيخ إلى الرابطة في «المعابدة» يجر نفسه جراً، ووقف عند الباب، يسأل ويسأل فما دله أحد. لم يقل له واحد ملك شعبة من شعب الإيمان البضع والسبعين شعبة: ليس هو بالموظف في الرابطة.. ثلاثة أيام يتردد وهو يسأل.

وأخيراً رأى فتى لعلّه لم يبلغ الحلم بعد.. فقال له: في جدة أسأل عنه في جريدة عكاظ أو في جريدة البلاد. وسمعت أن بيته في «الكندرة».

أليست هناك رحمة لعجوز؟ خنزوانة تجهل.. وغفلة جاهلة بأكثر من الجهل نفسه.

كلمتي للموظف همام.. أسأله!

ألم يقرأ قبل سنوات مقالاً في صورة حديث صحفي كتبه صديقنا الأستاذ عزيز ضياء في جريدة البلاد.. وفيه على لسان الأمين العام للرابطة بأنه لا علاقة لي بها ـ وأني لا أتقاضى راتباً منها.

ثم هو ألم يقرأ خبراً كتبته.. أعلن لمراسليَّ من الأصدقاء ومن إليهم.. ألا يرسلوا بريداً لي على عنواني في الرابطة.

كل هذا نشر . . وما زال حضرة الموظف الهمام لا يتورع فيتبرع بدلالة العجوز على مكان خطأ .

ليست هذه تبرؤا من النسبة إلى الرابطة، فأنا صديق لها، ولكني غير عامل بها، ولا متعامل معها، فما بال هؤلاء الناس يتخلون عن دلالة الطريق لشيخ نخلته السنون .

هكذا القطيعة بين الناس أصبحت سمة الحياة الجارفة بقلقها ومدنيتها .

واعتذرت للعجوز، ولكني ما عذرت نفسي ألاَّ أكتب عن مفارقة كهذه . . فلا يهمني أن أكون مجهولاً من صاحب يعرفني حق المعرفة . . وإنما همني من هذا الصاحب أن يعرف شعب الإيمان لعلّه يعمل فيرحم الشيخ المسلم . .

«الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها كلمة . . لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . .» .

● مدهش : مدهش وأكثر من مدهش أن تقرأ «مع الفجر» يكتبه في غياب صاحبه محرر في عكاظ اسمه «علي مدهش!» شاب صغير السن . . يشق طريقه، وما كان ينبغي لقلمه أن يصنع كلمة في عمود يومي اختص به رئيس التحرير . . لجريدة هو أحد المحررين فيها! ولو كان عبد الله خياط رئيس تحرير عكاظ يقلد غيره أو يبخل على الطليعة أن يتقدموا . . أن يبرزوا لما رأينا (المدهش) يملأ فراغاً .

والدهشة ليست في عقلي، ولا هي من إدراكي، ولا تجد بؤرة في عواطفي . . فلست من الباخلين على أحد بالتقدم إذا ما كان جديراً به .

لا أبـغـى بـحـمـد الـلَّـه مـنـزلـة غـيـري أحـق بـهـا إذا رامـا

ولست من الذين يصنعون الركام دماراً في نفوس شابة تتطلع إلى الفوز، لكن هذه الدهشة تصيب الذين يبخسون الناس أشياءهم.. يحسبون أن الحياة كلها: أنا «أنوية» ما أفظعها! مع أنهم لو عرفوا لوجدوا أن الحياة هي: نحن.. «نحنية» أجملها!

لقد عرفنا الباخلين لنجدهم يعيشون وحدهم، وعرفنا الباذلين فوجدناهم يعيشون للناس.. بالناس.. مع الناس!

ولست بهذه أزجي تحية لولدي «علي المدهش» وإنما هي التحية لسعة الصدر، وقول البذل، وإفساح الطريق في رجل اسمه «عبد الله خياط» وهي أيضاً أرسلها نصيحة ليعدل الباخلون عن بخلهم، ولا أريد أن أسمي (!!).. فحبي للجميع يلزمني بحب الخير للجميع.. حتى يعلم الذين يعطون مشافرهم أن الحياة أقوى من عبث الأحياء!

ولو كان الخياط حاضراً لما سمح لي بنشر هذا، ولكني أغافله فأنشرها كأنما أنا أطلب التأييد لما صنعت، ولما أصنع، ولقد صنع الخياط خير ما يصنع مفسح الطريق لغيره حينما نشر افتتاحية بقلم فتاة.. أنا جدها كما نعتتني.. أبوة الرعاية، وغنى النفس.. كما أفسح الطريق «لعلي مدهش» ولغير علي مدهش!..

تحية لكل مفسح طريق.. فالحياة هي المستقبل.. وعلى الذين كتبوا «بيضة الديك»! يدلون بها علينا بأنها مجدهم أن يعرفوا أن المستقبل غير ما صنعوا!!

● أنكر بعضهم على الصديق «عبد الله جفري» ما كتبه في «الحوار».. جرى بينه وبين الشيخ عن القدامى، ولم أذكر ذلك لأني أعرفها لم تكن حملة، ولم يكن فيها شيء من التجريح، ولو فرض كل ذلك لكان من

المعيب ألاَّ يأتي عبد الله جفري بالبديل. . أما وقد أتى بي حينما سد الثغرة هو وجيله فلا غبار على ذلك!!

الخطأ منا جميعاً أن يسكت بعضنا فيكتفي ببيضة الديك، أو أن يحاول بعضنا أن يجر زمان الآخرين إلى زمانه، وأكثر من هذا الخطأ هو الاستعلاء. . فرض الأستاذية. . سواء بالممارسة لها، أو التلميح بها على سبيل الصمت، كأنما الصمت يقول: «بلاش شغل عيال»!!

ألم يكن ما عملناه أولاً كان «شغل عيال»؟! اقرأوا ما كتب من قبل. وللأكثرين على الأخص الذين صمتوا الصمت المطبق فلا تجدون إلا كلمة واحدة رشحت كاتبها لأن يكون موظفاً كبيراً، وأديباً مشهوراً، وطليعة ظافرة تأبى ألا تكون قاهرة، وليس هذا في بلدنا فقط فقد أصبح الجيل الجديد في أكثر من بلد عربي ينكر الاستعلاء منهم ـ أي من طه حسين والعقاد وغيرهما بأستاذيتهم، وبالآراء الجديدة، وبالثقافة العريضة، وبالنفس المتطورة، والفعالية المغيرة، ولكن الجيل الجديد ـ وإن احترم ما قاموا به وما قدموه له ـ فإنه لا يطيق أن يحترفوا به لعبة يمتطون أكتافها، فلا يكون إلا صورة طبق الأصل لهم!!

من هؤلاء المستعلين أذكرهم هناك، ولا أريد أن أذكرهم هنا. . أذكرهم هناك لأن الدليل بهم أقوى وأتغافل عنهم لأن «القرف» أقسى! . . إبراهيم الورداني أصبح كاتباً كبيراً بعد أن قسا عليه الصاوي محمد، وكان أحد المستعلين، رفضه رفضاً قاسياً. . أبى أن ينشر له مقالاً. . كان هذا الرفض الحافز لأن يكون الكاتب الكبير، والداعي لئلا يكرر هذا الاستعلاء على الجيل بعده، ثم ليكون أكثر رفضاً للذين يستعلون على الناس!!

فنحن بالاستعلاء، وبالنظرة الشزراء نطرد أنفسنا حينما نكون أساس

الانفصال.. كان ينبغي أن نتقبل الجديد بشيء من رحابة الصدر.. لا نرفض الكل، وإنما نبصر بالباطل ونفرح بالحق..

الذين يجيئون بالبديل فينصبون قاماتهم يسدون الثغرة ليس عليهم معابة إن قالوا حواراً مثل ما قاله الجفري!!

لكي نبني الحياة بالكلمة ينبغي أن تستمر الكلمة كراية يسلمها جيل إلى جيل بعده.. إن الراية ستتمزق إذا صندقت في مقصورة كاتب يستعلي، وشيخ لا يرحب بالجديد!!

● .. وكثر حوله السعار، وتناولته أخبارهم.. فتارة ينقلونها بألسنتهم وأعينهم، وتارة يكتبونها في أوراق، ويدسونها في البريد، أو يناولونها لخادمه في مكتبه الكبير. كلهم.. يريد التقرب إلى السيد الكبير بشيء واحد يحسبونه يسره.. بينما هو في الواقع يؤذيه.. يزعمون أنهم الناصحون له.. كأنما هم يبصرونه من خيالهم بحال ولده الوحيد..

ـ قالوا له: إن ولدك سرق بيض الدجاج من حظيرة خاله.. إن ولدك يذهب إلى صديق له يركب معه الدراجة يلعبان في فناء الحديقة التي تملكها جدته!

وكبر الولد، فلم يتركوا الوالد.. قالوا له: إن عطارد يلعب كرة القدم في قهوة.. يسبح في ابحر.. رأيناه يأكل شاورمة.. نخاف عليه من المرض.. يسابق في السيارة الموتيسكلات..

وأكثر من هذه الأشياء، وكتبوا عن ما هو أقذر مما يفعل الابن، أو لا يفعل.. فنقلة الأخبار إذا استمرأوها. صاغوها كذباً وصدقاً.. بل وإنهم ليمعنون في تعمد الكذب أكثر.

إذا كان كل يوم تقبل منهم رسالة أصبحت راتباً، فلا بد أن نكتب، ولا مناص من أن يكون فيها الخبر. . صادقاً في القليل. . كاذباً على الأكثر!

وكان جواب الأب لكل ناقل خبر. . لكل كاتب رسالة: هل هو يكذب؟

ـ فيقولون له: لا. . ما جربنا عليه الكذب.

وأكثروا عليه، فجمعهم، وأخذ يقول: لقد أكثرتم عليَّ، ولم تفطنوا لسؤالي. . هل هو يكذب؟ لم تفطنوا لذلك لأنكم كنتم في عماية السعاية. . تحترفون نقل الأخبار، وكنت أجزيكم أجراً على ذلك، العماية، والطمع جعلتكم لا تفهمون سؤالي. إذا لم يكذب الطفل. أو الشاب، أو الرجل أو الأنثى، فالنهاية حميدة، الصدق يقتل كل هذه الزلات. . يبصره بضررها، ما دام لا يكذب فسينتهي من كل ما يسيء، الكذب تستصغرونه، وتقترفونه. . بينما أنا أستهوله. . أراه أساس المفاسد كلها.

وأرادوا النهوض فقال الأب: لا تذهبوا هكذا. . لتقولوا إن هذا كلام والد يعطف على ولده. ثم تعيدون الكرة. . تنقلون إليَّ الأخبار عنه، اجلسوا حتى أقطع دابر ذلك.

ونادى عطارد: أليس من العيب عليك أن تقول عن أبيك أنه «آغا»؟

ـ قال: نعم. . لقد قلت ذلك لفلان ـ أحد الحاضرين ـ ولكن لم أقصد أنك خصي، وإنما قصدي، وصدَّق ما أقول وأنت تعرف ذلك، أني أردت بكلمة آغا أن أصف بها تصرفاتك، فكل أهل البلد يقولون عن التصرفات التي لا تفهم إن صاحبها آغا!

ـ قال: صدقت.. في حدود ما تفعل، وبما أردت لكن هذا الصدق منك هو الكذب بالعين بالنسبة إليَّ.

لقد قلت الصدق حقاً إني آغا، فأنا يا ابن أخي مجبوب وخصي.. تزوجت أمك باتفاق بيني وبينها لتكون في رعايتي بعد وفاة أبيك أخي، هكذا علمتك الصدق ولو كان جارحاً لي.

وأريد أن أرفعك لتصدق هذه الشتيمة منك في عرف هؤلاء نقلة الأخبار، فأردت أن أبين لهم شجاعة الصدق مني، ومثالية الصدق فيك.. جعلتك تنطق بالحقيقة التي ما أردتها وإنما هي أرادت أن تكشف نفسها، أنت ولدي لأنك ابن أخي.

وهنا هرب نقلة الأخبار، وذهبوا لا يرجعون، أما الولد فقد أصبح مكان عمه سيداً كبيراً يبصق في وجه كل من نقل إليه خبراً!!.

● كيف تهرب الكلمة المشعة المشرقة ذات الرونق الجميل.. المعبرة عن الأبعاد العميقة في أغوار النفس، ومظاهر المجتمع؟

كيف تهرب من المعدين لأنفسهم لاقتناص الكلام وإرساله؟!

الجواب بسيط.. الإعداد احتراف، وكثيراً ما تهرب الغوالي من المحترفين، والغوالي تأتي من وجدان الهواة، وهي على قلتها أكثر روعة مما يأتي على ألسنة المحترفين!!

المحترفون مكثرون.. والمكثار لا يسلم من العثار.. إن بعض الكلمات تسمعها مرسلة من إنسانها فتغبطه عليها رغم الغيظ من أنها جاءت منه، ولم تأت منك، لأنا نحبها أن تكون قد جاءت منا.. لنا.. لكم.. نسمعها.. نصفق لها.. نغتاظ بالضحك البهيج فرحاً بها، وبالآهة الباكية

لأنها ذهبت عنا كأنما هي ملكنا سرق منا . . ليس هذا ثناء عليها فهي، وإن استأهلته فإنها في وهمنا المغالي بالثقة أو الغرور نحسبه قد سرقها من الفحول . . كأنما الكلمة قد حبست على إنسان معين!

وقد تسكن لواعجنا حينما نعالجها بأنها صادرة من هذا الإنسان المعين الكبير في الثقافة والمكان، ولكن . . كيف تسكن النفس إذا أشرقت من غير هؤلاء؟

سؤال حصيف في حدود المقارنة بمقاييس الحجم والكم. ولكنه سخيف بميزان القيم الإنسانية في نفس إنسانها . .

إن الإنسان بإحساسه ومشاعره هو الكبير بها ولها. وعنها . . الكيف هو القيمة في إنسان ما . . من أي نوع كان، ومن أي قدر، فالمصدر الأصيل للتعبير الأصيل والرصين هو النفس من أي إنسان!

وكم هي الكلمة هذه معبرة . . طابعة سمة في وجداني . . في هذا الوصف . . وصف الحال المستكن المعلن في إنسانها . . من روعتها أخذت مني هذا الوصف الرشيق: إنها التمرد النبيل . . فأنا ما كنت أغتاظ منها حتى ارتحت لها لأنها أعطتني أن أقول كلمة رشيقة . . ذات جرس في أذني: التمرد النبيل!!

ما الفرق بين تمرد، وتمرد؟!

الفرق كبير، وإنه لأعمق حينما يكون في وضع واحد، والشرح طويل . . لكني أقتصر بمثالين: إيمان بلال تمرد لأنه شهادة بالحق. لكن دوافعه هي طرد الطغيان للسادة المعذبين له، أما تمرد خالد بن سعيد ابن الأكرمين فهو تمرد لأنه شهادة بالحق.

في الخطوة الأولى كبلال، ولكنه في الدوافع تمرد لطرد السيادة من نفسه.

● أتريدني أن أضع رقم (١) لكاتب اسمه «ع» ورقم (٧) لكاتب اسمه «ع» مكرر، ولآخر اسمه «ف» أعطيه رقم (٣).

«فال الله ولا فالك!!» فلست مدير سجن أضع رقماً على قميص أزرق.

ولست مدير مستشفى المجاذيب أضع رقماً على قميص أصفر، أتريد أن أمسخ الأسماء فأضع الأرقام بدلاً عنها لكتاب عرفوا بأسمائهم.

إن هؤلاء وأولئك قد أصبحوا كما تقرأ لهم بشيء اسمه الحرق والكرب والألم والأمل.. لتريد أن يوضعوا في أرقام كأنهم «أورطة» عسكرية ذاهبة إلى حلبة تمرين إنهم اليوم عرفاء.. نقباء أركان في جيش الفكر والرأي والكلمة.

هم جنود المعرفة.. والمعرفة تعريف بكيف وكم وقيم لا أرقام صماء.. تحسبها درجات التقييم وإنما هي دركات الخطأ في التقسيم غير المستقيم.. وسكت.. حتى قال: لقد فتحت في رأسي فكرة فلن أعود لهذا «التفنيط».

الفكرة هي أن أعرف لكل واحد قدره، فلعلّ خيره في واحدة يوافي خير غيره في ثلاث.

ـ قلت له: من هو القادر على الصواب في كل وقت؟ على صدق التقييم في كل حال. إنه لو صدق مرة لكذب هو نفسه مع الواحد نفسه في مرة أخرى!

إن أكلة الفول المدمس ـ كما هو قول الدكتور الأستاذ العميد طه حسين ـ أمد الله في عمره ـ تغير تفكير آكلها . . فمرة يستجيد فيعطي رقماً عالياً. ومرة يستقبح من كثرة الغازات المكربة تفرض عليه كربها ليكرب بحكم غيره فيعطي رقماً نازلاً . . فإرهاق المعدة إرهاق للفكر وإرهاق الفكر إرهاق للمعدة . . وصاحبنا للرقم المفنط ما هو إلا معدة قد يكون لها فكر. يخطئ ويصيب وإن هو أصر على التفنيط فخاطئ متروك . .

● طالب في الثانوية العامة، أدركته حرقة المتاعب فأحب أن يكون مراسلاً لواحدة من صحفنا العربية السعودية، ولعلّه إن وجد الفرصة . . فأعانوه بالمادة وبالتشجيع ليصبح متعباً لنفسه وللآخرين مراسلاً وكاتباً وقارئاً!!

كلف نفسه فزارني فحمدت له حب التطلع لزيارة أب. وحب الاطلاع . . جعله يقرأ ويقرأ حتى عرف كثيراً مما هو ظاهر على السطح . . ولا عيب عليه أن تغيب عنه ما هو مطمور في كهوف النفوس التي ضامها حين ضمها شيء مرهق، وأفحمها الشيء التافه . . تقسر عليه . . لأن تكون معتلية بالتوافه . . مخبأة عن الدسم يمتنع عليها أن يظهر، وتمنعه هي أن يعلم فلا يعلن!!

وسأل: رتب لي هؤلاء الكتّاب ـ وأغلبهم من العكاظيين ـ على درجات كل باسمه ورقمه؟ وأضحكني سؤاله ولكني عذرته ، فما زال حديث عهد بالترقيم كتلميذ، فلا عيب فيه إن غمرته هذه المشغلة الرقمية ترتيباً في درجات، ورتابة في سنوات . . فهو يعيش الترقيم . . اسمه وأمامه رقمه تلميذاً في كل فصل، سنة في دراسة، ورقة امتحان . . نتيجة، نجاح، قيمة تفوق، إن الرقم كسبه بما يستأهله في حاضره ومستقبله.

ـ وقلت له: أنت معذور في هذا السؤال.. ولكن لن أعذر نفسي إن أنا أجبتك عليه كما تريد.. فهؤلاء الذين سميت ليسوا في حلبة امتحان مدرسي. إنهم في معركة الحياة. ومصارعة الأحياء.. فهي وهم تعطى ويأخذون الرقم صيتاً أو إخفاقاً.. رعياً أو طرحاً، مجداً وإهمالاً.

ليس في قدرة أو طاقة أو قوة أحد أن يفرض أرقاماً في خياله يضع منها رقم الرجال.. قد يريد بعض الواهمين ذلك «يفنط» الرجال على هواه، يضع المنازل والمقامات بحسب ما يشتهي حباً لفلان، وإغضاء من فلان آخر أو غضاً وهضماً لفلانين آخرين.. أو خوفاً من الفلان السليط!

هذا يفعله الذين يحسبون أن ذلك قيمة لهم، رقماً يأخذونه لأنفسهم.. إنهم واهمون، فأقدار الرجال لا «يفنطها» صاحبنا.. وإنما هي تفرض نفسها بعملها وخلقها وإنتاجها.

أكثرُ من موضوع

تلفزيوننا العزيز وأفلامه

شاهدت التمثيلية المتلفزة، عن سيف الدولة وأبي العشائر فأرهقتني في ثلاث صور:

ـ صورة الدس بين البطلين من أرومة واحدة ونبع واحد، كلاهما حمداني، لبس الإمارة فألبس دولته عزة العربي، ونبل الفروسية.

فدخل بينهما واغل «جندية» أكله الحقد، وأعمته الحفيظة، فأغرى أبا العشائر بابن عمه ورأس دولته. أراد أن يكسر الشوكة، ويميت القوة، يحطب في حبل الروم فسمح له أبو العشائر، وعبأ جيشاً يقاتل به أهله..

وكادت تقع الكارثة، لولا أن سيف الدولة ترك الأرض براحاً دون حراسة، يشرع أبواب حلب ليدخل أبو العشائر، فلم يسد الثغور، وذهب بكل قوته يصد الروم..

ـ موقف سيف الدولة ينكر الخلاف، ويرضى أن ينتصر عليه ابن عمه، ولا تأكله المخافة والحفيظة فيشغل نفسه وجيشه في لقاء ابن عمه.

تركه لأعراقه ودينه وأخلاقه.. فأثمرت خطة علي بن حمدان سيف الدولة ممدوح المتنبي أبي الطيب أحمد بن الحسين شاعر الدنيا.

ـ صورة العفة في نفس أبي العشائر، أجاد عوني المصري تمثيل دوره فيها.. كما أجاد «جندبة» تمثيل دورالخائن الدساس..

كاد يضع أبا العشائر في فم التاريخ . . لكن الحيرة من خطة سيف الدولة ترك له الأرض دون حارس هي التي أهدته إلى الطريق . . ثم موقف البنت العريقة، والحب الصادق والإخلاص في الحبيب . . حبب العشق للأرض وابنة العم .

هذا الموقف كان صمام الأمن . . قيد أبا العشائر ليرجع إلى هداه . . فلقد نزع إلى عرق وخشي العار، فإذا هو يطبق بجيشه فينتزع النصر بعد أن كادت الهزيمة تحيق بسيف الدولة .

في هذه اللحظة تذكرت قول أبي الطيب في سيف الدولة وتذكرت تندر سيف الدولة في المتنبي في حادثة وقعت . . فدمعت عين، بعدها ضحك سن!!

● العجوز في حاجة إلى النوم كما حاجة الطفل . . كلاهما يبدأ مرحلة الطفولة . .

فالعجوز قد عاد طفلاً من جديد . . كل المتعب أنه لا يعرف ذلك، وإن كان تعامله كتعامل الأطفال، وكل المرهق أن من حواليه لا يعرف ذلك أيضاً فيزعجونه بالاحترام الذي يقصيه . . بينما هو يريد الحنان الذي يدنيه .

أكبر مشكلة عندي ـ كعجوز! ـ أني عرفت الطفولة فيَّ، ولكنهن لم يعترفن بعد!!

سعدت بهذه الفكرة فذهبت أنام في الخلاء نوماً عميقاً كان يحسدني عليه أيام زمان صديقاي محمد عمر توفيق، وياسين طه . . لقد كانا حريصين ـ لا أقول من حسد وإنما عن غبطة ـ أن يزعجا نومتي، ولكني كنت أنام رغم صراخهما . . في حسبانهما أن الصراخ يزعجني بينما لو سكتا عن هذا الصراخ لأفقت، ونالا بغيتهما!!

لقد نمت في الخلاء أمس على عكس ذلك المثل الذي يقول:

«الشيخ يسهر في الخلا، وينام في الملا» توحشه الوحدة فلا ينام.. تؤنسه الجماعة فينام.. أفليست هذه طفولة؟!!

إن الذي أنامني هذه النومة الحلوة هو «دكتور هول» حينما تحدث إلى زوجه في الحلقة من المسلسل الذي شاهدته ليلة أمس.. تحدث الدكتور هول بشيء من الحنان عن أستاذه الذي عاد من باريس.. علمه، ثم انتقل إلى باريس كهلاً وعاد عجوزاً.. كان الوفاء مجسداً في الدكتور هول لأستاذه، وكانت الأنثى التي تحترم عواطف زوجها أشد حناناً منه على أستاذه..

يظهر أن هذه تربية نشأ عليها، وذهبا إلى الأستاذ، وكانا يعرفان مجلسه في حديقة ما.. عرفاه بنفسيهما، وكان حصيفاً حلواً.. جلس الدكتور مدير الجامعة بين يدي هذا العجوز كأنه التلميذ الأول.. يدغدغ عواطف الشيخ. وكانت الزوجة تستجيب لهذا الحنان.. تحامل الشيخ كأنه أبوها. وعرض الدكتور على زملائه الأساتذة يسألهم عن الطريق لمساعدة الشيخ.. بعضهم اقترح العون على صورة الإحسان لكنه رفض ـ أعني الدكتور هول ـ قال: «إن البروفيسور لا يقبل إحساناً» وأخيراً قرر مجلس الكلية أن يعيّن الأستاذ بصورة شريفة.. يرجونه أن يكتب الجزء الأول من تاريخ «إيفي» يأخذ جزاء المؤلف.. مبلغاً يسد الحاجة. كانت المشكلة أمام الدكتور هول في الطريقة التي يبلغه بها ذلك، وبكل الاحترام عامله بأسلوب الحياة للذكريات: قال له:

ـ «هلم نتناول طعامنا في مكان نظيف» فما استجاب الشيخ لأن العجوز من الصعب أن ننتزعه من مكان ألفه مهما كان الترغيب، ولو كان هذا

المكان كرسياً في حديقة، لكن الدكتور هول يعرف الطفل في العجوز.

فقال: نتناول الطعام في مطعم سماه. . كان العجوز يرتاده دائماً أيام شباب. . أثار فيه الذكريات. .

● لمحة خاطفة شاهدتها أمس في مسلسلة «بونانزا». «لتل جو» أصغر الشباب كان فرجينيا يسرع إلى المهارشة والقتال في أكثر الحلقات، لكنه في حلقة أمس كان الحيلولة الصاخبة المضطربة يقف ضد العداوة. . يحول دون القتل والقتال. . قلم في جانبه: غريب. . ما هذا التبدل في هذا الفتى؟!

ـ قلت: الحب. . في هذه الحلقة فتاة ستظهر بعد. . علميه ألا يكون فرجينيا، وأخيراً صدق حدسي فإذا هو روميو على صورة مصغرة، وإذا هي جولييت في صورة مكبرة!!

وانتهت الحلقة بالكلمة المجنحة حينما شهقت شهقة الموت بين يديه:

ـ إنها قالت لي: «لن تكون صلة رحم بين أهلي وأهلك!».

كانت العبارة تنفي الصلة في سامع تجرد من الفهم، لكنها في أذني كانت الفهمة لهذا الحائل البعيد المدى. . العميق الأثر. . المفرق بين الأحباب: الموت!!

● أتابع بإصرار ـ وللمتعة والتزود بفكرة طريفة ـ الحلقات المسلسلة التي تعرض «الدكتور هول» عميد كلية ـ إيفي ـ فيها شيء يحرك الفكر النفسي، ويرمي إلى بعيد. . يقرب إليك هذا البعيد كأنه السهل الممتنع ـ حلقات مخدومة. .

في الحلقة قبل يومين عرضت مشكلة الطالبة المثالة، والتمثال الذي صنعت، وموقف العضو في مجلس إدارة الكلية وموقف صديق المثالة، ثم

موقف الدكتور هول نحو هذه الطالبة التي صنعت تمثالاً تريد أن تهديه إلى الكلية كشرط لما تبذله من عون لإتمام صالة الألعاب.

كتبت كتاباً لعضو الإدارة، وكتاباً آخر للدكتور هول، فنشاهد المنظر فيه مكالمة تلفونية بينها وبين عضو مجلس الإدارة تسأله رأيه.. يرحب متحمساً، فكل ما يريده أن تتم صالة الألعاب، ولا يعنيه من أمر التمثال شيء.. إنه يقبله ولم يره، وسألته قائلة: «لقد كتبت للدكتور هول، فلم أتلق إجابة منه.. هل أهمل كتابي؟.. أنا حريصة على رأي الدكتور هول وهو الأهم في نظري» ويخاطب عضو مجلس الإدارة الدكتور هول يسأله: «ما بالك لم تجب عن كتاب المثالة؟.. إنك تفقد الكلية صالة الألعاب» بينما الدكتور هول لم يعلم عن الكتاب شيئاً.. أخذته زوجه ووضعته في جيب الجاكتة التي لم يلبسها.. سأل عن الكتاب فأخذت الزوجة تقدح زناد الفكر حائرة تسأل نفسها أين تجد الكتاب، وأخيراً وبعد توقف وبعد حوار مع صديق للمثالة مهتم بها وبالكلية وبصالة ألعاب وجدوا في ظلال المناظر الخلفية الواضحة من خلال التصور.. المبطنة في ظلال التصوير تجدهم قد ذهبوا جميعاً إلى بيت المثالة ليشاهدوا التمثال. كان التمثال محجوباً عنهم مبرقعاً بستر يحجب النظرة عنه. وبعد حوار وقفوا ينتظرون كشف الستار، فتقدمت المثالة تكشفه فإذا عضو مجلس الإدارة يبهت، شيء كل التصور فيه أو له أنه لا صورة لتمثال لكنه وبعد استرخاء يرحب بالتمثال لأنه يريد صالة الألعاب، لا يهمه من أمر التمثال شيء. وينظر صديق المثالة للتمثال فيتحير. ترى الهزيمة على وجهه لكنه يجامل.. كل رغبته أن يرضي صديقته.. بعض من رغبته أن تتم الصالة. هنا قالت المثالة «دعوا الدكتور هول يتكلم، أريد رأيه».. وتكلم الدكتور هول كلام رجل يقدر المسؤولية يحترم الفن لا يريد أن يهدر قيمة الكلية بقبول هذا التمثال الذي لا

يصلح . . همه الحقيقة، لا يسأل عن المال أو عن صالة الألعاب . . لا يريد أن يخدع نفسه ولا أن يخدع المثالة، ولا أن يجترم على الكلية إنما يهدر ذوقها . . قال كلمته الصريحة: «إن هذا لا يصلح».

ضاق عضو مجلس الإدارة . . ارتبك صديق المثالة، كاد يضيع رشد الزوجة من هذه الصراحة . . لكن الطالبة ـ إيفي ـ أثبتت أنها تحب الكلية أكثر من حب الشهرة الكاذبة.

● لحظة نقيم فيها حواراً جاداً مع تلفازنا . . تلفازنا المتنفس والمتعب نريده أن يقدم تاريخنا على غير هذه الصورة التي أجبرنا أن نشهدها في إحدى عشرة حلقة حتى الآن، ولعلّ هناك بقية من الحلقات تزيد على الواحدة، هذه الحلقات من مسلسل «أسير المحراب» لا أظنها تأخذ من كاتب مقتصد مبين أو من مخرج يحترم الثمن المدفوع لقيمة الحلقة أكثر من حلقتين، وإن زادت فثلاث بحسب ما سمعنا أو رأينا . . لا حوار دسم، وإنما هي حركات فقط . . الكلام فيها مكرور وغث . . بعيد عن لغة هؤلاء الأبطال وعن روحهم . . لا تشعر بهم إلا في ظلة قاتمة من اسم أقحموه على هذه التمثيلية . . من هو الشيخ علام الذي يجر قيس بن عاصم إلى الإسلام؟!

إن قيس بن عاصم رضي الله عنه أكبر في الجاهلية من هذه الصورة وإنه لكبير في الإسلام على غير هذه الصورة . . هو سيد أهل الوبر كما سماه النبي ﷺ . . معلم الأحنف الحلم . . محرم الخمر على نفسه، وإلى أكثر من ذلك تعرضه التمثيلية في صورة ذنب للشيخ علام!!

الرسل الذين بعثهم رسول الله يحملون رسائله معروفة أسماؤهم لا أعرف أن فيهم الشيخ علام . . هل في ديار قيس بن عاصم هذه الطبيعة

هضبة.. مغارات.. تضاريس؟!.. ليس فيها ذلك، وهذا يعني لا تاريخ.. وخطأ في جغرافية الأرض.. مسخ لصور الأبطال.. تاريخنا ينبغي أن نكتبه نحن.. لماذا هذه الحلقات، وهي لا تمثل إلا المسخ لتاريخنا؟!

لم يكن في هذه الحلقات واقعة واحدة تلمس ما يعرفه الناس ـ أعني ناسنا ـ وإنما هي حركات مفتعلة.. إذا لم يستطع الحصان أن يسير فإن الجمل يستطيع..

فهل هان المسلمون على أنفسهم بهذه الغفلة التي تصورها التمثيلية.. بمثل من ثعلبة ـ ولا أدري من ثعلبة ـ يتصيد الرجال كما يصيد الأرانب؟!

كل التمثيلية تدور في كهف.. كم من مرة وجدنا الأسيرين يرفسان بالرجل من شيخ يمثل الخبث المعتوه، أو العته الخبيث..

إحدى عشرة حلقة؟!.. لا أشتريها بفلس.. لا تهمني قيمتها النقدية، وإنما تهمني قيمة الزمن المهدر في مشاهدتها.. ثم.. كلمة رفاق التي تردد في هذه التمثيليات.. ما كان أبو عبيدة الثقفي شهيدنا يوم الجسر ولا قيس بن عاصم المنقري يعرفانها.. سواء في الجاهلية أو في الإسلام.. يعرفان ابن العم والأخ والخال.. ثم ـ مرة أخرى ـ كل هذه التمثيليات لأشخاص يتكررون كأنما هي فرقة واحدة تبيعنا وتشتري، ويضيع زماننا في مشاهدتها، فحضرة الضابط هو أبو بكر الرازي وقس على ذلك وأكثر!!

● ومن صورة أخرى في حلقة من المسلسل التلفازي، «كلية إيفي» أو الدكتور هول..

أستاذ مشغول بالكلية والأعمال الإدارية، اختلس من وقته فألف كتاباً عن علم أمريكي، في حسبانه أنه مغمور، ولم يدر أنه مشهور وأرسل الكتاب إلى ناشر كبير.

في حسبانه أنه مغمور، ولم يدر أنه مشهور.

وأخذ ينتظر إجابة الناشر. أسر في نفسه حرارة الانتظار.

وقالت زوجته «تلفون من نيويورك» لم يعرف الطالب. لم يكلمه أحد فقد ألغيت المكالمة من طالبها كما ألغى هو المكالمة، شيء من اللهفة، شيء من الخوف. . يخشى ألا يقبل الكتاب. ودخل صديق. سمع أن الكتاب عن «جوثنان» قد تقرر طبعه واستأهل الجائزة الكبرى «عشرين ألف دولار».

وبعد حوار ملغز، أخبر الصديق القادم صديقه الدكتور هول عن نجاحه وزاده حينما قال له: (إن الناشر مستر «كارتر» سيأتي إليك يقدم الجائزة) وفرح الدكتور، وقسم المبلغ على عدة مطالب مثالية، وذاتية، وفرحت الزوجة، فقد ارتفعت حرارة البهجة في تأكيدها أنها من الأسباب التي صنع بها زوجها هذا الكتاب الثمين.

وجاء صحفي يعرف الحقيقة. وإنما يريد أن يعرف رأي الدكتور هول في نجاح تلميذه المؤلف الذي حاز كتابه الجائزة.

وكتعمية. وطرد لفهم الواقع، ومواربة في التصريح عن المؤلف الذي يعرفه الصحفي. وعن المؤلف الدكتور الذي ينتظر الخبر على أوضح صورة وكانت المفاجأة أن عرف الدكتور من صديقه، أعتبر أولاً بأنه غالط التبس عليه الخبر. فهو يعرف عناية صديقه بموضوع الكتاب. فأعطاه الجائزة بالأمنية التي تمناها لصديقه. ثم يعرف الخيبة فيما ظن. فأخذ يعتذر ويوضح. فإذا المؤلف غير الدكتور هول.

وكانت نكسة للمستر، وغمضة من الترحة، تدارك الدكتور بعدها نفسه فصبر. وصبرته الزوج الأمينة. وجاء المؤلف، يقدم الشكر لأستاذه المعلم

له والملقن لفكرة الكتاب، فأهداه نسخة عليها عبارة مجنحة في الإهداء إلى أستاذه. يعلن فيها: لولاه لما استطاع.

وعرف الدكتور هول. أنه كأستاذ معلم هو الذي حرم نفسه الجائزة فلو لم يعلم الطالب لما كتب عن «جوثنان».

هكذا يصنع المعلم في نفسه، لكنه العزاء في الشكران، في صناعة الرجال.

كان عزاء مبلسماً أشبع الدكتور هول أكثر من شبع العشرين ألف دولار. فعزاء المعلم الحرف والكلمة إذا ما وجد الناجحين والشاكرين. أما المأساة فإنها تظهر حينما لم يثمر ما صنع في إبراز تلميذ واحد.

● قارئ ألقى الجريدة من يده، وأمسك لسانه يجيب عن سؤال لم أطرحه بعد.

فقد كنت أنكر: هل يستأهل قارئ يلقي بالجريدة ساخطاً من شيء لا يعجبه، أو لا يهضمه، أو لا يفهمه.. أن تخوض حواراً معه عن تصرفه؟

ولو سكت قليلاً لما تحركت إليه بسؤال.. لقد اعتبرت الجريدة قطعة من ورق مسودة بحبر غير مقروء. كما هي في انفعالات صاحبنا الغاضب عجباً بفهمه، أو تيهاً بذكائه، أو قنوطاً من انتفاعه بشيء ما يوجد في أي ورقة مكتوبة!!

ولكنه تحرك بالإجابة الظاهرة في سلبها، المبرقشة بالإيجاب اللدني في مشاعر صاحبنا.

ـ قال: «هذا الكتاب لا أفهمه.. إنه يضع في تخطيط الصفحة موضوعاً بارزاً لأرغم على النظر إليه»!

انظر. أقرأ سطراً. ثم أرمي الجريدة كما رأيت.

ـ قلت له: (هذا كل ما عندك وبس؟ أم هناك لدنيات أخرى؟).

ـ قال: «هذا كل ما عندي. الرمز يزهق.. ما عندي وقت أحل الرموز والألغاز!!».

ـ قلت: «ليس هو الوقت كل المشكلة، وإنما هو الإحساس أساس المشكلة!».

لو كنت تحس ما أحس.. لفهمت. ولكنك تريد شيئاً آخر. كأنما أنت تفصل مقاسات لما تقرأ على نمط ما تهوى..

إن اتفاقك مع قارئ كتب ما تهوى.. يجعلك أنت الكاتب لما كتب، ثم القارئ لما كتبت أنت.

وأخذت أقرأ له بجرس أهزه فيه هزة فيها بعض العنف.. وفيها كل اللطف لأني أحب أن أكسبه قارئاً لهذا السبب..

وقرأت وقرأت. وركبه بعض عناده «بس.. بس» لا يريدني أن أتم!

ثم قال: «لك رأيك.. وسأفكر».

أحسبه قد فكر، وسيقرأ كاتبنا بفهم جديد، ومن الغرابة بمكان أن الحديث والحوار كانا في حالين مع اثنين، أحدهما لم يطل الحوار لأن قادماً يتكلم أكثر من عجلة سريعة في دوامة نهر كبير قد وصل.. أما الثاني فلم يدخل بيننا أحد. فسمع وسمعت.

شيء مرهق.. أن تصب الفكر في قوالب على مزاجك..

الفكر والحرف.. وضع زمني. وحافز نفسي. ودافع موضعي..

واندفاع مع التفاعل مع من حولك لمن هم حولك. واقتناع بأحد الاختيارين.

فأما الرفض. وهو استجابة قد يكون منها إيجاد البديل، وهكذا كسب. وأما استجابة نتقبلها لتأتي بما هو أحسن، وهذا كل الكسب.

● الأذواق تختلف، والأساليب لا تأتلف ولكن الذوق يرتفع أحياناً ليجد لذة في شيء لا ينخفض لذائق لا يعرف قدراً للجهد الذي بذل في سبيل ما يذاق!..

والأساليب كثيراً ما تختلف في المجتمع الواحد لترى بعضها مؤتلفاً مع أساليب دنيا أخرى وناس آخرين.. فمثلاً: الاسم اللماع جواز مرور في أي شيء، أو لأي شيء.. سواء كان مقالاً، أم رجاء أم تصرفاً، والاسم الناشئ لا يجتاز طريقه إلا بصعوبة أو أحياناً يسقط في منتصف الطريق لأسباب شتى!

من هنا أعجبني التصوير لهذا الموضوع في حلقة الأسبوع الماضي التي عرضت في تلفازنا من مسلسل الدكتور هول..

دق على الآلة الكاتبة يكتب مقالاً، ثم انتهى بهذه الكلمة.. لم يكتبها وإنما قالها: الآلة الكاتبة لا تصنع الكاتب.. أنا لست أرنست هيمنجواي!..

وجر الحديث ذكر رواية حديثة أحدثت ضجة، واسمها (العاطفة).. لم يضع المؤلف اسمه الصريح بل استعار اسماً آخر، فقرأها وشاهدها على السينما كثيرون.. القدامى استهجنوا لأن كاتبها فيما ظنوا من جيل جديد.. أستاذ صغير في الكلية، والمحدثون صفقوا لها لأنهم ظنوا أن كاتبها واحد منهم. وهنا دخل أستاذ كبير من أساتذة الكلية بصورة مزعجة يتناثر منه

الغضب . . يطالب الدكتور هول بمعرفة اسم الكاتب لأنه فسق في المجتمع بهذه الرواية الإباحية كما وصفها وبألفاظ أشد منها . . دكتور هول لم يكن من رأيه . . قال: «لم أقرأ هذه الرواية» وسأل الأستاذ الحانق: «هل أنت قرأتها؟!» . . قال الأستاذ: «أنا لم أقرأها، وإنما قرأتها زوجتي، فأنا أحترم رأيها» وهنا كانت السخرية في ظلالها الصامتة، وجاءت سيدة كهلة تقول للدكتور هول: «إن البروفيسور وارن ـ مخدومها ـ قد أصبح ثرياً . .».

إن رواية العاطفة هو مؤلفها، فقد جمعتها من سلة المهملات في سبع سنوات، وعرضتها على الناشرين فدفعوا خمسة عشر ألف جنيه، وضعتها باسمه في البنك . . المشكلة عندي أني لا أستطيع أن أصارحه. وأخيراً جاء الدكتور هول بالرواية فأهداها إلى مؤلفها الأصيل، وبطريقة في الحوار صرح الكاتب باسمه، وبينما هو عند الدكتور هول يشكر برجيس الخادمة على ما صنعت، دخل الأستاذ الكبير يسأل الدكتور هول: هل وجد هذا الكاتب الذي خرج على المجتمع؟! . . وكم كانت المفاجأة مذهلة حينما عرفوا أن الأستاذ الكبير الحانق ما جاء يفتش عن الكاتب ليسترذله وإنما جاء ليعرفه ويثني عليه لأن مجلة كبرى طلبت اسمه وستنشر هذه الرواية . . وكم كانت المفاجأة مذهلة أكثر حينما قال له الدكتور هول: «مؤلف الرواية هو هذا الدكتور وارن . . كان ينبغي أن تعرف هذا من قبل . . لأن البروفيسور هو الذي يستطيع أن يكتب التاريخ على هذه الصورة» . .

وخرج الأستاذ الحانق مذهولاً يتمتم: «بروفيسور وارن . . بروفيسور وارن!» . .

● رواية قرأناها من قبل، وسمعناها تمثيلية من زمن بعيد في إذاعة القاهرة . . كاتبها روسي . . ظلالها طمع الإنسان في الأرض . . مغزاها كيف يقتل الطمع صاحبه!

لقد أخذ يجري بطل الرواية ليأخذ المنحة من معطيها له أرضاً تتسع بقدر خطواته يذهب بها ويعود قبل مغرب الشمس، فأخذ يجري ويجري، ويحسب أن الشمس باقية.. يريد أن يكسب خطوات أكثر تتسع بها المساحة التي سيملكها، وقبل مغرب الشمس رجع ينهب الخطوات سريعاً.. يلهث فلم يكد يصل إلى نهاية الشوط حتى سقط ميتاً.. لم يكسب من الأرض إلا قبره!

ومن الغريب أن تكون هذه الصورة هي التي رأيناها في فيلم أمريكي شاهدناه على تلفازنا.. قائد الفرقة الأمريكية ذهب يحتل أرضاً يحكمها الإسبان المكسيكيون.. تساقط الجنود حول الحصن تحت العلم الأمريكي، ولكنهم انتصروا على القائد الأسباني وأسروه، ولأمر ما لم يقتله القائد الأمريكي.. أبقاه حياً، وبعد نهاية التصفية تخلى القائد عن جنديته، وأصبح طامعاً في هذه الأرض التي ينبغي أن تكون ملك الأمة، فأجبر القائد الأسباني أن يبيعه الأرض.. هذه الأرض لم يعد يملكها الأسبانيون، لكن الاحتيال على الصفقة ينبغي أن يكون عن طريق المبايعة.. كان صك المبايعة بقيمة ٨٥٠ دولاراً بينما قيمة الامتلاك للأرض كانت الدماء التي سفكت في سبيلها.. لا من أجل أن يشتريها هو على هذه الصورة البشعة، وإنما من أجل أن يملكها شعب!

عملية طامعة أنكرها ضابط معهم، لكنه تحت التهديد بالمسدس قد شهد على صفقة البيع القبيحة، وتنبه الرجال من الشعب الأمريكي باسم العدالة، فأخذوا يجمعون الأدلة لإبطال الصفقة، فلم يستطع الضابط المفكر لهذه الصفقة الذي شهد بالتهديد أن يدلي بشهادته الصادقة، لكن إنسانة

الشعب ـ المرأة ـ حثته على أن يشهد فكان جزاؤه رصاصة من أعوان القائد الذي اشترى الصفقة.

لقد وقع الأسباني الصك مقابل حياته، ولكنهم أطلقوه ليقتلوه، وأصابوه فعلاً ولكنه نجا بأعجوبة، وحينما اشتد القضاء العادل في مطالبته وعرف العزيمة في أن يحضر إلى المحكمة دبر خطة العصف بالأبقار.. سرحها أمام أعوانه ليهاجم بها ـ أي بهذه الأبقار ـ المنفرة النافرة، تطأ كل ما في وجهها ومن في وجهها.. أراد أن يدمر بها الرجال، والعدل، والأخلاق، خرج ليشهد الدمار بأظلاف الأبقار، فذهب قتيلاً، وطأته أبقاره، وتحققت العدالة لا بحكم عليه، ولكن بحكمه هو على نفسه.. هو قتل نفسه بأبقاره!

أليست هذه الصورة في الفيلم الأمريكي هي الصورة نفسها في الرواية الروسية؟!!

لكن هناك فرقاً دقيقاً في الرواية الروسية.. معلنة امتحان الرجال للرجال.. في الفيلم الأمريكي محنة الرجال بالرجال!!

● في مسلسل «حمام الهنا» أشياء تعجب!!.. مثلاً حكاية الأرز وجري الناس لشرائه كانوا يجرون على البقالات كل يشتري «رز» من إشاعة بسيطة أطلقها «غوار» لبيع عشرين كيلو أرز كمقلب في «أبو صياح»!

انطلقت الإشاعة فصدقها الناس، وهكذا حين ينعدم الوعي تخيم المخافة على طريقة (اللي قرصه الحنش يخاف من الحبل).

الإشاعات الكاذبة، والخائفون يصدقونها.. لكن هناك أناساً يعملون على تأكيدها. يجدون فيها الفرصة لكسب و لعبث أو هو ما شر من ذلك.

فمثلاً في أيام زمان يأتي الخير: الباخرة «علوي» أو «جهنقير» ستصل إلى ينبع ستصل بالأرز والحنطة وما إلى ذلك.

الخبر صحيح ينتشر بفعل الخزانة.. والتجار يعرضون في السوق ما لديهم بأسعار أقل من سعر الأمس، حين لم يكن خبر عن الباخرة.. والأفراد لا يشترون المعروض، لكن هناك دهاقنة كهنة لديهم ذهب يشترون المعروض.

فالخلي أو غير الواعي يقول: «هؤلاء مجانين» وهو لا يدري أن واحداً من هؤلاء ما دخل السوق مشترياً إلا وأرسل نجاباً معه شيء من المال إلى الذين يمكنهم منع (القدو) من الوصول إلى المدينة!

وتصل الجمال إلى المسيجيد ثم ترجع إلى ينبع خوفاً من (العقد).

ويشيع الخبر!!.. من هنا تأتي الفرصة لهذا الخزان المحتكر يتحكم في السوق، يربح هو ويخسر الآخرون.

إن الحال قد تغير بالأمن داخل البلد ولكن قد تطرأ هناك أحوال تجعل من تأخر البواخر معنى من معاني الحجز (بالقدو) على طريقة:

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا

● وسألني بعضهم منكراً، يستغرب استعمالي لكلمة «تلفاز» أنطق بها، واشتق منها «تلفز» و «متلفز» و «المتلفزة» إلى آخر ما يجري به الكلام والخطاب والحال ومقتضاه..

وأجبته على الوجه التالي:

١ ـ إن الاشتقاق من الجامد عربي ومباح ومتبع، فذهّب السيف من الذهب، وطيّن الجدار، وجصّص.. وحجّر، وخشّب، وفضّض ونحّس

وحدّد إلى كثير من أمثال ذلك، العرب فعلته، وجاءت المجامع تقره.

٢ ـ إن التعريب ملكنا نحن العرب كما يقول الدكتور الشيخ العميد طه حسين. . والعرب قبلنا عربوا.

والقرآن الكريم وبلسان عربي مبين آيات تتلى علينا صدق ما عربت العرب فجاء عربياً بيناً يتلى إلى يوم يبعثون. .

فالميزان والاشتقاق منه، والصراط، والزنجبيل، والدمقس، والقرطاس وما إليها كلها عربت فأصبحت عربية بلحن اللهجة العربية لا عوج فيها. .

٣ ـ وإني لأرتضي لنفسي ما ارتضاه صاحب المقتطف يعقوب صروف في تجويزه الإبقاء على كلمة «بنك» لسهولة لفظها أصبحت عربية. . ويسوغ ذلك بأن فيها حرفين ذلفين من حرف الشفة، وهي أعني الحروف الذلفية من علامات العروبة في الكلمة. . ثم لفظة «بنك» ساكنة الوسط لا تمنع من الصرف رغم عجمتها.

وأرتضي لنفسي ما ارتضاه أمير البيان شكيب أرسلان أبو غالب من اشتقاقه «تلفن» من التلفون.

إن الحياة للغة هي في إحياء العامي منها نفصحه كما فصح المازني كلمة «يستاهل» وغيرها. .

وأن نعرب فنهضم ونصقل ونوسع أذهان القارئين. . أما التوقف والطرد. . وإخضاع الناطقين لشيء لم يجر على لسانهم فأمر يميت ولا يحيي.

العامة لا المجامع هم الذين عربوا «البسكليت» دراجة. . والأتومبيل سيارة. . بل إن العلامة الأستاذ عبد الحق فاضل، يفضل استعمال العامة

لكلمة «طيارة» عن استعمال الخاصة «طائرة».

أريد أن نجاري ولا نرفض.. نعدل ولا نحول.. نحول العامة إلى اتجاه صائب وسلس وبيِّن.

وقنع محدثي، ولعلّ غيره لا يقنع لأنه لا يملك ملكة في لسانه وذهنه تطوع له أن يشقق الكلام ويشتق، ويتصرف..

● في ليلة أمس الأول.. شاهدت التلفاز ـ أعني الفيلم الطويل!

هو فيلم أمريكي في القصة هدف وتاريخ.. تاريخ الشبل.. احد أشبال الصحافة الممتلئين بالنظريات الأخلاقية والوجدانية. وما قبلوه في مؤسسة صحفية إلا بعد أن قاسوه طولاً وعرضاً واختبروه.. مر بكل المعاناة حتى الطرد، والفصل والصفعة!

لقد وجد الأساتذة العتاة، وقد درس نظرياتهم أنهم في الواقع المثال الحي لتطبيق هذه النظريات.. ولكن ما وجده على العكس (أمسك لي وأقطع لك.. شيلني واشيلك).

وجد الحقائق تختفي والأكاذيب عليها زخرف الحقائق، والجرائم تلبس لغير من اجترمها.. أمضه الحزن لكنه شبل.. هم هكذا عبروا عن الفيلم.. الترجمة كانت باسم الشبل.. هذا الشبل صعد، وناضل حتى طوع أحد الأساتذة الكبار.. فطوح الأساتذة الكبار!

ذهب إلى المحكمة ليشهد محاكمة مجرم.. فوجد فقيراً مكسيكسياً ما ظنه حمل السلاح يوماً ما.. كاد يتم الحكم لولا أن الشبل تدخل قائلاً: ليس هذا هو المجرم.. لا يمكن أن يكون هذا مجرماً.. المجرم مستر «كيلي» النائب العام.. أي حامي العدالة.. هو مقترف الجريمة ولكن بأسلوب العصابات.. كل من يقف في طريقه.. يعارضه في أن ينتخب..

يزيله بالأسلوب الخفي لتعلن الجريمة . . يلبسها مسكين . . أي مسكين يلتقط من أي شارع!

وجاء الأستاذ الكبير الذي استيقظ ضميره يخوض المعركة مع الشبل . . فظهر النائب العام ليقضي على الأستاذ والشبل، وبعد معركة ذهبوا به إلى الزنزانة بعد أن كان على منصة القضاء . . يحاكم بقانون . . كان يتحكم به في رقاب الناس!

يظهر أن كاتب القصة كالأكثرية من غيره يعالج هذه الأوضاع الخفية فقد شاهدتم الحلقة الأخيرة من فيلم الهارب . . كيف أطلقت القوة الخفية ـ تمشي على عكازين ـ القاتل . . الأكتع بعد أن أمسك به الهارب . . أطلقته من يديه بسلطان القوة على البوليس وعلى القانون . . قوة رهيبة مخيفة تعمل في الخفاء!

إن هذا الفيلم يحاول فيه كاتبه ومخرجه. وحتى الممثلين فيه علاج داء. ولكنه في خارج الولايات المتحدة يعلمنا تاريخ حضارة القرن العشرين (!!).

وقبل أعوام مضت شهدت فيلماً اسمه «ذئاب الميناء» وشهده معي صحاب نائمون!

ناموا ساعة عرضه فلم يفهموه، فلم يعجبهم قالوا: فيلم «بطال» ما فيه شيء مفيد . . خسارة قيمة التذكرة . .

لقد دفع كل واحد منهم قيمة تذكرته . . فعلى أساس النصفة في الإنفاق. كل ينصف نفسه . . يدفع عنها . . تقليد غير النخوة في جيوب الذين يزعقون «بالجبا» والحساب خالص . . اتبعنا سنن غيرنا، فتغير كل شيء علينا . . ولم يتغير بنا.

شيء تعلمناه من حياة كل ما فيها مادي حتى ليأكل الواحد على مائدة لا يدعو صاحبه إليها فإذا ما حضر دفع حساب نفسه. وخرجت شبعاً من الفيلم، عرفت مغزاه. وبعد شهور أعطوا البطل «مارلون براندو» جائزة الأوسكار.. الفيلم يلخص كيف يطغى رئيس العصابة حتى إذا انبرى له حر يكتشفه يضيق به ذرعاً.

لقد اكتشفه الإنسان الحر يكره الضيم من هذا «البلطجي» واحتك به. وأخرجه عن وقاره.. غضب رأس العصابة فرفع يده يضرب الفتى كفاً، فإذا الفتى لا يرتعد فضرب رأس العصابة بكف حار.. فإذا بالمنومين يصحون.. قسم مع الرئيس، وقسم مع الفتى، فانشق عليه أنصاره فسقط! سقطت هيبته، وانكشف قناع فزالت اللمعة عن رأس العصابة.

هذا مغزى الفيلم، فبعض الذين يكسوهم الوقار يذهب عنهم بثورة غضب، بجرأة فتى متهور.. الوقار كساء يمزقه الغضب، والجرأة.

● رأته ينظر إلى السماء يدعو الله أن يمنحه التوفيق، وأبعدت نظرها عن التحديق فيه، وقالت في نفسها لقد رجع إلى ربه حينما رجع إلى نفسه: فاللَّهم اجعله من الذاكرين حق أنفسهم على أنفسهم ليعرفوا حقك عليهم. فالذين تضيع منهم أنفسهم هم لغيرها أضيع، فاللَّهم احفظه بالذكر والدعاء والتوبة، واجعله من الذين يعرفون لأخوانهم حقهم عليه. لتعطيه يا رب الإيمان.

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ورأى دمعة العين فاسترجع يقبل يديها. إنها أم. رجع إليها ولدها فحمد الله أن هداه.

وسمعت أخبار نجاحه. فقالت: «أنت يا رب ولي النعمة واهب التوفيق ميسر النجاح».

ذكـريـات

● حينما يتحدث اثنان بما يشبه البوح . . أي بما يطرد النوح يستطرد الحاكي «شاكي وتسمع منه»! . . هو يستطرد فلا يفوته شيء، أما أنت فيفوتك أكثر الشيء!

هو لا يسأل عن الفوات . . يكفيه البوح، أما أنت حينما تصطفي نفسك في لحظة سارحة تجتر ما سمعته منه تشعر بهذا الفوات . . تفتش عليه . . تعتزم في نفسك أن تسأله غداً ليسرد عليك ما سرد . .

هذا هو الفوات الذي لا يرتجى، فأنت أقدر منه على التذكر لحظة بعد أخرى بعض ما باح به. أما هو فالبوح قد أراحه فأنساه صور الملامح التي سكبها في بوحه . .

قد يسرد عليك الحكاية كما كانت لكنه لن يكون مثلما كان معك أمس . . هناك وضع، وحالة، ومشاعر فرضت سلطانها على ما قاله، فهي حلية ذلك، وهي المؤثرة فيك أن تنسى . . أن تتذكر، أما هو فالحكاية هي عنده ولكن أين الديكور؟! . .

وجربت أن ألبس هذه الحكاية التي سردها، فأغير الأسماء، والأمكنة، وأتكلف الوضع، وأزخرف الحالة لأكون أنا البواح!!

وجلس يسمع . . لقد «أنخم!» حسبها حكاية صحيحة كنت أنا بطلها . .

لم يكن هناك صدق فيما حكيت.. كان خيالاً، لكنه كان الصدق حينما سمع!..

هي حكايته هو.. سمعها بصدق لأنها لامست مشاعره.

كثير مما نكذب فيه قد يكون هو الصدق في الذين يستشعرون وضعاً، وحالاً لهم!!

وضحكنا من هذه الكذبة البيضاء. من هذا الصدق العميق.. مني وفيه!

وإذا بي أتغير كأنما نبشت الدفين الذي ذهب.. ذكرني به وضع جديد.. غنة من صوت جديد، فأخذت البوح، وأخذ هو السماع!

لا أدري.. هل يعيد التمثيلية معي، أم أن كلنا في «الهوا سوا»؟!!

مع فارق واحد هو مثله أن يكون حياة لحياة.. مثلي أن أكون حياة ذاهبة الشخوص.. باقية المعاني!

التجسيد، والشخوص من لوازم الحياة للحياة.. أما المعاني فهي فواصل بين الذكريات يستريح البوح في واحدة.. يجعل النوح على واحدة!

لا تصدقوا هذا.. إنه «هدرشة» مزكوم.. حرارته ٣٩،٥ يشرب الماء مر المذاق، ويأكل الخبز أبو دقيق معطن.. مشوي على طريقة التجفيف تحت الشمس!!

● وأرسلته جدته العجوز الكسيحة.. يشتري لها زهرة «نيلة» تصنع منها صبغة خفيفة تسترعيب البقع على ثيابه.

لم يكن يعرف غير جدته والحوش.. لم يذهب إلى كتاب بعيد يشهد منه الجديد في المدينة، ولا يعرف كيف ذهبت أمه بموت عاجل، ولم تكن المدرسة مرغوبة في عقل الكبار، يخافون على الصغار منها.

وإذا زارهم أبوه خطف قبلة منه فلم يذق لها طعماً فهي خاطفة تسرع، ومخطوفة لا تشبع، فلا زال في جوع إلى القبلات، فهي ألذ ما يطعمه الآن، لا يستعطيها من أحد، وإنما هو يعطيها للغوالي عنده، يأخذ الخدود والأكف يقبلها حباً في حب، واحتراماً لحبيب غالٍ.

وأخذ القطعة «استنبولي» أي القرش، عشرة بارات أربع هللات.

وبالوصف وسؤال الرجال الكبار عرف «زقاق جعفر» أن فيه دكاناً «للقازنلي» يبيع النيلة!!

ودخل الزقاق، فشعر بنسيم بارد، بعد لفح السموم لأن الظل والمسارب ثلجت اللفح، وبردت السموم، فود لو كان بيتهم في زقاق جعفر، في مكان بارد، وفيه دكان «القازنلي» لا يضطره إلى بعيد يمشي حتى يشتري الزهرة.

ونظر إلى الدكان. . دكان طوله متران، وعرضه متر، فتح قسراً في جدار البيت، كأنما أحدث بعجة في السدة المدخلة إلى القاعة.

ونظر إلى هذا المعلب في القوارير، أصفر، أخضر، أحمر، ما هي؟. . ما هو؟. .

واشترى النيلة ولم يرفع عينه عن الألوان، فأعطاه القازنلي واحدة صفراء، حلاوة موزية.

فالآن عرف الحلاوة الموزية، وجدها شيئاً جديداً مرغوباً فيه أكثر من الحلية. . التمرة التي كان يأكلها من يد الجدة.

ورجع فإذا هو يسمع دوياً يرجع صداه كل ما في الزقاق من مسارب ومداخل، وتهتز الجدران.

وذهب يجري خائفاً كالناس حوله، كلهم جروا.

فالمدافع من جبل «سلع» تضرب أهل العوالي.. مساكين لا.. يستاهلوا. لا. إيش ذنبهم؟

لا تسأل.. هؤلاء خانوا الدولة.

وسمع الكثير، وارتمى في حضن جدته، فوجدها تبكي!

ـ لماذا تبكين؟!

ـ قالت: خالك ركب ذلوله، وذهب مع سيف العوجان يقتل قومه.

أنا خائفة أن يقتل!! قتلونا في القصيم، ونقاتل معهم هنا!!

● .. ويعلو الرمز في بيئات تحول دون الوضوح والدنيا اليوم على حال من الغموض البليد، والوضوح الفاجر لا ينتصر عليها إنسان إلا بالرمز القاهر يتنفس به إنسان يحس، وتنفجر به بلادة في ما حوله ليقضي على الوضوح الفاجر، يريد أن يحوله من إنسان روح إلى جسد شر!.. فالبلادة عند الذين يطردون من أنفسهم التعلق بالمثل، ويفرون عن الحقيقة الواقعة، والوضوح الفاجر عند الذين يطاردون بالركض والقذف واللامبالاة كل ما هو مثل.. كل ما هو تاريخ.. كل ما هو قيمة. كأنما إنسان اليوم يريد أن يفرض حياة الغجر على دنيا البشر!!

بلادة ألا تناضل دون حبك.. دون تاريخك، وفجور أن تهدم القيم بالبلادة المستكنة فيك، وبالذكاء الطاغي في هؤلاء.. اسميهم: قتلة الفضيلة، كأنما يريد هؤلاء الراكضون بالبوينج، والصاروخ أن يكون الإنسان راكضاً في البنك.. راكضاً في البيت.. يطلبون منه أن تنتحر الدقائق الهادئة المريحة لتحيا ثواني قلقة ضائعة في الزحام.. لا ترحم صاحبها، فكيف يرحم هو غيره؟!.

إن البلادة إذا ما اعتورت محيط إنسان، وإن الذكاء الراكض الرافض والمغرض إذا اعتور نفس إنسان كلاهما يهزم بالفنان. . ذلك أنه لا بليد. . ذلك أنه يرفض الركض، فالريشة في يده ذكاء، وهي أيضاً أناة، من هنا شريت الرمز المقهور في انحباسه. . الباهر في انطلاقه عصا تضرب البلادة، وتوقف الركض.

اليوم شريت هذا الرمز في معرض ابنتنا الغالية «صفية بن زقر» لقد وقفت أمام بلادة أضاعت التراث بعامل البلادة وعامل الركض، فأخذت تصنع تاريخاً بالريشة يصور لنا التراث الذي ضاع في أدوات كنا نحيا معها، وحيوان كنا نعيش به. وأزياء كان سترها ضافياً علينا. إنها في كل معرضها هذا. . في كل الصور صانت التراث.

ـ قال لي أحمد أبار: انظر إلى «دزقة الشاهي» لقد ضاعت من كل بيت.

ـ قلت: نعم، لكن هذه الفنانة حفظتها على الصورة، وهناك نظرة أخرى: ليس في كل هذه الصور الإبراز لمأساة فرد، وإنما هو كل البروز للمآسي التي ألغينا بها التراث بالجري وراء ما هو ضخم، والطرد لما هو فخم «الفخامة غير الضخامة»!!

● مسكين هذا الإنسان يصنع لنفسه أبراجاً وأعشاشاً وفراديس ومخابئ ومقبرة وآمالاً ويأساً وفرحة وترحة، ونصراً وهزيمة، و. . إلى آخره. . كل هذه من قوة الضعف فيه تستحيل في أي حال منها إلى ضعف القوة له، أو تسلط القوة عليه. . يستحيل عليه أن يعيش بغير هذه المعذورات. . في تناقضها تناسقها. . ومن قساوتها تصارعها. . من فهمها بلادة ذكية، أو ذكاء بليد، وهو لو لم يكن كذلك لتحجر الذهن، ولمات إحساسه، وتفهت

حياته، وأعاد يمشي القهقرى إلى (وراء الوراء)!. فكل التقدم والتفوق له.. هو من عراك هذه التناقضات.. من صراع الجزء المحس بالجزء المتألم.. لكل المنفعل إحساساً وألماً!!

● عشت أياماً في أشهر لما تبلغ العام بعد أجتر ذكرى مؤلمة.. أتلمظها بلذة خائفة من خبر جاءت به واحدة تروي أنها رأت صورتها ـ أعني صورة التي جاء ذكرها ـ مصادفة.

ـ قالت: رأيت صورتها على نعش حينما أخرجت من مقبرة في طريق تهشمت فيه سيارة كانت تركبها مع..

وابتلعت الخبر.. أغص به.. أضحك من بكاء دفين.. أبكي من ضحكة معلنة.. أرسمها «كالاكليشيه» أقابل بها من يعرض لي من هؤلاء السائرين بنا معهم. أوهم الذين نسير بهم معنا، سائرين في سؤال: ما هو الخبر.. كيف حال الجو؟!.. وهم لا يدرون أن الجو هو هذا الخانق المعذب حامل تبعات الهوى على كتفيه.. وجاءت مصادفة أخرى فقالت واحدة: لا.. لا.. لم نكن معه!.. قلت: وهل تتحدين حينما تعودين بالسؤال عنها، والأنباء بالجريدة التي نشرت الخبر والصورة؟!.

ـ قالت: لأنتصر في هذا التحدي سآتيك بالخبر اليقين عن حياتها!

وهنا جاء فعل المتناقضات.. أضاع الألم اللذيذ ليحل محله الألم التافه.. الألم اللذيذ هو أن تكون حياتها في وجداني ثباتاً لا يتغير يعطيني حق الامتلاك لها.. سوف لا تكون لغيري.. أنانية. لكنها لذة لا يضار بها أحد.. أنتفع بها حباً في الحب.. تسمو ذلك عن الأنا لتكون هي.. أما الألم التافه فهو أن أجدها ولا أجدها.. تستحيل اللذة إلى حسرة من فقدانها، حقاً لا أشعر بامتلاكها فقد يمتلكها وجدان آخر.

اللذة في الألم كما هي فلسفة أرسطبوس . . كما هي كلمة جبران: ابتغوا اللذة في الألم وابتغوا الألم في اللذة.

أما الحسرة فألم تافه بجذوره أمل أحياناً ما . . الخيبة فيه تتضخم بتلك الحسرة . . لقد أحسنت تلك التي أخبرت أولاً . . وما قصدت الإساءة التي أخبرت ثانياً. لكن هذه المتناقضات هي التي تحسن وتسيء!!.

● الصيف ربيع حياتنا . . في صحرائنا وواحاتنا. وهو جنى الربيع في الحياة . . حياة السمر، وقطف الشجر، ورعي الكلأ من الحياة . . فيه ملاعب الفرحة وفرحة اللاعبين . . أتراباً . . أتراباً . . كواعب وفتياناً . . ليس أكرم منه في الفصول . . في جوده ونداه . . هذه الواحات . . خيرها في الصيف.

كنا نعيشه . . لا نسأل عن الرمضاء . . نمشيها، لا نحمل الشماسي ويكفينا ظل نخلة وإذا بنا اليوم نستجير من الصيف لا نطيقه . . نعيش في كهوف أرغمتنا عليها المكيفات . . نترك الطبيعة ونعيش الصناعة، وكنت أتحمل حرارة الشمس كأنما أنا عاشقها، أرضيها وترضيني لأن وراء المشي فيها ما يرضيني وأرضيه.

وذكرني به الحمار . . فقد صرت اليوم أركب سيارة فإذا بي أعود إلى الكهف . . أما الحمار فقد كنت أركبه أو أقوده فأنقاد به إلى فلاة واسعة . . أشق به الوادي لأصل إلى النخلة أتفيأ ظلالها لأجد ما يرضيني! . . والحمار . . حمار لو أترفوه بالعلف المنقى . . إن هذا العليق سواء من الحلبة أو شعير من البصرة أو قضب بذرته من القصيم أو من أختها من المدينة . . ولو غروه بالسمن الشفوي . . أو حتى حنكوه بالملح من «مجز» أو مجزان على ساحل «الرايس» أو ألبسوه الكشحة والجلجل، أو جللوا

«الولايا» بالمخمل، ولو كانت هذه «الولايا أو البراذع» من شغل «أبو ديبرباله» في المناخة، أو شغل الريس في سوق الليل.. فما زلت غاضباً على هذا الحمار رغم إحيائه الذكرى في نفسي ـ هو حمار الحاج ميلاد المغربي.. كان عند ميلاد الحاج الجزار المتخصص في الذبح، في المجزرة أيام زمان حمار أسود «غطيس» أي فاحم. مقطوع الذنب ـ يعني ابتر! ـ أترفه كل الترف.. يعشق ركاب الحمير أن يركبوه.. وكنت أحد هؤلاء العشاق، وترقبت يوماً أن أكريه من المكاري أنزل به إلى العيون.. خطأ أن تقول: نطلع العيون كخطأ أن تقول نطلع المسفلة.. فالصواب هو الطلوع إلى العوالي، أو المعلاة، أو هو التسنيد إلى نجد أو النزول إلى تهامة!

وجئت أحمل صينية «تبسي كنافة».. من شغل الشيخ صالح شرف النابلسي، وليس هناك أحسن منه صانع للكنافة يعني من بحرة..! واكتريت الحمار الأسود، فإذا أنا على ظهره، «والتبسي» في حجري، وإذا هو كالهبوب.. حتى إذا خرجت من الباب الشامي حرن، «وجحش» والتفت بمكر ليذهب إلى المجزرة.. لا يريد أن يسير إلى أمام.. ونزلت عنه في الرمضاء أحمل الكنافة على رأسي، وأقوده لا من قدامه، وإنما أسوقه الهوينا من ورائه.. ورأى حماراً فأخذ يجري، ولم أركبه إلا بصعوبة كادت تضيع الكنافة مني، ودخل الحمار إلى «ضيف السيد» فإذا بي أنزل عنه، أداريه، أمشي الهوينا معه.. يريد أن يرجع وقلت له: إنك لحمار.. أمك من حمير «الحرة» وأبوك من خلائف الحمر اليهودية في خيبر!.. ورأى حماراً بعد أن قطعت وادي قناة وأخذ يجري كأنما هو اليهودي لا يمشي إلا بعون رفيق حتى إذا غاب الحمار «جحش» ولم أصل به إلى «المدافعية» في هجير الرمضاء إلا بعد لأي، فدخلت إلى النخل أحمل «التبسي» على رأسي.. يلقاني بها الأحباء فسلمته لواحد وضربت الحمار سوطين.

الطريق إلى مزوده. . يجد العلف المنقى فيه، فرفع رجليه وأخذ يجري ليعود! ولا أدري كيف كنا نتحمل حرارة الصيف. لكنها نوازع الكنافة! ولا أدري كيف يشق علينا الصيف. ولكنها نوازع الكيف والتكييف. . فوازع الكهولة!

يا للشباب المرح المتصابي روائح الجنة في الشباب. . الشباب جنة. . رغم الهجير والكهولة «جُن» ـ . . بضم الجيم ـ تسوق إلى الزمهرير. . إن لم يتداركنا ربنا برحمته، ولا أدري فلعلّ هذا الحمار قد أنجب من هو أشد حميرة منه، فالعرق دساس!!

● كدت أذهب كأحد أفراد البعثة الأولى التي ضمت السيدين أحمد العربي ومحمد شطا والسيد ولي الدين أسعد. أمد الله في حياتهم فكم لهم من يد بذلوها في تعليم أجيال بعدهم!

قرأت الإعلان في أم القرى (الجريدة) وبحثت الأمر مع أبي لأتقدم بطلب يضمني إليها، فلم يمانع صراحة. . أي لم يواجهني بالمنع بل قال: شاور الشيخين محمد صقر وكان في المدينة، ومحمد العلي التركي وكان في مكة. . أسأل الله لهما الرحمة. . فقد كانا إنسانين يبذلان الخير تعليماً ونفعاً وتأديباً.

السيد محمد صقر قال: لا تذهب. . أبوك يريدك مسجدياً تتعلم فيه وتدرس، ولا مكان للعلم ينحصر فيه. . المكان هو الرغبة والأستاذ والكتاب، وهم هناك مثلنا ونحن مثلهم. . لا فرق إلا في الحصيرة والرتابة. .

وكتب إليَّ الشيخ محمد العلي التركي: لا تذهب. أريدك هنا فهو خير لك، أعرف أن أباك سيزوجك فتزوج وعلى الله ثم عليّ الباقي.

وسألني أبي.. بماذا أشار عليك الأساتذة؟ قلت: نصحوا ألا أذهب.. فقال: هذه رغبتي لقد خطبت لك فلانة، وبعد أسبوع نعقد لك عليها.. فتزوجت، وأنجز محمد العلي التركي وعده لقد كانت يده هي اليد التي جعلت مني أستاذاً أعلم زملائي وإخواني، ومن المصادفة السعيدة أنني وأستاذي محمد صقر قد عيّن كل منا أستاذاً في يوم واحد، هو قد عاد إلى مكانه، وأنا شملت بتقدير!!

زملاء وأصدقاء لم تتغير نظرتهم إلي لأني لم أغير عملي لهم ومعهم وبهم. يعرفون قلة حصيلتي من العلم، ولكنهم يثقون بأني أجد لهم الجواب بالمراجعة لقد تعلمت منهم وتعلموا كيف نقرأ؟ كيف نراجع! والحصيلة الحاصلة التي لم أشعر بندامة أن لم أذهب، بل إني أعتز بشعور المتعة بهذا الكفاح في سبيل المعرفة نتعلمها على ضوء فانوس وفي غربة من الكتاب والمجلة. حتى إذا اقترب الكتاب وما إليه تخاطفته الأعين القارئة ليكون مزقاً كورق، وليكون غذاء عقل كفهم ومعرفة..

أكتب هذا دليلاً للذين حالت ظروفهم دون سفرهم، فلديهم الكفاح والجامعة والكتاب.. لديهم من النور واليسر أكثر مما كان عندنا. العلم رغبة وكفاح.. ونحن في حاجة إلى كفاح أقوى في سبيل المعرفة.

● شرقت بالدمع حتى كاد الدمع يشرق بي..

كان البكاء نزيفاً من الداخل.. ذلك أقسى الحزن أن تكون في نفسك على غير ما تكون في حاضرك مع إنسان!..

كنت الحاضر الغائب.. يسألني: ما بك؟.. أقول: لا شيء..

لكن التشابه في الحالات يعطي صاحبك السائل الإجابة التي يريد منك، إجابة من نفسه كأنما أنت هو، أو هو أنت.. غير أن الفارق بعيد..

هو يحن إلى الذكرى . . أما أنا فقد أحنتني الذاكرة!!

ذاكرته حية . . عائدة، أما ذاكرتي ففاقدة الوجود . . تعيش ترغم الفقدان المجسد إلى إيجاد معانيها . . ماثلة في النفس!!

كنت أقرأ في مجلة تكتب خبراً عن انتصار فريق في لعبة . . ينسبون هذا الانتصار إلى بطل قد ذهب . . ذكرى البطل قد تكون جاءت بهذا الانتصار . . لهم مجدهم . . أما أنا فمن ذاكرتي قد جاءت تحطم ما وجدت لابني لها الوجود في نفسي!!

هم تذكروه، فذكروني بها!!

كان البطل قد ذهب بها معه . . فأصبحوا يذكرونه، ولا يتذكرونها . . أما أنا فحينما قرأت اسمه كانت هي التي ذكرتني به . .

لقد مات، ولم يكن قاتلاً، ولكنه حينما ذهب بها أصبح شارعاً في تقتيل نفسي أنفساً تتمزق . . في كل يوم يمزق بذهابه وذهابها هذه النفس!

كدت أنساها، لكن الأبطال إن لم يذكروك بأنفسهم لأنك لا تعيش على مجدهم . . ذكروك بما صنعوا في حياة أو موت . . بهذه التي تحيا في نفسك! .

لقد ذهبت في الحريق، فخمدت النار التي أحرقت، لكنها أوقدت النار التي ما زالت تحرق . . هذا مجدها . . مجد الحب يبعث في الانتصار حينما أصبحت الحفيظ على الذاكرة لأكون الحفيظ على الذكرى!!

من هنا . . صنعت الإجابة له، وما زال السؤال قائماً عنده، وهذا فارق آخر .

أنا قد تحددت إجابتي، أو استجابتي بها، بقيت في نفسي فـ «الأنا» فيَّ

أجدها بهيجة لأنها بذهابها أصبحت لي لا لغيري.. أما هو فبقاء الحياة يتعبه لأنه يريدها أن تكون له، ولكن الغفلة تعتريه.. لا لأنه يخاف نفسه ألا يكون لها، وإنما يخاف أن تكون هي له، وليست له!!

شيء مكرب أن نعيش على الذاكرة.. وأشد كرباً أن تبكينا الذكرى!!

حفظها الله.. تلك التي أشعلت فيَّ المعرفة عنها لتكون هي المعروفة دائماً لدي!!

رسَائل خطيَة وتليفونيَة

ـ وكتبت خاطرة عن الهدا، عن رؤية عابر في طريق . . تغزلت في رائحة الثرى والنضح الرطيب من قطرات المطر . .

وكأني قد أغظت قارئاً يعيش في الهدا . . فعرف ما أساء من الإنسان من عبث وإهمال . .

أف من هذا الإنسان، فكثيراً ما يفسد في الأرض إن قهرته التعاليم عن القتل وسفك الدماء، قهر نفسه من حيث لا يدري بهذه القاذورات إذا ما ألقاها بعيداً عن فنائه، فإنه يظن أنه قد باعد بينه وبين إفناء الحياة بالجراثيم . .

وكان قارئاً لم يعجبه ما كتبت فأرسل إليّ يعقب عاتباً . .

ولعلّي أنشر كتابه بنصه لعلّ الناس يعرفون أولاً . . وكما يعرف المسؤولون ما ذكر ليزيلوه!!

وإليكم نص كتابه بألفاظه دون أي تعديل أو تبديل:

حضرة الفاضل الأستاذ محمد حسين زيدان الموقر . .

تحية وتقدير . . وبعد:

أستاذي العزيز، في المقال المنشور في العدد رقم «١٧٣٤» وتاريخ ٢٦

جمادي الأولى لعام ٩٠ وتحت عنوان «كلمة ونص» كتبت تقول إن جو الهدا قد أعجبك.. الغيوم، الهواء العليل، الرذاذ.. كل ذلك يعجب كل إنسان ولا شك ولكن؟

هناك أشياء تدعو الإنسان إلى ترك المصيف الجميل، ليس الأهل والولد، وإنما الروائح الكريهة أعزكم الله..

١ ـ الحمامات التابعة للخيام.

٢ ـ القصابون الذين يقذفون بالأوساخ بعد تنظيف الذبائح.

٣ ـ فضلات الأكل المتبقية من المصطافين.

٤ ـ الأوراق المتناثرة سوف تجعل من الهدا بعد عدة أعوام كدوة أعزكم الله.

٥ ـ التسعيرة بزيادتها غير المعقولة..

٦ ـ مراقبة المأكولات..

أستاذي العزيز، سعادة.. من المسؤول؟ سعادة أمين العاصمة أم سعادة رئيس بلدية الطائف؟ إن في اعتقادي أن منطقة الهدا سوف تصبح مصيافاً للجراثيم لا قدر الله.. إن أملي كبير أن يلقى خطابي عناية منك، وفقك الله لخدمة البلد الطيب وشكراً..

المخلص: توفيق عريف

إن هذا القارئ يسأل شارحاً ما أساء ليرضى بما يسر.. أشكره شكراً على وعيه..

- أخي محمد علي البكري:

لا أريد أن يتبدل هذا الاسم لك لأنه العلم الذي قتلت عليه، ولأنها منحة القدر لك. . تجمع في اسمك هذه الأسماء الحبيبة التي تحول بها تاريخ قومك. . قومك الذين كانوا يقتلون غيلة، فبمحمدك النبي الرسول. . تحولت الغيلة إلى شهادة. . كان القتل في قومك من أجل شيء لا تكون به الحياة، ولكن محمدك النبي صنع من القتل. . هذا التاريخ الطويل العريض. . لأنه ـ ﷺ ـ حرّم الغيلة، وجعل القتل في سبيل الله. . في الدفاع عن الدين. . عن الأرض التي تحوط الدين. . عن الأهل، والعرض، والأرض. . جعله أسمي ما يبذله إنسان (تقتلون وتقتلون) (ومن أناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله) يشري نفسه من القتل الحرام. . الغيلة والاغتيال. . بالقتال الحلال كل الحلال: الجهاد.

أنت حولت التاريخ لأنك ذهبت تجاهد عن أرض قدس، ودين أقدس، وأمة صنعت التاريخ. . ذهبت لتقاتل حتى نحيا نحن الذين وراءك. إن التحويل في التاريخ لا يستكثر أن يصنعه شاب متواضع رقيق مثلك، فأنت بهذه الرقة حملت القلب العظيم، أنت ما قتلك يهودي برصاصة. . أنت قتيل الأمم التي تداعت عليك. . أنت قتيل الصهيونية، والاستعمار، وبلفور، وترومان ومن إليه، والذين فرطوا من قومك العرب فيما مضى. . الذين لم يصنعوا الفداء أول الأمر. . لم يبرزوا الكيان الفلسطيني في اللحظة الأولى. . كان ممكناً أن يبرز في أول يوم من أيام الانتداب لأن الانتداب كان تنفيذاً لوعد بلفور، لكن الكثرة حينذاك كانت كغثاء السيل.

أنت برهان على أن الشعوب العربية أصبحت كلها تقاتل، وأنت نبراس جعلت النور بالدم يتدفق في وجدان الذين قبلوا صورتك. . لم يقبلوا الورق. وإنما قبلوا معانيك!!

أيها المحمدي: لا بد أنه كان في نوازعك أن محمدك النبي حينما شرع الجهاد لم يحجب ابن عمه عبيدة بن الحارث عن الشهادة في بدر، ولم يمنع عمه حمزة عن الشهادة في أُحد، ولم يخلف حبيبه وابن عمه جعفراً، وحبيبه زيداً، وصاحبه ابن رواحة عن الشهادة في مؤتة.. ما قدم الأبعدين.. بل خاض الشهادة الأقربون والأبعدون، وكلهم كان الأقرب إليه لأنهم المؤمنون، ليتهم دفنوك في مؤته.. هناك بجوار جعفر وزيد وابن رواحة.. تلك دماء أهلك وقومك من هذا التراب.. ليتهم دفنوك في اليرموك بجانب عكرمة وسهيل بن عمرو أولئك كانوا آباءك من هذا التراب.. ما صنعت بدعاً فقد سبقك إليه أبطال فاتحون، وإنما صنعت البديع في زمن قل فيه صناعه.

أترحم عليك.. دعوة مسلمة، وإلا فالله قد وعد لك بالرحمة، تعيش روحك في حوصلة طير أخضر مع هؤلاء الشهداء، إن لم يدفنوك معهم فأنت اليوم تحيا معهم!!

لا أحب أن يبدلوا اسمك، جمع الأسماء الحبيبة، محمداً، علياً، أبا بكر.

● حكاية وقعت أخبارها وحوادثها في ليلة أمس، أقصها للعلم بها وليمكن إصلاح النقص في الناحية التي ترى أنها تحتاج إلى تحسين علاقتها بعملها وبالمحتاجين إليها..

ففي الساعة الخامسة وعشر دقائق قبل الفجر.. يعني الساعة الحادية عشرة والنصف تقريباً كنت في دثاري أقرأ، فنزل ولداي..

قالا: إن رجلاً يلبس «بنطلوناً» دق الباب، وقال: «كلموا بوليس النجدة، لأن في بيت جارنا عبد العزيز بن محمد البليهد تماساً كهربائياً،

وعمود الكهرباء الذي أمام بيتهم يقدح بالشرر، ويفرقع مطرقعاً بصوت الاحتراق أو التماسّ الكهربي . .».

وأخذت التلفون . . ضربت رقم ٩ فرقم ستة. عن غلط ثم ذكرني طفلي أن الرقم هو ٩٩.. وأجاب الضابط المناوب حينما ذكرت اسمي كطالب . .

أجاب بكل احترام ويقظة وفطنة!!

ـ قلت له: «الجيران طلبوا مني الاتصال بكم لكيت وكيت» فأجاب: «حاضر . . سأكلم شركة الكهرباء، وكلم الإطفاء، فرقمه ـ ٩٢ ـ وسأرد لك الخبر عن مكالمة الشركة!!».

وكلمت الإطفاء، فأجابني يسأل: «ما اسمك؟!» قلت: «ذكرته لك» قال: «ايش اسمك؟» ذكرت اسمي. فقال: «فين المكان؟» وصفته له، فقال «فين . . فين؟ وراء فرن بدر؟ أين فرن بدر؟» قلت: «في شارع المطار بين الكندرة والمطار» . . قال: «إيش اسمك؟ كم رقم التلفون؟!».

ـ قلت له: «من أنت؟ أين الضابط المناوب؟» قال: «هو فيه ما اسمك؟ كم رقم تلفونك؟ أين المكان؟».

وتركت الكلام معه لأني عرفت أنه مأمور السنترال وأحسبه لا يعرف الكتابة فلو كتب الاسم والرقم لما تكرر السؤال منه!!

وكلمني الضابط المناوب في بوليس النجدة: «يا أستاذ الشركة قطعت التيار عن العمود، المهندس في طريقه إليكم» . . كلمت المطافئ فألقى مأمور السنترال السماعة، وقطع المكالمة!!

ـ قلت له: «لا بد وأن لديك تقريراً عن وقائع الليلة. ويمكن شرح

ذلك كله إلى من ترفع إليه التقرير..».

ـ قال: «أنت كلم رئيس المطافئ في النهار!!».

وخرجت فوجدت جماعة من الجيران، وبينهم مهندس الكهرباء وكان خارجاً من بيت الأخ عبد العزيز البليهد.. ومن بين الواقفين الأخ عبد الوهاب الزاهد..

ـ قال: «أنا لاحظت التماس والشرر.. تكلمت في تلفوني فوجدته عاطلاً. وذهبت أتكلم من تلفون السيد هاشم الزواوي، فوجدته معطلاً، فطرقت بابك لتكلم البوليس والمطافئ.. شكراً يا أخ».

ـ قلت له: «أنت المشكور».

● قرأت اليوم «أمس» في الندوة مقالاً كبحث كتبه فضيلة الأستاذ هارون أحمد العطاس يشرح حواراً أقامه مع فضيلة الأستاذ/ علي الطنطاوي حول مقتل الحسين ابن فاطمة وابن علي رضي الله عنهم أجمعين، كأنما نحن قد فرغنا من كل مدعاة للخلاف.. نريد بدعوة التضامن الإسلامي القضاء عليه.

إن خلافاً كهذا إذا ما أثرناه فإننا ننصب مناحة من كربلاء.. وانتصاراً في الفيحاء وحزناً في المدينة وحسرة في مكة وبغضاء في كل مكان.. من صنعاء إلى «قم» إلى الدار البيضاء.. ما أحرانا أن نطفئ كل ما يثير ضغناً.

والكلمة في هذه أوجهها لصديقي الأستاذ علي الطنطاوي.. لا رداً عليه ولا نقاشاً مع رأي.. وإنما تنبيهاً له على طريقة هي أخذ الأكابر عن الأصاغر.. فالتدبيج بينهما من مفاخرهما.. أريد شيئاً آخر هو ما ينبغي أن يثار بين عامة الناس من هذه المواضيع التي تطرق لبعضها.. خصوصاً في

بلدنا هذا . . القائم أمره على مذهب سويّ . . حب لا بغضاء فيه . . وعقيدة لا مراء حولها .

هذه المواضيع جدير بها أن تعقد لها ندوات خاصة بين طلبة العلم لدعم الحق ودحض الباطل . . إن نشر هذه وأمثالها على صفحة قرطاس . . في جريدة يومية . . أو الحوار في التلفاز عن موضوع مضى وانتهى فهذا شيء أرجو لأستاذي ألاّ يفعله .

حدثني من أثق برأيه وخبره ومن أفرح بتوجيهه . . قال : «لا أدري لماذا سمح الأستاذ علي الطنطاوي وهو من هو رفيعاً في قدره أن يناقش في التلفاز سؤالاً وجه إليه عن خلق القرآن؟!» .

ـ قلت : ما سمعته . . ما رأيته . . ولكني كم كنت أتمنى أن يكون في التلفاز . . قبل المجيب «كونترول» رقابة على الأسئلة لا تعطى للمجيب إلا بعد تنقية لها . . ونقد، ثم يعرض المنقى على المسؤول لينتقي ما تحسن الإجابة عنه وليترك ما تكره الإجابة عنه . وليترك ما تكره الإجابة عنه للكراهية للسؤال نفسه . . أحسب أن صديقي الأستاذ علي الطنطاوي واثق من قدرته على الإجابة عن كل سؤال، فلم يحرص على أن يتفقد الأسئلة ليحذف الشائك إن لم يكن عسيراً عليه .

القدرة على الإجابة ليس مجالها التلفاز . . يراه . . يسمعه كل الناس . . إن القدرة على النفس هي أقوى من القدرة بالنفس، القادر على نفسه يمتنع عن إظهار القدرة بالنفس فلا يجيب عن سؤال كهذا . . فما أحرانا وقد مات هذا السؤال بعزمة أحمد بن جنبل رحمه الله وشيع إلى قبره بالومضة من صاحب الحيدة . . وأهال عليه التراب إيمان «الواثق» بالتوبة النصوح، يرحمهم الله .

وهذه مسألة اليوم.. أعني قتل الحسين.. لماذا تثار على جريدة تؤجج نار فتنة.. تفتح جراحاً.. تثير بغضاء أحسب أننا في غنى عن ذلك لأننا في فقر إلى وحدة صبر وعمل.. إلى اتحاد في رفض الخلاف لتكون العزمة واحدة في الدفاع عن كلمة واحدة.. هي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» نحن في فقر لنتفق.. لتخليص أرض واحدة.. هي سياج الحرم.. فيها أبوابه.. من «العقبة» إلى «جولان» من «الحمة» إلى «قناة الغور» إلى قناة السويس، قبل أكثر من ثلاثين عاماً جاءني أخونا المسلم محمد أسد وكنا في المدينة المنورة.. وكان أيامها يسمى أسد الله.. فقال: «ألا ترى كيف أن الشيخ رشيد رضا ومحمد كامل قصاب وأمين الحسيني يصلون وراء كاشف الغطاء محمد حسين؟!» كيف رضي هؤلاء السلفيون أن يصلوا وراء شيعي؟..».

ـ قلت له: لقد صلَّى الباروني وأطيقش يومها وهما من تعرف مثلما صلَّى هؤلاء.. فلقد كانوا في مؤتمر إسلامي.. ولقد صلَّى هؤلاء وهؤلاء مثلما صلَّى ابن أم عبد، عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وراء الوليد ابن عقبة وهو على حاله الذي تعرف.. وكما صلَّى أنس بن مالك، خويدم رسول الله وصاحبه وراء الحجاج وهو من تعرف.

إن صلاة هؤلاء لا يمنعها خلاف على حب الرجال وبغض الرجال.. وإنما دعاهم لها الحب الأعمق في الدفاع عن «لا إله إلا الله محمد رسول الله» تناسوا خلافاتهم ليتفقوا على كلمة التوحيد.. لتوحيد الكلمة، وكأنما استيقظ محمد أسد ليكون معي لا عليَّ، وزدت أقول له: «ألا نحمد الله حينما نرى الشامي يصلي وراء العراقي.. والعماني يصلي كذلك؟!» وقبل أكثر من عشرة أعوام وفي حوار مع السيد رضا الشبيبي، عالم العراق وهو

من تعرف . . قلت له: «أليس الضيعة أن تقفوا طوال هذه السنين حباً في رجل وشتماً في رجال . . ونقف نحن طوال هذه السنين ندافع عن رجال ولا نبخس الإمام حقه (؟!)».

ـ إنها لضيعة . . خسارتنا منها كبيرة . . وكسب لعدد كثير . .

ـ قال يرحمه الله: «لعلّنا نجد الفرصة للتقارب وتنظيف الفكر من هذه الشوائب».

وشكرت السيد الشبيبي . . أذكره بهذا البيت من شعره:

فتنة الناس ـ وقينا الفتنا ـ باطل الحمد ومكذوب الثنا

دعوا أقوال المؤرخين . . واستجيبوا إلى مواقف أئمة المحدثين . . فعند سعيد بن المسيب والثوري ومالك، وابن حنبل ما يكفي.

لقد حدثني أستاذي وصديقي الشيخ صالح بن عثيمين . . ساكن الحرم عن حوار جرى بين إمام السنة . . قاهر البدعة وقامع الفتنة أحمد بن حنبل وبين ابنه صالح.

ـ سأل صالح أباه: «هل تلعن يزيد يا أبتاه؟ . .».

ـ فقال: «هل رأيت أباك يلعن أحداً؟».

ـ قال صالح: «وهل تحب يزيد يا أبتاه».

ـ قال: «وهل ترى أن مؤمناً بالله ورسوله واليوم الآخر يحب يزيد . .».

هذا أدب الأئمة . . فدعونا عن غيرهم.

أنتما الطنطاوي والعطاس ابن أخت وخال فاجتمعا وصفيا المسألة في حوار العلماء . . في مجلس خاص. فالطنطاوي أمه حسنية فهو سبط السيد

عبد القادر الجيلاني إمام الحنابلة في وقته.. والسيد العطاس علوي حسيني.. فأعجب لخال وابن أخت أن يختصما في جدهما الحسين بن علي رضي الله عنهما!!

● أيها القارئ: أنت صديقي وإن خاصمتني، وإن كنت ضدي فإنك لي ما دمت تقرأني.. على العكس من الكاتب ـ أي كاتب ـ هو مناقضي ولو كان صديقي (!).. لأن القراءة استيعاب.. تقبل، ولو بأسلوب الرفض.. أما الكتابة فتنافس.. فكر.. وتحد، ولو كنا كتاباً نتصادق.. نكتب في جريدة واحدة!

الصداقة مع القارئ هي الوضع المرتضى المرغوب فيه، والتنافس مع الكاتب هو الوضع المرتضى، والمحذور منه!

القارئ إذا ما غضب فكتب إليك عن غضبه فإنما هو الرضى.. يريد الاستزادة بما يرضيه.. وخير لك أن تسعفه.. تطوع فكره بالإكثار مما يغضبه لأن الغضب لا يليق بالقارئ فهو أكبر منه.. فالغضب يفوت الكثير!!

بعض الغاضبين من أسباب الغضب فيهم هذه العجلة في القراءة والاستعجال في الإثارة!

الغاضب قرأ وهو واقف.. فجلس ليكتب.. ولو قرأ وهو جالس لوقف احتراماً لما فهم!!

الريحاني أعطانا الفكرة عن القارئ حينما جعله القارئين الاثنين.. قارئ يقرأ له وهو واقف فيضيق.. لأنه ضيق الظرف على نفسه، وجعل القراءة في مكان لا يسع إلا رجليه.. بينما ما يحمله في يده يحتاج إلى مكان يسع رأسه (!).. وعينيه، وأذنيه، وقلبه!. ليجرب قارئ أن يقرأ بصوت مرتفع

فإنه يفهم بالجرس في أذنه أكثر من الفهم بأنفه . . فالقارئ واقف . . قارئ «على الريحة!» يشم، ولا يرى، ولا يسمع!

وقارئ ثانٍ لا حاجة للتفصيل عنه لأن ما وصفنا به القارئ الأول يعطينا الصورة عن القارئ الثاني، وهو الذي يقرأ جالساً . . يقرأ بكل الحواس!!

وأزيد على الريحاني ـ ثالثاً ـ وأسميه: قارئاً بالمجاملة . . أعني تسميتي له، وإلا فهو ليس بقارئ . . هو ذلك المضحل . . المقحل . . «الفقران» . . قد ابتلانا الله به من حيث وضعه المادي . . في الزمان، أو المكان أو المكانة! . . يمسك بما يقرأ، فلا يكاد يقرأ حرفاً حتى ينحرف مزاجه من التفوق عليه . . ولفقدان التفوق عنده . . فيرمي بما يقرأ، ويسند رأسه على الأريكة، ويأخذ، نفساً من «الجراك»! ويلتفت إلى تابعيه فيقول:

ـ دا ايه . . ؟! . . شيل . . شيل!!

هذا الثالث ليس عدواً للكاتب، ولكنه عدو نفسه . . كتب عليه الحرمان، فازداد فقره، وإن كثر غناه!!

والكاتب الخصيم الصديق . . إن خاصم بالسلب لا يأتى بالنقيض جهرة، فإنه يحرمنا من أفضاله وفضائله . . وبهذا تصبح الخصومة فاشلة، والصداقة مشلولة . . ما ذلك الذي يناقضك . . فإن الخصومة تنقلب إلى تنافس شريف يقوى بها عقل الصداقة، وإنسان الصديق!

من الخيانة للفكر ألاّ تجهر به . . ومن الأمانة للصداقة أن تجاهر صديقك بما تنافسه فيه! . .

عيبنا أننا كثيراً ما نخضع للمجاملة كما نخضع للخوف، وكثيراً ما تكون المجاملة خوفاً من الخوف، وفي هذا ضياع للفكر . . كأنما الكاتب يحجر

على نفسه بما لا حجر عليها فيها!

لا تجزع من قارئ غضب منك، فالمجاهرة منه فضيلة تكشف عن جواب الصداقة لك، واغضب من الكاتب الذي يتوارى لك بك عنك!!

لا تجزع من الغضب فقد استهدفت لأن يقال لك: إنها ضريبة التفوق تدفعها لزاماً.. فالغاضب منك أخذ الضريبة لكنه دفع القيمة!!

● أستاذي الزيدان!!

أنت في الطائف.. تتلطف بجو الصيف.. تطرد ركام الإرهاق.. هروباً من «قرصنة» الحر.. و «لفلفة» المياه المثلجة على ظمأ مرفوض.. وشبع جائع.. ونحن «هنا» نتوق إلى تطلعات أفكارك.. إلى نضج تجاربك الواعية.. تفرغها في الأذهان الشابة فإذا هي حية تسعى في الوجدانات الصاحية.

إنني خجول من إحساسي ظافر بعناد صمتك.. وأنا أقحم قلمي المتواضع.. يسد ثغرة لا يملؤها إلا فيض أسلوبك الواثق من رصانته.. وقوة محجته.. ولكن ما رأي أستاذي في أن جميع حواسي انقلبت إلى «أفواه» تحتج وتلح بالمطالبة: أن عد إلى منبرك «كلمة ونص» بدلاً من فرارك الصغير (!).

أستاذي!!

ما هكذا يفعل البشر.. الذين يشيخون حين يشمئزون من أنفسهم ومن حياتهم.. يفكرون في الانفلات من روتين الالتزام كجزء من نظرة الاعتناء بأنفسهم؟! إن التزامك الفكري.. بما فيه من عملية الخلق والإبداع.. قد عزز انتصار الرغبة.. في استمرارية الكتابة عند تلامذتك.. وأنا منهم ـ ولا

فخرا! ـ لكن مسألة «التوقف» غير العادي قد يعكس انطباعاً مغايراً لهذا المفهوم . . يكسبه عنصر التراضي .

أستاذي!

في الوقت الذي تعودت فيه أن تسمع ما كتبته أنت . . في صدر ليل عبر أسلاك التلفون . . بدأت أنا في صياغة هذه الرسالة أحوجتنا إليه تركتك الثقيلة علينا إذا نحن تحملنا تبعاتها . . الخفيفة علينا إن نحن تلقيناها من وحي مشاعرك (!).

ومعذرة إن جاءت غير متناسقة العبارة ذلك لأن العبارة نفسها حيية لا تود الاقتحام أو الطول . . الأمر الذي جعلها أشبه بفتاة لبست «الخمار» لأول مرة وكلما حاولت الاعتدال في مشيتها . . أربكتها كثرة التسوية في «الخمار» النافر!

وعلى كل فهي وليدة «الزحمة» . . والغريب في «المزحوم» ـ كما تعلم ـ أنه لا يستطيع أن يفلسف الأشياء على حقيقتها . . ولكنه يتصرف بذهن عاثر . . حسبما اتفق . . وهذا الفراغ هو رأس الزحمة في رأسي . .

ومع ذلك نحن في انتظار ما يدفع عنعنات هذه الزحمة . . ولتكن أنت أستاذي!

علي مدهش

- كلمتي اليوم مستعارة . . لن أجد أحسن منها .

كاتبها لامنا على القصور والتقصير حينما لم نواكب ما كتب عن صندوق الطالبات تجمع فيه التبرعات والاشتراكات في كل مدرسة للطالبات تعين من يستأهل العون . . تأخذ بيد العاجز، وتكسو العاري، وحتى لتشتري الدواء إلى مريضة!

صندوق سيكون صغيراً أول الأمر لكنه سيكون كبير الأثر، والتأثير في التوعية لقيمة التعاون.. لمعنى الإحسان، وقد يكون منه مشروع لتكبير المدرسة، أو لأي شيء آخر..

لقد استعجبت الملامة فعلى أقل تقدير أشعر بأني قد وجدت قارئاً أحس بألم الآخرين، أو بنخوة الآخرين، فأنكر علينا ألاّ نتألم مثل ألمهم، أو لا تكون لدينا النخوة مثل نخوتهم.. أتقبل ملامته، ولا أريد أن أرشده إلى أني كتبت عن هذا الموضوع في يوميات أواكب بها الداعية لذلك الذي أحب أن يجرب نخوتنا..

هو الكاتب الذي أثار الموضوع صاحب «الظلال».. أستعير هذه الرسالة مستأذناً الصديق عبد الله جفري في أخذها منه لأنشرها كدعوة لهذا المشروع، وكشكران لكاتبها الذي لم يرسل كلمة فقط وإنما قرر تبرعاً منه شهرياً، فهو بذلك خير منا نحن الكاتبين.. هو كتب الكلمة، ويدفع المال.. أما نحن فليت يسعدنا النطق على رأي المتنبي.. وكما تحملنا الملامة لأنه ظن أنا لم نكتب، فليتحمل مجتمعنا ملامته لأنه لم يتحرك!.. وهذا نص الرسالة:

أخي العزيز عبد الله جفري المحترم

تحية صادقة:

من أسبوع وأنا أتابع بلهف وقلق ردود الفعل المختلفة لمشروع إنشاء صندوق الطالبات، من خلال متابعتي ليوميات أمس الخميس أدركت العقم الإنساني الذي يعيشه مجتمعنا.. مجتمع القادرين والموسرين حتى الأقلام المؤثرة في يوميات عكاظ «الزيدان، المناع»، أصابها العجز عن ملاحقة فكرة المشروع وتناوله بأي شكل إيجابي، فالاستجابة للجديد لا يأتي بسهولة!

من أعماقي أهنئكم وأهنئ أصحاب القلوب الطيبة الذين صفقوا للفكرة والمستجيبين لها، وأرجو أن تثبت الأيام القادمة أن الخير ما زال يورق بين أضلعنا، يعشش في قلوبنا . . وأنا على استعداد للتبرع بمبلغ «٢٥» ريالاً شهرياً لعام كامل لأول مدرسة تبدأ في إنشاء صندوق . . وسؤال بسيط: ماذا يضير مدرسات كل مدرسة لو تبرعن بمبلغ خمسة ريالات شهرياً بالإضافة إلى تبرع بعض الطالبات؟. إن مثل هذا الشعور من المدرسات يوجد الصدى الإيجابي التنفيذي لهذه الدعوة والسلام.

المخلص . . سليمان سالم با جعيار

● رسالة جاءت إلى صديق كاتب . . دفعها إليّ فقرأتها . . وقلت: هذا أب قد كرب من ابن أو أبناء، فأخذ ينشد الشعر، ويناشد الأصدقاء أن يكونوا معه، وسمع الصديق ما قلته له تعليقاً على الأسطر المغفلة من التوقيع والمشفوع بها هذه الأبيات من الشعر.

ـ فقال: أنا في ظرف كما تعرف لا أمارس فيه هذه الشكوى، وفي حال أكره من أب أن يشكو ولده! أفلا تقبل مسؤوليتي أمام كاتبها فتكتب أنت، ولو ليشعر بأن مشاعرنا معه؟

ـ قلت: سأكتب وأنشر القطعة (الشعر) على شرط واحد: هو ألا يعتبر نشري لها تأكيداً لموقفي كله، فقد يكون عليه بعض الأسباب التي حملت الابن ومن إليه على الخطأ معه.

فالسماع من لسان واحد بأذنين اثنين فيه إجحاف بالآذان، فعندي كأي إنسان أذنان فلا بد أن أسمع من لسانين، ليمسك الأب بذراع ولده ويطلبنا نتكلم كما يتكلمان ونسمع ما يقولان ثم نصلح ذات البين، أو نحكم لواحد من الاثنين، على واحد من الاثنين.

وسلم الرسالة ومشفوعها لأتولى نشرها دون أن أعلم اسم صاحبها، لعلّه يسر أو لعلّه يراجع نفسه، أو أن ولده يقر فيراجع موقفه، ليعدل ويعتذر.

وإليكم القطعة الشعرية، فالمشكل قديماً مع قلة المعوقات والعقابيل هو المشكل نفسه مع كثرة العقد والمتناقضات وتضخم الدريهمات أو قلة الشيكات أو ندرة الصلة القلبية بين واحد في بيته وآخر يجاوره في غرفة:

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً ... تعل بما أحنو عليه وتنهل
إذا ليلة ضاقت بك السقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهراً أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طرقت به فعيناي تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أأمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي ... فعلت كما الجار المجاور يفعل

ويرحم الله المتنبي.. تجده في لسانك حينما عليك شيء في وجدانك.. حتى الوجدان ينبح؟!

نعم.. إنه ينبح صراخاً من فحيح الآخرين.. المستقدمين مما هو هين.. والمستأخرين عما هو غال وبين..

المتنبي يقول:

وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم

ويقول:

إن مـــن الـــقـــريـــظ هـــذاء لـيـس شـيـئـاً وبـعـضـه أحـكـام
مـنـه مـا يـجـلـب الـبـراعـة والـفـضـل ومـنـه مـا يـجـلـب الـبـرسـام

أي إن البراعة والفضل يجلبان الحكمة في المنطق والزين في الكلمة والحصافة في الفهم. . والنظافة في السلوك.

أما البرسام سواء أكان انفصاماً أم ازدواجاً. . أم ورماً فهو جالب الغث المغث. . والكدر المكبت والسلوك الأعرج.

تذكرت المتنبي وقوليه وشعره. . حينما أسمع القاعدين غير المقعدين يتنفجون على الماشين في طريق لم يصل إلى ما جمعته يتيمة الدهر. . ولم ينحدر إلى كلمة عهر. . فالناصب نفسه قديساً وهو سروق. . هادياً وهو ضال. . نغل ينبح بالغل على الذين نشأوا في حجر أب صان. . وخائن أعز وبيئة لا تعطيه الفضلات في قدح. . لا يخلع مئزره إلا إذا شرى له مئزراً آخر.

أيها السروق. . حاسب نفسك قبل أن تحسب على الناس عيوبهم.

واستغفر لذنبك قبل أن تعدد على الناس ذنوبهم.

أعرفك. . لو أمكنك ألا ترى قلماً يكتب ولا عيناً تقرأ. . ولا أستاذ يعلم، كأنما الدنيا ستعمر بك لا بغيرك.

لقد أرجعتني إلى ما أكره. . وأنا على يقين من أنك لن ترجع إلى ما نحب، فأنت قد حرمت من نعمة المحبة. . تورمت في أوداجك وتضخمت فيه. . أنت لا تجرؤ أن تقابح. . أو أن تصارح ولكنك وسواس خناس!

● لو قلت لكم: يا قرائي حاذروا من القراءة. . لكنت مناقضاً

لنفسي.. فكثيراً ما قلت لكم اقرأوا، ولكني اليوم ـ وقد تمرست بالقراءة سنين طويلة ـ قد فجعت في نفسي.. بكلمة قرأتها في الرواية «الشك لكولن ويلسون» قارئ مثلي يزعم أن الأساس لديه متين، فلا يبالي أن يقرأ أي شيء.. تأتي كلمة تخلخل وجدانه.. تبعث الانشطار في فكرة.. الندم على ما فات منه؟!

كم هو الحرف خطير.. كم هي الكلمة مؤثرة! في هذه الرواية كلام كثير عن لسان اليهود الذين تفلسفوا لا ليرسخوا شيئاً في الحياة وإنما ليرسخوا شتات الفكر.. ملكوا قدرة الكلمة.. لا يرسلونها هكذا، وإنما هم يعبرونها ليعبروا عليها بقانون العلم.. بقوانين الطبيعة.. لقد استخدموا البيان في أروع صورة. واستخدموا العلم في أقسى تصويره ليكون التأثير عاطفياً بالبيان.. عقلياً بقانون العلم!

الكلمة هذه عن الأنانية.. حب الذات، أنا ومن بعدي الطوفان.. «إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر!..».

تقول هذه الكلمة: في الأنانية تفوق الإنسان.. نجاحه، لا يمكن للإنسان أن ينجح دون أن يكون أنانياً!

من هذه الكلمة تخلخل وجداني.. ندمت على أن لم أكن أنانياً.. لأعيش الراحة «التحتانية» خير من هذا التعب الملذ باللذة «الفوقانية» الأناني جماع.. كسيب.. واطئ.. يدهس من في طريقه لا يبالي.. من هنا تتجمع لديه الحصيلة المريحة.. «التحتانية» والمؤثر على نفسه.. المشغول بالناس لديه المتعة «الفوقانية» ولكنه مرهق بالألم المادي.. «التحتاني»!

لقد انتزعتني كلمة الثناء على الأنانية لأفكر ساعة في الأمنية ليتني كنت الأناني وقد ملكت تحقيق أغراضي.. ليتني لم أكن «لغيري» حينما رفضت

أغراضاً تتحقق بالأنانية! إني أصبحت أخاف القراءة فخافوها معي!

لا . . لو لم أقرأ لما عرفت ما أنا فيه من لذة «فوقانية» لأرفض الراحة «التحتانية»!!

● صاحب الفضيلة نائب الرئيس الأعلى لمدارس البنات . . متعه الله بتوفيقه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد، فمعرفتي لما لفضيلتكم من مكان كريم، ومكانة في نفوسنا صوناً وعفة وكرامة ورعاية لمسؤولية أنتم جديرون بها . وأنتم القادرون على الحفاظ عليها، تجعلني أكتب هذا الخطاب مفتوحاً واضحاً، نص كتاب وصلني يهمكم أمره .

وإني لأعلم أنكم تدركون عقابيل الروتين الصارف نفسه لإجراء المعاملات والمتصرف بكثرتها عن إنجاز ما يهم الشاكيات إنجازه .

روتين لا تقع تبعة ما يتأخر به على واحد، وإنما هو على كثير من العاملين، فأكثر ما يتساءل الرئيس عنه . . هو أقل شيء يقع في مسؤوليته المباشرة، لأنه من عمل الموظفين، من عمل الروتين، لا من عمل الرؤساء . .

وإليكم نص هذا الخطاب، أنشره راجياً إيجابية الطلب إن كان حقاً، أو إيجابية السؤال إن كان باطلاً، وأحسب أن الكريمات، لا يطلبن إلا ما هو حق لهن .

أرجو إذا ما قرأتم النص، أن تشمل الطالبات بعين راحمة، فأنت أب وراع .

والدنا العزيز محمد حسين زيدان الموقر،

تحية وتقديراً،

وبعد فنحن طالبات المعهد الثانوي بجدة نتقدم إليكم برفع طلبنا أمامكم للقيام بمساعدتنا في الموضوع مع الجهة المختصة وإعلانه في موضوعاتكم القيمة إما في كلمة ونصف أو مع «الأيام» حسب رغبتكم الكريمة وهو أننا كنا مدرسات بمدارس جدة وعندما فتح المعهد المذكور تقدمنا للالتحاق به وقد قوبل طلبنا بالترحيب وكان دخولنا في أول يوم من رمضان ٨٩هـ، فدخلناه طالبات بعد أن كنا مدرسات، وحيث إن لنا راتب شعبان لم يصرف لنا ليوم تاريخ جوابنا هذا، ومنا من له رجب وشعبان، وقد كتبنا للرئاسة بجدة فأخبرتنا أن المعاملة بالرياض فانتظرنا مدة ليست بقصيرة وكلفنا ولاة أمورنا بمراجعتهم فكان جوابهم كالجواب السابق، وحيث يوجد منا الفقير وميسور الحال بادرنا بالكتابة إليكم راجين منكم مساعدتنا في الموضوع، هذه لا تعد شكوى من الرئاسة أو عدم تقدير لها، حاشا الله بل تذكرة لها شاكرين ومقدرين مساعدتكم ومساعيكم لنا أمام الله توفيقاً بكم.

هذا ما لزم كما نرجوكم عدم المؤاخذة في ذلك، والموضوع تحت نظركم اختصروا فيه ما ترغبونه ودمتم.

طالبات المعهد الثانوي

● وجاءتني هذه الرسالة من صاحب التوقيع.. وقد سبقت منه رسالة نسيت أين ذهبت، لقد كنت حفياً بها، غير أن ضياعها أضاع عليّ التعليق عليها.

ولقد طربت لهذه الرسالة التي أنشرها رغم ما فيها من حرارة.. حرارة أعزوها لصادق الرغبة منه في أن يعرف الحق، ويزيل الشبهة عن نفسه.

والأمر ليس كما ذكر، فلا سر ولا نية سيئة مبيتة ضد سؤاله، أو من

خبث نحو مواضيع تاريخية هي عندي من الرفعة والإكبار والحرص في المكان المصون.

أنشر الرسالة، ليطلع عليها، ثم ليكتب إليّ بياناً مفصلاً بما يريد تصحيحه، فإن عرفت الخطأ أوضحته بصواب، وإن كان صواباً أرجعته عن خطأ، فأنا أحفظ نفسي بشيء من الوضوح، فلا أسعد عندي من لحظة أعرف فيها الخطأ، وإني لأقوى مرة بواحد يريني الخطأ.

إن الصواب نجري وراءه، فلا خير فينا إذا لم نرجع عن الخطأ. . اكتب إلي تفصيلاً. أجبك تفصيلاً.

وهذا نص رسالتك:

حضرة الأستاذ محمد حسين زيدان الموقر،

تحياتي إليك. . وكل عام وأنت بصحة وسعادة، وبعد: يؤسفني أنك لا تجيب على الرسائل التي فيها الحقيقة، أو التي عن الحقيقة؟

إني لم أسأل ما سألت إلا لأصحح به المعلومات التاريخية التي قرأتها في كتابك. . وفي أمهات الكتب التاريخية، ولا أدري هل التشويه فيما قرأته في كتابك أم في الكتب الأم؟

أكاد أجزم لعدم ورود ردك. . أن هناك ـ سراً ـ ينطوي في طياته ما قرأته من تشويهات.

فهلا تكرمت بإجابتي على الرسالة السابقة لهذه، سواء في رسالة أم «كلمة ونصف». . ومهما كان الجواب فإني أتقبله، وإني شاكر لك سلفاً ذلك ومقدر والسلام.

مكة ـ الجودرية ـ زقاق غراب

عبد الله إبراهيم رجب

● ابنتي الحزينة عزيزة أحمد سنبل!!

وتكلمت في التلفون، تسألين عن أختك في الصداقة.. والدرس عائشة.

حسبتك تسألينها عن شيء خاص في الدراسة والامتحان والنتائج.. أو تزفين إليها خبراً مفرحاً عن أختك سميرة.. كنجاحها في دراستها العالية، فوجدتني بكل الجهل لحالك وشأنك، وبكل التسرع في تلقف السؤال.. لا لأنه منك. ولكن لأنه من الغالية.. فوجدتني بكل ذلك أجيب بأنها في مكة.. صعدت إليها تؤدي نذرها.. طواف عمرة بالبيت العتيق وإحياء لعلاقتها بتراب أرضها التي ولدت عليه ونشأت فيه.. وحمداً لله وشكره على ما أنعم عليها من نعمة الرضا بما هو لها بما هي فيه.

ووجدتك ترتجفين تخافتين بالإعراب عن حالك، فليس هو السؤال منك.. وإنما هو الخبر عنك وارتجفت السماعة في أذني من ارتجاف الناطقة في يدك، تقولين: قل لها: أبوها مات.. من؟!.. من؟! أنا أبوها ولم أمت بعد.. فال خير.. فالموت حياة فيه النجاة من الحياة الدنيا إلى حياة عليا. إلى رحمة نرجوها من الله.. في اليوم الآخر.

فلولا تكاليف العلا ومغارم ثقال.. ولولا بنيات كزغب القطا، لاستراح الإنسان إلى خير الموت.. فلا طعم لحياة لا حياة فيها.

وسمعت الصمت المتحشرج بالجهشة كأنما تسيل الدموع.. في تلافيف سلك.. في نبرة كلمة منك.. قلتها أنت: أبو عزيزة مات.. أبويا أنا.

وأجهشت تبكين.. فهل تجدين فيَّ راحماً كأبيك.. لتبكيني.. لعلّك لا تدرين أنني لم أبك معك.. وإنما هو الشيء أشق من البكاء.. هو التفكير لا بحزنك اليوم ولا بحزن سميرة.. ولا بموت أبيك.. وإنما هو

الحال الذي تسيرين عليه مع أختك لرعاية أخيك. . للعون. . كل منكم يصبح يد الآخر وقلبه وعواطفه ولسانه وماله.

وأمضّنى هذا الفكر. . ألقيت الكتاب الذي أقرأ فيه. . والملهاة وكل ما يشغل لانشغل بك. . شيء واحد طمأنني. . هو أن أباك يرحمه الله كان رجلاً من الجيل القديم «دقة قديمة» له شيمة. . يعرف المسؤولية. . يتحمل أعباءها. . يعرف الشرف. . شرف شعرة الوجه، فغرس الحب فيكم لأنه كان يحبكم جميعاً، يتحدث عنكم بفخر وفرحة.

هذا الحب غرسه أبوك. . فيه الإنقاذ والوقاية. . لأنه يجعلك أنت وأختك وأخاك ومن إليكم تحرصون على ألا يكون بينكم خلاف على شيء. . «مغراف» أو «خصفه» أو «جلالة» أو عقار أو درهم أو دينار كلكم لبعض. . وكل البعض لكم.

أخوك سيكبر ويكبر بعطفك عليه وحنانك. . وبالسماحة معه المسامحة له. . فلقد مات أبوك وهو يحيا في حبه لبنيه. . فما من إنسان أحب بنيه فصانهم وعلمهم إلا ورثهم الخير والثقة. . يرحم الله أباك. . فقد كان في شبابه شرساً يبتعد عنه الناس حتى إذا شاب واكتهل اكتمل بالحياء بالصلاة. . للخير.

وأنا على يقين أن الله سيحفظكم جميعاً. . وأسأله أن يحقق فيكم رحمة في قوله تعالى ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء: ٩).

لكم العزاء. . ولسميرة تحية أشد على يدها لئلا ترضخها المحزنة فتعدل عن دراستها. . فقد كانت أمل أبيها. . تكلف في سبيلها ما طاق وما لا يطيق، يرحمه الله.

● وكم كان سروري كبيراً، وشكري كريماً لهذه الرسالة التي أجاب بها صاحب الفضيلة أستاذنا وشيخنا ناصر حمد الراشد الرئيس العام لتعليم البنات.. أنشرها بنصها وتاريخها مكبراً هذا الخلق نتعلم منه، ويتعلم الآخرون احترام الكلمة الصادقة في سبيل الصالح العام.

لم يجزع، ولم يغضب، بل تكرم بهذه الإجابة تحفزني أن أطيق الشكران، وألا أعصي طاعة لأمثال هؤلاء الطالبات المعلمات المتعلمات.

ولم أكد أكتب هذه المقدمة حتى دفع إلي مدير التحرير الأستاذ عبد الله الداري هذه الرسالة من مدير تعليم البنات بجدة.. أنشرها بعد رسالة الرئيس العام ليعلم فضيلته أسماءهن من الأخ عابد عجيمي.. وليعلم تأكيداً بأن الصرف تأخر حتى إنه لم يصرف إلا قبل كتابة كلمتي بأيام.. ملاحظاً أني لم أتأخر عن نشر الرسالة ليقال إن فوات الوقت كان من تأخير النشر..

وإليكم الرسالة الأولى، وبعد الثانية شاكراً وداعياً للجميع بالتوفيق..

حضرة الأستاذ الفاضل الأخ محمد حسين زيدان..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

أطلعنا على ما كتبتموه في جريدة عكاظ عدد ١٦٥٧ في ٢٥ ـ ٢ ـ ٩٠هـ تحت عنوان «كلمة ونص» حول طلب طالبات المعهد الثانوي بجدة صرف ما تبقى من رواتبهن قبل التحاقهن بالمعهد.

نشكركم على اهتمامكم لخدمة الصالح العام، ونأمل موافاتنا بأسمائهن لنتمكن من معرفة من بقي لها استحقاق لتعميد الجهة المختصة بصرفه وبالتالي مناقشتها عن أسباب التأخير عندما يتأكد لنا هذا.. ولكم تحياتنا..

الرئيس العام لتعليم البنات

ناصر بن حمد الراشد

ـ المكرم رئيس تحرير جريدة عكاظ المحترم . .

بعد التحية

أطلعنا على ما نشر بجريدتكم بالعدد رقم ١٦٥٧ الصادر بتاريخ ٢٥ ـ ٢ ـ ٩٠هـ في «كلمة ونص» في رسالة موجهة للأستاذ محمد حسين زيدان من طالبات المعهد الثانوي بجدة اللاتي كن يعملن في السابق مدرسات وقدمن استقالاتهن للالتحاق بالمعهد الثانوي وشكواهن من تأخر صرف استحقاقهن عن شهر شعبان ٨٩هـ وقبل نهاية الشهر المشار إليه بأربعة أيام قدمن استقالاتهن ورفعت لسماحة الرئيس العام لتعليم البنات لإصدار قرار طي قيدهن، وطبيعياً ترتب على ذلك تنزيل استحقاقاتهن لعدم استحقاق غالبيتهن لشهر شعبان كاملاً.

وبعد صدور قرار طي قيدهن اتخذت الإجراءات لتحقيق أيام الغياب التي تغيبتها كل واحدة منهن دون عذر من تاريخ بداية العام الدراسي الحالي إلى تاريخ طي قيد كل منهن تمهيداً لإصدار قرار بحسم مدة الغياب . . وبعد تحقيق ذلك أصدر قرار الحسم وبلغت الجهات المختصة به، وجرى إعداد استحقاق كل منهن ضمن أقساط شهر محرم ٩٠هـ واستلمت كل واحدة ما تستحقه كاملاً قبل أسبوع من تاريخ صدور هذه الجريدة، ولذا جرى تبيان ذلك آملين التكرم بنشره في نفس المكان الذي نشرت فيه الشكوى، ولقد كان بودنا لو تكرمتم أو تكرم أستاذنا الكبير محمد حسين زيدان فأحيلت إلينا الرسالة قبل نشرها لأفدناكم بما يهمهن عن الموضوع. والله من وراء القصد وبه التوفيق . .

المخلص

مدير تعليم البنات بمنطقة جدة

عابد عجيمي

حكايات وأسَاطير

● حكاية إذا ما قرأتها عرفت المراد منها، نسردها بتعليق!

ـ قالوا: إن حلبة المصارعة بين فارس وبين ثور، هي نفسها حلبة المصارعة بين إنسان وإنسان.. بين دول قوية وشعوب ضعيفة، لا يشغل النظارة أنفسهم إلا بالتصفيق للبطل المنتصر، سواء كان مصارعاً أسقط ثوراً، أو إنساناً طرح إنساناً أرضاً وأوجعه ضرباً، أو دولة قوية تقتل شعباً، وتحرقه بقنابل النابالم، أو حتى بقنابل تحمل الميكروبات.

فالهتاف هو الهتاف، والنظارة تحجب عيونهم وتطمس أفئدتهم بهارج الزينة وأكاليل الغار على هامة المنتصر.

كأنما التصفيق من أفراد أعدوا لذلك، هو جالب التصفيق من الجميع.

لأن النظارة رعاع كجماعة، تخفي ميزة الفرد إذا ما استقل بنفسه وسط هذا الطغام من الناس. فالواحد الممتاز في جماعة غوغائية، هو واحد منهم. بطغيان التلقائية والمشاكلة، وإيحاء التداعي فكرياً مع أفكار الهاتفين..

وضربوا لذلك مثلاً في هذه الحكاية..

قالوا: تجمع النظارة في حلبة المصارعة ليشاهدوا بطلهم المزخرف وهو يقود ثوراً، يتحرش به ليصرعه، ونزل الفارس ووقف يهارش الثور بخلق

أحمر، ولم يفطن واحد من الآلاف المؤلفة إلى عرج في رجل الثور.

كلهم هاتف للفارس.

غير أن شاهداً جلس لتوه فشاهد عرجة الثور، فصرخ: إن المصارعة غير متكافئة، أوقفوها. . الثور أعرج. .

لم يسمعه أحد، كلهم غارق في الهتاف.

وصرخ، وصرخ، لم يسمعه أحد.

لكن صراخه لفت رجلاً ثاب إلى رشده فناداه يسأله: لماذا تصرخ؟. .

ـ قال: المعركة غير متكافئة، فالثور أعرج.

وكان السائل رجلاً يملك المنع للمصارعة، وإيقافها، فأوقف الفارس، وأنقذ الثور.

ثم التفت إلى هذا الصارخ يسأله: كيف رأيت وحدك أن الثور أعرج؟

ـ قال: جئت قبل أن أغرق في زحمة المشاهدين. فرأيت العرجة في الثور.

ـ قال الوزير الأسباني: إن غيرك لم ينتبه وهم آلاف. .

ـ قال: كانوا منساقين بفكر أعرج، وعين عوراء، لم يفكروا إلا في القوة والقوى، لم يروا إلا المصارع وحده. .

فتنة القوة. . عرج النظرة الأولى دون تمعن، دون التفات إلى ما وراءها.

وهكذا كل النظارة اليوم يعرجون بعواطفهم، يفكر الفرد منهم بالرفض لطغيان القوة وحده، ويهتف لها مع الجميع!!

● قرأت في عكاظ اليوم الخبر عن قيمة إنسان بسعر ثمانية عشر شلناً، دولاراً، ريالاً، فرنكاً، درهماً.. العدد ثمانية عشر واسم العملة يسمى به الرقم تبعاً للبلد الذي سعّر قيمة هذا الإنسان..

وقد يكون الخبر غريباً اليوم.. ونشر لغرابته وندرته في هذا الزمان.. ولكنه في التاريخ له نظائر وأشباه.. تروى كالأساطير لا يكاد القارئون يصدقونها..

وكم هم العظماء الذين جرى عليهم الرق بالثمن البخس دراهم معدودات.. لكن الحقائق تدمغ الأسطورة..

فهذا رسول الله ونبيه يوسف الصديق.. وبعده بلال بن أبي رباح وبعدهما الملك المظفر قطز.. كلهم بيع في سوق الرقيق..

فالحقيقة أن يوسف الصديق عليه السلام قد بيع بثمن بخس.. دراهم معدودات!.

● الزواج قسمة ونصيب!

كلنا نقول هذا الكلام، ورغم كل المحاولات في دقة الاختيار، وحتى استساغة الرؤيا، فما زال الأمر فيه قسمة، وحظ..

أذكر لتوفيق الحكيم أسطورة قدم بها لقصة قصيرة.. يقول: إن الزواج كقدر وغطاء.. يعني لازم «وافق شن طبقه»!.. فليس كل غطاء يصلح لقدر غير قدره، ثم قال: كان هناك شاب أراد الزواج، وتعب في أن يجد الزوجة، ثم وجد من نصحه.. يقول له: سافر تجد في طريقك زوجتك، وشد الرحال من بلد إلى بلد، وكاد يغرق في سفينة.. غرق ركابها، ولم ينج منها إلا هو، وبضعة أشخاص.. وجدوا غابة شاسعة على ساحل البحر

فلجأوا إليها . . لا طعام معهم . . كان الوقت خريفاً . . الأشجار تساقطت أوراقها . . جاعوا فاجتمعوا في مؤتمر واقترح أحدهم أن ينذروا لله طاعة يؤدونها إذا رزقهم بطعام، وأخذوا يفتشون عن اللحم لعلّهم يجدون أرنباً، أو غزالاً، أو حتى حماراً! . . ولكنهم وجدوا فرخ فيل ـ أي فيلاً صغيراً ـ حملوه فذبحوه . . أكلوا منه إلا صاحبنا لأن نذره نطق به وهو لا يدري . . نذر على نفسه ألا يأكل لحم الفيل . . أكل رفاقه وبقي جائعاً وفاء لنذره، وفي الليل ناموا، وجاءت أم الفيل تفتش عن ولدها تقص الأثر بأنفها حتى وصلت إلى هؤلاء تشمهم فإذا ما وجدت رائحة ابنها رفعت الواحد تخبط به الأرض . . قتلت الجماعة كلها إلا هذا الشاب . . لم تشم رائحة الفيل لديه . . وحملته على ظهرها، وسارت به، واستسلم لمكتوبه ودخلت به إلى مدينة فيها قصر كبير، وأمام القصر وجد عروسه . . قالت له: أين أنت؟ . . إنني أقف أنتظر راكب الفيل . . أنت زوجي!!

هذه الأسطورة ليست كاذبة، فكلنا معاشر الأزواج ركبنا الفيل الذي أوصلنا إلى القسمة والنصيب.

● وأريد أن أغيظ الإلحاد والملاحدة، والشاكين وشكهم فأكتب على فعل الإيمان في بعض النفوس تعود إليهم فتصبح خيرة رغم أنفتها . . رجل بلغ من العلم والعقل مبلغاً صور في نفسه من جهالة الوجدان أو من وفرة الوجود أن ينكر خالقه، معلمه، رازقه، أن ينكر الله فأصبح يجادل ويهرطق فلا يجد يداً تأخذه فهو في حاجة إلى وازع من سلطان لا سلطان عليه من البشر، فجاءه سلطان الله يعلمه كيف يقول: يا رب . . يا رب . . ركب سيارته، ولبس عدة الصيد يسير إلى دغل يصيد فيه الطير والأرنب والغزال وربما الثعالب والغربان!!

وأعطبت السيارة فلم يلتفت إلى قوة تمده من الله.. الطريق قريب سأصل إلى المستراح في الكيلو الثلاثين..

وأخذ يمشي.. يدرك المأمن، فأخذته البغتة من شيء أعمى بصيرته فتاه، ضاع، وحميت الشمس وأدركه العطش، وأغطش عليه ليل من ظلام عين في ظلمة وجدان!!

ولكنها الهلكة أيقظت النائم الكامن في جوانب الإنسان الخفي فيه، فحينما سقط في حفرة قالها وهو لا يدري..

قال الإنسان المنسى حين صحوة الخدر بالعقلانية.. المنسى علمه وفلسفته وجدله حين صحوة العذاب بالهلكة المعطشة:

ـ قال: يا ربي، يا ربي.. مسني الضر، فقالها..

وغشيه ما غم عقله وعينيه، لا يحس بالكرب.. فإذا هو في سرير عليه ملحفة بيضاء وحوله من يعرف ـ فهمس في ذعر وحذر: اين أنا؟ هل أصابني الأسد؟ النمر؟ هل نهشتني الأفعى؟

ـ قالوا له: لا.. لا.. إنها رحمة الله.. لقد وجدناك تجود بنفسك إلا نفساً واحداً حياً في لسانك يقول: يا رب.. يا رب!!

وتكلم حصيف عرف الردة في الناعم البال، ثم عرف في كاسف البال الارتداد عن الردة إلى الإيمان.

ـ قال: اسمع ليست القصة أن وجدناك، وإنما هي في أن وجدتنا.. فلقد تذكرتك، وبشيء لا أدريه سمعت في داخل نفسي من يقول لي: أدرك الأستاذ فهو في كرب كارب.

وبشيء لا أدريه أخذت أسأل عنك؟ فعرفت خروجك إلى الصيد

ووجدت السيارة، وسرت وراء الأثر في جماعتي هذه فإذا أنت في الهلكة . .

حين أشرفت على الهلاك ذكرت الرحمن فأنجاك . .

ـ قال الفيلسوف: نعم تذكرت . . تذكرت . . اشهدوا أني آمنت بالله .

قصة لم أخترعها، أذدرعها، إنما أنا أفترعها في نفوس القارئين، هي من قصص الفرنجة «وقد يحلو لبعض النائمين على عقدة الخواجة . . أن نقول لهم هذه قصة أصلها عن خواجة . . لا عن البسطامي والجيلان» .

فاللَّهم إيماناً راسخاً، إيماناً كإيمان العجائز .

● والوالدان . . أب وأم عز عليهما إنجاب الولد حتى لقد خشي كل منهما العقم!

الزوج الأب يتهم نفسه فيسعى ليستنطق الطب، ليستجديه، ليطلب الشفاء، والأم تلصق العقم بها، فلا تلقى زوجها إلا باسمة تسري عنه، تأخذ العلاج إن هو جاء به وتأخذه إن هي جاءت به ضناً أن يعتكر صفو العلاقة بينهما .

وأدركتهما رحمة الله فأنجبا ولداً سمياه عطاء، وكطبيعة أبوين في مثل حالهما . . تشوقا للولد نشآة في بحبوحة مائعة فانغمس في التدليل والدلع، كل طلب له مجاب ولو عز ولو أضنى ولم قهر . . تعلما من قسوة الشوق ألا يقسو أحدهما عليه وقد كانا في ساعة سائرة . . يملكان من يغنى، ولا يملكان ما لا يفنى .

وكبر عطاء، وتعلم من الحياة ترفها وزخارفها وسرفها فعاش في شباب وفراغ وجدة حتى نال المفسدة أي مفسدة . . أخذ ينفق على صحاب سوء،

وأتراب فاسدين مفسدين فأضاع المال وكشف الحال.. باع وباع وأتلف وأباد.. والأم تعطيه وتستره فإذا ما ناقشها الأب أو نصحها أحد، قالت: الله يهديه.. هو أعطاه، وهو هاديه.

وأخذ السرف إلى أن باع أمه في سوق الرقيق ليشتري ما يتلف، وكان من بين ما شراه من ثمن أمه حذاء لماع.. وحين جرها النخاس قالت: الله يهديه، ولم تبح بأنه ولدها!!

وباع أباه ليشتري بزة غالية وكأنما عمي على أبيه فدعا له كأنه الأم.. الله يهديه. وسار في طريق يتيه بلباس فخم.. ورآها فتاة اختارها.. تشترط على خاطبها أن يجيب عن سؤال تسأله فإن عرف تزوجته، وإن عزف رفضته، وسلم عطاء عليها، ولم تكد تسأله حتى عاجلها بسؤاله..

ـ وقال لها: أنت لا تقدرين على جواب لسؤالي، وأعماها حظه المكتوب أن تكون صاحبة السؤال، وكان موقف التحدي هو الذي جرها لأن تقول: اسأل؟ اسأل؟

ـ وقال عطاء: هل تعرفين رجلاً يمشي وهو يدعس أمه وهو لابس أباه، فضاقت ذرعاً، لم تعرف ولم تدر.. وهنا ضحك عطاء.. أنا الرجل.. هذا الحذاء هو ثمن أمي بعتها فأنا أدعسها. وهذا الثوب ثمن أبي فأنا لابسه، وكأن شيئاً هفا بها إليه. فقالت: أنت هو، أنت هو، وتزوجها، فإذا به يهتدي.. يغتني.. يشتري أمه وأباه ليصبحا سيدين لينعما بولد اسمه عطاء وبأحفاد.

قصة لا نغري بها عاقاً، وإنما هي حكاية أم تبعث العزاء في نفس زوج رأى القسوة من ولده.

● قصة قرأتها قديماً.. بطلها، أو أبطالها، أربعة: سري كبير، وثري

«كونت» وصعلوك فنان بعد موته سيصبح أكبر من كونت. . عطاء الفن! . . وزوجة شابة وكلب. طراوة الكونت، وترفه والفروسية، وأخلاقها، وحب التزين جعلته يشمل الفنان بعطفه. . يدخل بيته، ويطعمه، ويعطيه، وكان «الكونت» في حفل مدرسي قد رأى فتاة، فأحبها، وتزوجها وعاشا زوجين سعيدين أنجبا طفلة، والشاب الفنان أصبح يدخل كأحد أهله، وكأنما علق بالزوجة، ولعلّه حسب ما تضفيه عليه من عطف وتقدير عاطفة، فأسر في نفسه المنية أن تكون له! . . ولكن. . كيف؟! هذا ما لم يفكر فيه. . كل ما صنعه هذا الحال أن زاد حوافزه. . جعله فناناً أكثر. . صناعة الحب ترفع وتضع!

وجاء طاعون في نابولي، واحترس أهل البيت من الاختلاط لكن الكونت خرج لأمر عاجل ولم يكد يرجع إلى بيته حتى شعر بالإصابة؟! . . حملوه في تابوت مسمر. . أودعوه في المقبرة، لكن الحياة ذات أعاجيب. . لم يمت الكونت. . أفاق من أصوات يسمعها في الكنيسة، فاحتال حتى خرج من التابوت، وتسمع إلى الأصوات، فإذا هم سراق يخفون المال في خربة جانب الكنيسة.؟.

رصد مكانهم. . لا يشغله المال فعنده الكثير وذهب يجري إلى البيت في شوق إلى الزوج، والطفلة، والحديقة، وضحكات الفنان، وجد الباب مغلقاً، فدخل الحديقة من الخلف، ويا لهول ما رأى! رأى الحبيبة الزوجة في أحضان الفنان في غزل، فرجع القهقهرى لأنه مات في نظرهم. ذهب إلى الكنيسة، وأخذ المال، وتنكر في ثوب كونت جديد، فالمال أعطاه القيمة الجديدة، واحتال على صداقة الفنان، ليدخله بيته الذي أضحى بيت الفنان، ودخل مرات، وكاد يفضحه شعور الطفلة، وكاد يفضحه وفاء

الكلب، لكنه قال إني أكرم هذا الكلب فأحبني، وكانت الطفلة تجلس في حجره، فقالت له مرة: ارفع هذه النظارة عن عينيك لأراهما.. خشي المكاشفة الفاضحة، فالعينان هما سمة التسمية.. الدالة على الإنسان.. لا وجه دون عينين؟.. واحتك بالشاب. قال: إنك إنك لا تصلح لهذه.. سآخذها منك ـ يعني زوجته ـ أراد أن يثير غضب الفنان حتى كربه بالتحدي، فبارزه.. كان فارساً.. أما الفنان فلا.. وحين أسقط السيف من يد الفنان وأسقطه على الأرض رفع النظارة، فمات الفنان من المفاجأة.. تركه وذهب إليها يخطبها، ورضيت به زوجاً ثانياً مع أنه زوجها الأول، وفي حفلة العرس في الكنيسة وبجانب التابوت رفع النظارة فصرخت تسقط هلكى.. ماتت.. قتل اثنين بشيء اسمه الصبر، بشيء اسمه الحب!!

● رأته يأكل فضلات السفرة ـ يقمها في كشكول معه، يأتي كل وجبة طعام إلى فناء دار كبيرة يفعل ذلك، تعود عليه، وعرف أهل البيت هذا المسكين فأصبحوا يلقون بها إليه. أو لعلّ أهل البيت لا يدرون عنه، إنما هو الخادم يفعل ذلك!.. بقية من الخبز، أو هي بقايا الفاكهة مليسة على قشورها.. بعض اللباب زادت عليه عضة السكين فعلق بقشره.

ونظرت إليه تحدق! شيء شدها إليه.. بعيد أن يكون هو!! ماذا جرى له حتى تبدل فرضي بهذا الطعام؟ أين ماله وترفه ودالته وغضبه وقرفه؟ ودنت تقرب منه تفحصه.. لقد كانت تعرفه شاباً نشأ في رغيد العيش لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب!! وهذا عجوز تهدل، قد ركبته أعوام، أعوام أكثر من أعوام تعرفها له لو كان هو!!

وسألته: نجم؟ نجم؟ ولعلّ غيرها سأله فأنكر أنه نجم ولكن صوتها أحرجه.. أذهله، فأخرجه من نكران إلى اعتراف، فلم ينكر أنه نجم.. قال

نعم أنا نجم، وأنت كوكب!!

أأنت في هذه الديار؟

ـ قالت: نعم، وسيدة بيت، نعيش في عز القناعة ونعمة الرضا وشكران النعمة أقيم مع زوجي يسترني بالحب أنا وعياله وعيالي!

لا يرهقه بطر بزوال النعمة، ولا يشينه صبر يخجله من أحد. . البطر ولو أفرح وأزهى نقمة، والصبر ولو أتعب نعمة.

أتعرف ما أوصلك إلى هذه الحال؟

إنه البطر. . كنت تركل كل شيء برجلك، لا يعجبك طعام أهلك فتركض إلى الأسواق تأكل بترف وسرف، لقد رأيتك تطأ رغيفاً على السفرة لأنه «ملدوع» تسميه محروق. . شيلوه، شيلوه، إنك اليوم تشتهي هذا الرغيف!! يومها تشاءمت فبكيت، فلم أخف عليك، وإنما خفت النقمة. . وذهبت أنت بالبطر تفتش عن ملذات حتى نهبت مال أبيك، تركته دون شيء، وبقيت أنا أختك أرعى أماً وأباً حتى ماتا في حجري ودعائهما لي. . اللَّهم أسبغ عليها نعمة الرضى وكساء من الستر.

ولقد كسيت الستر بهذا الزوج. .

أتعرفه؟ إنه خادمنا «نادر» هو الذي أكل العيش المحروق الذي رفضته، ضمه إليه وقبله ثم أكله. .

أوصاه أبي بنا. . وأوصاني أبي أن أتزوجه قال: تزوجي يا كوكب هذا الإنسان الشكور، فالشكور مستور. . وأريد لك الستر.

وجاء طفل يركض «أبويا جاء» فأخذ نجم كخال يقبل الطفل، فأخذه الطفل إلى نعمة الرضا وكساء من الستر.

وفي ليلة مات على حجر أخته، وهو يقول: ربي أسألك الرحمة.. الرحمة. فقد كنت جانب النقمة لأسرة سترها الله دون أن أكون معها. بل كنت عليها، اللَّهم الرحمة..

● الأسطورة قد تعني أنها الحقيقة في زمانها الغابر، فكثير من الحقائق التي نشاهد، اليوم كانت خيالاً معروفاً في البعد عن تصورنا، فلو صغنا عنها كلاماً قبل أن تكون واقعاً لكانت أسطورة وحكاية، نعجب بها، ونستغربها.

ـ قالوا: إن شمر برعش أحد ملوك التبابعة من حمير قد ذهب بعيداً في الغزو والفتح كان الموجة العربية سباقة.. موجة أثر موجة حتى وصل إلى حدود الصين كما هو قتيبة بن مسلم.

وزعموا: أنه لما وصل إلى سمرقند هدمها ثم أمر ببنائها ثم توجه إلى الصين فخافه ملك الصين خوفاً عظيماً، وعلم أنه لا طاقة له به، فجمع ملك الصين وزراءه فاستشارهم ـ قال: لقد أقبل هذا الأعرابي ولا طاقة لنا به فماذا ترون؟

ـ فأتى كل واحد منهم برأي وبقي واحد منهم لا يتكلم فقال: ما تقول؟

ـ فقال: أرى أن تظهر الغضب عليَّ وتجدع أنفي وتأخذ دوري وضياعي وأملاكي ودوابي وعبيدي حتى يعلم الناس بذلك، فكر ملك الصين لعظم حال ذلك الوزير عنده، فيعذره ذلك الوزير حتى ساعده وفعل به ما أشار عليه به.. فخرج الوزير من الصين حتى انتهى إلى شمر برعش فأراه جدع أنفه وشكا إليه ما فعل به ملك الصين، أظهر لشمر برعش النصيحة فجعله شمر برعش من خاصته ثم احتاج إلى دليل يدله إلى الصين

المفازة العظيمة التي دونه، فقال وزير ملك الصين لشمر برعش: أنا الدليل أيها الملك هل تجد من يعرف هذه المفازة مثلي فنهض شمر برعش بجنوده يتبعون ذلك الوزير فسار به على غير الطريق حتى بعدوا بعداً عظيماً عن الماء وأشرفوا على الهلاك وأيقنوا به ونفد ما معهم من الماء.

ـ فقال شمر: أين الماء؟ فقال الوزير: لا ماء ها هنا إلا الموت!! أردت أن تهلكنا وملكنا وتقتل رجالنا وتسبي ذرارينا فوهبت نفسي لأهل بلدي ووقيتهم من الهلاك بنفسي فأنت ومن معك أحق بالهلاك، وقال لجنده ـ توجهوا أينما شئتم، وفرش له درعاً من حديد وظلله بدرقة من حديد، فتذكر عن ذلك قول قوم من المنجمين حكموا في ميلاده أنه يموت في سقف من حديد وفراشه من حديد، وذهب كل منهم على وجهه فهلكوا في تلك المغارة، وتناثر من جنوده ثلاثون ألفاً فوقفوا في أرض فيها الشجر والماء والنخيل وهي بلاد التبت التي يجلب منها المسك فتملكوها وتوطنوها، وبعدت منهم أرض اليمن فسكنوا بها إلى اليوم، فزيهم زي العرب وأخلاقهم أخلاق العرب، ولهم ملك قائم بنفسه منهم، وهم معترفون أنهم من العرب، ثم من اليمن وهم يحبون العرب حباً شديداً!!.

حالات نفسية

ـ لو تركت لنفسي سأمها لوجدتني استهلك المسرة في احتراق.. استنزف كل طاقة، إرهاقاً للإرهاق، وكسباً لوقت سيضيع بسقوط السأم.

الوقت.. السأم عاملان في صناعة النفس القاذفة كل ما تملك من مثل. لتقتني اللذة وامتصاص المشتهى حتى لا يفوت.

والوقت.. التأمل.. عاملان في صناعة النفس العازفة عن الاحتراق في أتون المشتهى.

من هنا تجيء كل الكوارث في المعجلين الذين يريدون أن يغنموا تغطية السأم بطرده كوهم ركبه فيهم الإرهاق.. كأنما هم يصنعون إرهاق الإرهاق، بقتل الرمق الأخير من التأمل والتوبة ورخاء النفس ورفض الإرهاق.

كل الشباب في هذا العصر جاءت بلاياه، ورزاياه من القلق والسأم، يحاول طردهما بطرد نفسه إلى حريق.

إنك لو شئت أن تستريح قليلاً بضحكة لوجدت من يحرقها في نفسك بكشف أسبابها.

إنه لا يدري أنها من عمل الطرد للسأم، أو أنها من عمل الفقدان لشيء تريده الأقوى في طرد هذا، المسئم لك بسؤاله سواء بلسانه. أو بعين

رامشة. أو بغمزة هازئة يرسلها في غفلة الضحكة.

هو نفسه يفعل ذلك بالدوافع نفسها التي فعلت بها الضحكة، حتى بكاؤه بدمع الضحكات. ما هو إلا نوع من السؤال الطارد لا السؤال المستعلم.

لم يمض على الإنسان زمان. وجد الشيطان سبيله الناصر له. إلا في هذه الحقبة.

كأنما السأم شيطان جديد أبرع من الشيطان نفسه. يستمرئك اللذات والشهوات باسم الطرد لها.. بينما هو الاحتراق بها.

قاتلوا السأم بالتأمل والإنابة والصبر، وإلا قتلكم!!

● أخي وصديقي ضياء الدين رجب.

أيها الأب المصنوع من الحنان.. الصانع للحنان.. الدامع في كرب غيرك.. الصابر على كربك.. أسألك هل هناك كلمة تفي بحق العزاء لك في فقيدك الوحيد «حمزة» يذهب في ريعان الشباب بوجه ناضر.. إلى ربه ناظر؟ أم هناك صمت حجر الدمعة أن تفيض لتحرم السافحة من أن تفض حزنها.. تريد ألا تستريح بالبكاء لأنها غارقة في أحزان الأحزان.. أحزانها وأحزان الأحباب.. أحزانها كثيرة تكبر ولا تصغر، وأحزان أحبابها تأتي مفاجئة لتكبر حتى ليصغر عندها الأكبر.. تدهك النفس مرتين، وتنهك الوجدان في الحالين، وتهتك أسرار الحب باستسرار الحزن المنكفئ على نفسه.. البين دون أن يظهر.. الظاهر لا يكاد يبين!..

ولكنها ـ والحمد لله ـ لن تهلك إيمانها.. ذلك بصبر المؤمنين المتواصين به حقاً.. ينتصر إيمانها بالصبر، ويتضح جلاله بأنه الحق ﴿إِلَّا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ (العصر: ٣).

لا أسألك فيما سبق، ولكنني أسألك الآن لأذكرك بالعزاء النبوي المحمدي.. جاء في الخبر الصحيح.. وصفوا به موقف سيدنا محمد الرسول النبي عليه الصلاة والسلام حين وارى فلذة الكبد إبراهيم في لحده في البقيع الطيب وأغرورقت عيناه بالدموع وقال: (إن العين لتدمع، وإن القلب ليخشع، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون).. ألست معلمنا حب النبي ليكون لك في رسول الله أسوة حسنة؟.. حبك للنبي محمد.. إيمانك برسالته الحقة.. اتعاظك بمكارم أخلاقه.. كل ذلك يجعلني أطمع بأن تقولها كلمة علمنا رسول الله أن نقولها حين علمها لهند بنت زاد الركب.. أم سلمة، أم المؤمنين.. يوم مات أبو سلمة صاحب النبي، وأخوه من الرضاع.. قال لها: (استرجعي إنا لله وإنا إليه راجعون).. تلك لعمري قوة الصبر بقوة الإيمان أحسبني على ثقة، وبيقين بأنك من الصابرين المؤمنين..

لا أريد أن أسألك مذكراً بدموع ابن الرومي على ابنه محمد، ولا بدموع الزيات على ابنه رجاء، ولا بدموع السرحان على ابنه محمد.. هكذا يا أخي يذهب شبابنا فجأة في عمر الزهور لنفنى نحن في شيخوختنا بأحزان الأحزان عليهم.. هم ماتوا كلاً واحداً في لحظة، وأنا وأنت نموت أجزاء تتقطع أكبادنا في لحظات.. لعلّها كانت بسمة على شفتيه حينما أدركه الموت. فهو التقي الرضي يخفض لك جناح الذل من الرحمة، ولعلّها حسرة في قلوبنا تقطع أوصالنا.

أمنيـــات

● وأخذ يكتب تذكرة الركوب في طائرة لراكب إلى ألمانيا للعلاج.

فتناول الموسوعة القاموس المجدول بأسماء الخطوط والمدن وبالساعات وعن المواعيد. . كأن الدنيا كلها قد قرطست في قرطاس. .

أسماء لها حلاوة في السمع، تسمعها فترى العيان لها، والمريح منها.

وأخذت أسمع القلم، وهو يكتب أسماء المدن التي ينزل فيها المسافر، أو يسافر منها. . فوجدتني أشتاق أن أعرفها معرفة العيان زيادة على معرفة الحرف والقرطاس والخريطة والتاريخ.

وسرقتني نفسي من نفسي في الأمنية التي دغدغت جوانحي. . ثم أيقظتني كلمة. . تفضل. تفضل. . يناولني التذكرة فصحوت على سراب الأماني، وارتواء اليقظة بكلمة. . الحمد لله. الحمد لله.

وعربدت نفسي وهي تصرخ في أعصاب الجلد الذي يحملها، أو هو الذي حملها وتحملها.

صرخت بمرارة: ما أحلى الدنيا. . كلها حياة وجمال وصلات واصلة. .

إن الدنيا كلها أستطيع أن أحملها في قرطاس. . تذكرة، ويحملني إليها

مركب سريع، أشاهد الناس والزرع والحضارة والجمال والجميل والزخرف والضجيج والسكون والحب والدلال.

كم هي حلاوة الدنيا، وكم هي الراحة والمسرة المبسوطة أمام الإنسان، كل شيء ميسر ومفرح، ولكن الإنسان!!

لكن الإنسان قاتل نفسه، يقبح كل شيء حسن، حقيقة كانت كلمة الملائكة.. يفسد فيها ويسفك الدماء.. الدنيا جميلة وجمالها بالإنسان، لكن الإنسان صانع القبح فيها.

وافقت لأقول:

لو سكنها غير الإنسان لكانت الأرض غابة كبرى، حياتها في موتها، تسكنها الأفاعي والغيلان والشياطين!! لكن الإنسان هو حياتها وزينتها، وإن قتل وإن شان.

أفلا يدرك الإنسان، إدراك الياباني صارف الثروة في سبيل السلام.

مسكين، أضاع السلام هذا الإنسان في أهله وبيته من ضياع السلام بين الإنسان والإنسان.

الدنيا حلوة، لكن المرارة في حلاقيم المرضى من صناع الحروب وقتلة الشعوب.

صُـــوَر

● صور هادفة بلا سهم يراش، ولا قوس يعجم، وإنما هي قبلة الفم للفم، وغمزة الرمش للرمش.

* * *

● أصدقاؤنا «العريف» وزعوا بطاقة الدعوة لحضور العارفين والأصدقاء حفل الزفاف. . أقاموه لزواج ولديّ الحبيبين عدنان وعادل عبد الله عريف. .

لقد زرعوا في نفسي المسرة والشوق. . مسرة أن رأيت طفلي صديقي رجلين في عرس. . والشوق إلى تحيتهما. . فقد نشأ كل منهما بين يدي. . وكنت أتعهدهما بالزيارة في مصر كلما ذهبت إلى مدرسة الروضة في كنف ابن الكابر وبقية الأكابر السيد ولي الدين أسعد أمد الله في عمره. .

وكانا لا يغيبان عن بيتي في مكة. . ففي كل عصر يحضران. . يلعبان مع ولدي. . ويسبحان في بركة. .

أكن لهما الحب وفاء. . وأرسل التهنئة لهما ولأسرتهما وأبيهما حفظهما الله وأسعدهما بأخوة يعرسون في حياة أبيهم ورخاء ذويهم. .

فالذين يحبون أبناءهم يحبون أولاد الآخرين.

● قال لي: أراك أطريت البريطانيين فيما كتبت عن فوز «ادوارد هيث»؟

ـ قلت: وهذه إطراءة أخرى، فلا تعجب، فإن بلينا بسياستهم فلا ينبغي أن نغمط الشعوب حقها..

تحدثوا: أن الملك الإمبراطور إدوارد الثامن الذي تنازل عن العرش من أجل المرأة التي أحبها «مسز سمبسون» كان يعيش خارج بريطانيا..

وأعدوا كل شيء لحفلة التتويج.. يتوجون أخاه الملك الإمبراطور «جورج السادس».

فذهب أخوه «دوق أوف يورك» مكلفاً من الأسرة المالكة ومن الوالدة الملكة.. يدعون من كان «إدوارد الثامن» وأصبح «دوق وندسور» لحضور حفلة التتويج، أبلغه الدعوة فرفض الحضور.

● صور تقذف نفسها في أذن قارئة بصوت جهير.. وفي عين سامعة، وفي قلب واعٍ.. من لسان يذوق ويتوق..

* * *

● شاب حمل تذكرة التابعية، وأعطاها لموظف يراها.. قرأ فوجد: فلان جهني..

ـ قال: إيش جهني؟

ـ قال: يعني من جهينة.. قبيلة عربية سعودية تنساح بين وادي القرى ووادي الحمض والبحر.. وتتسرى شماريخ رضوى، وتهيم في شعابه، قال: أهو.. أهو.. ماني عارف!.

* * *

● هذه صناعته . . يقف في الشارع يتوسم ليتدسم . .

هناك رجل يتمشى . . إنه زبون جديد!!

فيذهب إليه . . سلام . . كيف الحال . . هيا : «أنبش»!!

فيؤخذ الرجل . . وعليكم السلام . . أنبش إيه؟!.

ـ هات خمسة مجيدي، قوام . . «أنبش».

ـ هل لك دين عندي؟

ـ لا دين ولا شيء . . «بس أنبش» . . فإن أعطاه ذهب سالماً . . وإن لم يعطه . . يصرخ النصاب : «يا ناس . . يا ناس . . شوفوا، شوفوا . . هذا يسب السلطان . . شاهدين عليه».

وبعد أيام يؤخذ المسكين إلى القبو . . فقد كتب عنه ما يسمى . . مخبر صادق.

وفعلها مرة مع رجل لا يعرفه . . كان أخاً لضحية من ضحاياه . . تقمش ونزل في مواطن نصبه . . فرآه . . أوهمه أنه لا يعرفه . .

فجاء المخبر الصادق . . يقول «أنبش، فنبش» وأعطاه عشرة مجيدي، بدلاً من خمسة . .

وعمل على صحبته . . حتى إذا اطمأن إليه، جره إلى خارج السور . . يشربان القهوة . . أربعة أسود مضبوط . .

وتعمد أن يهبط الليل! . .

وهناك . . طخاه . . قتله، ولم يدر به أحد، وقرأ أهله اسم الشخص من جريدة الأسماء لضحاياه . . فما عرفوا . .

فقد كان متنكراً باسم لا يعرف.. لقد استراح الناس منه.. فلم تعد تسمع.. كلمة «أنبش» ولا كلمة «مخبر صادق».

* * *

● كان يركب حماراً، ورأى أرنباً، خاف، فاختفى يكمن في حفرة.. يسمع أصواتاً، ودل الحمار عليه.. جاءته النهقة فعرف الرجل أنهم يصلون إليه.. فأطلق رصاصة، واثنتين.. فهرب السراق..

وفي الصباح وجدوا الحمار نافقاً.. قتله صاحبه.. أرهبهم بالطلقات.. ورفض أن يكون ضحية لنهقة حمار..

هكذا الحمير.. فقد تفضح سيدها في ساعة بطر!! وهكذا الرجل ينفعه الحذر.. ويسعفه بعد النظر!!

ـ صور تعبر عن نفسها من تنفسها.. بعضها في ظاهر الأمر لا يرتبط ببعضها، ولكنها في وسامتها ـ وإن حجبت وسامتها ـ تتواءم في ارتباط مشوق وممجوج.. مشوق عند الذين (ربما صحت الأجسام بالعلل).. وممجوج عند الذين يذوقون الماء الزلال علقماً بالفم المريض!!

● قال لي: لماذا تجفوني؟!

ـ قلت: لا تعذبني.. إن جفوتي لك ليست هفوتي، وإنما هي جفوة نفسي لنفسي، لكني ماذا أصنع؟.. وأنت.. شجاع في رفض الفضائل.. حذر في اعتناق الفضلاء.. مقدام في الربت على الرذائل.. محجام عن رفض المرذولين!

هذا شيء لا أطيقه، فواجب الأخلاق يأمرنا أن نسير على عكس ذلك!

وسكت . . ثم قال: أنت حالم غير واقعي، أنا أريد أن أعيش حياتنا، وأنت تريد أن تعيش حياة الكتب!

ـ قلت: لقد سبقتك بذلك، فيوماً ما قلت لك إن واقع الحياة أفسد فينا أخلاق الكتب!!

ـ قال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق!!

كلام صحيح سبق به الإمام «غوستاف لوبون» في كلامه عن الجماعة كجمهور غوغائي!!

أصبح هذا الكلام درساً يلقى في الجامعات كشيء أساسي في علم الاجتماع.

* * *

● الظالمون بالجهل قد يجدون من يلتمس لهم الأعذار، حتى ويكون المعتذر لهم من الذين وقع عليهم ظلمهم، أو هم أنفسهم يجدون الوقت الكافي ليعتذروا، أو يستغفروا!!

أما الظالمون عن عهر في عقولهم، وتبجح فهؤلاء لا يبالون بشيء . . لا يعتذرون، ولا يرغبون في أن يعتذر لهم أحد، بل إنهم وبالعهر يجزعون إن وجدوا عاذراً.

* * *

● من عجائب الظلم والظالمين والمظلومين هذا الوضع . . تظلمني فأنسى، أو أتناسى، أتقرب إليك لأنسيك أنك ظالمي، فتأبى إلا أن تذكرني

بأنك سالب الحق، ظالم التصرف يعني كما تقول العامة: يرضى المظلوم ولا يرضى الظالم!!

وكثير هي الأوضاع والصور!!

* * *

● قال هتلر: الرحمة خور في الطبيعة، ولعلّي قد وجدت من سبق هتلر بهذا القول.. لكن الترجمة كانت أمينة حتى طبق البلغاء عزائم هتلر على هذا القول: كأنما هم ترجموا نيتشه وروزنبرك، وحين هضمنا فهمها.. قلنا: الجور والطغيان من طبيعة الخور، فالجبناء والخائفون هم العاسفون العاصفون!!

وهكذا يفعل اليهود!!

* * *

● فلورندا.. لأنها ظلمت.. وسلبت كرامتها.. كان ظالمها «روزريق» السيد المطلق في الأندلس.. قد استطاعت أن تغفر قتل جدها، ولكنها لم تستطع أن تغفر قتل شرفها.. فكانت سبباً في أن يزول سلطان «روزريق». وينتصر طارق بن زياد!

وفلورا.. فتاة مسلمة من أب مسلم نصرتها أمها المسيحية، وحين مسها الضيم استطاعت أن تكون السبب في إجلائنا عن الأندلس.. فقد صدق نابليون حينما قال: إن المرأة التي تهز بيدها اليسرى أرجوحة طفلها.. تهز الدنيا برجاحة كيدها!!

ـ صور خرساء.. كلامها من باطنها، فلا هي ترسله بالعبارة لأنها لا

تقدر، ولا تريد الإشارة لأنها تحضر. . فمعناها من مبناها لمن يتملاها لا ممن أملاها!!

● قال: لا تحاول. . فإن فلاناً لا يحبك!!

ـ قلت له: هذه ليست بشرى. . البشرى تكمل بأن تقول: إنه يكرهك. . اسمع. . إن من يكره يعطيك شيئاً من وجدانه. . هذا الشيء يتفوق على عطاء الحب لأنه أكثر استمراراً، ولأنه يشد حيلك فلا تسترخي عواطفك. . هو عطاء بلا أخذ، والاستمرار في الكراهية يعطيك الاحترام وهذا ما يريده الرجال (إنما يبكي على الحب النساء)!! ولعلّ الكراهية لسبب أو لآخر تنقلب إلى محبة فتكون بهذا أثبت لأنها ممارسة الاحترام، وعطاء أكيد من الوجدان، وبهذا تصدق حكمة العوام «سمسمية يا حلاوة. . ما محبة إلا بعد عداوة»!!

* * *

● ● وقال آخر: لا تبعد. . إن فلاناً يحبك!

ـ قلت: هذا فضل أشكره، لكنه لن يكون سبباً في إرخاء الرأس. . الكراهية أفضل حينما نكسب منها الاحترام، والحب لا نرفضه إذا رافقه الاحتفاظ بالكرامة!!

* * *

● ● قال: «شايف عبد الله خياط كيف حصل على مواطن؟» هكذا نحن يأكل بعضنا بعضاً!!

ـ قلت: اصرف النظر عن الخياط وموضوعه، وأسألك: لماذا تلوم

الوطن أن يحمل على وطني، ولا تلوم المواطن أن يحمل ـ بتشديد الميم ـ وطنه ما لا يطيق؟.. التعصب للجماعة فضيلة، والعصبية مع الفرد رذيلة.. أفهمت؟!! قال: فهمت.. فهمت.. ولكن في النفس منها شيء!!

* * *

● ● بين الحين والحين تزورنا عجوز حبيبة.. سألناها عن خروف عندها، وسألتنا عن خروفنا الذي نفق، فقالت: لماذا لم تسألوني تلفونياً؟.. الخروف مات «مبشوم» في خروف آخر، إذا حصل له ذلك اسقوه كوكاكولا لأن جيراني البدو عالجوا بشمة العنز بها.

ـ قلت: هذا صحيح. فأنا أيضاً نسيت كربونات الصوديوم.. ليس هذا إعلاناً عن هذه الأشربة المحلاة بالسكر الصناعي لأني أخشى أن خرفاني تموت بداء السكر الصناعي..

* * *

● صور تسرق نفسها لأنها أمينة أن تعطي غيرها.. لا تتعامل بالمقايضة، ولا تعرف سمك الورق، والفضة، والذهب،، تمارس المكايدة أحياناً.. تلجأ إلى السداد وفاء على طريقة النكتة تضحك وإن أغاظت.. تبكي وإن أراحت!

● قال لي: بماذا تدندن اليوم من الشعر؟

ـ قلت: بهذه الأبيات للمتنبي:

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم
إن كان سركمو ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم

إذا تـرحـلـت عـن قـوم وقـد قـدروا أن لا تـفـارقـهـم فـالـراحـلـون هـم

ـ قال: لماذا لم تقلها من زمن؟

ـ قلت: أخشى الملابسة والملامسة. . أريد أن ألبس نفسي نفسها، وما عليَّ إذا ما اغتاظ أبو فراس!!

* * *

● قال: من تحب؟

ـ قلت: الأحياء!

ـ قال: والأموات؟!

ـ قلت: إن لهم فوق الحب والإجلال. . لأنهم أحياء بما صنعوا. . بما ينالون!

ـ قال: من تكره؟

ـ قلت: لا أكره. . وإنما أشفق على الغافلين عن أوزار أنفسهم. . المثقلين بتعقب الآخرين يعدون أوزارهم. . ولو كشفوا الإزار فاضحين. النابهون هم الذين يسترون أخاً لهم، ولو بشق ثوب!!

* * *

● قال: أي حيوان تحب؟

ـ قلت: البقرة، والجمل. . البقرة مرضعتي كأم، حارثة الأرض يظلمها المقدسون لها لأنهم يخرجونها من وظيفتها، ويظلمها شخص قال: إن البغلة أحب إليه من البقرة!

ـ قلت: فكر عقيم ليس غريباً أن يحب العقيم.. لا ثدي، ولا نسل!!

* * *

● صور.. يكتبها اليوم «أنا تول فرانس» نأتي بها نقلاً عن الإفرنسية بترجمة أمير البيان.. شكيب أرسلان، ولها دلالتها.. وعلينا تدليلها، حتى الكلمة تفرض دلالها كما هي دلالتها من ظلالها.. أو حتى من ضلالتها!

● ● إن الصين هي في دور انتقال، وما دام الصينيون يحكون أنوفهم عند السلام ويلبسون الأبيض للحداد، ويؤدون إلى الطبيب الأجرة عن السنين التي لا يكون فيها مرضى.. ويأكلون أعشاش الطيور من دون الطيور.. ويعملون كل الأمور بالعكس، فنحن في أمان، ولكن متى ارتفع استعمال الحصير من الصين فقد دنا أجل أوروبا!!

* * *

● ● إن «رينان» كان سيعيش ذكره بحسن إنشائه، وسحر بيانه، وطور معيشته الفلسفية أما متانة بنائه التاريخي فلا أعتقد بها فالتاريخ هو كما وصفه «رينان» مجموع افتراضات، والافتراضات تتجدد دائماً، فكتاب «حياة يسوع» يشيخ من يوم إلى يوم، ويغني من جهة موضوعه ولكني واثق بأن الناس سيقرأون أبداً حياة يسوع كما يقرأون خطبة «بوسويه» في التاريخ العام، وكلاهما مقصود من أجل البلاغة لا من أجل التاريخ.

* * *

● ● يصير الإنسان كاتباً بارعاً، يصير نجاراً حاذقاً وذلك بالصقل، هذا يصقل الخشب وذاك يصقل العبارة. فالبلاغة اليوم سوقها كاسدة مع أنها

تعلم الذوق وتنور الذهن، وتهز القلب. والخواطر تذهب والبلاغة خالدة. كانوا في القرون الوسطى يقولون: (سيدتي البلاغة) نعم. والإنشاء أنواع: الإنشاء السهل، الإنشاء العالي، والإنشاء المعتدل، وقد يضحك هذا القول ناشئة الإغرار مع أنه من البديهيات. إذ لا يعقل أن تكتب إلى محبوبتك كما تكتب إلى رئيس أساقفة باريس!!

* * *

● صور ناطقة بواقع من الحقيقة، أو هي الحقيقة واقعة تشير إلى مدلول واقعي!!

● ● الحكمة ضالة المؤمن. . حينما وجدها التقطها. .

فمن حكم الصين قديماً، قالوا: إن أحد المشاهدين اللاقطين لمشهد يتخذ منه حكمة أو درساً، أو حتى موضوعاً لكتاب جديد. . أساسه لمحة خاطفة ملتقطة!!

هذا المشاهد رأى اثنين من الصين يختصمان يتلاحيان في جدال عنيف طال أمده، وهو يشاهد النهاية بين اثنين يختصمان!!

وطال انتظاره. . فسأل: ما رأيت واحداً منهما قد مد يده يضرب خصمه؟

ـ فقالوا له: إذا أفلس أحد الخصمين من حجة أو دليل، أو حتى من الصبر على خصمه فخرج عن وقاره، وكال ضربة، فإنه يعد المغلوب في نهاية الحجاج والخصومة. فالضرب آخر الجهد لخصم يحاور خصمه.

من هنا قالوا: إن النصر ليس لمن يكيل الضربات، وإنما هو لمن يحتملها. .

حينما تتحمل الضربات، فإنك قادر على أن تردها.. ومن يضحك أخيراً يضحك كثيراً!!

ـ الظلم يصنع الأبطال..

كلام له خطورته.. لكن ماذا لهذه الأمثلة فهم رجال ما كانوا أبطالاً إلا لأنهم لم يصبروا على الظلم..

ولا يعنينا من هو على الحق الذي نراه، أو على الباطل الذي نكره..

دعونا من تاريخ الأحقاب الماضي.. ولنأتِ بالقريب منا.. واشنطون، جيفرسون، هاملتون، توماس بين، فرانكلين بن يامين.. ما كانوا أبطالاً حينما مسهم ظلم مرهق.

صن يان صن، غاندي، نهرو، المحارب في الجزائر، الفدائي في فلسطين.. ما كانوا أبطالاً، ولن يكونوا إلا لأن الظلم أرهق وأجاع واستعبد فحاربوه.. كل بوسائله المتاحة، والمعقولة لديهم سواء منهم من طوع الواقع الخيال، أو تطوع بالخيال لحياة الواقع.

ولينين وتوتسكي وجيفارا، وماوتسي تونج، وشان كاي شيك.. لم يصبحوا أبطالاً في وجدان شعوبهم إلا لأنهم حاربوا ظلماً تخيلوا واقعه فيهم، وغيرهم.. وغيرهم..

وهكذا السادرون بالبطر يصنعون المحاربين لهم حينما يظلمونهم.

* * *

● صور من السيرة العطرة.. نرتاح بها.. نتنفس من كرب، أغمس فيه أنفاس الهروب من هذا العطر الشذي.. لأرتشف الشذى والروم «بفتح

الراء مشددة وسكون الميم» فأرقى بأحلام الوجدان إلى مرتقى الذكرى لهؤلاء . . أحبهم . . أرجو من الله المسيرة على طريقهم!!

* * *

● وتحدثوا، وفي ترجمة شماس بن عثمان المخزومي قالوا:

لما مات عثمان بن شماس . . قالت بنت حريث المخزومية:

يا عين جودي بدمع خير الناس وأبكي رزية عثمان بن شماس
صعب البديهة ميمون نقيبته حمال ألوية ركاب أفراس
غريب مريع إذا ما أزمة أزمت يبري السهام ويبري قمة الرأس
ولقد قلت لما أتوا ينعونه جزعاً أودى الجواد فأودى المطعم الكاس

● وكان رضي الله عنه قتل شهيداً يوم أُحد . . فأجابها أخوها أبو سنان ابن حريث:

أفني حياتك في ستر وفي خفر فإنما كان عثمان من الناس
لا تقتلي النفس إن حانت منيته في طاعة اللَّه يوم الردع والباس
قد مات حمزة ليثُ اللَّه فاصطبري قد ذاق ما ذاق عثمان بن شماس

● بكت الشهيد فأطمعها أخوها بالصبر، وبالعظة لتنال أجراً يرضي الشهيد عنها . . لا تعذبه بنوح . . وتفني نفسها بالحسرة . .

أراد لها أن تعيش حياة المنجبات، لحياة أمة سخرها الله أن يكون منها الشهداء، أعزوا الإسلام، وصانوا الحق، ونشروا الفتح . . فلنعم الجزاء من الله . .

أما جزاء العباد فمطلب عسير . . إنهم ينسون الذين قتلوا في سبيل

الله.. سبيل الله كانت سبيل الخير لهؤلاء الناسين، إن لم نقل الناكرين!!

* * *

● صورة.. هي واحدة لا تتعدد تنفرد بي هذه اللحظة، وأنفرد لها كل لحظة، لا أحسبها تقوى على حل العقد النفسية، وإن كنت لا أبخسها حقها في الكفاءة والإرادة والقدرة على حل العقد من أي وثاق شد في يدي من تغيث.

هي عمل لا إيحاء.. إرادة لا سؤال.. هي مواكبة غير غافلة، وليست متخطية حدود وجدانها، وحدة مشاعرها، ورونق أسلوبها، ورقة المسلك في إدراك مطلبها.

من خطوتها أنها تكذب فتصدق ـ بفتح الدال وتشديدها ـ لا من سامعها وإنما من صدق ما كذبت فيه، ومن متعة التلقي بهذا التأكيد في وقته من زمانه، وفي مكانه.. لا يتأخر لحظة عن حاجتك لسماعه مفرجاً من كرب بجرح استجد لديك.. بينما هو عندك متوقع تعرف الوقت لنزفه، فتأتيك بما يفتح أضالعك بضحكة مترفة يضحك منها هذا المصندق بين الأضالع كالكمثرى.. مضخة ترسل حياة الدم بحياة النشوة بما تصنع.. تشعر بخفة من زوال الخفقان المخيف، كان يتعربد به قبل أن تبلسمه هي بالخبر المستكنه كاذباً في خيالها.. صادقاً في واقعها، تصدقه أنت لا تماري فيه!

خيال ـ أن نجد الصورة نفسها مجسدة في واقع إنسان من خيال الروائيين في واحد الفرسان الثلاثة (دارليان ـ والفارس المقنع الآخر (الزهرة القرمزية)..) مخيلة الروائي فرضت أن تجد دارليان، والزهرة القرمزية في

اللحظة الحاسمة بجانب المكروب . . هذا يغيث، وذاك يختطف ليغيث.

هذه الصورة هي الزهرة القرمزية في واقع من حياة تمشي على الأرض لم تذق المجاعة في عواطفها، وذاقت الرواء والارتواء في أعطافها!

أريد قارئاً واحداً يفهم ما قلت. لعلّ قارئاً يفهم هو الصورة الواحدة نفسها.

لقد وضعتها حروفاً ستضع هي المعاني، ولا غيرها كما قال طاغور، أو هي لمفهومة لمن عنته، فقارئي الذي أريد هو كما يقول المتنبي:

وكم من عاتب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

ـ صور رائقة . . تروق فاهمها، ولا تعكر الصفو لمن ينصرف عنها . . لأنها تلبس نفسها ولا تلامس غيرها.

ـ طفل بلغ السادسة من عمره، أسهر أمه في ليلة حارة، ورحمه أبوه يحمله على كتفه . . يذهب به إلى الطبيب، كانت المسافة أكثر من كيلو ونصف أي ألف وخمسمائة متر، كان وزنه مرهقاً لذراع أبيه.

وأخذ الدواء قطرات في الأذن، من الطبيب المناوب، شيء من الجلسرين، يعرف أنه يقطر في الأذن، ولا أدري هل سكن الألم بالجلسرين، أم هو إيماء العناية من الأب والباب المفتوح في مستشفى أجياد، المهم أنه سكن إلى الصبح، فذهب أبوه إلى الطبيب شبه المختص فقد كان أيامها لا اختصاص.

وكبر الطفل . . ورآه أبوه يحمل طفلته لما تبلغ العامين يذهب بها إلى الطبيب، وهي تحك أذنها.

فضحك الأب، الجد، فرحتين، فرح أن الزمن أخذ بحقه من ولده.

وفرح أن رأى طفله الصغير قد صار أباً.

ـ وتذكر أبوه كيف أوجعته أذنه في ليلة، لما ينتصف ليلها، وكان يعرف أن الأطباء يجتمعون، يسهرون على سطح المستشفى.

وطلع إليهم، وهم يعرفونه، وفيهم أصحاب له، فما سلموا إلا بكل صعوبة، لقد صعد إلى السطح!.. كيف أطلعه الخادم؟ ماذا يريد؟

وسلم يجلس. فأحس أنه غير مرغوب فيه. غريب فوق أرضه وترابه، هكذا.

وتصبر. ثم قال: لا تضيقوا.. أنا لست زائراً، ولكن ما حيلتي والطبيب المناوب معكم على السطح؟!

ـ من هو؟

وأشاروا إليه، فقام إليه ليريه صماخ أذنه فأمسك بالنبض، والأذن، ثم قال لخادم: قل لبخش يعطيه حبتين اسبرو.

ـ قلت: اسبرو.. قال: اسبرو نعم.. قلت: أمر طبيب.. هات الأسبرو.

ونزلت. فإذا الصيدلي لا يعطيني الأسبرو، وإنما يقطر قطرات من الأوكسيجين ـ عملية غسيل ـ ثم قطرات من جلسرين.

وخرجت.. وما زلت أذكر هذا الطبيب بخير رغم مقابلته المتعجرفة، كان هذا وأنا موظف وكبير. فكيف كان مع الآخرين؟ هل تغيرت الصورة؟

أحسب أنها تغيرت في كثير من الأشكال، وقليل من المواضيع.

● ولنعد إلى صور..

ـ قال: كم هي أقسام الاستعمار؟ أسمعكم تقولون: القديم، والجديد. .

ـ وقلت له: لا قديم ولا جديد فيه أو منه، كلها الأساليب تتغير بحسب مقتضيات الأحوال، ومسيرة الأجيال وفقه الرجال.

قديم كان يتسلط بالغزو وحق الفتح. . فاستنفد أغراضه لا لزواله، ولكن لإزالة المنافس، كألمانيا مثلاً بعد الحرب العالمية الأولى.

وجديد في صورة تطورت لحجب دول تريد أن تستعمر كألمانيا مثلاً فابتدعوا عصبة الأمم تعطي صكوك الامتداد. . يعني أنه الاستعمار ليس بحق الفتح والغزو وإنما الشرعي كما يدعون بصكوك ومستندات عن عصبة الأمم التي لم تكن تمثل الأمم.

وجاء الجديد المستجد بصور شتى، معونات، مساعدات، تحل محل المعاهدات غير المتكافئة.

غير الفاجر الجديد في الفجور هو الاستعمار بصكوك من هيئة الأمم. صك بقرار واحد. . هو ما تكوّنت به دولة إسرائيل. بعهد خائن (سايكس بيكو) نفذ وعد اليهود، مهد له صك الانتداب.

وبصك من هيئة الأمم جاز لإسرائيل أن تكون دولة، بل وعن هيئة الأمم ومجلس الأمم أصبح استعمار إسرائيل كجزء من استعمار جديد للآخرين أمراً مشروعاً بصك من هيئة الأمم حتى رفضها بدور جوازه أو تجاوزه بهذا الصك قرار من مجلس الأمن.

* * *

إن هيئة الأمم هدية المنتصرين للإنسان في أيام السلام فرحت به،

ولثقتها في الولايات المتحدة كدولة تحارب الاستعمار والعدوان جعلت من نيويورك مقراً لصنع السلام في هيئة الأمم.

لأن الإنسان كان يطمع أن تكون الحرية في الكونجرس لكل رأي وكلمة حرية على الواسع في هيئة الأمم. ولكنه فجع الآن فإن الحرية في الكونجرس بلغت ذروة التفوق بينما هي في هيئة الأمم لا شيء.. لا شيء.. لا شيء..

كأنما دول العالم أصبحت ولايات متحدة عاصمتها نيويورك لا واشنطن.. ورئيسها آرثر جولد برج.. لا يوثانت! السبب خوف الرجال.. لا تسلط الرجال.

ـ صور راكدة في حلبة طولها أشبار.. لما تدرك نهايتها تتحرك في بدايتها، لكنها تعتذر لنفسها بأنها حسنة.. ففي الحركة بركة ولو في حلبة طولها أشبار!

ـ العاجزون، والفارغون هم أكثر الناس مذمة للآخرين من عجزهم ومن فراغهم لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب. إذا ما رأوا إنساناً ذاق الكلمة، أو احترم الجهد، أو أعجبته المساعي، فأخذ يثني على حرف كتب وكاتبه.. جهد بذل وباذله.. مسعى تفوق وكاسبه.. إذا ما رأوا ذلك وأعجزهم فراغهم أن يفعلوا مثله عابوا.. تنقصوا.. غضبوا.. عرقلوا.. إلى آخر ما يسوغه العجز من الكفاءة بهذه القوة الخفية!

من الملاحظ أن للعاجزين قوة مدمرة إذا ما كادوا بهذه الخفايا!!

* * *

● صور.. فيها ومضات بارقة، وسكنة صارخة.. فيها من قتام

السحاب قتام في النفس، وفيها من بسمة الغيث إشراقة في الوجدان. . لولا هذا التزواج لأصبحت كثير من النفوس عوانس!!

ـ صديقي الأمين ذهب يوصل أطفاله إلى المدرسة، فوقف ينتظر انفساح الخط من قطار طويل. . ولا بد أن يحترم القطار الطويل السائقون لأن الطريق القاهر أقوى جندي مرور، ووقفت بجانبه سيارة جيب فيها خواجات، وصديقي هذا يعرف اللغة الإنجليزية ولعلّه يعرف لغة أخرى! . . سمع الخواجات يقولون ـ أعني امرأة منهن تقول لرجل منهم:

ـ دعنا نترك السيارة هنا، ونسبح في هذه البحيرات! . . وسأله ابنه: لماذا كشرت يا بابا؟! . .

ـ قال: هؤلاء الخواجات فرحوا بالمطر أكثر منا. . ما أحب أن يقول الكلمة الجارحة لابنه، أما هو، وإن كتم عن ابنه، فقد افترسه البوح ليقولها لي وأخشى أن يفترسني قتام النفس فأرسلها في هذا البوح!!

* * *

● من كلم ابن بسام في الذخيرة. . قال:

«وأخبرني الخبير الحافظ أبو بكر ابن الفقيه أبي محمد بن العربي عن الفقيه أبي عبد الله الحميدي: كان لشيخنا الفقيه أبي محمد بن حزم في الشعر والأدب نفس واسع، وباع طويل، وما رأيت أسرع بديهة منه، وشعره كثير قد جمعته على حروف المعجم، ومنهم ما كتب عنه».

هل الدهر إلا ما رأينا وأدركنا ... فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكشت فيه مسرة ساعة ... تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات في المعادي ومواقف ... نود لديه أننا لم نكن كنا

حصلنا على هم دائم وحسرة وفات الذي كنا نلذ به عنا
حنين لما ولى وشغل بما أتى وغم لما يرجى فعيشك لا يهنا
كأن الذي كنا نسر بكونه إذا حققته النفس لفظ بلا معنى!

● صور فيها تسلية لكاتبها، وقد تكون فيها سلوة لقارئها، وقد لا تكون من هذه ولا تلك، وإنما هي شيء قد يقرأه الشجي والخلي!!

ـ قال أبو الشيعي:

وقائلة وقد نظرت لدمع على الخدين منحدر سكوب
أتكذب في البكاء وأنت خلق قديماً قد جسرت على الذنوب
قميصك والدموع تجول فيه وقلبك ليس بالقلب الكئيب
نظير قميص يوسف حين جاءوا على لباته بدم كذوب
فقلت لها فداك أبي وأمي رحمت بحسن ظنك في العيوب
أما والله لو فتشت قلبي لسرك بالعويل وبالنحيب
دموع العاشقين إذا تلاقت بظهر الغيب ألسنة القلوب

● يظهر ـ والحق يقال ـ أن بلدية جدة حريصة على مراقبة الرغيف في الوزن على الأقل، فما يخبزه الفران للغداء، أو للعشاء الميزان فيه كامل.. أما ما يخبزه للفطور فالميزان ناقص أكثر من ثلاثين في المائة يعني الرغيف وزن ثلاثمائة جرام وزناه فوجدناه مائتي جرام.

فالواضح من ذلك أن الفران يترقب عدم الرقابة في الصباح فيسرق الرغيف، شكراً للبلدية على الوفاء في وجبتين ونرجوها أن تحرص على الوجبة الثالثة.

● صور كاسية عارية . . يغطيها الجليد، ويكشفها غور إذا ما استترت بثوبها الكاذب فضحها تفاعل الجليد مع نفسه . . من كثرة ما تثلج احتر . . قد لا يذوب مادة فالحرارة لا تكفي لذوبه، لكن المعاني تتعرى على طريقة . . تخفي على الناس تعلم!!

● حتى الحديد جبان . . يهاب الهيبة . . يخافها!

حينما افتتح طريق الهدا تخوننا السيارة في طلوعه من هيبتها، من خوفها. حتى أصبحنا نعدد أنواع السيارات قاهرة الجبل، وحينما ألفت السيارات الجبل هان عليها . . أصبحت لا تخافه . . سقطت هيبته . . كل السيارات حتى تعطلت المقاهي . .

عجيب؟ . . الحديد هو الجبان . . أم نحن السائقون والراكبون؟ . .

ليس الحديد، وليس هم السائقون، وإنما كراكب كنت أفرض الخوف على السائق وعلى الحديد.

* * *

● سألني أحدهم: من هو أذكى سياسي بعد حرب ٥ يونيو؟ . .

ـ قلت: هو المستر براون وزير خارجية بريطانيا السابق . . كان في وزارة الظل . . يرسم الخطة ليعمل في وزارة الفعل . . فاكتسب بعض الصداقات، وأعاد لبريطانيا تحسين العلاقات مع العرب . . كأنما هم نسوا كل ما مضى . . حتى إذا ما استنفد أغراضه وخاف أن يلتزم باسم الصداقات ما يتعارض مع مصالح دولته استقال لسبب آخر في أزمة الاسترالييني! . .

لا أحسب السبب هو ما أعلنه في الاستقالة، وإنما هي البراعة في دهاقين السياسة . . يحسنون أوقات التخلي لأنهم أدوا مهمتهم، ولا يحبون

أن يورطوا أمتهم.. أفلو كان مستر براون لا يزال وزير الخارجية فإنه سيلزم مندوبه في مجلس الأمن أن يكون له موقف غير موقفه فيما قبل التصويت!!.. هو في نظري أذكى الساسة، كسب لأمته دون أن يبذل شيئاً!..

* * *

● أعجبني مبنى الجوازات والجنسية.. انتقلت إلى مكان أنيق ومريح..

غير أني ألفت النظر ـ كرجاء ـ لعمل أكشاك مظلة لكتاب «العرضحالات» أو باعة الطوابع، ومظلة للمراجعين، وشيء من الماء البارد.. فإنه بهذا يكمل جمال الجميل.. ارتاح له بعض الناس، والرجاء أن يرتاح كل الناس!!

● صور نائمة تصحو بعين.. ولا يغفو لها فؤاد.. الصحوة لها رعاية الأمل.. الأمل هو.. سنة الوصول، سنة الزمن، ولا يغفو الفؤاد لأنه ليس الواحد بل هو الاثنان في الواحد.. يشغلهما ما يصحو لهما.. ما يصبح بهما.. ما يتضح عنهما.. ما يختفي فيهما!!

● هذه واقعة مضى عليها زمان.. كانت حياتها حريقاً في مشاعري حتى إذا احترقت ما زالت مشاعري تحترق، لكنها كطائر السمندر يدخل النار ولا يحترق.. طائر السمندر تعشقه النار تريد أن تثبت قوتها عليه، لكن الهبة فيه أنه أقوى منها فلا يحترق بها، وإنما هي تشتعل من الغيظ كأنما هو بالمناعة فيه يدخلها.. السمندر ليس كالفراشة.. الفراشة عكسه.. تعشق النار والنور وتحترق.. في السمندر قوة الحياة.. في الفراشة عظمة الحب!

● قالت: كيف تحبني؟!

ـ قلت: حينما يكسو وجنتيك شيء من صفرة الحزن.. تصبحين فيه بلون الياسمين، أحب الألوان إليَّ هذا البياض المطعم بالصفرة الرقيقة، الحزن يكسو الجمال جمالاً!

وابتسمت، فغطت وجنتيها بلون الورد.. هنا قلت لها: حينما كنت «فلية» كنت أروع من الوردية!!

ومضى زمن، وإذا بي أقرأ لنزار كأنما أنا عبرت عنه قبل عشرة أعوام ليذهب ما قلت.. ليجيئ نزار في تعبير أشرق يبقى ما يقوله في ديوان الشعر في هذه اللغة الشاعرة!.. زرتها أسمعها ما قال نزار.. وأسمع أنا عنها ما قال نزار:

إني أحبك عندما تبكينا ... وأحب وجهك غائماً وحزينا
الحزن يصهرنا معاً ويذيبنا ... من حيث لا أدري ولا تدرينا
تلك الدموع الهاميات أحبها ... وأحب خلف سقوطها تشرينا
بعض النساء وجوههن جميلة ... وتصير أجمل عندما يبكينا!

ـ تافه.. ذلك الذي اكتمل غناه من كمال فقره.. قد أبشمته المادة وأجاعته المعاني، فهو يتسقط زلات الرجال كما يتصور حتى تنكشف تفاهتهم فإذا هذه الزلات كما في الرجال لأنهم يستحيون من الزلة، أما هو فبالتفاهة يتوقح ولو تجسدت أخطاؤه.. المريض في أخلاقه لا يسأل عن الصحة لأخلاقه!!

ـ قالت: وإلى متى أنت تحبني؟!

ـ قال: أو عن الزمن تسألين؟.. سوف أحبك إلى حين البداية التي

تفكرين فيها بكراهية نفسك، فترسلين سؤالاً كهذا عن الزمن تجعلينه تحديداً مادياً لمعاني الحب عند هذا التحديد. وبهذا السؤال ينتهي الحب!

ـ قالت: وهل هذا جواب؟!

ـ قال: هو على مقاس السؤال.. إن السؤال عن الزمن في الحب يعني التفكير في النهاية والطرد للبداية، والقتل لهذه اللحظة التي كانت إذا واتت، فانسلخت من ذاتين في ذات واحدة حين انشطرت إلى ذاتين اثنتين.. كل منهما تمايز بكيان جديد لحظة التفكير في النهاية. وقديماً كانت لحظة المفاجأة في البداية في هذه اللحظة انعدم الحاضر. فقد حلقت النهاية على البداية.. امتد الماضي ببدايته إلى هذه النهاية فتلاشى الحاضر إلى هذا المستقبل.. لا أعده حاضراً لأني لا أريد أن أعيش المنزلة بين المنزلتين!

ـ قالت: ما قصدت!؟

ـ قال: وما أردت أنت؟ ولكنك قدرت أن تقوليها، توزعت بين القصد والإرادة والقدرة.

أما أنا فلا أريد أن أتوزع، قد جعلت القصد والإرادة والقدرة لحظة أن أكون أنا وحدي، وأنت وحدك!

ـ قالت: هل ضاعت الثقة إلى هذا الحد؟!

ـ قال: الشك أو الخطوات في ترسيخ الحب، والثقة دليل استمراريته ثم هي بوادر نهايته!!

* * *

● قال: ليس هناك برد! ـ قلت: أرجو أن أذهب يوماً ما بولدك. ولما

يبلغ الأربعين يوماً فأضعه في حرارة الشمس!

ـ قال بغضب وحنان عفوي: لا . . لا . . أخاف يسيح دماغه!

هكذا الأبوة حتى في الأطفال!!

* * *

● صور مرهفة تحتضن رقة البداوة، ولا ترفض نظرية الحضارة . . البداوة فيها لها أنها لا تبدو عارية . . تنزع سترها قطعة قطعة . . كل جمالها أنها تعرف جمالها . . كل كمالها أنها لا تكون جميلة إلا مبرقعة بستر من حياء لا ينكشف إلا لصاحبه، ونظرية الحضارة تأخذها خضاباً، وحلية تتزين بها حتى إذا كشفت الستر فاح شذاها . . تشمه العين والأذن قبل حاسة الشم . . ذلك من كبرياء الشم في رجلها الأشم حبس أنفه وما درى أن الأذن والعين طليقتان ذاقتا العطر فوحاً له غنة . . له تلون في عين تتبصر!

* * *

● الذكر يشرب جمال أنثاه بالعين، ثم يذوقه بالشفتين لأنها لا تريد إلا أن تعرف ما ستعطي، فهي لا تستطيع أن تمنع عيناً ناظرة، ولكنها لا تمنح الشفتين إلا لمن تحب!!

والأنثى تذوق رجلها بالعين، وتشربه بالشفتين لأنها تود أن تعرف ثبات خطوها من ثقتها بنفسها . . من توثقها بمن تريده رجلاً لها!!

* * *

● رأيته في جمع من الناس . . شغلوه بنفسه بينما غيره قد شغلوه عن نفسه!!

كان هو غائباً في تيه ما يشتهي.. أما الآخر فحاضر في صحوة عما ينفع الناس.

والتفت ينظر إلى هذا الآخر.. لا أحسبه إلا قد رأى عيني أفعوان تتلصص كأنما هي عين خزري تهود، أو عين مغولي يقتات من البلطة التي سال عليها دم الكتاب في بغداد، هو كغيره من الذين خلقوا أفاعي يتسربون في حياتك ليسرقوا لحياتهم أخبار الحياة فيك أو الحياة منك!

ونظرت إلى بعيد فرأيت ذلك الإنسان المشغول عن الناس لا بنفسه، وإنما هو يفكر في نهاية الذين وصلوا إلى قبر.. تلفت بعينيه فإذا هي عين إنسان راحل كان جمالها في لؤلؤة تلمع دمعاً ذكرت الموت وسبحت تسترجع.. حتى العيون بعضها عين أفعى، وبعضها عين مها، وبعضها عين إنسان!!

* * *

● صور ما زالت باقية في زجاجات المصور.. من الرهبة أن تخرجها، ومن لا رغبة أن نبقيها.. لا نريد المصور أن يراها مرة ثانية، ولا نريد ألا نراها في كل لحظة!!

ما زالت سوداء يختفي بياضها لا يتضح إلا بالغسيل.. غسيل أن يكون بأي مادة منظفة فصاحبها نظيف شكلاً وموضوعاً ولكن الزجاجات تنظفها الأحماض المنظفة.. حتى السموم قد تكون ترياقاً!!

حين قال الرفاعي ذلك كانت الصور في زجاج.. أما اليوم فهي على شريط اسمه (فيلم).. أليست الحياة فيلماً؟!

* * *

● رأيناه يمشي الهوينا فتخطفته أنظارنا بحجلة تسرع . . تستكنه خطواته . . جمدت كل الصور التي تأخذ من العين بعض بصيرتها لترتوي العين بكل باصرتها! . .

ـ وسأل واحد: أيمشي الهوينا بهذه السرعة؟!

ـ قلت: هي سرعة نفوسنا التي تلاحقه . . أما هو فثابت الخطو . . واثق الخطوة! . . إن واثق الخطوة يمشي ملكاً لا نراه يلتفت إلى من وراءه، ولا إلى أي جهة أخرى لأنه يعرف أن الناظرين إليه إما محب، أو محترم، أو معجب أو مبغض . . كل مكافأته لهؤلاء ابتسامة . . تحية للمحبين، ومن إليهم، ومكايدة للمبغضين، وما إليهم! . .

الرجل واثق الخطوة هو كذلك لا يلتفت إلى وراء، ولا إلى أي جانب، وإنما إلى أمام . . لترى في عيون الناظرين إليها من أمام كل الحاجات للناظرين إليها من جميع الجهات . .

أما الفزع في الخطوة ـ إن كان رجلاً ـ فيلتفت لينزع نفسه أكثر مما يرى، وإن كان أنثى، فإنها لا تلتفت لئلا تفزع بما ترى!!

* * *

● في (فيلم) عرض أمس فكرة دسمة . . هم خمسة هربوا من الحرب . فهلكوا في تيه . . بعضهم عضته الحمى، وبعضهم مات بالسكتة لأنه فقد الذهب، والآخر هلك بالجنون. وأشجعهم هلك حياً وهو تبتلعه الرمال المتحركة . . يذوب فيها متجمداً . . كانت نفسه تذوب وجسمه يتصلب . . أما الخامس فمات بالحرمان والجنون! . .

هكذا الذين يفرون من الحرب الواجبة يهلكون بما هو أسوأ من الحرب!!

* * *

● والله زمان عن الصور.. نحن في حاجة إلى جرعة منها، فالشفاء في لعقة من عسل، أو كية بنار.. آخر الدواء الكي!

* * *

● قال لي: إذا رفضت «تحتانيتك» فقدتها.. لا ينفعك ظلال «فوقاني» حينما لا يكون لك «تحت».. الـ «تحت» قوة صلابة تحت القدمين والـ «فوق» ظلة.. وقاية!

● قلت له: لن أفقد «تحتانيتي».. إذا ما كانت هي الأرض.. إلا إذا فقدت نفسي، فعند ذلك تكون الأرض هي «تحتانيتي وفوقانيتي».. بضعة اشبار تحفر فيها حفرة.. تقبرني فيها، فإما طاقة من جهنم وإما طاقة من جنة.. عند ذلك في القبر.. كثيراً ما تنفع «الفوقانية» وكثيراً ما تضر «التحتانية»!

● قال لي: هل كل العرب عندك أبناء عم؟!..

ـ قلت له: كيف تسأل وأنت عربي بلسان «طمطماني»؟! كأنما أنت النبطي من أهل السواد.. يعلم أنساب أهل الفلا (!).. العرب أبناء عم.. صلِ على من علمنا: سيدنا محمد بن عبد الله.. ألم تسمع قوله وهو يقلب صدقات اليمامة.. أرسلها إليه «هوزة بن علي».. قلبها في يديه الكريمتين عليه الصلاة والسلام. وقال هذه صدقات ابن عمي!.. لم يمنع البعد عن

النسب . . يعلو بها إلى مضر أن يقولها سيد العرب والعجم . . أو لم تسمع قول جرير يهدد الأخطل :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكموا إليَّ قطينا

فيسمعها عبد الملك، فلا ينكرها دعوة، ويعتز بها نخوة . . كل اعتراضه على الأسلوب ! . .

وفي حنين ألم تسمع قول الشافعين في الأسرى يخاطبون رسول الله : إن في الأسرى عماتك وخالاتك . . أي عمات وخالات هن؟ . . ذلك لأنه المرضع باللبن الظئر حليمة فأصبح كل أمهاتنا في هوازن عمات وخالات . .

فشفعهم رسول الله وأطلق أسراهم تكريماً للعمات والخالات . . من هذا قلنا : إن العرب أبناء عم . . أبناء دم . . فكن عربي الفؤاد . . لتفهم وإلا فلأدعك لهذه «الطمطمانية» . . نبطياً من أهل السواد . . يعلم أنساب أهل الفلا ! !

* * *

● صور . . هي . . الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها التقطها ! !

ـ يقولون : النصح بين الملأ تأنيب، والنصح في الخلوة تأديب . . ولكن ماذا تصنع حينما تفوتك الخلوة؟

إنك ترسلها رمزاً . . كلمات ظاهرة على الملأ . . باطنة في الخلوة . .

* * *

● إنك تملك الأصدقاء المخلصين، والعون القوي، والوفرة في العدة،

والكفاءة المقدرة، فإذا لم تبرز لكل هذه الحياة فيك والأحياء معك فإنك صاحب المتنبي الذي يقول فيه:

ولـم أر فـي عـيـوب الـنـاس عـيـبـاً كـنـقـص الـقـادريـن عـلـى الـتـمـام

* * *

● الأمعات مريحون يدغدغون نازعك، ولكنهم يعطلون ويبعثرون وازعك.. هم يقولون: معك، معك.. في كل ما تقول وتشتهي، ليحصلوا منك على الواحدة: أنا معكم.. الواحدة منك هذه يفعلون بها الأفاعيل.. وإذا أزمة أزمت وحكم الفعل أن يكونو معك، وجدتهم يولون الأدبار.. وإن لم يتهربوا، فإنهم ومن عجزهم لن يكونوا في قوة الأنصار..

* * *

● حينما تصبح الثقة حظوة كان الأمر يساوي لا مسؤولية، لا خوف، بمعنى في النتيجة: لا ضمان لنجاح، ولا بقاء لناجح..

الثقة أمل في ناجح، والحظوة إفساد لنجاحه.. فما رأيت عاملاً تبطر بالحظوة إلا وجلب الشقوة بعمله على الآخرين..

* * *

● سمعت الشاعر العراقي حافظ جميل يقول:

إنه شديد الإعجاب بالأحمدين الاثنين.. أحمد بن الحسين المتنبي وأحمد أبي علي شوقي.

وكأنه يمشي مع زمخشري هذا الزمان إسعاف النشاشيبي يرحمه الله في ركاب واحد.

قال: أنا لا أفضل شوقي على المتنبي، ولا أفضل المتنبي على شوقي. . فهما فرسا رهان، يسيران في حلبة واحدة!!

* * *

ـ إسعاف قالها أمام الفحول في يوم الفحولة. . في مهرجان شوقي!

ـ قال: الشعراء الثلاثة الأحمدون. .

أحمد المتنبي. . أحمد المعري. . أحمد شوقي.

تلك عروبة السهمي من ولد عمرو بن العاص. . لا شعوبية.

لا شعوبية من عربي.

لقد بلغ العراقي مبلغه في هذا الإطراء. . حكماً لا مبالغة فيه. . كل الفجأة في صيغة الموازنة. . جاء بالأخير قبل الأول. .

* * *

● صور ترتاح ولا تريح. . تبوح ولا تزيح. . فهي كالحب راحته في التعب منه، وتعبه المضني لن يأتي إلا من الراحة فيه. .

فالراحة منه. . كتمة نفس بالقهر، وخمدة وجدان بالجبر!! والراحة به نومة حيناً من الدهر. .

أما الراحة له فهي الألم المعلم. . باللذة تحلو وتعلو. . كأنما الذوق سرمدي الحضور. . لأنه الذوق صانع الحضارة في السلوك والنفس فهو نعمة الحب. .

فأي عمل جميل لن يتم له كمال، ولن يبهر بجلال إلا إذا أحبه صاحبه

حباً في فكره وأمله قبل عمله..

وهكذا كل الفنون والزخارف والمبهجات، فما هي إلا من صناعة حبنا له، ليكون بقاؤها من حبنا لها أيضاً..

فالحب صانعها، والحب زينتها، وبالحب صونها وبقاؤها، لتكون هي بعد من تذوقها لها صانعة التحضر لنا.. فهي المصنوعة الصانعة.

● الحب احتكار متفق عليه بين اثنين.. بين إنسان وإنسانة بين شيء مفتن وبين إنسان فتّان.. بين لوحة فاتنة، وفنان مفتون، فكل من الاثنين.. الزوجين، قد رضي احتكار الآخر له!!

أما أن يكون الاحتكار مفروضاً من جانب واحد.. من ذكر على أنثاه.. من تحفة على فنانها، من فاتنة على مفتون بها، أو بالعكس.. فإن هذه عبودية ترفضها سيادة الحب.. تجفوها عبقرية التضحية.. إن الحبيب يرفض مذلة أي سلطان يطغى عليه.. ويخضع لسلطان قاهر، وهو يفرضه على نفسه باسم حبه لها.. حبها له.. ولقد عرفها المأمون يرحمه الله، حينما قال:

فإما بذل وهو أليق بالهوى وإما بعز وهو أليق بالملك

* * *

● ما قتلها في نفسه؟ أي حاجز يمنعها، أو أي بعد حرمها منه، أو حرمته منها؟.. فبدت حية في وجدانه وآلامه وآماله وأحلامه!! لكن الكلمة المفروضة جانبياً.. قتلت موت الحواجز، وأسقمت بالقرب تلك الحياة التي كانت على البعد.. فإذا الحواجز تنصب قائمة تقف في كل طريق سلك لتقول له: من أنت.. إلى أين؟ فقال: إلى حيث الرضا بك منك..

أرسلت كلمة جانبية، فلم أسمع صوتاً لرد الفعل يأتي من وراء الحواجز . .

وأقفل فمه على السماعة . . وقال: إني أرفض طغيان البشر على وجدان الإنسان . .

ـ صور من الأعماق . . كدموع طافية على السطح . . كبوح تعرف فيه إنسانها . . لا يعجزه أن يقذف بالحيرة إلى بعيد، ويعجزه أن يرى حائراً من قريب أو بعيد! . .

تلك هي مشكلته لا تأكل الكآبة من نفسه غذاءها لأنه قاتل للكآبة يلبسها رادءها، ثم يطلقها إلى أبعد، فعنده من ذخائره، ومدخره ما يسع الحمل الثقيل . . يتخلف منه أن كان من أحمال نفسه، ولا ينوء تحته إذا كان حملاً على كاهل غيره . . يأخذه ليحمله هو . . هو إنسان ما أضعفه أمام الدموع، وما أشد قسوته على الدموع . . تلك دموع الآخرين، أما هذه فدمعته هو!

● لو عرف صاحبنا السخيف أنه بادعاء الثقافة يضاعف ثقل الدم فيه لسكت لا يتكلم! لكنها الدنيا جعلته في مكانة لن يتمكن منها . . قد يملك الإمكان لكن السكان يستثقلونه. لو عرف أنه جاهل، أو أنه ثقيل لما تحرك، حينئذٍ يتحرك الناس نحوه بعاطفة، ولكنه في كل لحظة، وبادعاء المعرفة يتجاهله الناس . . كأنما يسمعون صوته مطارق من حديد تدق على أعصابهم . . يتلهون عن سماعه بينما هو المسكين . . يتكلم كالمدشة، ويتناثر كالرذاذ، فلا يجد من يجمع الدشيش، ولن يجد تربة تثبت برذاذه نبتة خضراء!

عيب الناس أن يتحملوا سماعه . . أما عيبه فهو جهالته بما ينبغي أن يسمعه الناس!

● لئن تسرق جيبي، أو تسرق جيوب الناس، فإني وهم قد يتغافلون عنك.. على طريقة (اللي في الريش بقشيش)!.. لكن تماديك في ممارسة السرقة هواية قبل، واحترافاً بعد، قد أبعدك عن امتلاء اليد، فأتيت تسرق الدار.. الناس، وقيمهم. لقد وصلت المسألة إلى العظم، ومست الخشوم، فهم الآن لا يدافعون عن أقدارهم فقد صانوها، وإنما هم يندفعون لا لسرقة أقدارك، وإنما لإهدارها.. لا يبغونها لأنفسهم وإنما يرفضونها لك لئلا يتجدد البغي منك عليهم. و.. «بس»!! ولعلّ في غير مقدورك أن تسرق الدار.. الناس لأن سرقة الوصايا وحرقها في الوجاقات هي سرقة مادية وليست معنوية!!

ـ صور لا تعني العجز عن التعبير، وإنما هي تعني القدرة على العبرة!

* * *

● قالوا إن منظمة فتح ـ الفدائية أم الفدائيين ـ لها ميثاق ينص على أن يخلع المتطوعون فيها كل رداء لبسوه في مناطقهم ليلبسوا رداء الفدائية، ولا غيره، فلا يسار، ولا يمين، ولا.. ولا.. إنما هي الفدائية والفداء.. الموت أو الحياة.. هي عملية إنقاذ لا لفلسطين وحدها، وإنما لأمة العرب، وشرف العرب، وكرامة العرب..

هي كأي صاحب نجدة.. حملته النخوة أن يشترك في إطفاء حريق.. لا يسأل عن الساكنين، ولا عن المساعدين، ولا الناجين، أو المحترقين.. النار، أو الموت.. العار، أو الحياة بلا عار!!

إن هذا الميثاق أخضعت به «فتح» المنتظمين فيه.. شيء لازم وجميل.. فيه كل السلامة، وفيه النصر.. أفليس الأجمل منه أن يكون هذا

ميثاق الأمة العربية، وقد حشدت إسرائيل العسكر المجرم على الأردن. . ميدان المعركة الفاصلة لنا إن انتصرنا، وعلينا إن انهزمنا!. .

ميثاق نطرح به جانباً هذه المذاهب، والمتمذهب لنكون كلنا صف إنقاذ في حرب مقدسة اسمها: الجهاد!. . المعركة فيها بإنقاذ الأرض والعرض والمصير. . فلا يعقل أن نواجه أي حرب مع إسرائيل، ونحن على خلاف بين يسار يفتح بابه لواغل جديد، وبين يمين تشغله المشاغل في كل يوم جديد.

* * *

● الفجيعة في اليسار أنه ضعيف التعلق بالوطنية، وقد يفرض عليه إلغاء القومية، والقوة في اليمين أنه تعصب للوطنية والتقاليد، ومن هنا فهو يتحمل المسؤولية على صورة أكبر!!

● صور لها رائحة العالمية ـ فزهرة الحناء هذه الأيام ترسل شذاها. فإذا ما دخلت جنتك ولو حوضاً فيه شجيراتها لفاحت في معطفك نسمة تسكب العبير، فهي بنت الليل، ونوارة الوميض الناعس اليقظ. .

* * *

● . . وتكلموا عن الجميلة كيف تطلب حياتها لحياتها. . تنفر من الوحدة، تريد شريكها ذكراً هي سكنه، وهو ماسكها بالصون أن يذوب جمالها في حسرة، أو أن تذوب نفسها عارضة بدائعها وإبداعها. .

ـ قلت: هبك قد خرجت من بيتك دون أن تنظف هندامك، أما كنت تحصر نفسك في طريق لا يراك فيه عارف؟

ـ وهبك ركبت سيارتك القديمة «المهكعة» أما كنت تبعد بها عن نظرات رفاقك وأندادك؟

هذا صنيع القبح أو النقص أو المزري!

وإذا ما لبست الفاخر النظيف، وركبت السيارة الفارهة «الأبهة» فإنك تعرض نفسك لناظر، وتباهي الرفاق والأنداد.

هذا صنع الجمال!

إن الجمال حياة، يريد الحياة، يستعرض كل محاسنه وإبداعه وبداعته فخاراً وتيهاً ومطلباً.

الجمال كم كبير «كبير» وكيف أكبر.. من عجب ألا يطغى كمه على كيفه أبداً، فإن الكيف فيه ليطغى ويطغى حتى ليصبح هو كما بذاته لا يكال ولا يوزن.. وإنما هو يذاق ويحس ويبهج ويرزأ ويريح ويسعد ويقتل وحتى يصنع في وجدان عاشق كيفاً جديداً لما يحمله العاشق لهذا الجمال، سواء في إنسانة، في سنديانة، في زهرة، في كل ما هو حي يتحرك بذاته، أو هو الحي يتحرك بذاتك لذاته، حينما تتعدد المطالب، وتصبح اقتراحات تقول لهم لكي تلزم بنفاذ اقتراحك كمطلب لله أو للجماعة، ينبغي أن تهيئ المناخ المبيح والمتيح أن تطلب منه حتى يصنع لك ما تريد.

أما أن تقترح وتطلب وأنت غير ناظر إلى المعوقات فإنك تضيع ما عرفت، فإما أنك تتخلص منه، أو تتخلص به، أو تتملص منه.

فقد قالوا: اطبخي يا جارية، قالت: كلِّف يا سيدي!!

وأفضح منه قولهم:

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار!

● والصور لها حالات كحالات قارئها . . مثلها مثل الحي . . لا حياة لها حرفاً في قرطاس، وإنما حياتها كلمات يستوعبها الرأس . . فحيناً تغضب قارئها . . فاهمها . . كأنما هي موجهة إليه، وهي قد لا تفصله، ولا تقصده، وإنما هو لبسها فقصد مشاعره كصحوة من يقظة ضمير، أو كغفوة من غاشية البطر!

وهي قد ترضي قارئها الشجي . . هاضمها الحفي . . يرسلها بعد لسامع منه، أو قارئ بعده . . كأنما هي تعبير صادر عنه أحس بها في نفسه قبل أن يقرأ حتى إذا قرأها قال: هذا ما أردت!

وهي قد تضحك قارئها الخلي . . لا يحركها ضمير بغضب، ولا وجدان بألم، فهو في المنزلة بين المنزلتين . . إن شافه بها من تغضبه ضحك تشفياً منه، فأصبح مقتنيها كأداة يلعب بها على الغاضبين وكثيراً ما يلعب الغضب على الرجال، أو إن قرأها له الشجي ضحك منه لاهياً بشجواه مغيظاً لنجواه . . ساخراً يتطنز «ويل للشجي من الخلي»! . . فهو بها المقتني لأنه المغني!!

أما كاتبها فهو الغاضب بها لا منها، ولا الشجي لها، والضاحك من الحاقدين بها، أو الغافلين عنها، ولكنه لن يكون لاهياً بنفسه فهو من جده لا يعطي الصورة من هزله الساخر، وإنما هو قد أعطى التمرة والجمرة لمن يستأهلون.

. . وهذا البلد . . جزيرتنا . . أرض أم دحيت من تحت بقعة فيها «الأرضون» وبعثت من غار على قمة هداية الخلق، وانبعثت منها لغة شاعرة، وانتشر فيها ومنها علم وفير . . فيها أمومة الأعراق، ولبان العقيدة . . فيها المأزر والمعقل، ولكل أم أبناؤها، ولكل أم طبيعتها من

حنان ورفق، وامتداد ومدد، وتحمل وعطاء، وتضحية وإيثار، وحزن وحسرة، وفرحة ونداء وتلبية ورضا.. كل هذا فعلته أرضنا بالآباء البررة.. أعطته، ما بخلت بشيء من المعاني، ولا ضنت بالشيء من المادة.. حتى المدد بالزحف بعد الفتح أعطته ليرسخ الأساس ليكثر السواد لتنتشر اللغة.. أعطته وهي في ضيق وضنك وإهمال.. طبيعة الأم.. ضريبة الأمومة!

وللأبناء طبيعتهم كذلك.. فيهم الرضي، وفيهم من يقول: أف أف!.. وفيهم من قال الأكثر والأنكى، ومنهم من فعل الأشق والأشد، وفي الحيوان طبائع تختلف.. حيوان، أم تأكل بنيها، فيالك هرة أكلت بنيها.. فهل كانت أرضنا الأم أكلة الأبناء؟! لا.. لا.. وألف لا.. ويدفع التاريخ من يقول: نعم!! وفي الحيوان أم يأكلها بنوها.. فهل أرضنا.. أمنا أكلها بنوها؟!.. أقول نعم، والتاريخ يدفع من قال لا.. لا أسميه بغياً ولا عقوقاً ولا تنافساً ولا حسداً، وإنما هو تفوق هذه الأم ولو كانت في ضيق وضنك.. لقد تفوق فيها بيت الشعر حينما احتمل ما لا يحتمل، فأنمى من حيث نما فإذا بالبقية الباقية تحرص على الأمومة، وإن بقي الأبناء أكلت الأمهات!

هي أم لا تأكل بنيها، وأرجو أن يفطن بنوها ألا يأكلوا أنفسهم.. فإنهم بأكلهم لأنفسهم يأكلونها!!

ـ صور تحمل نفسها على برهان وتطوي نفسها لا على أضغان.. وإنما هي تذكير إنسان لإنسان..

ـ تذكرته وهو يحدثني عن رواق الأزهر أيام زمان، كان الشيخ فيه، هم الشيوخ في الأدب والسياسة، والفكر، والفقه، والفتوى والملح..

وجلس شيخ الرواق يحدث، فأعجب حديثه طالباً من التكرور،

يسمونهم «التكارنة» وأضحت لهم أسماء عدة الآن . .

وأراد الإعراب عن الإعجاب، فقال: يا ألم، يا ألم . . يعني يا علم، يا علم . .

وسمع أحد المتطرفين كلام الشيخ يتحدث عن الرواق، لا عن الرواقيين من الفلاسفة فقال: ما هم قالوا: يا قارئ الألم بين الجاهلين كتر كمود الشمع في تيعان عميان.

وغضب الشيخ، فقال: كتر وكتر أيه . . الطالب متعلم، بس لسانه هكذا فالمثل الذي أوردت لا ينطبق عليه . .

* * *

● حسن . . حسن . . وأكثر من جميل!!

تريد أن تضحك من الناس بنكتة، تلبسها واحداً من عباد الله؟

هم على أي حال!! قد أضحكوا . . وضحكوا . . أما أنت فضحكت كثيراً تعبث بهم . . ولو علموا بواطنك ـ بدأت تطفو على السطح من عملية النضج ـ لبكوا وأبكوا ليبصروا المخدوعين بشيء فيك . . ظاهره فيه الرحمة . .

لكنه عذابك يدوم . . أما عذابهم فمضى وذهب . . بل إنهم يستعذبون تمام المعرفة التي كانوا يجهلون!!

ـ سمعتها «الجرداقية» . . ربِّ من أين للزمان صباه؟ . . وتذكرت صورة الجلوة على منصة عروسين . . وتذكرت الحلوة وهي تمازح جمالها وجماله . . وتناغي صباها وشبابه . . كما تذكرت الحلو وهو يندى حياء من

صباه وشبابه.. غالية.. وغال..

وأرسلت الـ «آه» وأشرقت لمعة من دمعة، سألت فيها نفسي.. ونفسك تلك التي هي. هي، هل يصبح هذا الصبي عجوزاً بعد سنوات؟ رباه لا أطيق.. أغلقت أذني أمنع عيني ألا ترى حين تسمع «أنت الكبيرة»..

نعم سيكون الصبا عجزاً بعد سنوات.. قلت.. لو كثرت.. ما باليد حيلة!!

● «أعرج.. ويرقص في النخل»!!

صورة كاريكاتيرية باللطف المترف المرن، والمر أيضاً!! أحسبني أرده إلى أنه مثل قاله أحد أهل المدينة.. فهم وحدهم الذين يسمون الحائط، أو البستان أو الحيش بالنخل: هيا نطلع النخل.. هيا نقيل في النخل!..

وهو على كل حال مثل عامي.. لو فحصناه بالنطق المبين لوجدناه عربياً فصيحاً، ولو نطقناه باللهجة العامية كما هو البيان المصيب في استعماله الآن لكان عامياً.. النطق بالفصحى يعطيه الفصاحة لفظاً، والنطق بالعامية يعطيه الفصاحة بياناً.. عن صدق الصورة، وهذا يثبت فساد الطريقة التي أرادها قاسم أمين ـ يرحمه الله ـ.. فقد كان ينصح الناطقين.. تجنباً للحن أن يسكنوا أواخر الكلمات.. فالفرق بين فصيح هذا المثل، وعاميه هو التسكين!..

عجيب هذه اللغة الشاعرة.. فهي كما بيانها في النطق.. فإن تبيينها في السمع.. حتى الأذن كما اللسان تفصح الكلمات!!

والعامة تضربه للذين لا كفاءة فيهم.. فيتصدرون لعمل لا يحسنونه.. ثم هم لا يحسنون إلى الذين حطوهم فيه.. والعامة تقول: حطوه.. يعني

وضعوه. وفي النكتة البيانية هذا المثل: حطوه فانحط (!!).. تورية فيها ملاحة، وفيها فصاحة.. رغم أنف الذين لا يستسيغون تسميتنا هذه !

«أعرج.. ويرقص في النخل»..

فقد عابوا على الأعرج أن يرقص لأنه لا يملك الكفاءة الأولى في الرقص.. وهي ثبات القدم، ولم يعيبوا عليه أن يكون غير ذلك.. فكثير من الأعرجين تحارجت الدنيا من ضرباتهم.. «بس».. ما كانوا يرقصون.. حتى الشلل ـ وهو عرج مضاعف ـ رقصت به الدنيا أمام الرجل المشلول، روزفلت، ولكنه لم يكن راقصاً.. أي لا يحترف حرفة لا يجيدها!!

الأعرج الذي يرقص ينطبق عليه الوصف المعطى للصفيق.. يلبس أثواب الشتاء في الصيف، وأثواب الصيف في الشتاء!

لا يستطيع الأعرج أن يدخل في مباراة الجري، ولكنه يستطيع أن يكون ذا فكر، تجري أمامه كل الأحوال ليكون له حال معها.. تزداد به وضوحاً إذا ما كان فكراً خطه قرطاس.. أما أعرجنا هذا الراقص في النخل لا يريد أن يكون صاحب أكثر من صناعة.. ينطبق عليه المثل: «صاحب صنعتين كذاب، والثالثة مفلس»..

لكي لا تعرج بك الحياة ينبغي لك أن تقتصر على ما أنت مؤهل له.. تخصص فيما تجيد.. فكثير من العرج، وأصحاب العاهات قد نبغوا لأنهم أجادوا في ناحية، ولم يتبعثروا في النواحي الشتى!!

● صور لا خير فيها، وإنما هي الخبرة منها.. والتجربة أكبر برهان، فمن لم يصدق فليصدق مع التجربة حيناً ليرى:

ـ قال لي: كيف الحال؟.. وهو ينطق «كيف» بلهجة كثيراً ما سمعتها

«كموديل» أو كثيراً ما سمعت عنها كاختصاص الذين أذاعوها!.. ثم أردف: ماذا بك.. زعلان؟!

ـ قلت: زعلان، ولست بالزعلان!

ـ قال: كيف؟! ـ وهنا نطقها على سجيته لأنها استفهام مجرد، ليس فيه السؤال عن الحال!..

ـ قلت: لو جزع إنسان لحسابه لقل جزعه.. لأنه هو القليل في مشاكله مهما كثرت، ولكن المرهفين إحساساً، والمشفقين اجتماعياً يحسون بمشاكل غيرهم فيألمون لها أكثر من ألمهم لأنفسهم.. ذلك طغيان الوجدان ـ كانفعال ـ بل رحمة الوجدان كفعل، المشكلة أن تجد الحل لمشاكلك، وأن تجد العجز حتى عن الحزن لمشاكل الناس!!

● قال لي وهو يذكر إنساناً في هذه الدنيا، وبالصدق من غير بلدي:

ـ كيف أصبح غنياً؟!

ـ قلت:.. انظر.. لم تمطر السماء اليوم إلا رذاذاً ولكن الشعاب التي اكتنفت هذا المنخفض الأرضي أمام عكاظ قد ملأته وسالت من كل الجوانب، سالت عليه فامتلأ يغوص الناس فيه.. أصبح هذا المستنقع وقد يكون هذا الامتلاء لفلانك جعله مستنقعاً أخلاقياً.. يعني تكوّنت فيه قذارات، فأصبح بلا خلق، ولا خلاق!!

* * *

● ● اليوم مات خروف عندي.. لم أكد أدخل البيت ظهراً حتى وجدته قد ذهب إلى كومة القمامة تنهشه الكلاب.. كنت أريد أن أذبحه..

نأكل لحماً طرياً بدل السواكني، ولكن «الكنترول» في البيت أبى أن يذبح، فذبحته الأيام.

لقد تعلمت أن الحرص في كثير من الأحيان فيه كثير من الضياع، فلو أكلناه لما فقدناه!

ليست هذه ندامة، ولكنها مرثية لخروفي!.. فقد كان أنيساً.. حضارياً.. كما إنسان لا يطغى فكره على سلوكه، ولا سلوكه على فكره.

لقد أكلت هذا الخروف بفكري حينما أعطاني كلمة أنتقد فيها «الكنترول».. لقد نصرني على الحرص:

لحاك اللَّه يا سلم ابن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال!!

ورأيت على غلاف مجلة هندية صورة لأنثى.. فقلت:

ـ ما شاء الله.. تبارك الله أحسن الخالقين!! أنستني هذه الصورة أحزاني على الشاكين من الناس وحزني على الخروف!!

صور في خبر.. أو خبر في صورة:

ـ توقفت أن أكتب، ولكن قصيدة قرأتها.. فتحت المغلق من نفسي.. هكذا المغاليق كثيراً ما تفتح بالكلمة، وقليلاً ما تغلق بالكلمة!

الكلمات لا تغلق الأفواه إنما يغلقها ألاَّ تجد شيئاً تتكلم عنه!.. ينعدم هذا الشيء في الصورة التي قالها الفيتوري.. هي: جفاف الدماء على الشفاه!!

* * *

● خبر أفرحني.. سمعته أذناي، وصفق له دمي.. سمعته من تلفازنا..

يقول الخبر: إن عالمين أمريكيين قد استطاعا في باريس ـ أي في معمل أبحاث هناك ـ الفصل لفيروس السرطان.. يعني عرفوا الفيروس، وهم يجهدون الآن ليمسكوا بمقاتله.. ليريحوا الإنسان من هذا العدو الفاتك..

هذا الخبر مفرح ولا شك، لكن هناك خبراً قديماً يقول: إن السكر الصناعي قد حرم استعماله في أكثر من بلد عرف مضاره.. حرموا استعماله لأنه يسبب السرطان، لم أجد أي رد فعل عندنا يسأل هذه الأشربة الكثيرة التي حلاوتها من هذا السكر الصناعي.. حتى إن شراباً عندنا قد أعلن لتحدي هذه الأشربة أن حلاوته بالسكر الطبيعي، أريد أن أسأل: لماذا لا يكون هناك عمل لمقاومة هذه الأشربة إذا كان سكرها هو هذا الغار، أو يطمئن الناس عن كذب هذا الخبر، أو هذه الأشربة بأن حلاوتها من السكر الطبيعي؟!

السؤال موجه لوزارة الصحة!!

* * *

● من زمن كتبت أن كلمة (المواطن) كانت في الأصل من استعمالات الثورة الفرنسية.. من ألفاظ ميرابو، ودانتون، ومارا، وقلت: خير منها أن نستعمل كلمة (الأخ)!.. وأعيد الآن هذه الملاحظة.. فقد أسرف المتلفزون والمذيعون في استعمال هذه الكلمة: المواطن.

إن شعارنا المسلم هو: الأخ (إنما المؤمنون أخوة)، (المسلم أخو المسلم).

والذي أثارني الآن سؤال واحد من المتلفزين في برنامج لشاب جلس على المكتب . . قال له: من أين؟! . . كانت الإجابة قاسية، فقد قال: أنا من ألمانيا!! . . يسخر بالسائل . .

كأنما يقول: أنا من هذا البلد، وعربي . . ألا تسمع لهجتي؟ . . فأعاد السؤال عليه، فقال: أنا فلسطيني! . .

لو استعملنا كلمة الأخ لما خرجنا إلى تقليد، ولما فتحنا الباب لكلمات أخرى كالرفيق وما إليها، ثم أهم من ذلك ألا نجرح أمثال هذا الفلسطيني بكلمة المواطن . . فإن كلمة الأخ تعطيه قرابة الدم، والعرق، والتاريخ، والدين! . .

● صور بلون قوس قزح، تخبر عن ذرات المطر، وتخطر ذرات الرمال ببشرى مغيثة، ويتخطر، الإنسان في ضوء الإشعاع . . فرح بالمطر لحظات، ويصفق للقيمة الذاهبة كأنه يطرد الغمامة أن تعم، أو أن تقيم، إنسان ملول . . ما أشد حبه للوثبة من حال إلى حال.

ـ تلكمت في يوم مضى مع الصديق عبد المجيد شبكشي فإذا هو غاضب يئن بالشكوى من التطبيع «الأخطاء المطبعية» فعذرته . . إنها تكثر وتكثر من غفلة المصححين، ومن إهمال الطباعين والموضبين.

عصب الكاتب يحترق، ودم المسؤول كرئيس التحرير ومن إليه يحترق، والمصحح والطابع، يعتذران ثم لا يفيان، ويضحكان!!

والقارئ يصب اللوم والنقد على الجريدة كلها ورئيس التحرير بالذات.

● قال: نحن أصدقاء.

ـ فقال: تشرفنا! ثم أردف: هلا تعني أنك تعرفني، أو أنك تخبرني بذلك؟

إن كنت تعني أن أعرف فهذا شيء غير جديد، وإن كنت تعني أنك تفهمني فهذا لم يعد واضحاً بعد.

أنت تفترض الصداقة لتغنم من تكاليفها على فرض أني مطواع لك في كل ما يأتي منك.. هذا خطأ، إنما هو شأن الاتباع والأمعات.

إن الصداقة تعني الندادة والوفاق خطوة منك مع خطوة مني. أما أن ترهقني بالاستبداد برأيك وقولك وفعلك، ثم تطلب باسم الصداقة أن أكون معك، فهذا شيء لا أطيقه.

وسمع فقال:

ـ يا أخي الصداقة ما هي هز الكتوف، إنها الزمالة ولو بجدع الأنوف!

فأجابه: يعني أهز كتفي بنعم ليقطع أنفي، أما أنت فتهز كتفك يسلم أنفك حينما تهرب وتقول: لا..

ـ إذا لم تعط المثل فكيف أضرب بك الأمثال. حينما تحركني بك فإني أتحرك «بنفسي».. المثل منك محور أدير الكلمة الطيبة حوله.

أحبك رحمة وتفوقاً.. وأحب نفسي وأجد الصورة التي تشعرني بأني قادر على إقناع المغرضين والجافين. بما يدحض الغرض ويبعد الجفوة.

وسكت قليلاً ثم قال: سأفعل.. سأفعل..

وعلى أحر من الجمر انتظر الوفاء بما يعد.

● ● صور دون تعرية وبلا تعريف فهي تكشف عن ذاتها.

● القلم تعلق به قشة . . يغشى الحبر . . يتسخ الورق . . يطمس الحرف، كل ذلك يصنع العكننة لتشمئز وترمي به، وتترك الموضوع!

والورق الوسخ «الخوشق» فيه نمش ببطش الحبر لتغير، وتغير أكثر من قرطاس . . كلها تصبح بقعاً مسودة بغير حرف حتى لا ترى فيها جمال الحبر، الحروف هي التي تصنع جمال الحبر . . كما أن الحبر هو المزخرف لزينة الحرف . . يبرزها لك جمالاً للجمال، فهي تصنع له قيمة إن اتضح سواده ببياض كلمة، وهو ـ أعني الحرف ـ يصنع للحبر زينة تنتصب بها معاني الجمال فيه. ومزقت القرطاس كما رميت القلم، وبقي الحبر لكنه اندلق على الأرض فقد حبت طفلتي تلعب بالدواة فجعلت قطعة «الزل» بقعة سوداء كأنها كلف في وجه قمر . . خال على خد، القمر هو الطفلة حينما مسحت خدها صنعت زينة السواد في الخد الأبيض المشوب بلون العصفر على خفيف كأنما صنع بريشة أسطوري على رأسه ريشة بلون الورس والزعفران!

* * *

وجاءت أمها تريد أن تزيل الحبر فقالت الجدة: لا . . لا . . دعيها نرفعها تحفة لتبقى ذكرى . . لا لتمزيق الورق وإنما لتمزيق السأم . . مزقته هذه الطفلة.

ومضت سنوات حتى إذا زفت الطفة عروساً أخذت القطعة من «الزل القاشاني» معها . . تزينها بابتسامة كأنها ومضة بارق في ليلة معطشة . . تعلن عبثها الحلو الحبيب لتتقي عبثاً منها لترضى عبثاً من طفلها!!

* * *

● الحياة تستقيم بالأعراس كما هي قائمة على الفناء، والأعراس حرف على قرطاس أبيض نظيف، والفناء سواد مدلوق على ورقة صفراء فيها نمش!!

* * *

● القلم والقشة والورق والنمش، والحبر المدلوق أهون على كاتب من جليس يصرخ وهو يتحدث لا يرحم أعصاب هذا الكتاب وهو يكتب عموده اليومي!

* * *

● صور فارهة، نعيمها يقيمها.. وإن كان غير المقيم.. وثوابها من صوابها، تذاق بأنف، وتشم بعين.. فهل رأيت العين تشم.. نعم إن رأت ما تغرق فيه.. تعمق النظرة كأنما هي مسمرة.. فعينها الأنف، يوضح لها بعض ما تعمقت فيه.. يشم بعينها، كأنما العين أداة الوصول هي التي استروحت رائحة العمق نظرة، نظرة!!

* * *

● قلت له: هل صنعت ذلك الجيد بذوق مترف؟..

ـ قال: نعم كنت صافي المزاج، مشغول البال بها لا منها!!

ـ قلت: لقد أعطيت قانون الجودة تصنع نفسها بما أتت عليه ساعة أن بدأت تضعها!.

ـ قال: كيف؟.. لم أفهم!!

ـ قلت: إذا كنت في صفاء بال غير منشغل فإنك معطل مما يحرك المعنى. . يصنع الحرف، يجيد البيان. .

أما إن كنت في شغل في أكتافه وخزات ألم فإنك تتحرك فتجيد. . فالمسرة كصفاء بال بعثرة النفس بما يشتغل بها فيشغلها.

أما الألم والانشغال بتلك، بأي شيء. . فإنه لا يعطلك بل يحرك كل شيء فيك، ليبرز عملاً منك. . وصناعة الكلام عمل لا يأتي إلا بانشغال البال ألماً، ليس في الكآبة والكدرة القاتمة. .

ـ قال: نعم كنت فيها. . ومنها. . فصنعت ما أعجبك!

* * *

● قال: ما هو البيت من الشعر تردده يومك هذا؟. .

ـ قلت: هو بيت ابن زيدون في قصيدته الدمعة، والحزن، الباكية نفسها، ليس من حسرة الهجر وإنما هو سخرية العقوق وشماتة الحاقدين!!

أولي وفاء وإن لم تبذلي صلة فالذكر يقنعنا والطيف يغنينا!!

ـ صور رابضة ناهضة، وامضة غامضة، غاضبة، راكضة، فيها ما يريح المليح، وما يغيظ القبيح!!

● وسألني: ما إسرائيل؟

ـ قلت: إسرائيل فرقة أجنبية في جيش الأطلسي، فقد أصبحت قاعدة تغني عن قبرص ومالطة وما حولهما.

من هنا يحاربها حلف وارسو!!

* * *

● في أوائل هذا القرن.. تكلنز رجال بالجنيه الذهب فضاعوا ـ وتألمن رجال بفتنة القوة فباعوا، ثم «ضاعوا» وتبلشف رجال للرغيف فأضاعوا وباعوا حتى جاعوا وتأمرك بالدولار رجال فجنوا وجنوا فبانوا وهانوا، أما الذين أسلموا وجههم فسيغنيهم الله من فضله.

● فلاح مسكين زرع أحواضاً في حوش صغير يملكه برسيماً وكراتاً وفجلاً.

وتفقد زرعه، فوجد رأس فجل فحل كأكبر ما يكون الفجل. فحمله يجري فرحاً به يهديه إلى الإمبراطور في المدينة الكبيرة فتقبله الإمبراطور هدية من إنسان لا يملك غيرها، وأعطاه حتى أغناه.

وسمع جاره صاحب البستان «الجنة» الوارف الظلال الغني. فقطف العنب والورد والفل، وذهب بها إلى الإمبراطور.

ـ فقال الإمبراطور: هذا مكثر حسد جاره فأراد محاربته وسلبنا فأعطوه رأس الفجل!

* * *

● قلت لبعض من صحابي: لقد رأيت اليوم حبة من البطاطس زنتها خمسة كيلوغرامات من تربة «اكرانيا السعودية» القصيم!

ـ قال أحدهم: أرض طيبة بكر.

ـ قلت: ما أجود الأرض، ما أطيبها! ما أشد كسل المستأرضين تأخروا عن زرعها. فأحبت أن تريهم فعلها وجودها وثراءها.

ـ قال: عساهم يجودون معها وإليها لتعطيهم أجود ما فيها.

ـ قلت: يظهر أنها البداية يبرز فيها جود الأرض والمستأرض!

● مواقف لصور . . أو صور لمواقف:

ـ في غزوة تبوك . . في الموقف العسر زمناً، ومادة، ونفسيات . . سأل رسول الله ﷺ عن كعب بن مالك وماذا صنع؟ . . فقال أحد الصحابة كأنما يعيب على مالك تخلفه عن رسول الله:

ـ لقد غر «مالكاً» نظره إلى عطفيه!!

صورة تعطينا الترف في الجسد والنفس، وجمال الرجال، وغناء الرجال في كعب بن مالك، وتكلم معاذ بن جبل . . يرد على صاحبه . . يسمع النبي كلمة الخير فقال:

ـ والله ما رأينا عليه إلا خيراً! . .

ثناء الأكابر على الأكابر . . أطمعه فيه عمق الرضا في ساعة الغضب . . في فؤاد النبي ﷺ.

ورجع النبي فإذا كعب بن مالك في الثلاثة الذين خلفوا، وإذا الحرمان يكتب عليه، والمقاطعة، والبعد . . كلها تنصب عليه، ولكنه لم ينقطع عن المسجد . . يصلي بصلاة النبي . . يرجو الرحمة من الله!

وبينما هو في عذاب النفس جاءه كتاب من النصراني الملك العربي . . غسانياً في دمشق، من أبناء جفنة . . يقول له في الكتاب: بلغنا أن صاحبك قد جفاك فهلم إلينا تجد عندنا السعة والوفاء!! . . كأنما هي الأزدية قد شمخت في رأس الملك . . يغري بها ابن عمه! . . وقرأ كعب الكتاب فقالها كلمة ليس فيها حظ النفس من الأنانية، وإنما فيها حظوة النفس من

الإيمان.. قال كعب وقد ألقى بالكتاب:

ـ وهذا أيضاً من البلاء!!

أي بلاء؟!.. ليس هناك أشد من بلاء الإغراء بالفرج في وقت الضيق.. على نفس ضاق بها حب الأحباء!!

وتنفس كعب.. لقد جاءه الفرج من عظة النفس المؤمنة.. آمنت بحبها لله.. أيقنت بحبها لرسول الله.. ارتفعت بحبها للمال تسعد به النفوس المؤمنة ولو كانت آجلة.. لا تفرح بالآمال.. يشقى بها الرجال لأنها العاجلة!!

ـ وقال كعب: لا يحزنني، ولا يشقيني إلا أحد أمرين: فإما أن أموت وأنا في هذا الحرمان فيخفى على قومي مصيري.. وإما أن يتوفى الله رسوله وأنا في هذا الحرمان فيخفى علي مصيري!

وتجلت رحمة الله على المؤمن فتاب الله عليه، وإذا هو في الأكرمين أحد الثلاثة الذين خلفوا فتاب الله عليهم.

أي موقف هذا؟!.. لو وقف الرجال مثله لما استقام أمر لخائن ولقتل العقوق، ولأينع الحب ينبت عظمة الرجال!

* * *

● والمتنبي.. أحمد بن الحسين.. شاعر الدنيا.. شاعر العربية الأكبر تحدث عنه سيف الدولة الملك العالم.. تحدث إلى ابن خالويه، وأبي علي الفارسي.. الإمامين في زمانهما.. إمامتهما في الفقه.. فقه اللغة الشاعرة.. قال سيف الدولة.

ـ لا يغرنكم من المتنبي أنه شجاع . . لقد انكشفنا فإذا بنا نحن ستة في مواجهة الروم، فالتفت أرى المتنبي يضرب غصن شجرة بسيفه وقد علقت عمامته به . . فيقول للغصن وهو يضرب بالسيف: اترك عمامتي يا علج . . أترك عمامتي يا علج!! . . فقلت له: أي علج . . إنها الشجرة علقت بها عمامتك!! .

● صور . . هي مشاعرنا، أو هي مشاعر الذين تحس مشاعرهم . . يعني أنها منك لنا، أو لك منا:

● أحلام اليقظة: الواقعيون يقولون عنها إنها نوع من الجنون، وقد يبالغون أحياناً فيقولون إنها الجنون المطبق . . إذا ما شغل إنسان ما فراغه بها . . يملأ دنياه بزخارف أحلامه . . يسعده التخيل، وإن جفاه الواقع، وهؤلاء الذين يصفون الحالم في اليقظة بالجنون يصفهم الحالمون بأنهم عقلاء لكنهم أشقياء، فالواقع تجسيد لوضعهم . . قد يكون فيه الكثير من القوة، أو من الامتلاك . . لكنهم ماذا يصنعون بهذا كله!!

إنهم يصنعون لأنفسهم حساب الربح والخسارة . . رجحان الهزيمة على النصر .

من ذلك يعيشون في كرب الواقعية . . لأن التجسيد فيها ليس هو الجمود بها، وإنما هو التجمد عليها . . لا خيال . . لا إحساس حتى إنهم إذا امتلأوا أكثر أو كسبوا أكثر لا يشعرون بشيء من زخارف دنياهم . . إن شعورهم ينحصر في توقي الخسارة الأكبر، والهزيمة الأكبر، حسابهم دائماً سلبي مع ما يمتلكون . . أما حساب المزخرف حياته بالأحلام، فإيجابي مع نفسه يمتلك بالخيال كل أمانيه كأنما هو قد أمسكها بيده، ثم ينصرف عنها . . يبعثرها كأنما هو أهلكها عامداً قد سعد بالربح كل لحظاته، ولم

يأس على خسارة.. كانت أحلامه وجوداً أما ضياعها فلن يكون عدماً لأنها بأحلام أخرى تتجدد!!

ـ وسألني أحدهم: هل رأيت أم كلثوم؟

ـ قلت: كان من الممكن أن أراها، ومن حقها علينا أن نزورها، لكني تعمدت ألا أكون في حضرتها لأني أراها، وإن لم أرها.. هي في وجداني، وبما أعطت للنفس العربية، فأغنت بما غنت.. قد أصبحت المثل، الحب لها والتكريم لا ينقص بعدم الزيارة، وإنما هو يزداد.. فبعض الحرمان من الرؤية رؤية أقوى لمن تحب إذا ما شغل وجدانك بما أعطاك.. لو رأيتها لما زادت عن إنسانة تنحصر في الصورة التي أراها بها، ولكني حين أراها كأنها المثل.. لأنها قوام كبير في اللغة العربية.. لأنها ثروة ضخمة من فن الفن عربياً وإنسانياً.. لأني بهذا كله أحول دون، أي شائبة تبخس هذا الكائن في وجداني شيئاً مما قد كان له، وتكون به، وكنت أنا فيه.. تعمدت ألا أراها لأنها أكبر من رؤيتي، فلا أحبها تصغر أمام الرؤية إنسانة مائلة أمام عيني.. أريد أن أحافظ على هذا الإكبار لها في أذني وسمعي وعواطفي.. أما العين فيكفي أنها ترى الصورة لا تسرع بشيء يشوب التصور لهذا الإنسان الصداح.

إن أم كلثوم شيء كبير في أذن الغناء، وعواطف الحرف، وزخرف الكلمة..

● صور رائقة كأنها غير وامقة.. فالشغف بشيء دائماً يتحفز لا يستقر على هدأة، بل هو منتشر في النفس انتشار التصور للشيء المحدود يراه غير محدود.

فالتصور يعطي الأشياء أكثر من معانيها وأكبر من حجمها تلك هي التي

يحسبها الخلي خدعة . . ولا يراها الشجي إلا متعة .

* * *

● قال : ما أنت اليوم؟

ـ قلت : سؤال عن ماذا، لتعرف، لم تسأل من أنت؟ وإلا لكان السؤال تافهاً . . لكن ما أنت؟ قد جاء في مكانه . قال : تجهلني كل لحظة ولو عشت كل اللحظات معك!

ـ قلت : فما أكثر ما يتغير الإنسان على نفسه من نفسه!

والإجابة عن سؤالك هي اليأس انقلب إلى تشاؤم، فلقد كنت أرفض التشاؤم، ولو وقع نادراً كنت أحيله إلى يأس مؤقت .

أما اليوم فقد انقلب اليأس الموقوت إلى تشاؤم أخشى أن يدوم .

إني أمتع نفسي بهذا اليأس والتشاؤم لأربح الأمل من الكذب عليه، أو الكذب به .

أحوال تحملك على ذلك . . هذا مخيف . لكنه يحول الكذب المنتظر يتطلع إلى سراب . إلى جد وصدق حينما عرفت الحقيقة كواقع .

لو كان هذا لحساب نفسي لنبذت هذا التصور أو هذه الرغبة ولكنه لحساب الجوانب الأخرى التي أحس لها بها، وأفكر فيها لها .

دعني أستريح بمتعة الشقوة باليأس والتشاؤم .

وخاضوا في حديث عن الحب!

ـ قلت : الحب أقسى القيود، لكنه لن يكون دون حرية .

حرية الاختيار والاستكناه والتعبير والعبرات والزفرات والنوال والطرد،

والقبول، والمنع والشقوة، والسعادة.

كل عمل الحب بقسوة قيوده هو حريته، في نيل المتعة به.

صور: تشرح نفسها..

● خادمك.. يخطىء.. موظفك يخطئ.. في المرة الأولى تحسب عليه خطأه، وفي المرة الثانية تحمل عليه كذلك.

فإن عاد مرة ثالثة فإنه لن يكون خطأ الواحد منهما وإنما هي أخطاؤك.. لأنك ما قدمته أول الأمر. لم تردعه في الثانية!

وهكذا تتم الحظوة. يستمرئ غفرانك له. ويستهين بك.. وتجري المشاكل.. وتستحيل الأخطاء بإهمال الجزاء إلى جريمة.. بل جرائم..

● أستاذ رأى تلميذاً يصفع أخاه مازحاً معه، فلم يضرب الصافع، وإنما ضرب المصفوع.. سألت لماذا؟

ـ قالوا: إن المصفوع كان ضعيفاً، والصافع يركب سيارة قيمتها مستقبل شاب!

● فتاة من أهلي قالت:

قرأت خبراً عن «دكنز» الكاتب الإنكليزي صاحب الرواية.. «المدينتين».

يقول الخبر: إن ديكنز كتب هذه العبارة المجنحة.. البعيدة في أبعاد الظلال فيها.. الواضحة في مدلولها وضوحاً لا خفاء فيه تحت الظلال.

وقف إنسان أمام سيد المقاطعة.. يقول له: سيدي.. سيدي.. إن الخيل وطأت بسنابكها أطفال القرية..

ـ فقال السيد: ماذا؟ هل أصاب سنابك الخيل ضرر؟

ـ أب سلب روح ابنه . . كيف؟

ما قتله، بل جرعه العقد بالقسوة والإهمال فضاع رشده.

الأب الشامخ الذي يغضب من ذبابة تطأ منخره، أصبح يرى ابنه مسلوب الروح، يعبث ويلهو ويرسم العته والجنون.

نادى ابنه: تعال . . تعال!

فقال الابن: لن أعود! . .

أنا لن أعود، فالجنون نعيم، لقد سلبت روحي، ولن تستطيع أخذها أو ردها!!

● «الغزّالة الجيدة تغزل بجريدة»!

«سيبوه . . سيبوه دا ما يقدر يطلع عنز من شعير»!

تمشية الأمور على الخطأ . . خير من الوقوف بها عند الصواب!

مثلان من أمثلة العامة، ومثل، أو حكمة فصيحة قاله أو قالها «أحمد ابن الفرات»:

المثلان، والحكمة كلها تدور في فلك واحد . . كأنما هي أنشودة تنوع تقسيم النغم فيها، ولكن المحط واحد!

كاتب النوتة . . ملحنها . . موزع موسيقاها: معلم، أستاذ، هي الحياة المعلم الأول . . الذين يوزعون نغماتها، وآهاتها هم الذين مارسوا التجربة . . فالتجربة وحدها لا تكفي أن تعيشها . . أن تمارسها . . الكفاية والفائدة أن تدرسها . . أن تحياها في غيرك من الناس . . مع غيرك من الناس . .

«الغزّالة الجيدة تغزل بجريدة» جداتنا يضربنه مثلاً للبنت الفالحة . . تقيم

أودها.. تعمر حياتها بالقليل الموجود لديها.. إن كسر مغزلها صنعت مغزلاً بنفسها، لا تجري وراء الكثير فيعجزها أن تعمل بما لديها من القليل، وكثير منهن من تجد بيتها عامراً بأقل من القليل، وبعضهن من تنغص حياتها بعدم الالتفات إلى ما تملك.. تتطلع إلى ما يمتلكه غيرها.. فتشقى بالعدم ولديها الوجود!

المثل الثاني هو عكس المثل الأول.. يضربه آباؤنا للخاملين.. أفهمه على أوجهين: إما أنه كلف بحراسة معلف الشعير فجاءت عنز تلتهمه ومن عجزه يتكاسل عن رده.. أي إن العنز تأكل الشعير، وهو ليس لها لأنه أهمل حراستها من الخور والعجز فيه، وإما أنه لا يعرف كيف يرعى عنزه.. يملك الشعير فلا يعطيها لتسمن، أو أنه يملك الشعير فيتركه أمامها للتخمة.. تأكل منه الكثير فينبعج كرشها فلا تخرج العنز الصالحة للضرع لأنه أهمل الزرع..

والحكمة الفصيحة قالها «أحمد بن الفرات» يحدد سياسة الرجال يقول لهم: لا تقفوا أمام نشدان الصواب.. إنك لا تدري الصواب إلا بعد أن تعرف الخطأ.. من لا يعرف الشر حري أن يقف فيه.. قالها الفاروق رضي الله عنه..

أحمد بن الفرات ينصح الرجال أن يسيروا بأعمالهم.. يعملونها، وقد يقعون في الخطأ ولكن الخطأ لا يأتي إلا من صواب الذين يعملون.. الذين لا يعملون هم الذين لا يخطئون.. تجربة أحمد بن الفرات.. تجربة مريرة ذاقتها أعصابه.. يسكبها لنا.. نترشفها حلوة ترتاح لها أعصابنا «تمشية الأمور على الخطأ خير من الوقوع بها عند الصواب».. حكمة نفسر نفسها، ولا حاجة لمزيد!!

● صور ليست كزجاجة المصور تجعل البياض سواداً، والسواد بياضاً. . كما هي مجنحة أستاذنا الرافعي يرحمه الله. . لقد أخذت هذه الصورة بريشة من ريش القلب، فإن تعبير العامة بقولهم «ما بقي قلبه إلا على ريشة». . هذا التعبير حلو فيه عزاء للذين تخفق كل ريشة في قلوبهم. . أما مثلهم: «الحرامي على رأسه ريشة» فالتصوير بها يعرفه الذين يخفون رؤوسهم. . يخافون أن تظهر الريشة!

* * *

● تعوّد البابا أن يصدر قرارات لحل الأزمات، أو لإثارة المشاكل، لكن أتباعه يسعون له لأن مطاولة الزمن كما هي صانعة الأزمات تحل المشاكل! . .

لكن المشكلة التي أثارها البابا الآن، ولا أدري ما هي أسبابها، هي إصداره هذا القرار بتزييف بابا نويل «سانتكرون». . إنه بهذا القرار لم يصطدم بالرجال، ولا بالأباطرة، ولا بالسياسة فإن هذا سهل، وكثيراً ما تخطاه البابا، ولكنه الآن قد اصطدم بالعواطف، بالأم والطفل، ومن هنا تأتي الصدمة، أو التصادم قوة سوف تنتصر على قرار البابا، والهزيمة بها ستعقبها هزائم لكثير من القرارات، لأن الأطفال، والأمهات لن يطيعوا التخلي عن دمى الفرحة في يومها المعين، إنهم سيتهمون البابا بأنه قد أحال حياتهم إلى مأساة في كل العام. . هم يعيشون أيام العام في كرب بين مشاكل الحياة وكل فرحتهم في يوم واحد، إن المشكلة ستكبر. . ستجعل كثيراً من الأمهات والأطفال يفكرون بأن قرار المجمع الكهنوتي بتبرئة اليهود هو قرار مرتجل ومغرض مثل هذا القرار. .

بابا نويل. . تقليعة أو تقليد غير أنه ليس من السهل تحويله إلى لا

شيء، وقد أصبح وهو لا شيء كل الشيء في عاطفة الأم وبسمة الطفل! وهكذا الكهنوت يرتجل القرارات.. ما أحسن الإسلام حينما قضى على الكهنوت، فليس فيه أحد من البشر يستطيع أن يتخذ قراراً تكون له قيمة الوحي.. إن الإسلام قد دمر الكهنوت ليكون الإنسان سيداً لا عبداً!!

* * *

● سألني: هلاّ سمعت الأغنية الجديدة لصداحة الأيك الغالية «أم كلثوم»؟!

ـ قلت له: إن تعاملي مع أم كلثوم ليس مثل الناس.. فأنا لم أذهب إلى حفل لها حتى وأنا في القاهرة، ولا أسمعها في أوائل أغنياتها، فإني أريد أن أتسقى الطرب منها حينما تعتق الأغنية.. أهرب من الجمع لئلا تخدش أذني بصوت آخر.. أهرب من السماع الأول لتألف أذني هذا المعتق من نغمها وصوتها، فأغنية «أقبل الليل» لم أسمعها إلا بعد أيام.

● من يهد الله فهو المهتدي..

قرأت ظهر أمس للدكتور مصطفى محمود في مقاله عن إعجاز القرآن كلاماً مؤمناً، بعضه نعرفه، وبعضه عرفني هو به. لم أكن قرأته حين كتبت اليوميات.

ومن فضل الله علي أني إذا ما أعجبني شيء مادي ومعنوي أحببت أن أشرك إخواني معي فيه.

والخير كل الخير أن نشركهم في قراءة كلمة مؤمنة، نؤمن بها ساعة «هيا بنا نؤمن ساعة».

لقد كان بحثه عن كثير.. تخيرت منه ما كتبه عن العنكبوت.

ـ قال: ومثل آخر.. هذه الآية من سورة العنكبوت.. ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤١).

فهنا نرى القرآن يختار صفة التأنيث حينما يتحدث عن العنكبوت فيقول: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ (العنكبوت: ٤١).

وقد كشف العلم مؤخراً أن أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت وليس الذكر وهي حقيقة بيولوجية لم تكن معلومة أيام نزول القرآن!

والحقيقة الثانية هي وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت.. ولم يقل القرآن: خيط العنكبوت أو نسيج العنكبوت، وإنما قال: بيت العنكبوت، وهي مسألة لها دلالة.. ولها سبب.

والعلم كشف بالقياس أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصلب ثلاث مرات. وأقوى من خيط الحرير، وأكثر مرونة، فيكون نسيج العنكبوت بالنسبة لاحتياجات العنكبوت وافياً بالغرض وزيادة.. ويكون بالنسبة له قلعة أمينة حصينة.

فلماذا يقول القرآن: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ (العنكبوت: ٤١).

فلماذا يختم بكلمة «لو كانوا يعلمون»؟

لا بد أن هناك سراً!!

والواقع أن هناك سراً بيولوجياً، كشف العلم عنه فيما كشف لنا مؤخراً، فالحقيقة أن بيت العنكبوت هو أبعد البيوت عن صفة البيت بما يلزم البيت من أمان وسكينة وطمأنينة.

فالعنكبوت الأنثى تقتل ذكرها بعد أن يلقحها.. وتأكله.. والأبناء يأكل بعضهم بعضاً بعد الخروج من البيض.. ولهذا يعمد الذكر إلى الفرار بجلده بعد أن يلقح أنثاه ولا يحاول أن يضع قدمه في بيتها!

وتغزل أنثى العنكبوت بيتها ليكون فخاً وكميناً ومقتلاً لكل حشرة صغيرة تفكر في أن تقترب منه.

وكل من يدخل البيت من زوار وضيوف يقتل ويلتهم.

إنه ليس بيتاً إذن بل هو مذبحة يخيم عليها الخوف والتربص وإنه لأوهن بيت لمن يحاول أن يتخذ منه ملجأ.

والوهن هنا كلمة عربية تعبر عن غاية الجهد والمشقة والمعاناة، وهذا شأن من يلجأ لغير الله ليتخذ منه معيناً ونصيراً.

كلام رائع ومؤمن نفرح به الراجعين إلى الحظيرة المسلمة، نقلته نصاً.

ولقد فات الدكتور الطبيب الشيء الذي ينبغي أن يعرفه كطبيب لو قرأ التذكرة مثلاً أو كتاباً في الطب العربي القديم لوجد هناك ما يسمونه برؤ الساعة.

فهم يقولون: إن الجريح نازف الدم لو وضع بيت العنكبوت على الجرح النازف لشفي بسرعة.

وهذا صدق جربناه فوجدنا نجاحه، حبذا لو أن الأطباء يولون بيت العنكبوت بحثاً، فلعلّ فيه شيء من قوة «البنسلين» أو مركبات «المليسين».. أو الأقوى منهما؟

سبحان الله فهو أحسن الخالقين.

● دخل نصيب على عبد العزيز بن مروان، فقال له عبد العزيز وقد

طال الحديث بينهما: هل عشقت قط؟ قال: نعم، أمة لبني مدلج، قال: فكنت تصنع ماذا؟ قال: كانوا يحرسونها مني، فكنت أقنع أن أراها في الطريق وأشير إليها بعيني أو حاجبي، وفيها أقول:

وقفت لها كيما تمر لعلني ... أخالسها التسليم إن لم تسلم
ولما رأتني والوشاة تحدرت ... مدامعها خوفاً ولم تتكلم
مساكين أهل العشق ما كنت أشتري ... جميع حياة العاشقين بدرهم

ـ فقال عبد العزيز: ويحك! فما فعلت؟ قال: بيعت فأولدها سيدها..

ـ قال: فهل في نفسك منها شيء؟ قال: نعم، عقابيل أحزان.

صورة من مجالس الأكابر..

عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك، فكان ملك الإسلام قسمة بينهما، الخليفة في دمشق، وأخوه في مصر.

وهذا الشاعر الأسود المسود بالولاء لسيده ومعتق أهله جميعاً.

فقد كان عبد العزيز بن مروان حفياً بمولاه.

* * *

وهذه صورة أعجبتني للحطيئة في مدحه لآل شماس الذين هجا من أجلهم الزبرقان بن بدر، سيد من سادات تميم، فالحطيئة الهجّاء قد واتاه المدح فأحسن كل الإحسان يقول:

أتت آل شماس بن لأي وإنما ... أتاهم بها الأحلام والحسب العد
فإن الشقي من تعادى صدورهم ... وذو الجد من لانوا إليه ومن ودوا
يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها ... فإن غضبوا جاء الحفيظة والجد

أمـلـوا عـلـيـهـم لا أبـاً لأبـيـكـم من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا
أولـئـك قـوم إن بـنـوا أحـسـنـوا الـبـنـا وإن عـاهـدوا أوفـوا وإن عـقـدوا شـدوا

● صور ناضجة تؤكل ساخنة على مائدة تقدم الأطايب دلفاً. دلفاً، يعني «كرضل» صحن وراء صحن، بس «الحلا في الآخر».

● ● يحكى أن الأسد قد أصيب بوعكة. فزاره السباع والوحوش، كل يمشي إلى عرينه، ومن بينها أبو النجم الذئب.

وتحسس السرحان هل زار الثعلب؟ فعرف أنه لم يأت للسؤال عن الأسد! فعزم على الكيد له. وكان غاضباً على أبي الحصين لأنه حرمه من عنز همَّ بخطفها حينما صاح: فات. فات.. لأنه خطف الديك وجرى يسرع به ليأكل خارج الحدود.

وقال الذئب للأسد: مالي لا أرى الثعلب قد زارك؟ أكل السباع تزور وهذا الخبيث لا يزورك؟ يوغر صدر الأسد على الثعلب.

وعلم أبو الحصين بمكيدة الذئب.. فاغتنم خلوة وذهب إلى العرين يقول: لقد تأخرت عمداً. ذهبت في الآفاق أبحث عن دواء. فأخبرني العطارون والجراحون يصفون لك الدم الحار والمخ الساخن من ساق ذئب.. تكسرها فتمص الدم والمخ.

وجاء الذئب يسأل عن الثعلب ويذكره بسوء.. حتى إذا قام ضرب الأسد ساقه فكسرها وامتص الدم ولحس النخاع.

وبينما هو يتلوى ويعوي، مر به الثعلب، يقول له: إن مجالس الكبار ينبغي أن يلزم فيها الأدب، فلا خير في إنسان تفسده الحظوة، وتبطره بالتقريب.

* * *

● ● الرجال أربعة:

رجل يملك الرأي يصدع به، ويطيق الرأي البديل يبديه في حوار، أو يقتنع به في هذا الحوار، كما يطيق هضم الرأي جاء من غيره ولم يجد له بديلاً من عنده، فهذا ممتاز.

ورجل لا يملك رأياً. . ولكنه يطيق الرأي البديل منه أو من غيره، أو يهضم رأي الآخرين، فهذا جيد.

كلاهما يفعل ذلك أو يتقبله بسماحة نفس ورجاحة عقل! فهذا مقبول.

ورجل لا يملك رأياً، ولا بديل عنده، لكنه يطيق تحمل الرأي من غيره، فهذا في حاجة إلى ملحق.

ورجل لا شيء عنده من رأي، لا يملك، لا يطيق، لا بديل، فإذا جاء الرأي من غيره تورم وعارض ورفض. فهذا راسب، وإن طفى في بعض الأحايين، لأنه يرفض الذين يطيق الرفض لهم، ويصبح الأمعة لمن هو في قوة إملاء الرأي. .

ـ صور راعفة، راعشة، تسير إلى هدف. . ولكنها لن تصل إلى غاية. . فلقد قل السامعون. . وكثر الفعالون. . وهزم المنفعلون. . وفاز المفتعلون!!

● قلت له: إن لبنان يوم أمس كان «كمبوديا» العرب، مع فارق واحد. .

في لبنان لا «سهانوك». . وإنما ياسر عرفات. . في «كمبوديا» وجدت الحرب ضدها معارضة شديدة في كل مكان. . حتى في الولايات المتحدة نفسها. . من «فلبرايت» وأعضاء الشيوخ إلى طلاب الجامعات، حتى وصل

الاعتراض إلى اللغة الناعمة من فم «مايكل ستيوارت» وزير الخارجية في المملكة المتحدة «بريطانيا العظمى» سابقاً..

أما في لبنان فقد وجدت في مجلس الأمن عضوين يلعبان بسلطان القوة.. كأنما الغزو الإسرائيلي قد خطط ليكون ذريعة.. يصدر بها قرار في إيقاف القتال في كل المنطقة.. يعني إعلان الهدنة المقنعة لتعطيل المدافعين عن أرضهم وشرفهم..

كمبوديا أثارت العالم كله..

ولبنان أثار العرب بس!!

● صحف إسرائيل غاضبة تكيل الطعن على قرار مجلس الأمن الصادر بطلب انسحابها من لبنان.. حتى إنهم يصفون الدول الأمينة على الميثاق بالهبل والغفلة!!

دلال، وتفوق الأجراء، إذا ما استمرأوا الحظوة عند من يخدمون من الأقوياء..

أما «أنا» فعلى كثير من اليأس من أي قرار صدر ويصدر من هذا المجلس.. لا لأن إسرائيل لا تنفذه.. ولكن لأنه المجلس لا يحرص على أن تحترم قراراته.. ثم إن هذا القرار أمكنت له فرصة أن يتسع ليشمل الوضع كله.. كأنهم اليوم في شيء جديد طرأ ولا علاقة له بما طلبه قرار مجلس الأمن الأول القاضي بانسحاب إسرائيل من الأرض المحتلة..

قرار مريض.. لأنه ليس بالقوي ولا بالعريض الحازم..

هكذا.. كأنها السخرية من دول توقعه وهي التي تعطله..

● فرعون نادى هامان، أن يبني له صرحاً لعلّه يطلع إلى إله موسى

وهارون . . عهر الطغيان . . وفسوق من عماية الوجدان .

لقد تمطى بكل قوة . . فماذا جرى؟

أمهله الله، ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر، فأغرقه في أشبار من الماء . . لم يطلع إلى السماء، وإنما غرق في الماء . . إنها عظة، إنها عبرة . . ولكن قل السامعون!!

● الأحلام العضوية . . هي المنبهات للنائم عن شيء حدث أو مشى، أو طرأ بجانبه، فإن هناك رسالة كهربية من هذا الشيء إلى النائم يخبره بنفسه . . حراسة الإنسان، ووعي الإنسان!!

بجانبك فانوس أرخيت فتيلته فالتهب بدخان من فساد أو خراب، فإنك تشعر وكأن حريقاً شب بجانبك فتصحو من نومك لتجد الفانوس المدخن .

واليوم رأيت التلفون بجانبي قد تبلد، فلا جرس ثم التهب دخاناً . . فصحوت، وجدته ضائعاً من الرقم أو الجهاز المستجيب لندائه الموصل لطلبه . . فكلمت ٣٧٧٧ يعني الصيانة فوجدوه خرباً وأصلحوه . .

هذا نوع من الأحلام . . إحساس بواقع!!

* * *

● وسئل المخزومي عمر بن أبي ربيعة عن أيهما أجمل؟ . . أعائشة بنت طلحة، أم سكينة بنت الحسين؟

وقد جمعهما الله زوجين تحت مصعب بن الزبير بن العوام أيام إمارته على العراق عاملاً لأخيه عبد الله . .

ـ فقال عمر: عائشة أجمل، وسكينة أملح . .

لقد فرق هذا الفنان بين الجمال والملاحة..

الجمال في البيضاء، والملاحة في الياسمينات والسمراوات..

العرب أهل الملاحظ، وإن لم يتخل عنهم الجمال..

● قال له: كيف تحب ولدك؟

ـ قال: أبذل جهدي في إسعادهم وتربيتهم وتقويمهم، ثم أحفظهم بكف الأذى عن الناس.. أخاف عليهم أن يصابوا بما تجني يدي، أو يعمل لساني..

ومصداق ذلك قوله تعالى:

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء: ٩)..

القول هنا يشمل العمل، وإنما «والله أعلم» قد خص ما يستصغره الإنسان، يوقظه، يمنعه من فعله.. فالقول حينما يخرج منك ما هو إلا فعل.. ولن تجد أباً يحب ولده إلا أحسن إلى الناس بدافع قوي، حتى إذا اشتد في موضوع تراجع عنه ما دام فيه إحسان!!

ـ قلت له: لا تعجب من باطل قوم!.. إن الباطل لم يتحكم فيهم إلا باسم الحق، فالحق عند المبطلين وفي دعواهم هو سبيلهم إلى الباطل يخدعون بأنه الحق.. وما يدرون أنهم في الباطل!!

● صور فيها من الجد بعض ما فيها من النظافة كما يعرفها الذين يحرصون على ما هو صواب إلى ما هو نظيف، وفيها أيضاً الهزل العابث كما يعرفه الساخرون بكل الجد.. بكل ما يؤدي إلى نظافة لأن هواهم أن يلبسوا الفسوق والخذلان والانحلال حتى لتجدهم يفزعون منك إليك!!

منك لأن تقهر فسوقهم بالاحتقار، وإليك لأن إرهاقاً بنفوسهم يرزأهم فلا يجدون التنفس إلا عندك بشيء من التعزية والتسلية يتوهمون أنها التغطية بينما هي غرزة قارصة لوجدان محطم!

* * *

ـ وسمعت تحاورهما . . قد لا يكون بأذني، ولكن بعيني ناظرة تستكنه ملامح وجهين عاشا الكيد لك فإذا هما يتحاوران كيف نجوت منهما؟

ـ قال «ألف» لـ «ميم» كيف خرج من أيدينا «فلان» فكل ما دبرت له إذلالاً وأقصاء وطرداً ونكداً وإسقاطاً ابتلع ذلك كله ولو تحمل بعض الإصابات ليقابلني بعدها باسماً لا يعاتب . . لا يحارب حتى رأيتني اليوم استجديه نظرة حانية . . لا لينسى فيها ما مضى مني إنما عله ينسيني ذلك . . لا لأني نادم، ولكن لئلا أشعر بأني منهزم؟

ـ وقال «ميم»: أتعرف السبب؟ . . ذلك أنا كنا نحاربه بسلاح مادي، وكان يتحمل بعمق المعاني فيه، وأصبحنا اليوم . . نقتل أنفسنا بهذا السلاح المادي، ونتقاتل به وأنا وأنت . . أما هو فأصبح يبعث الحياة فينا بسلاح جديد . . من معانيه صفحاً، ورحمة . . ولو غلفها بابتسامة ليس فيها شماتة ولا إشفاق، وإنما فيها كلمة في وجدانه: الحمد لله الذي عافانا مما ابتلي به كثيراً من خلقه!!

● صور عارية تكشف مضمونها رغم أنها ساترة مكنونها!! تسالم ولا تستسلم رافضة أن تظلم . . ظالمة أن تهان، الظلم قد يكون الوسيلة الوحيدة لرد الإهانة . . لأن الإهانة ظلم غيرك لك دون أن يفترض الندادة، أو يرحم الصداقة، وإنما هو بما ملك من وسيلة لا يتورع عن الغيلة!

ـ قال لي: هل للرشوة عقابيل؟!

ـ قلت: أتعني أن الراشي واهب السحت، وأن المرتشي آكل السحت؟.. هذا معناها قديماً، لكن العقابيل الجديدة هي طغيان الراشي على المرتشي يسلبه سلطانه.. حين دخل عليه قبل أن يعطيه كان رافع الرأس، وحين بدأ يستعطيه انخفض رأسه في حضرة راشيه، إن الهيبة لأي محرك لأمر تسقط منه ولو أمام معطيه.. كأنما العدالة يضيع ميزانها في هذا الميزان التي أخذها الراشي سلطاناً فرضه على المرتشي.. إن السراق الحنشل في أي طريق، والمفسدون في الأرض بالنهب والسلب قد تردعهم قوة، لكن السراق بالرشوة يسلبون هذه القوة فعاليتها!

* * *

● الطفلة التي رفضت أن تخلط اللبن بالماء فعصت أمها هي التي أنجبت الرجل الذي لم يخلط الباطل بالحق.. الذي صنع العدل صناعة جديدة في جو أنكر عليه هذا الاعتدال، كل الذين كانوا يشهدون عمله يحضونه على النقيض لكنه أبى لأنه لم يعبأ بهؤلاء المشاهدين من كل أمية لأن العبء الثقيل عليه هو أن يشهده الله يخلط الباطل بالحق. كان في تلك الصورة التي كانت عليها أمه.. قالت لأمها: لن أخلط اللبن بالماء إذا لم يشهدنا أحد من الناس، أو لم يميز ذلك أحد من الناس فإن الله شاهد علينا. كانت هذه الطفلة أم عمر بن عبد العزيز، وكان الرجل في كل ما صنع من عدل ابن جده عمر بن الخطاب.. ابن جده عاصم بن أبي الأقلح كأنما لم يكن جده الحكم بن أبي العاص، ولا عمه عقبة بن أبي معيط..

إنه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

● ولنعمت فعال من خلال الأبطال، هي في صورة زاخرة، لعلّ فيها ومنها ما يهزأردان الرجال الصوانين للأرض والعرض . .

تحدثوا: إن عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنهما، جلس إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، في زورته إلى المدينة المنورة إبان ملكه العريض . .

ـ فقال معاوية لابن الزبير: إني لأشكو إليك الحسن بن علي . . ما زارني إلا مرة واحدة.

ـ فأجابه ابن أسماء ذات النطاقين: إن الحسن يرضيك بظاهره، أما باطنه فحرب عليك، لو شاء أن يطلق في العراق عليك مائة ألف سيف لفعل.

ـ قال ابن هند: أردت أن تغيظني وتغريني به . . والله لأواسينه ولأصلن رحمه . . وفعلها أبو الأملاك . .

خلة في كسرى العرب، هي كما قال فيه عمر بن الخطاب رضوان الله عليه، لا يؤخذ الأمر من فوق رأسه إلا إذا كان تحت قدميه، ذلك الذي يضحك عند الغضب . .

بهذه الخلال . . الحلم، والحساب الدقيق، والنظر البعيد والصبر على ابن العم، والحزم حتى الصرامة، والعزم لئلا تكون الندامة . . ساد معاوية الأبطحي الدمشقي الأموي القرشي العربي . . فساد ملكاً عريضاً، وساق للهداية فتحاً واسع المدى، فأكمل الأمويون بالألف شهر التسعين عاماً . . مائة وعشرين عاماً لم يذق المسلم ذلة من عدو . . ولم يشبع شعوبي من دم العربي . .

وبعدها من عام ١٣٢هـ، انحسر الفتح، وانكسرت أنفس عربية، واستغولت مذاهب مارقة، وفتن حارقة.. وقتل السيف الطلائع العريقة، قواداً كباراً، وفرساناً مغاوير.

لكن العوض قد جاء حينما انحاز الإمام العالم يصون السنّة، واكب الفيلسوف على صناعة البيان والترجمة، وسن القوانين في المعرفة والطب والرياضة..

فتح في العلم، وابتعاد عن الفتح للهداية.. أو التفتح للوحدة..

شيء جرى في سيرة الزمن، وصيرورة الأحوال.. من يومها.. والعرب قد جلسوا يفتشون عن العودة إلى عهد جديد.

ولا جديد..

والجديد أن يرجعوا إلى ما أصلح أولهم، ليصلح آخرهم..

مخلاة الكاتب

كشكول القارئ

المقـدمـة

وهذه بضاعتنا ننثرها منشورة على صفحات القرطاس، لا أكاثر بها ولا أكترث بمن لم يردها أو هو لم يرد إليها، مقالات لم تكن مصندقة في المخلاة لأنها مصادقة في إعرابها عن فكر كاتبها وعن مبادئه وعن الأحوال التي عاشت عليه أو هي عاثت به فصبر على لأوائها وبلائها وظفر بكثير من الخير أنعم الله عليه به. فدعامة الخير هو أن كان قارئاً وكان كاتباً ومحدثاً، فإذا هو ينعم بما نثر من هذه المخلاة وما أحب إلا أن تجد هذه المقالات أكثر من قارئ يملأ كشكوله سواء ادخر أو ترك.

والمخلاة والكشكول، استعرتهما من الإمام العاملي فله كتابان باسمهما وحبذا التقليد لمثل من هو في درجة هذا الإمام من أئمة التراث. والمخلاة اسم يطلق على ما يختزن فيها صاحبها ما يعده للإنفاق، وما أكثر أسماء هذه المخلاة فقد اتسعت اللغة الشاعرة بهذه الأسماء. المحفظة، الملف، الجراب، المخباة، الحسكل، المزودة، الصفنة، الخرج، الصندوق، السحاره، الخزنة، الدولاب، الكيس، الشوال، العيبة، المستودع، السعن، العكة، الجفنة، الحق، الشنطة، الحقيبة، إلى آخر ما هو أكثر، وهذه اللفظة يسمى بها ما تحلمه الجمال من البضاعة التي يجلبونها؛ وقد استعاروا منها آل فلان عيبة لآل فلان أي النصير، فقد قالوا المطلب بن عبد مناف

كان عيبة لأخيه هاشم يحددون نصيره ليفهم من ذلك أن أخاه التوأم عبد شمس وأخاه نوفل كل منهما كان عيبة للآخر، أي نصيراً حتى جرت الأمور حين أصبح عبد شمس ونوفل عيبة، أي معابة بما جرى من خلاف بينهما، وعن العيبة حفظنا هذا البيت من شواهد اللغة الشاعرة.

يمرون بالدهنا خفافاً عيابهم ويرجعن من دارين بجر الحقائب

يذهبون إلى دارين يتبضعون وجمالهم محملة.

وهذه المخلاة لا أتخلى عنها وإنما أتحلى بها، فلا بد أن أجد لها نصيراً، ولا بد أن يذيعها من تنكر لها، فكثير من مواقف السلب تأتي برد الفعل إيجابيًا.

والله من وراء القصد..

محمد حسين زيدان

الخير من خلال الشر منبثق

وكتبت هذا العنوان الخير من خلال الشر منبثق من شطر بيت تمثل به العرب ينتزعون من الشر باعث الخير، لأن الشر تمتد به يد عدو تنبعث من الصحوة اليقظة فلا يركنون إلى المجاملة وإنما هم يستيقظون لقوة الردع، فالمجاملة وقتها قصير قد تنفع من الشاكرين ولكنها لن تنفع من الجاحدين أما قوة الردع فتنتصب بها قامة الشعب وقوام الدولة وقيم الوطنية، فالردع سيف يقطع رقاب الذين يعبثون بأمن الحرم وأمن الحجيج وأمانة الدولة بلغ من الصعوبة أشدها، فإنه أيضاً صعب في أي مكان في أي شبر من هذه الأرض المملكة العربية السعودية فقد أرادت الفئة الضالة المضللة أن ترعب الحكومة قبل أن ترعب الحجيج. هكذا صور لهم الكهنوت، فإذاً الأمر لن يكون على ما أراد. إنما مكان الصون للأمن بسيف الحق أزهق الباطل ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١) فئة من الشباب لم يأخذهم المذهب ليرتكبوا الجريمة وإنما أخذهم الذهاب إلى وسوسة الكهنوت فأيما شعب يتسلط عليه باسم المذهب الكهنوت يصبح وكأنهم عطلوا الإدراك فخدر العقل، فالكهنوت الذي أحال المذهب إلى ارتكاب الشر هو العذاب للمتمذهبين الذين يبسط الكهنوت سلطانه عليهم. إن هذا الكهنوت صرف أرواحهم وعقولهم عن أعداء الإسلام وفي فلسطين بالذات إلى أن يتصرفوا مع الذين هم على الذروة عرب وعلى القمة

مسلمون سواء الحكومة السعودية أو الحجيج الذي دخل الحرم آمناً فإذا الضلالة ظنت أن تجعل من أمن الحرم مكاناً للخوف والفزع.

إن هذا الشر أيقظ كيان هذه الوحدة في المملكة العربية السعودية حكومة وشعباً بل أيقظ كل المسلمين فأعدهم لأن يكونوا الممسكين بقوة الردع لا تأخذهم في الحق لومة لائم قبل أن يكون هذا الكهنوت مذ كان مذهباً مكان التعايش بين كل المتمذهبين مستقيماً يتعاملون بالتسامح لا يعترضون على من انفرد إلى ما يتمذهب، وحين نبغ الكهنوت نبغ الإرهاب لا خارج شعوبهم فحسب إنما داخل شعبهم نفسه وأريد أن أطرح سؤالاً لو فجرت قنابل في قم في جانب ضريح علي الرضا أو فجرت في كربلاء أو حول ضريح الخميني نفسه ألا يكون السيف قاتلاً للذين اعتدوا على قم، وما إليها مما ذكرنا؟

إن هذا الشر أعطى خادم الحرمين الشريفين، الملك فهد، أن يكون كأحد الملوك السابقين لعلّه عبد الملك بن مروان أو المعز الفاطمي، فأحدهما قال وقد بسط يديه: «الذهب هنا والسيف هنا» يشير بكل يد فمن مد يده بالسمع والطاعة واحترام القيم منحناه ومن قال برأسه هكذا (يعني أنه يتلوى) مكنَّا بسيفنا هكذا» فالسيف أصدق أنباء من الكتب ولنقل أصدق أنباء من الذهب، ولنسأل بعد هذه الجريمة النكراء في الحرم عن الصديق ليس للحكومة فحسب وإنما لأمن الحرم نسأل هؤلاء مع أي فريق تقفون فقد وضح الحق فهناك مثلان ضربهما القوي كل وما يصلح له، فإمبراطورية قالت «من ليس علينا فهو معنا» وإمبراطورية قالت «من ليس معنا فهو علينا» ونحن بعد هذه الجريمة نقول «من ليس معنا فهو علينا» وما يوم حليمة بسر. وسؤال آخر إذ تبرأ الذين في يدهم السلطان سلطان الكهنوت من هذه

الجريمة فهل أجروا التحقيق وعرفوا البواعث وأحكموا الجزاء على من يمثلهم التهم بهذا الإغراء، وإذا صح أنهم صادقون في هذا الإنكار لهذه الجريمة فما هو موقفهم؟ ومن المهم من الذين هم منهم يهددون بالانتقام؟ إن البراءة من هذه الجريمة ليست كلمة تذاع وإنما هو العمل بمنع تكرار هذا الحادث وبردع الإرهابيين.

إن المملكة العربية السعودية حرماً وسياجاً ليس لديها الآن إلا القوة الرادعة سيفاً يقطع الرقاب ومقاطعة تهدي الخاطئين إلى الصواب. إن الحرم أمانة في يدي خادم الحرمين الشريفين، الملك فهد، فما كان منه إلا أن صان الأمانة بقطع رقاب من أهدر كرامة الحرم. هذا الشر يجب أن يكون وسيلة لصنع الخير وما الخير إلا يقظة الدولة وصحوة الشعب وعمل السيف.

عن الفتنة . .
موقف الأئمة الثلاثة

وهذا العنوان لم أصل به أو إليه إلا من الاتصال بالواقع، فما أكثر الفتن تبدو صغيرة ثم تكبر. فمعظم النار من مستصغر الشرر، ويقود هذه الفتنة الذين لم يعبأوا بما فرضه الإسلام «دم المسلم على المسلم حرام» بل وتخريب الأرض المسلمة حين يتزعم الفتنة من يحارب إخوانه بينما حربه على إخوانه هي حربه عى أهله بحسب أن يهلك شعبه، وليست فتن اليوم جديدة فقد سبقتها فتن لا تكاد تحصر ولكني وقد ذكرت موقف الأئمة الثلاثة الذين صبروا وصابروا فلم يخوضوا فتنة ولم يقودوا المفتنين، فهذا إمام دار الهجرة مالك بن أنس وهذا الإمام في مكة المكرمة الفضيل بن عياض وذلك الإمام في العراق أحمد بن حنبل كل هؤلاء الثلاثة برز لكل منهم موقف ضد الفتنة.

الإمام مالك إمام المدينة المنورة إمام فقه الحجاز لم يكن هواه وقد أدرك آخر بني أمية إنما كان هواه بعض الشيء علويًّا ليس عن تشيع مذهبي وإنما هو عن تأثير المودة لشيخيه عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب والثاني جعفر بن محمد الباقر الملقب بالصادق، كلاهما كان شيخاً له ثم وهو من أهل المدينة المنورة يعرف

موقف الإمام سعيد بن المسيب لم يبايع بني أمية، وهو يعرف أيضاً هتكة المدينة في وقعة الحرة بل وقد أصابه ضيم من المنصور وعامله يركبونه حماراً منكساً من أجل ما ذهب إليه عن طلاق المكره لا يقع، طافوا به طرق المدينة منكساً على حمار وهو يقول صامداً على مذهبه «من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس طلاق المكره لا يقع» وما كان هم المنصور أبو جعفر عن طلاق المكره ولكن كل همه عن بيعة المكره، كل هذا وقع على مالك، كل هذا شغل وجدانه، وبينما هو يرى رؤية العين قتل صديقه محمد ذي النفس الذكية لأنه ثار على المنصور، كل هذا وما زال مالك يحارب الفتنة فقد قال «فتنة ساعة شر من استبداد سنوات». فوقعت الحرب ورمي الكعبة بالمنجنيق والقتل الذي استشرى بين المعارضين تلقى منه مالك درساً علمه الشر من الفتن. فبايع المنصور وائتمر بأمره وصادق هارون الرشيد ونصح له، مع أن هناك من الأسباب التي ذكرنا والتي يشهدها وهو المبايع والناصر كانت تقوده إلى فتنة، ولكنه لم يكن زعيماً لكهنوت يرى نفسه يحمل صكًّا إلى دخول الجنة. أما الذين يحاربهم وهم من أهل القبلة صور له الكهنوت أنهم حلال الدم لم تشفع لهم صلات ونسي صلات الإسلام، فالكهنوت قائد فتنة. فيما سبق وفيما لحق، وهو إن لم يقتل أعني الكهنوت فإنه يبتعد عن المسلمين لأنه يبعدهم عنه. ألّف مالك الموطأ استجابة للمنصور ونصح هارون أن لا يبني الكعبة على قواعد إبراهيم، والإمام ومن كان مثله إلا صاحباه سفيان الثوري وسفيان بن عيينة، كان يخاف الفتنة ويرى في هارون الرشيد أنه حرز منها فسمعه تلامذته يدعو «لو كانت لي دعوة مستجابة لطلبت من الله أن يأخذ من عمري عشر سنوات يضيفها إلى عمر هارون الرشيد» فقد نصح للرشيد حتى أبكاه في قوله «يا حسن الوجه قِ وجهك من النار» ما انصاع إلى فتنة، فلو كان رجل كهنوت لاحتال على الأسباب ولو كان التافهة يحيلها إلى عقائد في

الشعب فيقود الفتنة، وما كان الفضيل كذلك، وعجب تلامذته من دعائه حتى إذا مات الرشيد واشتعلت الفتنة شعوبية، يقتل الأخ أخاه ويقتل ولي عهده الذي فرضته الشعوبية عليه عرف تلامذة الفضيل ما كان يتوقع الفضيل. أراد أن يطول عمر الرشيد لتتأخر الفتنة لعلّه وقد قضى على البرامكة أن يتم له نصر على الشعوبية.

والإمام أحمد ناصر السنة، قاهر البدعة، يجلد، يسجن، فإذا هو الصابر لم يخرج إلى الشارع داعياً إلى فتنة بل أخرج عن نفسه الحقد على السلطان وأدخل على نفسه الحفاظ على وحدة الأمة فإذا هو يسأل الله قائلاً «لو أن لي دعوة مستجابة مدخرة لصرفتها إلى السلطان» عجيب، يا أحمد، هكذا أنت يجلدك السلطان وهو ينصر البدعة. وتُجْلَد أنت وأنت تنصر السنة، فلا يكون منك إلا أن تدعو دعوة تصرفها إلى السلطان.. هؤلاء.. الثلاثة ما كنت أحصر الهداة فيهم وإنما حصرت نفسي لهم. إنهم اتقوا الله. خافوه فامتنعوا أن يقودوا فتنة، فما كان واحد منهم كاهناً يقود الكهنوت وإنما كان كل واحد منهم صادق الإيمان، خاف على أمته أن تقاد إلى فتنة فقد سمع ما وقع فخاف أن يكون من أحد الذين خاضوا الفتنة، رضي الله عنه.

واليوم نجد بعض الذين لم يسلكوا السبيل الذي سلكه مالك والفضيل وأحمد. نذكرهم لنذكر بهم، لعلّ هناك من يثوب إلى رشده، فدم الألوف من أهل القبلة لا تسفك في سبيل ما يزعمه الكهنوت. وأن الإسلام الدين الحق، لم تأخذ الفتنة منه شيئاً، فهو يقوى بالحرب عليه، ينصره الذين لا ينقادون إلى فتنة ولكن المسلمين تأكلهم الفتن كما أكلتهم آراء الاعتزال والبدع ولكنهم المسلمون.. نتفاءل بأنهم إلى خير حين تكون الفتنة عن قليل تقشع.

. . الـــــدواء . .

وليست هذه غربلة يتساقط من غربالها ما لا ينفع. وإنما يبقى ما يصفو فوق الغربال نقتنيه نعنى به قد يكون طعاماً لنا إن كان من الحنطة أو البقول. فالصفوة على غربال اليوم هي الوقفة أمام أنعم الله جل جلاله، فما أكثر نعمه على هذا الإنسان وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها. فالداء الخطير أحد أمراض العصر السرطان، يعالج بدواء قليل الشأن لا يعبأ به، ومرض المرارة يعالج بالفجل. هذه البقلة التي لا يأكلها إلا قليل من الناس الذين يكرهون الرائحة، يحترمون الجليس فلا تفوح رائحة الفجل وما إليه إلى من يتحدثون معه. فلقد قرأت من قبل في إحدى الصحف أن هذا الفجل دواء ناجع لعلاج المرارة. داء خطير يعالج بنبات ما كنا نعتني به وما أحسبه أصبح في الصيدلة حتى الآن. سبحان الله خلق الداء وخلق الدواء. ونأتي إلى التحدث عن السرطان. فلقد قرأت خبراً في إحدى الجرائد أنهم قد وجدوا في اليونان علاجاً للسرطان. ما هو، فهل حضروه في الصيدليات، هل اكتشفوه كالبنسلين ومركبات الميسون التي قضت على داء خطير؟ لا ليس هو في الصيدلة وإنما هو اكتشاف جديد ليس مادة عضوية من الأرض، ولا من المعادن، وإنما هو الحيوان الصغير الذي نسميه أبو جلمبو، نأكل كأنه أحد الأخوة للجمبري (الربيان)، فالله العظيم الرحمن الرحيم خلق أبو جلمبو فإذا هو دواء للسرطان. أتفه الأشياء تصبح في لحظة

أعظم الأشياء. فالفجل اليوم عظيم ما دام يعالج المرارة، وأبو جلمبو كذلك ما دام يعالج السرطان، ولعلّ شيئاً أو مادة لا نعبأ بها نكتشف بإلهام الله رب العزة والجلالة تصبح علاجاً لداء خطير. من كل داء أصبح الآن يسمى داء العصر. وهناك ملاحظة، فهل كثرت الأمراض أم أن الاكتشافات عيّنت كل مرض وأصبح الأطباء والمكتشفون والصيادلة يعثرون على الدواء اكتشافاً أو تصنيعاً، وعن الفجل أيضاً قالوا: إن الكلدان والفراعين أيضاً كانوا يعالجون به لكن الكهان في الشرق يكتمون الأسرار حتى خفي علينا كثير من الأسرار، فإذا المصادفة تفضح تكتم الشرقيين على ما لديهم من المعرفة.

تلفِزُوا الأيّام وَالملاحِم «١»

وهذا العنوان عن أيام العرب التي صاغها الرواة على صورة الملاحم، فلئن كانت اليونانية لديها الإلياذة ملحمة والأوذيسة كذلك فإن الملاحم كل واحدة منها إلياذة العرب، فمن المآخذ علينا التي نحترفها ولا نعرفها أن ننسى ما لنا من أيام بيض وعمل أبيض كأننا نحن لسان جديد وفكر جديد وشعب جديد ليس له عراقة امتدت من الساعة الأولى التي أنجب فيها سام بن نوح بنيه، فالعرب الساميون قحطانياً وعدنانياً صنعوا الحضارة على الأرض سواء منهم الذين تعلقوا بوثنية الكواكب «صابئة» أو الذين علقوا وثنية ما على الأرض حتى الثور «ابيس» وحتى الجعلان «الخنافس» وحتى «الهر» كل هؤلاء أحاط بهم جهل الوجدان.

ولكنهم أحاطوا تاريخهم بكل الوجدان الفكري والعاطفي، كل هذا ننساه وإن دوّن في ديوان العرب قد نقرأه، غير أن شاعر الربابة كان تلفازنا الأول فلماذا يتخلى تلفازنا الثاني عن أيام العرب عن ملاحمهم؟، ولست كاتب قصة ولم أحترف عرض أي ملحمة أو أي يوم أهديه أو أبيعه للتلفاز ولكننا اليوم ولله الحمد قد كثر فينا من أولي العلم والأدباء الذين يستطيعون أن يطوروا أيام العرب وملاحمهم لينهضوا تاركين ما تراكم علينا من الذين فتنوا بقصص الغرب واليونان بالذات فأنكروا على العروبة أن لديها قصصاً،

وأيام العرب كانت مصدر معابة عند من لم يعرفهم أو مصدر دعابة عند بنيهم من الذين فتنوا بقصة الغرب وبالإلياذة والأوذيسة، فالكارهون وصفوا العرب حين تقاتلت قبائلهم بالهمجية، وأحسبني قلت إن تلك الحروب القبلية كانت إرهاصاً، مدرسة أكاديمية وعسكرية تعلم القبيل العربي من تلك الأيام كيف يمسك بالسيف ويتعامل مع الرماح والسهام ويقتني ويعتني بالحصان حتى إذا سطع نور الإسلام وتحرك للفتح المبين وانتصر في الغزوات وسار إلى الفتح العظيم وجد القادة والجندي والشجاع كأنما تلك الحروب القبلية قد أعطت الإسلام فارساً جنديًا، فإذا إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الروم قد ذهبتا فتخلصت أرض العرب من المستعمر، وتخلص الإنسان من ساحل الخليج إلى أقصى الشرق ومن قناة السويس إلى أقصى الغرب وإلى الفردوس المفقود «الأندلس» كل هؤلاء تخلصوا من الوثنية وأخلصوا إلى دينهم فإذا هم صناع الحضارة الوسيط التي أخذت حضارة الماضي يونانية، هندية، صينية، فارسية، رومية، فإذا هي في بوتقة واحدة حضارة الإسلام بلغة العرب، إن حرب البسوس لم يقتصر تأثيرها على أن تغلباً وبكراً القبيلين الأخوين قد شنت بينهما الحرب سنين طويلة بل امتد تأثيرها فإذا ديوان العرب يمتلىء بمعلقتين من الشعر وبثالثة ما كانت معلقة وإن هي أحسن من تلك المعلقتين معلقة عمرو بن كلثوم تغلبية ومعلقة الحارث بن حلزة بكرية وقصيدة الحارث بن عباد بكرية، كل الثلاث القصائد وائلية من ربيعة الفرس ما تنكر لها المضريون في عكاظ، فديوان العرب عدناني في أكثره فلا أحد من هؤلاء أو هؤلاء أنكر ما جاء به الآخرون، فهم عرب قبل كل شيء في هذا العرض أتركه مقدمة لأستعرض بعض الأيام التي صنعت ملاحم البسوس ـ داحس والغبراء ـ أغوات ـ وغياث والفجار وداحس والغبراء.. مواقف تغلب ومناذرة الحيرة حين دانوا

بالنصرانية حماية بالروم من عدوان الفرس وكيف أن النصرانية أعجزت أتباعها من أن لم يكونوا مع قومهم العرب في ظل عقيدة التوحيد وتوحيد الكلمة ليكون منهم قائد فتح جندي فتح وإلى كلمة أخرى ثانية نستعرض فيها الأثر والتأثير لعلّ ما أثيره من صواب أو ما يثار عليّ من خطأ يثير شبابنا وتلفازنا لصياغة الأيام والملاحم يتلفزونها وليعرفوا أن شاعر الربابة كان كاتب قصة على صورة القارئ وتصور المثقف لم يجد من يكتب ما كان ينشد على الربابة فليكن تلفازنا شاعر ربابة هذه الأيام.

تَلْفِزُوا لنَا الأيام وَالملاحِمْ. . «٢»

وما أريده من التلفزة لأيام العرب وملاحمها هو القصة والمعلقات والأسباب والرجال أريد ذكرهم وما نسب إليهم، ولا أدعو أن يكون ذلك على صورة التمثيل وصور الأبطال يتقمصها ممثل، فمن بعض المحاذير أن نترك ذلك أعني إظهار الأبطال على صور فكل ما أدعو إليه هو أن تكون التلفزة بقراءة القصة ملخصة وذكر اسم البطل يتلفزها لنا صوت رخيم يمسك بالربابة فإن لم يجدها أو يجدها فالكمان يغني متلفز واحد أو من يعينه على الكمان يقرأ ما كتب في القصة كيف نبغت حرب البسوس في وائل التي جمعت ربيعة الفرس فإذا هي في شمال الجزيرة وشرقها ولا أحد معها حالت دون أن يمتد نفوذ اللخميين المناذرة وأن لا يستطيع الفرس أي خطوة في أرض العرب، فوائل بقضها وقضيضها حمت جزيرة العرب بأسلوبين، أسلوب المقاومة للفرس ومن إليهم وأسلوب الصداقة مع الروم حين اعتنقت تغلب ومن إليها وبكر النصرانية، فالحرب بين الفرس والروم امتدت زمناً طويلاً وبرهاننا قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ. فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ (الروم: ١ ـ ٣).

أدنى الأرض العراق تدانت عن أرض الروم وأراد الروم أن لا يدين العراق للفرس وبلغت وائل شأواً كبيراً وتغلبت تغلب على الشهرة فإذا كليب

يعظم في وائل فاغتر بالعظمة حتى قتل البسوس قتل الناقة رآها ترعى في حماه فإذا خال ولده ابن عمه البكري جساس يحمي جارته شنخة العربي فيقتل كليباً ولا يسأل أن تترمل زوج كليب أخت جساس واسمها ليلى فثارت العرب يقود تغلب المهلهل فإذا بكر تعض لكن سيداً عاقلاً ذا حكمة اعتزل الحرب إذ سمع من قال له: لقد قتلتْ تغلب ابنك بجيراً فقال: وكأنه سبق قيس بن عاصم المنقريّ حين تخلق بالحلم، قال الحارث بن عباد. يصبر: نعم القتيل أصلح بين الفريقين، يعني أن ابنه بجيراً كفؤ لأن يكون هو الثأر مقابل كليب، سيد مقابل سيد، لكن صناع الفتنة قالوا له لقد وطأه المهلهل وطأة المتغطرس يقول لبجير وهو قتيل (بؤب شسع نعل كليب) يعني لست كفؤاً إلا لشراك نعل كليب وسمعها الحارث بن عباد فأنشد قصيدته العصماء التي لا أدري كيف لم تكن من المعلقات:

كل شيء مصيره للزوال ... غير رب وصالح الأعمال
قرّبا مربط النعامة مني ... لقحت حرب وائل عن حيال
لم أكن من جناتها علم اللَّه ... وإني بحربها اليوم صالي
قربا مربط النعامة مني ... إن قتل الكريم بشسع غالي
يا بجير الخيرات لا صلح حتى ... تملأ البيد من رؤوس الرجال

وقربوا فرسه النعامة وركبت الخيل فانتصفت بكر من تغلب ولكن الزمن جعل بكراً تشمل حتى أمصر العراق إلى أرمينيا وجعل تغلب تنحصر في النصرانية لا تدين في الإسلام ولكن وائل لم تعقم فإذا شيبان أهدتنا خمسة كل له مقام هاني بن مسعود صاحب ذي قار انتصر على الفرس فأخبر عنها الرسول ﷺ: (اليوم انتصف العرب من العجم وبه نصروا) ثم المثنى بن حارثة الذي استغول في تخوم الفرس في جزيرة العرب فإذا هو يعلن

الجراءة يحمدها أبو بكر الصديق وإذا الحيرة تفتح ومع المثنى أخوه المعنى ومع المثنى زوجه سلمى التي أصبحت بعد الحليلة لقائد القادسية سعد بن أبي وقاص، والمشجع التي أطلقت سراح أبي محجن الثقفي، أما الخامس فليس هو من الفرسان، فرسان الحرب وإنما هو ناصر السنة قامع البدعة المحارب عن العقيدة الإمام أبو صالح أحمد بن حنبل. أليس كل هذا يصلح للتلفزة ليكتبه أديب، يقرأه شاعر ربابة على التلفاز؟ إن شاعر الربابة في المقهى له تأثير كبير على قومية العرب، فما أكثر الأسماء التي تسمى أيها العرب من أسماء أبطال الملاحم وملحمة عنترة وأبي زيد الهلالي وسيف بن ذي يزن وذات الهمة كلها تشريف للعرب فتلفزوها لنا.

ـ إلى مصر ـ نصر العاشر من رمضان
حطين الرابعة

وفي هذا المساء وقبل أن تغيب شمس اليوم السادس من أكتوبر أخذت أكتب عن نصر العبور فلم يكن لجيش مصر هذا النصر لمصر وحدها وإن زهت به وذلك أنه نصر. نصر الإسلام بسلاح عربي أمسكت به يد مصرية وتماسكت مع مصر كل يد عربية عرفت ماضيها الأبيض لتحارب حاضرها الأسود، فأغلب العرب شرق السويس كانوا ردئاً لجيش العبور.

فدمشق خاضت المعركة ردئاً ناصراً، أما المملكة العربية السعودية فقد كان فيصلها الملك في مركز قيادة يشد الأزر للذين حاربوا ويدعو إلى شد الأزر من الذين ينبغي أن يحاربوا وما يوم حليمة بسر. إن العاشر من رمضان وكأنه الرابع من هذا الشهر، يوم بدر، الفتح المبين، أيام حطين كلها رمضانية. ولئن قلت إن هذا النصر هو حطين الرابعة فما تزلفت لمصر وجيشها، فحطين صلاح الدين مصرية مسلمة عربية، وعين جالوت «وإإسلاماه» مصرية عربية، وانتصار شجرة الدر وفي المنصورة أسرت لويس التاسع كان نصراً مسلماً عربيًّا لهذا كله أبرق الملك فهد يهنئ مصر إلى رئيسها أحد القادة في جيش العبور اسمه محمد حسني مبارك وكأنما الملك فهد قد هنأ نفسه لأنه كان يشد أزر أخيه الملك فيصل يوم كان مع العبور

وللعبور وعرفت الدنيا كلها ما صنعه سلاح مصر بيد أبنائها يخوضون البحر المشتعل يحطمون جبلاً من التراب بناه اليهود حاجزاً لجيش العبور فإذا كلمة الله أكبر استقطبت كل ما حولها بكل الحول الذي لها تدمر خط بارليف ليس بقنبلة ذرية وإنما هذه القنبلة عزيمة الإيمان بالله وبكلمة الله أكبر.. لم ينفرد الجندي المسلم بها وإنما كان مع المصري القبطي فكأنما الخبر قد صادق المعجزة «إذا فتحتم أرض القبط فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فإنهم من خير أجناد الأرض»، خط بارليف قوة مانعة لكنها لم تمتنع عن كلمة الله أكبر، فإذا جيش مصر يعبر وإذا ضمغمة اليهود يقولون للحبل من الناس أغيثونا إنه الزلزال وأي زلزال أكبر من تحطيم خط بارليف الذي جعل الدنيا كلها تعجب من ذلك حتى قالوا إن العرب أصبحوا القوة الثالثة، ولقد أمسك الملك فيصل بسلاح البترول لا يطلقه رصاصة على اليهود وإنما انطلق به قوة البترول على الدنيا كلها، فمصر قبل العبور وأيام العبور كانت عينها على المملكة العربية السعودية، وما دمنا نتحدث عن الملك فيصل وقد كنت رئيساً لتحرير جريدة البلاد أصدر أمره إليّ عن طريق السيد عمر السقاف لا تسمح بأي معابة على النصر في بورسعيد تنشرها في الجريدة، لأننا شركاء فيها، ولم يكن هذا تبرعاً من الملك فيصل وإنما هو حتم الوراثة، فنحن في هذا البلد كان قائد الفتح منه وجيش الفتح منه فهو لا ينسى أيامه البيض، لأنه ليس كالذين يتناسون الأيام البيض، وحتى إنهم لا يبكون من اليوم الأسود فضحكات الفرقى لا تزال ساخنة تتناسى اليوم الأبيض فالعبور يوم أبيض كحطين، كعين جالوت، كالمنصورة، ولكن العبور نسيه حتى أهله بعد أيام ينشرون بعض المآخذ ويقتلون الآخذ والعرب اليوم ما زال الأمل فيهم كبيراً أن يثوبوا إلى رشدهم، فالحرب اليوم ضد اليهود لم تعد حرب كفاية قامت بها مصر وساندتها المملكة

العربية السعودية، وإنما هي حرب عين على كل عربي، فالبيضة ما زالت تغزى، فأليس القدس هي البيضة وأليست فلسطين كلها البيضة وجنوب لبنان والجولان بيضة وأحسب أن اليقظة بدأت تأكل الذين تناوبوا، فالملك فهد في تهنئته إنما يقول دعوني أرسل تهنئة لقومي العرب حين ينقذون أنفسهم من هذه الأيام السود.

كُتـــب للبيـــع

والغربلة اليوم عن التفاوت بين الكاتب والناشر وعن التهافت من القارئ على المكتبة، كما هو بين الأسعار المتفاوتة، في مكتبة سعر مرتفع وفي أخرى يكاد يكون نصف السعر، وما تعودت أن أنشر الغسيل، ولكن الأمر حين تعلق بالكتاب والكاتب والناشر والمكتبة فلا محيص من أن ألمس بطرف الشرح لهذا التهافت والتفاوت. ولقد سألني أحد الصحفيين الزحفيين عن معايشتي مع بعض الناشرين سواء كان طابع الكتاب أو بائع الكتاب، فأجبته باختصار دعني على طريقتي أقتنع بالأصدقاء وإن لم أعانق الأصحاب، فلست في حاجة إلى أن يكون عليَّ من يغضب، فأنا في حاجة إلى الرضا أبتعد بذلك عن إغضاب أحد، بينما الوضع هو أن ناشراً قد تكلف الطبع فلا بد له من رد ما صرف والكسب من وراء ما طبع أو نشر. ولكن المفارقة بين سعر الكتاب في إحدى المكتبات وسعره في مكتبة أخرى. تقدمت أشتري أكثر من نسخة أقتني وأهدي، تقدمت أشتري الكتاب مناقب عمر بن الخطاب للإمام ابن الجوزي، فإذا هو في مكتبة اشتريت منها ما لا أكتفي به، ولكي أكمل ما أريد ذهبت إلى مكتبة، فإذا سعر الكتاب فيها يكاد يكون نصف سعره في المكتبة الأولى، الطبعة واحدة، والتجليد واحد، ولكن السعر اختلف، فسعر النصف لم تبخس المكتبة ربحها. وسعر الضعف اكتسبت المكتبة أضعاف الربح. وتقدمت أشتري كتاباً طبع في

خمسة مجلدات. فإذا هو لا يرتفع سعره، يصل إلى المئة، بل كان سعر المجلد أقل من عشرين ريالاً وسألت مكتبة أخرى فإذا سعر المجلد قد بلغ الثلاثين ريالاً، وبصراحة فكانت الزيادة في سعر المجلد ثلاثة عشر ريالاً فلو زدت عشرين ريالاً على ثمن هذا الكتاب في المكتبة المعتدلة لاشتريت نسختين. إن هذا الوضع يحرم القارئ من شراء الكتاب إذا اقتصر على المكتبة التي ارتفع تسعيرها للكتاب، ولقد تصرفت حيناً دونما تطرف على صورتين: الأولى أن أتسعر الكتاب بأكثر من مكتبة لأجد الأقل ثمناً لو كنت غير مولع بإهداء الكتب لما عنيت بذلك، والصورة الثانية على طريقة المزاح مع الناشر والمكتبة، أن أجلس في الشارع أمام بيتي أبيع الكتاب الذي ألفت أو الذي جمعت منادياً «كتب للبيع» لأتخلص من الخلاف مع الناشر الذي يبيع الكتاب. ونحن يعاب علينا أنا لسنا القارئين، وهذا التصرف الذي شرحت يحرم من يقرأ ليصدق قول العائبين فمعذرة للناشر والمكتبة.

الأستاذ عزيز
أقايضه . . لا أضايقه!

واستقرأت ما كتبه عني الأستاذ أبو ضياء عزيز فوجدتني أزهو بما كتب، فالعجوز الطفل فرح بهذه الحلوى أهداها إليه الأب عزيز، فالطفولة تفرح بالتدليل فإذا أنا بين بين . . بين تدليله ودليله، فكان من الواجب عليّ ومن حقه عليّ أن أقايضه واحدة بواحدة أقايضه بها ولا أضايقه بأي شيء منه فمن هو الأستاذ عزيز بل الصواب أن أقول ما هو ولكنهما السؤالان (من، وما) يدعوان إلى المقايضة ويدعان المضايقة.

فأبو الضياء عشير طفولة ونديد رجولة وامتداد صداقة، كنا تلامذة في مدرسة واحدة لكنه كان الأصغر سنًّا مني فأنا الفتى أتلامع وهو الطفل يلمع، كان ينفرد عنا ليتفرد بما يأمل، فلا تحسبوا الطفل خالياً من الأمل، فما سعت رجلاه إلا لينال دعائم المعرفة ابتداء من ألف باء إلى ما لا نهاية مما يتألف من حروف العربية بأول أمره وما سيألف من حروف اللغة الإنجليزية فإذا هو وبلغة العامة (الحريف) حين انفرد بنفسه كان يتباعد ولا يبتعد وما كان ذلك عنا وإنما كان عن المجتمع كله، فما رأيت بيننا طفلاً يشعرنا بالعظامية التي يلبسها ولعلّه يحلو له أن أقول الأرستقراطية، فلقد استمد العظامية من مثل العقد في نفسه، عقد اليتيم من الأب لأن الأمومة

كانت في نظافة تربيته وطراوة الحنان، كانت الأبوة والأمومة، فهو خريج مدرستين مدرسة الأمومة الحانية يرعاها كافله الأب لأخوته الذي كان عظاميًّا بحق انتساباً واكتساباً، فلو لم يكن الصيدلاني ضياء بك بارعاً في علمه لما وجد مكانه رئيساً للصيادلة بين الكثرة من الأطباء السوريين، فلو تمانعوا عنه بالقومية لما كان بينهم رأساً له شأن. هذه المدرسة الأولى أطلقت الأستاذ عزيز لا يرسف بقيد العقد وإنما يتقيد بكل الاعتقاد في نزعة اهتمامه فكان جل همه أن يعطي مدرسته الأولى هذه أنها خرجته أستاذاً نديداً للطليعة التي زهت قاماتها وقيمها في مكة المكرمة ليس أولهم الآشي عبد الوهاب والسرحان حسين وليس آخرهم العواد وحمزة شحاتة. وما كنت في الأيام الأولى فيهم ومنهم وإن صرت في تالي الأيام بهم كواحد منهم كما الأستاذ عزيز مدنيان. أعطتهما مكة ما كتبه الأستاذ عزيز عني وما أكتبه عنه، ولئن كان الواحد منهم الأستاذ عزيز فما ذلك إلا وهو خريج المدرسة الثانية ألا وهي أنه كان معلم نفسه أتقن اللغة العربية بكد وجد فإذا هو كاتبها وفصيحها وأتقن اللغة الإنجليزية يعلم نفسه إتقاناً يتصدى لمن درسوها في الجامعات بل ويتحدى الذين يمارسونها حين يتكلمونها فهو بيننا أستاذ نفسه لم يكن رهين محبس وإنما انطلق بالرهان يبرز في الميدان علماً مثقفاً ثقافته عالمية.

والأستاذ عزيز يدفع عني أني خيط الحرير من شرنقة الرافعي حماسة الندادة، غير أني قلت عن هذه الصفة التي ألبسوني إياها قلت أتمثل بقول سعد زغلول (هذه تهمة لا أدفعها وشرف لا أدعيه) والأستاذ عبد الله عبد الجبار لم يكن إلا معظماً لا باخساً ولقد سبقه أمير البيان أبو غالب شكيب أرسلان يصف الرافعي مصطفى صادق بأنه الجاحظ الثاني وهو يعني إشراقة البيان والتبيين لا موسوعية الجاحظ.

وخير وصف للرافعي ليس أني تأثرت به فأنا لا شيء أمامه وإنما هو وصف الدكتور عبد الوهاب عزام، فحين مات الرافعي رثاه بكلمة (الرافعي نسيج وحده لا يذكرك بأحد ولا يذكرك به أحد) فكلمة الدكتور عزام فيها الرد على شكيب أرسلان، وكلمة الأستاذ عبد الجبار فيها الرد على الذين وصفوني أذكر بالرافعي، وعجب الأستاذ عزيز حين ذكرت أديب إسحق وخص بذلك ـ الإمبراطور نابليون ومعذبته التي ذاق عذابها وأذاقته عذابها (جوزفين) فالأستاذ عزيز ينبغي أن لا يقف عند جوزفين فهو يعرف الليدي هاميلتون كيف أحبها قائد الأسطول الإنجليزي الذي سحب نابليون من غزو الشرق الأميرال نيلسون وكيف هي عذبته، تهزأ به تسخر منه في جمع يعرفون قيمة البطل ويعجبون من باطل الليدي هاميلتون. وحين مات الأميرال عرفت هذه الأنثى باطلها فتعذبت، تموت مجنونة، وما له نسي امرأة سقراط وما صنعت بالفيلسوف وامرأة تولستوي وكيف عذبت كاتب روسيا القدير. وعن الأستاذ أديب إسحاق أنشر ترجمته فقد ترجم له صاحب الأعلام الزركلي خير الدين كما ترجمت له على الصورة نفسها الموسوعة الميسرة. أنشر الترجمة ليعرفها قارئه وأعلق عليها بكلمة في الموسوعة الميسرة. ذكروا عنه أنه اتصل بجمال الدين الأفغاني في مصر فأوعز إليه الأفغاني بأن يصدر جريدة مصر في القاهرة، فلو كان أديب إسحاق المسيحي الدمشقي غير أرثوذكسي لما اتصل به جمال، فأغلب نصارى العرب من الأرثوذوكس كانوا الوطنيين عرباً ما استقطبهم الاستعمار الإنجليزي ولا الفرنسي ولا الإيطالي في مصر والشام والحبشة، كانوا الوطنيين تعايشوا مع العرب فما أحبوا أن يعيشوا فيهم وهم ليس لهم ولو استعرضتم أسماء بعض الزعامات من هؤلاء في الشام وفي فلسطين وفي مصر لصدقتم ما قلت، وإليكم ترجمة أديب إسحاق نقلاً عن الأعلام

ومقارنة بالموسوعة الميسرة، فالموسوعة هي التي زادت فذكرت صلته بالأفغاني والشكر للأستاذ عزيز عشير طفولة، صديق رجولة، نديد كهولة عطوفاً على الطفل العجوز وإليكم الترجمة.

أديب إسحاق (١٨٥٦ ـ ١٨٨٥م):

أديب إسحاق الدمشقي، أديب حسن الإنشاء له نظم، من مسيحيي دمشق، ولد فيها، وتعلّم في إحدى مدارسها، وانتقل إلى بيروت كاتباً في ديوان المكس (الجمرك)، ثم اعتزل العمل وتولى الإنشاء في جريدة (ثمرات الفنون) فجريدة (التقدم) البيروتيتين وسافر إلى الإسكندرية فساعد سليم النقاش في تمثيل بعض الروايات العربية، وانتقل إلى القاهرة فأصدر جريدة يومية سماها (مصر) ١٨٧٧م وعاد إلى الإسكندرية فأصدر مشتركاً مع سليم النقاش جريدة يومية سمياها (التجارة) وأقفلت الجريدتان فرحل إلى باريس ١٨٨٠م. فأصدر فيها جريدة عربية سماها (مصر القاهرة) وأصيب بعلة فعاد إلى بيروت، فمصر. وجُعل ناظراً لديوان (الترجمة والإنشاء) بديوان المعارف في القاهرة، ثم كاتباً ثانياً لمجلس النواب ولم يلبث أن قفل راجعاً إلى بيروت بعد نشوب الثورة العرابية فتوفي في قرية الحدث (بلبنان). من آثاره (نزهة الأحداق في مصارع العشاق) رسالة. (تراجم مصر في هذا العصر) وروايات ترجمها عن الفرنسية منها (رواية أندروماك) و(رواية شارلمان) و(الباريسية الحسناء) وجمعت مقالاته ومنظوماته في كتاب سمي (الدرر).

مع المتنبي:

والمتنبي أحمد بن حسين شاعر الدهر العربي، شرق شعره وغرب وهو حي كأنه كما قال:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

ويحلو لي أن أتغازل مع سيرته، عن شهرته عن تعاليه عن تنازله، وأكرمته أن أقول استجداءه فهو صاحب مفارقات، أفليس إنه إنسان تعتريه المتناقضات، يعيش بها وفيها لتكون له أو عليه، وهذا العنوان «مع المتنبي» لست صاحبه ولن أكون صاحبه، فهو للدكتور العميد طه حسين ألف كتاباً عن المتنبي كأنما العميد أخذته الفصحى اللغة الشاعرة ليكتب عن شعره فلم يعبأ بما يعيبه على المتنبي بعض المتلسنين على شاعر الدهر، فبعض المصريين يأخذون على المتنبي ما قاله عن مصر، عن المصريين ولكنه لم يذكر عن النيل شيئاً مع إنه ابن الفرات. والنيل والفرات عربيان أخوان. أستعير هذا العنوان، فلأكتب، فالمتنبي قد تعالى إلى درجة الغلو في قوله وأمام سيف الدولة وسهام الدولة في مجلس حافل:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدم

وبعد هذا البيت يتنازل قليلاً فيقول:

يا من يعز علينا أن نفارقه وجداننا كل شيء بعدكم عدم

وتأخذه الخفزوانة فيقول معتزًّا:

إذا ترجَّلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هموا

وحين يصفو ينشد تنازله بل تغازله كأنما يسترحم سيف الدولة فيقول:

أما لسيف الدولة اليوم عاتباً فداك الورى أمضى السيوف مضاربا
وما لي إذا ما اشتقت أبصرت دونه تنائف لا أشتاقها وسباسبا
حنانيك مسؤولاً ولبيك داعياً وحسبي موهوباً وحسبك واهبا
أهذا جزاء الصدق إن كنت صادقاً أهذا جزاء الكذب إن كنت كاذبا
لئن كان ذنبي كل ذنب فعلته فقد محا الذنب كل المحي من جاء تالبا

فانظروا كيف تعالى أول الأمر وكيف تنازل.. وخاطرة أخرى أنقلها عن إعجاب الدكتور طه حسين بهذه الصورة الكاريكاتيرية في هذه الأبيات قالها المتنبي وهو شاب قبل أن يرحل من الكوفة فقد مر فإذا جمع من الناس رآهم متحلقين حول شيء ينظرون إليه فدخل بينهم ليرى فإذا هم وقد تحلقوا ينظرون إلى فأرٍ ميت نفق من ضربة فخرج من الصف وأنشد:

لقد أصبح الجرذ مستغثياً ... أسير المنايا أسير العطبْ
رماه الكناني والعامري ... وتلاَّه للوجه فعل العربْ
كلا الرجلين انتلا قتله ... فأيكما غلا حرَّ السلبْ
وأيكما كان من خلفه ... فإنَّ به عضة في الذنبْ

سخرية مُرة على تكالب الناس من تواكلهم، وغرب شعر المتنبي، فإذا أمير من أمراء الأندلس وفي مجلسه شعراء، أخذ يذكر المتنبي كدأب أهل المغرب لا ينسون الفخر بالمشرق فإذا شاعر يرتجل يوماً قائلاً كأنما هو يعاتب الأمير أو يستجديه فقال:

لئن جاد شعر بن الحسين ... فإنما بجود العطايا واللها تفتح اللها
تنبأ عجباً بالقريض ... ولو درى بأنك تروي شعره لتألها

استجدى ثم أثنى.

والمتنبي ما سرق شعر أحد لكن بعض المعجبين به يسرقون له فقد أنشد هذين البيتين:

وما الناس إلا هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

قلت له ما هما للمتنبي وإنما هما لأبي نواس وهكذا شغل أبو الحسين.

رايت الأخوان

سألتني طالبة عن رايت الأخوين وتعودت ألا أبخل بالإجابة فطلبت من ابني الدكتور سامي زيدان أن يترجم ذلك عن دائرة المعارف البريطانية أنشرها كفكر في صفحة الفكر.

رايت أورفيل (١٨٧١ ـ ١٩٤٨م) وويلبر (١٨٦٧ ـ ١٩١٢م) مكتشفان أمريكيان من رواد الطيران، أنجزا في عام ١٩٠٣م أول رحلة ناجحة بطائرة مدعومة بالقوة والتحكم، وكانت الرحلات نتاج الخبرة المكتسبة بواسطة الأخوين في مجال استخدام المعدات والطائرات في الفترة ما بين (١٨٩٩ ـ ١٩٠٢م).

ولد ويلبر رايت بالقرب من ميلفيل إنديانا في ١٦ أبريل ١٨٦٧م وأورفيل في دايتون أوهايو في ١٩ أغسطس ١٨٧١م. أبدى أبناء أسقف كنيسة الأخوة المتحدين قدرتهم في مجال الميكانيكا ببناء آلة طباعة الصحف وبناء دار نشر عملاقة ـ بعد عملهم في مجال الطباعة والنشر بعدة سنوات قاما بفتح محل لبيع وصيانة الدراجات في عام ١٨٩٢م وقاما لاحقاً بصناعة الدراجات بنجاح.

بقراءة الخبرات الأولى أوتو ليلينثال في ألمانيا والذي توفي في ١٨٩٦م اختار الأخوان مجال الطيران. استخدم ليلينثال المنزلقات الشراعية. المعلقة، ثم التحكم بتحريك الجسد في الاتجاه المطلوب لتحريك مركز الثقل وقد رفض الأخوان هذا النظام وتبنيا الطائرة ذات الجناحين الصلبين ـ التي يمكن لقائدها الانبطاح ووجهه إلى أسفل، وبعد عدة تحديثات تم

التحكم بها بواسطة رافعة أمامية (للتحكم الجانبي) بواسطة جمع الأجزاء المتحركة من الجناحين، وسمي فيما بعد بـ (المحول) وتم استخدام المحول مع دفة عمودية لمعادلة انزلاق القاعدة. تم تسجيل براءة اختراع هذا النظام بواسطة الأخوين رايت في عام ١٩٠٦م، واستندا في ذلك إلى كل مبادئ التحكم بالطيران فيما بعد، وبعدها حلت الأجزاء المتحركة من الجناح محل المحول.

بعد بناء ثلاث طائرات واستخدامها بالقرب من كيتي هوك بنيويورك فيما بين عامي ١٩٠٠ و ١٩٠٢، قام الأخوان بإنجاز تحكم فعّال للطيران. وفي عام ١٩٠٣م قاما ببناء أول آلة تعمل بالمحرك، وكذلك قاما بتصميم وبناء المحرك قوة ١٢ حصاناً بالإضافة إلى المروحة، وقاما بتجربتها بالقرب من كيتي هوك في ٧ ديسمبر ١٩٠٣م، وقامت الآلة التي تحمل أورفيل برحلتها الأولى وكذلك أربع رحلات تعزيزية، أطولها استغرقت ٥٩ ثانية. وفي ١٧ ديسمبر ١٩٠٣م وبمناسبة العيد الخامس والأربعين تم تركيب الطائرة رسميًّا في معهد سميثونيان في واشنطن دي. سي. وقام الأخوان رايت ببناء طائرة ثانية بمحرك في عام ١٩٠٤ وثالثة في عام ١٩٠٥م وكانت الأخيرة بمثابة الطائرة العملية الأولى وكان بإمكانها الالتفاف والدوران وكتابة الرقم ٨ في الجو وإبقاء المروحة دائرة لأكثر من نصف ساعة في المرة الواحدة.

تم التوصل إلى اتفاقيات تجارية وعسكرية معه في عام ١٩٠٨م بشأن تصنيع الطائرات (المكتملة الجديدة) قام ويلبر بعمل ثورة في صناعة الطيران بأوروبا عندما قاد طائرته قرابة الخمسة أشهر في أوفيورس (بالقرب من لامانس بفرنسا) وبعدها بالقرب من روما.

استقر أورفيل في عام ١٩٠٨م بالولايات المتحدة الأمريكية وجرب

طائرته بنجاح في فورت مايرء حيث أدى حادث بسبب سوء الطالع إلى نهاية الاختبار ولكنه عاود في السنة التالية وجرب طائرته بنجاح وأصبحت طائرته الطائرة العسكرية الأولى في الولايات المتحدة. توفي ويلبر بحمى التيفوئيد في دايتون في ٣٠ مايو ١٩١٢م وقضى أورفيل معظم سني حياته في الأبحاث وتوفي في دايتون في ٣٠ يناير ١٩٤٨م.

من فرغانة إلى غانة

وهذا العنوان ويليه آخر (من فرغانة إلى غانة) لم أخترع ولا أحاول السرقة له وإنما أستعيره من صاحب مقامات الحريري، يرحمه الله، فقد قرأنا هذا العنوان في واحدة من مقامات الحريري حدد أرض الإسلام في وقته حيث قال: من فرغانة إلى غانة فأقصى الأرض المسلمة من الشمال الشرقي فرغانة في التركستان يوم كان التركستان قاعدة فتح، وقاعدة علم أهدتنا أرضه إنسانه المسلم على الذروة محمد بن إسماعيل البخاري، تغمده الله برحمته، وحدد الأرض المسلمة في الجنوب الغربي بهذا البلد الأفريقي غانة تحديداً دقيقاً لا ترفضه الجغرفة، وقد يصح لنا أن نقلده في هذا التحديد بأكثر من صورة، فهكذا يمكن أن نقول (من القفقاس إلى الأوراس) من صميم الشرق إلى الذروة في الغرب أو نحدد من البنغال إلى السنغال شرقاً وغرباً أو (من كاظان إلى عُمان) من الشمال إلى الجنوب وهكذا أرض الإسلام واسعة في آسيا وأفريقيا وحتى في شرق أوروبا، ففي روسيا البيضاء إسلام ومسلمون، فكم من أسرة لدينا من كاظان يحملون لقب الكظلي وكم من أسرة تحمل لقب القرملي الجزيرة في البحر الأسود، كما في البلقان مسلمون في بلغاريا، وقد بلغت أزمة الترك هناك في هذه الأيام، وفي المجر وفنلندا مسلمون، أما يوغسلافيا فكثرة مسلمة في البوسنة والهرسك. فلدينا أسر تحمل هذا اللقب البسنوي أو البصنوي والبوشناق، أسوق هذه المقدمة

لأنفي التهمة عن مجاهدي الأفغان، فليس المجاهد في الأفغان الذي يثير التركستان ولئن أثار فهو المسلم يثير المسلم غير أن ما يجري في التركستان الآن هو الذي جرى في أرمينيا وأذربيجان وهو أيضاً كالذي يجري في لتوانيا وإستونيا كما هو الذي جرى وانتصر في بولندا، فكل هذه الأقاليم من الاتحاد السوفياتي، لتوانيا وإستونيا وبولندا وحتى في الشرق الأوروبي من تحرك صامت ما أثارته الأفغان وإنما هي ثورة التغير في الاتحاد السوفياتي تزعمه جورباتشوف ولا أدري كيف يتواءم التغير مع الإغارة على الأفغان مع فرض الكبت على التركستان لكنها ازدواجية السلوك الإمبراطوري. ماذا يضر موسكو لو أصبحت بخارى صديقة بدل أن تكون مستعمرة؟ إن حتم التاريخ سيضطر الاتحاد السوفياتي مهما حاول العسف وبخطوات الانفراج لا بد من أن يكون للتركستان شأن ولغيرها كذلك، فقد يضعف المسلم ولكن الإسلام لن يضعف وإنه لقوي يشتد بالحرب عليه ولكن على المسلمين في أقاليمهم أن يعينوا كل مسلم دافع عن دينه وعن أرض مسجده.

إقبال الكريم.. واستقبال المكرمين

ـ يا خادم الحرمين ويا أيها الملك فهد بن عبد العزيز:

أبيتم إلا أن تكونوا حماة الحرمين بخدمة الحرمين، فلقب الحماة يعطي الذين لقبوا به معنى الدفاع عن الحرمين الشريفين، فعلى من أخلص في ذلك الرحمة. أما أنتم ـ أيها الملك ـ فقد أفصحتم عن الحماية بلقب «خادم الحرمين الشريفين».

فالخادم لهذين المسجدين يعني الحماية والرعاية والبناء ونشر العلم وافتتاح مطبعة المصحف الشريف في المدينة المنورة مدينة المصحف.

فمصحف ذي النورين هو مصحف المدينة. كأنما طبْع المصحف في المدينة أردت به أن تكرم دار الهجرة، البلد الطيب، عاصمة الإسلام الأولى التي اعتصم بها العربي حين أسلم فإذا هو بقوة العروبة فيه وقوة الإيمان قد بنى العواصم، شرقاً وغرباً فلقب «الخادم» إحاطة كاملة تعني أن السلطان والحكم والدولة قد وظفتهم للعمل النظيف والحماية الكريمة.

حين أقبلتَ على المدينة المنورة تشد رحالك إلى مسجدها، ثم تُشرف على ما اعتلى من البناء وما انتشر من العلم وما اتسع من العمران، ثم تتشرف مُسلماً تحمل في يدك المصحف يُطبع في المدينة.. مدينة المصحف.

كنت بهذا الكريم، يستقبلك المكرمون مرحبين وحامدين شاكرين.

ـ أيها الملك..

أخذتني هزة من المسرة، رغبت إليَّ أتمنى أن أكون الجذع أخِبُّ فيها وأضع. أستقبلك خطيباً على منبر كنت أخطب عليه، مشاركاً أهلي يوم يحتفلون بك.

ولئن فاتني أن أرقى المنبر في يوم حفل. فلن أفوّت على نفسي أن أتخذ من القرطاس منبراً، أكتب فيه خطاباً أنشر التحية إكباراً وإجلالاً لقدرك ولعملك.

فلئن كان للمدينة عليَّ هذا الدَّيْن فمن حق الولاء أن يكون لك دَيْن. الوفاء للبيعة والصدق مع الولاية لا ينحرف عنها إلا من يتجاهل ما نحن فيه ليتساهل عن شكر العطاء الذي أنت صاحبه. عطاء المسؤولية عن كل كيانك الكبير. بناه أبوك وصانه إخوتك وأنت الآن تصون وتزين.

ـ أيها الملك..

ظاهرة مشكورة أن تشد الرحال إلى مدينة النصر والإيمان فهي مأزر الإيمان.

فالمصحف كتاب الإيمان، كأنما أنت بإيمانك أحببت أن تعلن إيمانك حين تضع يدك تقبّل المصحف قبلة تدعو بها قارئ القرآن أن يحافظ على القرآن.

ـ أيها الملك..

أجزني أن أكتب في هذه الفرصة تاريخاً لأبيك لم يُذْكر، هو كيف استقبلته مكة استقبال ترحيب، لأنه لم يكن الثقفي الذي أهدرها، ولم يكن

الأمير الذي بنى لأمه كنيسة فيها فأميرها فيما مضى خالد القسري بنى لأمه المسيحية كنيسة في البيت.

أما المدينة فقد كان أبوك عبد العزيز بن عبد الرحمن يكربه أن تُهدر المدينة. حاصرته جيوشه من الجنوب والشمال فكانت لا تنقطع رسائله يدعو إلى احترام حرمة المدينة.

لم يرسل الكتاب فحسب، وإنما أرسل شيخ نجد عمر بن سليم، يرحمه الله، يفتل فيصل الدويش يرحمه الله في الذروة والغارب، يثنيه ألا يمس المدينة بسوء، وزاد على ذلك. فلم يكتف بالرسالة والرسول، وإنما أحاط المدينة بجيشين، جيش في الجنوب يقوده ابنها عبد المحسن العزم، يطيع عبد العزيز فحال دون الكثير حين كان الغرم القريب من المسجد النبوي. وكان الدويش بعيداً عن المسجد. وجيش في الشمال بقيادة إبراهيم النشمي. يأمره عبد العزيز رحمة بالمدينة وأهلها أن لا يضيق الحصار، يفسح المجال للرجال يبلغ عددهم أربعين أو أكثر يتسربون في الليل يحملون المؤن والأرزاق إلى المدينة، ليتسع صبرهم على الحصار. ولينفد صبر الدويش.

لقد كان عبد العزيز وجيوشه تحاصر المدينة هو الصوان لحرمتها..

إن عبد العزيز قد قبل التحدي وهو البعيد عن المدينة حين طلب من شاه إيران أحمد رضا بهلوي أن يسمح لمندوب يرى مآذن المسجد والقبة هل أصابها الرصاص. فإذا عنفوان البطل وثقة البطل ومعرفته من رسائل الرجال الذين كانوا له. يمدونه بأن مآذن المسجد والقبة لم تصب برصاصة فقبل التحدي وسمح لسفير إيران «شمس المُلك» يرافقه أحمد لاري، يصل إلى المدينة في سيارة محروساً برجال عبد العزيز يكتب للنشمي أن يكرمه

وأن يسمح له بدخول المدينة، فدخل المدينة السفير، وشاهد المآذن والقبة فوجد كل ما قيل كذباً، وانتصر عبد العزيز.

إن عبد المحسن العزم لو رمى حجراً لوصل إلى المسجد، لأنه كان في العوالي، وكان بعض جنوده يصلون إلى البقيع، يكتشفون ـ وبأمر عبد العزيز ـ عمن يكون مرسلاً لأذى. كان ذلك تدبيراً محكماً من عبد العزيز فالنشمي أطاع، فإذا المدينة ترتزق والعزم حافظ.

وما كان ذلك إلا لئلا تشوب شائبة عمل عبد العزيز وانفك الحصار. وجاءت الدعوة إلى عبد العزيز تطلب منه أن يرسل ابناً من أبنائه تستقبله المدينة لتكون تمام التكوين لهذا الكيان الكبير.

وفي التاسع عشر من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٤٤هـ، وكان يوم سبت، استقبلت المدينة أخاك العظيم ابن العظيم محمد بن عبد العزيز، فلم تُرَقْ قطرة دم، وإنما تسعّر في الدم سلام واشتعل في الدم تمام الكيان الكبير.

ولعلّي لا أسرف في المقارنة، فالفتح المبين لمكة تمت به وحدة العرب في ظل توحيد الكلمة وكلمة التوحيد، وتم للمدينة كواقع في مقارنة التاريخ لا في التفاضل والتماثل، تم لها أن تكون أخت مكة فاتحة الوحدة للجزيرة العربية كياناً كبيراً.. المملكة العربية السعودية.

مقارنة يحتمها واقع التاريخ. وإلا فللَّه العزة ولرسوله كما يمن الله بالعزة على المؤمنين إذا ما نصروا واقتدوا واعتبروا.

ـ أيها الملك..

هذا واقع التاريخ لا أفتعله وإنما أنفعل به.

أمد الله في عمرك ووقانا الله شر الناقمين وشرور المعتدين.

ـ خَالد وسلطان
ذكرتُ فأكبرت.. كَبّرت فشَكرت!

ـ وتوقف صاحبي أُملي عليه لا يتحرك قلمه من غرابة العنوان قلت له:

لماذا.. ألأن العنوان غريب؟! اسمع قليلاً لتستطيع معي صبراً. إن اسم خالد هو حفيد معاوية بن أبي سفيان وسلطان هو حفيد عبد العزيز ابن عبد الرحمن، كلاهما عريق في العروبة. أضاف كل منهما إلى النسب الارتفاع بالحسب.

ذكرت أول رائد في علم الكيمياء.. خالد بن يزيد، فإذا بي أجد سلطان ابن سلمان رائداً ثانياً من رواد الفضاء كلاهما رائد من رواد العلم.

فيوم انطلق خالد لا يحجبه لقب الأمير أمويًّا عبشميًّا عن العلم فجلب العلماء من اليونانيين والرومانيين ترجموا له فأخذ عنهم فكان أول كيميائي في العرب. وقال أشياخ من أمية ومن غسان وبهراء وكلب ما بال هذا الأمير يعشق القراطيس فإذا قولهم قد انتهى حين بدأ مجد العلم وتاريخ العلم يلقب خالد بن يزيد.. «حكيم قريش».

فهذا العربي حين يجد المجال لا يتأخر عن التفوق.

وسلطان بن سلمان في العروبة عريق لم يجنح للبداوة ولم يصرفه

اللقب عن أن يكون طياراً ثم ليكون رائد فضاء فقال بعض قومه.. هل يصعد سلطان إلى الفضاء، استأجر كرسيًّا في السفينة.. يتنزه؟!.. ولكن قولة التاريخ أنهت ما قالوا كما هو الشأن في خالد بن يزيد فإذا الإذاعات والتلفاز ووكالات الأنباء والصحافة عربية أو أعجمية أوضحت لنا أنه طالب علم يريد أن يستزيد من العلم ذهب إلى هناك يتدرب أقسى التدريب في صبر وعزيمة.

ذلك فعل الطموح.. ذلك عمل التفوق.

وإذا معه فريق من علمائنا اختارتهم جامعة في «هجر» كأنما انتزعت عرق عمرو بن كلثوم، اليمامة أو أن جامعة البترول والمعادن قد تشمرخت لابن اليمامة.

بخٍ بخٍ.. أخرجت جامعاتنا العلماء، ألست جديراً بأن أُكْبر وأكبرّ لأشكر؟

إن العلماء الذين أحاطوا بسلطان شرفت بمعرفتهم على كل منهم بصمة الكيان الكبير.. كلهم عربي سعودي ولعلّي أهتز فرحاً بهم جميعاً لكني أعتز بواحد منهم أنا خاله وهو الدكتور حمزة خضر عسر. ورجاء أتقدم به إلى رائد الفضاء سلطان بن سلمان أرجوه أن يصور جزيرة العرب أو جزيرة مدغشقر أو كل القارات وما عليها مما صورته الجغرفة الطبيعية، فهل بعد ذلك نجد أن صور هذه الخرائط بالاكتشاف الفضائي قد يطرأ عليها تعديل أو تغيير لجزيرة أو خليج أو نهر.. أو لبعض التضاريس؟ فإن الخرائط التي بين أيدينا من زمن قد رسمت بالتتبع والمشاهدة فلم نسمع أن قمراً صناعيًّا أو سفينة فضاء قد نبأتنا ببعض التغيير.

إن مجد القدماء في رسم هذه الخرائط لن يخدش إذا ما صورت سفينة الفضاء بعض التغيير.

تحية لكل عالم ليست مني، فأنا أقل من أن أعطيها وإنما من بلد المسجدين جامعتي علم حين انتشر علمهما كانت قواعد الفتح قواعد العلم، وتحية مني خاصة أستطيع أن أعطيها لهذا الرائد الأمير سلطان بن سلمان أداء شكر لما ينال كما هو الشكر لوالده، خاصة. وأنه ليعرف لماذا أشكره ذكرت فأكبرت وكبرت فشكرت؟ فنحن جيل الحمد فرحنا بالقليل، فكيف لا نفرح بالكثير؟ لقد كتبت هذا بأسلوب البداوة فليعذرني حضري على هذا الأسلوب.

سلاح الفضاء

ـ وما دام الشيء بالشيء يذكر فقد أصبح سلاح الفضاء المشكلة الأولى بين إمبراطورية البيت الأبيض وإمبراطورية الكرملين. فالاتحاد السوفياتي يعارض «حرب النجوم» والولايات المتحدة مصرة على ذلك.

شيء معلوم لكن بعض العجيب ما سمعناه من تصريحات وزير الدفاع الأمريكي فهو يقول: إن سلاح الفضاء ليس هجوميًّا ولكنه دفاع يدمر القنابل النووية، فلا يجد حجة للاتحاد السوفياتي في رفض ذلك.

ولكني كمعلق لا بد أن أطرح سؤالاً.. إن هذا السلاح ستملكه الولايات المتحدة الأمريكية ليدمر أي هجوم عليها، أو أي عدوان يوجه إليها. فهي بهذا السلاح ملكت الأمن لها بأن سلاحها سيدمر أي صاروخ يوجه إليها ويعني ذلك أن الأسلحة المدمرة من هذه القنابل النووية تبقى مصونة في الولايات المتحدة بينما سلاح الاتحاد السوفياتي يصاب بالتعطيل أو التدمير.

من هنا أكاد أزعم أن الاتحاد السوفياتي يشتد في اعتراضه لأنه لا يملك المثيل.

سلاح الولايات المتحدة لا يدمَّر، وسلاح الاتحاد السوفياتي يخضع للتدمير فلم يكن تصريح الوزير الأمريكي داعياً لاقتناع الولايات المتحدة بل يدعوها إلى التشدد أكثر.

* * *

الـرفـض

ـ إسرائيل أعلنت رفضها لأي مفاوضة يشترك فيها الفلسطينيون سواء من منظمة التحرير أو من المجلس الوطني. فهذا الرفض لم يعد مشكلة المفاوض العربي بقدر ما هو مشكلة الولايات المتحدة الأمريكية، لأن واشنطن رضيت بالمفاوض الفلسطيني وإسرائيل هي التي ترفض. فالعرب بدأ انتصارهم، لأنهم تحولوا من السلب إلى الإيجاب فحولوا إسرائيل إلى الرفض، لا ترفض العرب كمفاوضين وإنما هي ترفض أسلوب الولايات المتحدة.

إن اعتراف منظمة التحرير بمشروع فاس وبقرار مجلس الأمن ٢٤٢ كل ذلك يعني أن ما تدعيه إسرائيل عن الميثاق الفلسطيني ما هو إلا التمحل والعناد والرفض.

مرحباً بهذا الأسلوب من اليهود، تفرض عليهم العزلة، وإن لم تغضب الولايات المتحدة الآن فإن أوروبا بدأت تحمل الغضب وسيحمل ذلك الولايات المتحدة على صون هيبتها. أوليس الصبح بقريب؟

ولكن المعجز للمفاوض العربي هو أن رفض بعض العرب لهذا الأسلوب فيه قوة لموقف إسرائيل لكنها لن تكون أقوى من غضب أوروبا والولايات المتحدة والأكثرية من العرب.

أما البسام الذي ابتسم للمهمة الشاقة رديفاً لسلطان بن سلمان فلعلّي أحسبه قد أنشد قول الرصافي:

فخير الناس ذو حسب قديم أقام لنفسه حسباً جديدا
وشر العالمين ذوو خمول إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا

* * *

صورة

ـ البخيل جبان والجبان بخيل.. فهل البخل جبن أم أن الجبن بخل؟ كلاهما شيء واحد. البخيل عنده الوجود لكنه يعيش العدم من شدة حرصه على صون الموجود. والجبان يخاف الموت بينما هو يعيش حياة ذليلة، فالوجود في حياته عدم يهدر به كرامته.

وقد قلنا من قبل.. البخل شح بما تملك، والحسد شح بما لا تملك.

من هم الفلسطينيون؟

ـ سؤال مطروح يفترضه الطغيان ويفرضه العرب، فإسرائيل ـ أعني اليهود ـ يحرصون على حرمان الفلسطيني من عروبته ومن كنعانيته العربية. أما العرب فقد اكتفوا بالواقع، فرض على الدنيا كلها أن فلسطين أرض العرب. ولم أجد إجابة عن هذا السؤال إلا عند أستاذنا الدكتور معروف الدواليبي. تحدث إليَّ عن الفلسطيني حديثاً مقتضباً فدعاني أن أقرأ ما كتب وما حقق في كتابه «دراسات تاريخية عن مهد العرب وحضاراتهم الإنسانية» فوجدتني أفهم من صاحب التفهيم لأجد العلم في هذا الكتاب يكتبه علاّمة من أعلام تاريخنا.. هو معروف الدواليبي.. ثم وجدتني مرة أخرى أشعر بحاجة الأستاذ في المدرسة أو في الجامعة أو الصحفي وحتى المثقف إلى أن يقرأ هذا النص، أنشره كاملاً. أستعيره فلا يعيّرني أحد بذلك.

والبحث الذي أنقله كاملاً جاء في صفحات من ١٢٥ ـ ١٣٣ تحت عنوان «كلمات من التاريخ العربي الضائع: من هم الفلسطينيون؟».

كتب الأستاذ الدكتور الدواليبي:

خلال استماعي في العام الماضي إلى إذاعة لندن العربية استمعت مرتين، وفي فترتين إلى جواب واحد على سؤال كان قد وجّهه بعض السائلين من أجانب وعرب يسألون فيه: من هم الفلسطينيون؟ ولقد أجابت

الإذاعة اللندنية على ذلك السؤال حينذاك، وعلى لسان المختصين في المرتين. وفي برنامج «السياسة ما بين السائل والمجيب» فيما ذكر وقالت ما خلاصته: «إنهم شعب هاجر من مناطق بحر إيجه ومن اليونان بعد أن طردتهم القبائل الإغريقية من تلك المناطق، وكانوا يعرفون بالفلسطينيين، فنزلوا سواحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبي ثم اشتق من اسمهم اسم «فلسطين» المعروفة حتى اليوم».

ولقد استنكرت في نفسي هذا الجواب المبتور، لأنه إنما عبّر عن فترة ليست الأولى ولا الأخيرة من تاريخ فلسطين والفلسطينيين، مما قد جعل السامع يعتقد أن الفلسطينيين غرباء عن هذه المنطقة الكنعانية العربية، وأنهم لولا حادث الهجرة لما كانت هناك اليوم أخبار عن تاريخ هذا الشعب الفلسطيني العربي وصلته بهذه الأرض الكنعانية العربية قبل حادث الهجرة.

ولقد ذكرت ذلك في حينه لأحد إخواننا من الكتّاب الفلسطينيين، ورجوته أن يكتب إلى الإذاعة البريطانية: «القسم العربي» بالجواب الصحيح الكامل، وذلك بعد أن أحلته على المراجع والدراسات الحديثة التي أكملت النقص الذي وقفت عنده الإذاعة البريطانية. ولا شك أن المجيب على الموضوع في الإذاعة البريطانية لم يطلع بعد على هذه البحوث العلمية الجديدة، كما أن من قد رجوته بالكتابة إلى الإذاعة البريطانية لم يستطع الحصول على المراجع التي حددتها له ولَفَتّ نظره إليها.

ولذلك رجاني مراراً بعض من سمع مني الحقيقة في هذا الموضوع، أن أكتب كلمة وافية فيه، وخاصة في هذه الفترة من الزمن التي شغلت العالم بمشكلة فلسطين والفلسطينيين. وها أنا ذا نزولاً عند هذه الرغبة الكريمة أكتب هذه الكلمة الموجزة الوافية بالغرض، إن شاء الله، لأسهم

ببعض الواجب في هذا الموضوع الذي أصبحت معرفته ضرورة ومن المستلزمات التاريخية للتعريف بالقضية الفلسطينية وبالفلسطينيين، وذلك بدليل تكرار السؤال عنه إلى الإذاعة البريطانية.

وأرجو أن أتمكن من نشر سلسلة من الكلمات تحت عنوان «كلمات من التاريخ العربي الضائع»، وهي كلمات: الفلسطينيون، الأيتروسك Les Etrusques البونيون. Les Maurs المورد Les Buniques، السارازان Les Sarasins ٨/٧ والتيرانيون Les Tyrrheniens والبحر التيراني La Mer Tyrrhenine وتيرانه -Tirana وعلاقة هذه الكلمات الأخيرة بجزيرة تيران ومضيق تيران وجبل تيران في الحجاز وشواطئه من جزيرة العرب.

وها أنا ذا الآن أتابع الكلام حول الكلمة الأولى: «الفلسطينيون». ومن حيث ابتدأت الإذاعة ووقفت لأضيف عليها خلاصة ما جدّ من بحوث علمية عن الحقيقة التي لا شك فيها.

إن «الفلسطينيين» ـ كما ذكر في البحوث التي وقفت عندها الإذاعة البريطانية «القسم العربي» ـ هم فرع من هجرة الأقوام «الإيجية» أو «المينية» بعد أن قضت القبائل الإغريقية الآخية على دولة «مينية»[1] في حدود ١٢٠٠ ـ ١١٠٠ قبل الميلاد، فنزلوا في ساحل بلاد كنعان الجنوبية المعروفة اليوم باسم «فلسطين» اشتقاقاً من اسمهم. وكان «هيرودوت» المؤرخ اليوناني المعروف بأبي التاريخ، هو أول من استعمل هذا الاسم لإطلاقه على تلك الأراضي الساحلية من بلاد كنعان. بعد أن نزل فيه «الإيجيون الفلسطينيون»

(١) نسبة إلى أحد ملوك جزيرة "اقريطش" كريت اليوم المسمى (مينوش). انظر كتابنا المدخل إلى التاريخ العام للقانون. الطبعة الثانية ١٩٦٣. مطابع دار الفكر بدمشق. الصفحات (١٠٨، ١٠٩، ٥٢٦).

وأقاموا فيه خمس مدن هي عسقلان، أشدود، أكرون، جات، غزة، كما كنت نقلته في كتابي «المدخل إلى التاريخ العام للقانون» الطبعة الثانية[١].

ولم تذكر لنا هذه البحوث الأولى شيئاً عن هوية هؤلاء الفلسطينيين، غير أن عودتهم إلى هذه المنطقة واستقرارهم فيها دون غيرها، يدل على أنهم إنما خرجوا من هذه المنطقة ضمن «الهجرات العربية» القديمة فيما قبل التاريخ التي «امتدت على إفريقية الشمالية والبلقان وإيطاليا وإسبانية، وعرفت بأسماء موجات أقوام البحر الأبيض المتوسط» كما صرحت به المراجع الأثرية الحديثة[٢]. فهم إذن قد عادوا إلى مواطنهم الأصلية من بلاد كنعان العربية، وأنهم كنعانيون لا شك فيهم، وهذا ما علقت به على تلك البحوث التي نقلتها أولاً كما هي، مؤملاً إضافة تلك التعليقات على الطبعة الثالثة مع جميع أدلتها التي تحمل على الجزم بعروبتهم وبأصالتهم في هذه البلاد.

غير أنني لم أكد أنهي تلك التعليقات الخطية حتى وصل إلى يدي كتاب. (الإيتروسكيون في غربنا وفي أصولنا الفرنسية[٣]"Les Etrusques en notre Occident Et nos Origines Francaises" لمؤلفه البحاثة الأثري الفرنسي «هيليردو بارانتون» وإذا بهذا البحاثة يؤكد في كتابه ما انتهيت إليه ويقول أولاً إن «الأيتروسكيين» هم فرع من الفينيقيين السوريين (الصفحة

(١) موسوعة تاريخ العالم. وليام لنجر، الجزء الأول. ترجمة عربية، الصفحة ٦٣، ٦٥ وكذلك كتابي السابق (المدخل إلى التاريخ العام للقانون) الصفحة ٥٢٦ ـ ٥٢٧.

(٢) مجلة الحوليات الأثرية السورية. المجلد السابع سنة ١٩٥٧م. الصفحة ٤. وكذلك كتابنا (المدخل إلى التاريخ العام للقانون) الصفحة ١٧٦ الطبعة الثانية.

(٣) طبع باريس عام ١٩٤٦، المكتبة الشرقية والأمريكية لصاحبها (ميزون نوف) G.P. Maisonneuve. Pars.

٣)، وإن «الفلسطينيين» هو أحد أسمائهم (الصفحة ٥)، «الإيتروسك» في اللغة المصرية القديمة هو «بحارة النيل» (الصفحة ٣)، وأن معنى «الفلسطينيين» هو الجنود والمحاربون (الصفحة ٩ ـ ١٠).

وزاد هذا الباحث على ذلك فقال عن هؤلاء الفينيقيين السوريين إنهم يحملون أسماء كثيرة مختلفة، وذلك تبعاً لمهنهم أو لعقائدهم (الصفحة ٧)، ثم أخذ يعدد هذه الأسماء ومنها «الفلسطينيون» عملاً بمهنتهم الحربية (الصفحات ٧، ٩، ١٠).

وإذا رجعنا إلى تاريخ «العمالقة» فإننا نجده يحدد هذه المنطقة وطناً لهم. ولم يكونوا عمالقة إلا لبأسهم، ويدل عليه ما جاء في القرآن نقلاً عن لسان اليهود حين أراد النبي موسى أن يدخل بهم أرض فلسطين: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَاۖ فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ (المائدة: ٢٢). وتمردوا على موسى من أجل ذلك أربعين سنة كاملة.

وبذلك يتأكد ما قد وصل إليه البحاثة الفرنسي من أن «الفلسطينيين» هو اسم لفريق من الكنعانيين اتخذوا الحرب والجندية حرفة لهم، كما يدعم ما قد كنت انتهيت إليه من أن عودة الفلسطينيين من جزر إيجه إلى هذا المكان بالذات تؤكد أنهم هم «العمالقة» المعروفون في التاريخ في هذا المكان. وأن هذا المكان هو موطنهم الأصلي المخصص جزء منه لتدريب الجنود وإقامتهم فيه. ولذلك عادوا إليه، فهم إذن عرب لا شك فيهم. وهم كنعانيون فينيقيون سوريون، وأنهم ممن اتخذوا الحرب مهنة لهم وأنهم برعوا فيها حتى سمّوا باسم «العمالقة» من الفينيقيين. وأنهم هم «الجبارون» الذين عناهم القرآن الكريم.

وبناء على كل ذلك نستطيع الآن أن نحدد معنى كلمة «الفلسطينيين» وهويتهم إذا أردنا الدقة التاريخية واللغوية، وأن نقول، إنها تعني «العمالقة» من أصحاب البأس في الحروب، وأن ما توصل إليه الباحث الفرنسي من معنى الكلمة وأنها تعني (الجنود والمحاربين)، فهي لا تعني بالضبط إلا «العمالقة» بلغة التاريخ، وإلا «الجبارين» بلغة القرآن الكريم، وأنهم ليسوا هجرة طارئة على البلاد من قبل شعوب مجهولة الأصول. وإنما هم بلا شك من أبناء البلاد العربية الأصليين، ومن الكنعانيين الفينيقيين السوريين الذين كانوا يتقدمون الهجرات كجنود ومحاربين يحمون الأرض التي نزلوا فيها. ويدافعون عمن خرج معهم لمهمات حيوية وحضارية، كما كان شأن الهجرة إلى شبه جزيرة اليونان والبلقان. وكما نص على ذلك مؤرخ اليونان الملقب بأبي التاريخ «هيرودوت» في الكتاب الخامس من تاريخه حيث قال فيهم: «والآن نذكر أن الفينيقيين الذين جاءوا مع قدموس قد أدخلوا معهم إلى اليونان صناعات كثيرة متنوعة، ومنها صناعة الكتاب، ومازالوا يسمونها «بالفينيقية» إنصافاً لمن نقلوها إليهم[1]، وكان معظم اليونان يعتقدون أن عناصر كثيرة من حضاراتهم قد جاءتهم من مصر وفينيقية[2]، وكما تعزو قصصهم نشأة الكثير من المدن اليونانية إلى رجال من أمثال (قدموس) العربي الكنعاني، ومنها مدينة طيبة «تيبس Thebes» أولى المدن التي أنشأها لهم الفينيقيون الكنعانيون على مثال المدن العربية المعروفة باسم «طيبة» في كل من مصر وجزيرة العرب. وكما تقول هذه القصص إن هؤلاء البنائين

(١) انظر كتابنا (المدخل إلى التاريخ العام للقانون) الطبعة الثانية الصفحة ١١٠ ـ ١١١.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت، الجزء الأول من المجلد الثاني، الصفحة ١٢٩ ـ ١٣٠ الترجمة العربية طبع القاهرة سنة ١٩٥٣م.

جاءوا من مصر، ونقلوا الحضارة المصرية إلى بلاد اليونان عن طريق فينيقية وكريت[1]، ولا ننسى في هذا المقام أن «الإيتروسك» وهم بحارة النيل هم أيضاً من الفينيقيين، وأنهم هم الذين اكتشفوا جزر البحر الأبيض المتوسط، وخاصة جزيرة (اقريطش) وهي كريت اليوم، وأنه لا تضارب عندئذٍ بين الأقوال المذكورة في أن حضارة اليونان منقولة من مصر وفينيقية، وأن العنصر الأساسي لحماية هذه الهجرات إلى اليونان إنما كان عنصر «الفلسطينيين» من «العمالقة المحاربين».

* * *

ـ العزيزان ـ

ـ «العزيزان» هما عزيز ضياء وعزيز الرفاعي، ولأبدأ بأبي الضياء، أو عزيز ضياء عرفته طفلاً وشاباً وشيخاً، فإذا هو على خلق. لا يعيب ولا يعاب. أمين على القرش والفرش. كأمانته على العرض والأرض، يتمتع بالتصبر على كل الأذى من صديق. فلم أعرف أحداً من لداتي عذبه أذى الأصدقاء كعزيز، ولكن التزامه الخلقي علمه الصمت. لا ينطق بكلمة يعيب بها أحداً من هؤلاء، بل إنه يتعمد الصمم لا يسمع كلمة تذكره بأذى هؤلاء.

لقد نشأ عصاميًّا بعنعنات التربية، وكبر عصاميًّا بالثقافة. قد يكون أكثرنا تعلَّم في مدرسة. أما عزيز فكان هو لنفسه المدرسة. وكان نفسه هو الأستاذ. كدّ وجدّ حتى ارتفع بالكلمة البيانية.

كنا نؤذيه بأنه «طحسني» فلا يجزع. وما كان يؤذينا بشيء إلا ببعض

(١) المصدر السابق.

الاستعلاء. فالخلق قد انتظم به سلوكه يتجافى عن كل ما نتندر به، ولا يجفونا عن كل ما يبدر منا مما يغيظه. ونشأت لا أتعاظم. فما زلت عصاميًّا أتواضع ولا أتضع. أما عزيز فإن تواضع ارتفع.

إن عزيز ضياء أحب أن يرعف قلمه، يفضل الانتماء على الاستعراق، بينما أفضل الاستعراق على الانتماء. فكل مستعرق منتم. وليس كل منتم مستعرقاً. فآباؤنا الذين هاجروا إلى هذا البلد منتمون. أماً أنا وعزيز فالولادة لنا على هذا التراب والنشأة على هذه الأرض منحتنا الاستعراق. أي أصبحت لنا جذور مستعرقة لا ينقصها الانتماء. وإنما هي ترسخ الانتماء.

إن إيزنهاور وريجان بحكم النشأة والولادة قد استعرقا في الولايات المتحدة. فهما مستعرقان. أما كيسنجر ـ وهو أمريكي الآن بلا شك ـ فليس مستعرقاً وإنما هو المنتمي. لأنه ـ كما آباؤنا من حيث الهجرة ـ هاجر من ألمانيا تحت ضغط النازية فاحتوته الولايات المتحدة، فأصبح منتمياً لا مستعرقاً.

أما سيدنا بلال فأبوه رباح هو المنتمي، وبلال هو المستعرق. من مولّدة السراة، يحنّ إلى ديار بني سعد، يتغنى بسامة وطفيل، ويتمنى أن يشرب من مياه مجنة، وحوله أَذْخُرٌ وجليل.

هذا الحنين حنين المستعرق، أما المنتمي فلن يبلغ هذا المبلغ، وليس الاستعراق افتعالاً وإنما هو الانفعال بفعل النشأة والولاة. ويعني ذلك العراقة في الأرض. لا طلب الانتساب إلى عرق.

إنك تزرع شجرتين، شجرة لا تستعرق فتموت، وشجرة تستعرق في التربة فتنمو وتعيش.

حوار مع عزيز أستملحه ولا أستقبحه. استجابة مع ما كتبته في «نشر

وطي» في عدد سابق تعقيباً على ما كتبته في مجلة «اقرأ» بعنوان «الوطنية استعراق».

أما «عزيز الرفاعي» فما جمعني مجلس أو حديث معه إلا وأجده عصاميًّا لم يفتعل التعاظم. وإن كنا نحن أصدقاء نراه قد عظم فينا.

هو ليس من جيلنا. ولكنه اليوم أصبح في جيلنا وديعاً، على خلق، لا ازدواجية فيه، أخلاقه سلوك وسلوكه أخلاق، لا تجده إلا ويعطيك من نفسه الشعور بأنك له صديق. كأنما دنياه قد استوعبت معارفه ليكونوا أصدقاءه.

عرفته قبل سنوات، فإذا هو يزيد كمالاً لا أرى فيه نقيصة إلا إذا عدّ بعض الناس العون للناس استجداء للصداقة. استقرأت ما كتبه في «الشرق الأوسط» عن عجاج نويهض. وكان قارئي صديقي وصديقه عبد الكريم يعقوب، فهو الذي جلب ما كتبه الأستاذ الرفاعي. أحب أن أشاركه إعجابه.

ولعلّي أعرف عجاج نويهض من قراءتي لكتاب «حاضر العالم الإسلامي» ترجمه فعلق على أبي غالب ابن ماء السماء أمير البيان شكيب أرسلان، كتاب لعلّه كان الدليل، لا للمسلمين فحسب، وإنما كان للمستعمرين، عرفوا الحقائق واعترفوا من الضعف.

غير أني أدعو الرفاعي، إن كان يعرف شيوخ الترجمة الأولين. فتحي باشا زغلول. عادل زعيتر، خيري حماد، ليكتب ما يعرف من سيرهم وما ترجموا من كتب كانت من دعائم الثقافة لنا وله. فنحن في حاجة إلى ذلك. بل نحن أكثر حاجة أن يتولى الرفاعي طبع «سر تطور الأمم»

و«حاضر العالم الإسلامي».. فالمكتبة العربية في حاجة إلى هذه النفائس من الترجمات.

حفظ الله الرفاعي وأبا ضياء.

* * *

ـ تعقيـــب ـ

ـ وتأييداً لبحث الدكتور معروف الدواليبي أضع برهاناً وهو أن أرض العرب سكنها وعمّرها ودافع عنها أبناء سام بن نوح. فسام انتشر أبناؤه في هذه الأرض العربية. سواء كانوا العربيين أو الخبيريين أبناء قحطان بن أرفخشد بن سام، أو كانوا أبناء عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام.

فما اعتدى على أرض العرب أحد إلا وطردوه: الإغريق. الرومان، الفرس، المغول، الصليبيون، المستعمرون الأوروبيون، وسيطردون اليهود والنفير الذي وراءهم.

* * *

ـ لقد نسب الأستاذ عزيز ضياء الأمريكي من هاواي إلى عرق «بولو نيزي» مع أن الصحيح أن جزر «البولوليزيا» و «المكرونيزيا» لا ينتسب العرق إليها كأرض. إنما العرق هو المغولي. فالهاواي وهذه الجزر كاليابان، كأندونيسيا، كالصين، كالتركستان الشرقية والغربية كلهم إلى عرق مغولي.

ـ وكثير من الذين سمعوا قول بلال بن رباح، رضي الله عنه، «وحولي أَذْخُرٌ وجليل» قرأوها وفهموها بأن كلمة «أذخر» تعني نبات الإِذْخر، مع أن الصواب أنه «أَذْخُر» بفتح الهمزة جبل كما «جليل» جبل فهو أراد أن يكون حول هذين الجبلين كما هو حول شامة وطفيل. والجبل اسمه إلى الآن «أذَخر» في ديار بني سعد. كما صوبه لنا بعض المثقفين من أهلها.

السيـــف

والغربلة اليوم تأخذ على سطح الغربال علفاً للعقول ونترك النفايا فلعلّها علف حيوان وهي ذكرى حفظناها من شيخنا أستاذنا محمد عبد القادر الكيلاني التونسي المصري التركي اليوناني المديني، قرأنا عليه مقدمة ابن خلدون واستقرأت منه ثمرات فكره القومي. فرغم طوافه في الآفاق لم يتغير بأي غربة بل كان العربي القومي بكل ما تعنيه الكلمة. تعشَّقْته معلماً فآثرني وأثر فيَّ وقد تحدث لي يوماً عن المملكة العربية السعودية فقال حين وصلت إلى (الينبع) يعني ينبع البحر نظرت إلى العلم السعودي الأخضر فرأيت شعاره المثلث كلمة الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) والسيف وجريد النخل. فقلت ساعتها إن هذه الدولة وإن هذا البلد لن يناله أحد ما دام هذا الشعار المثلث بارزاً على العلم، فما دام الإسلام دينها وشريعتها فهي بخير إذا ما تأيدت إذا ما انتصر بسيف الحق يستقيم به المعوج ويردع البغاء، وما دام جريد النخل يجلد به الفاسق يشهد الناس عذابه ليكون رادعاً، فالسيف قوة ردع للعدو وجريد النخل قوة ردع لمن تعدى حده. فأعجبني كلامه؛ لأنه حدد قيمة الشعار ونوه بقيم الذين حافظوا عليه.. واليوم أتذكر هذا ساعة أن قطع السيف رقاب الذين أرادوا العبث بالحرم وتخويف الحجيج. وما أحسب أن من يولي وجهه شطر المسجد الحرام يستهين بالقبلة إلا إذا كان قد أفسدوا عقله وإيمانه حين نفثوا العُقَد

في وجدانه فأحالوه آلة إرهاب. إن السيف أمسكت به يد الملك فهد. فصان الأمن وما عليه من مهاترة البغاء. وهذا الأستاذ حفظت عنه أبياتاً من قصيدة أرسلها مؤيداً لمن أمسك السيف يحارب المستعمرين في المغرب ألا وهو عبد الكريم الخطابي الريفي هذه الأبيات هي:

دعتنا للمكافحة المواضي أجبناها وقد كانت نواضي
نديـر رحاتنا بدماء قوم ليعلم أننا أبناء ماضي
لعمر أبيك ما يجدي التوقي إذا كان الدفاع عن الحياض

فكأنما هذه الأبيات أصبحت اليوم موجهة إلى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز؛ أظهر الحق لينتصر بالحق.

ـ الخـدمـة ـ

ولا جدال حول الإجازة للموظف، فقد حددها النظام واستمر التعامل بها غير أن موظف الخدمات في أي مجال وفي أي مصلحة وإن كان له حق في الإجازة، فإن من حق المجتمع أن يكون ثمة نوع من التناوب ويعني ذلك أن موضع الخدمة ينبغي ألا يخلو من الموظف الذي يؤديها من حيث إن المؤسسة التي يعمل بها فيها فرع لأداء الخدمة وتحملني على أن أكتب في هذا الموضوع سابقة مضت عليها سنوات، ولاحقة في هذه الأيام.. فالسابقة أن بعض من يعنينا أمرهم، قد توفي إنسان من أهل هؤلاء وكان اليوم جمعة فأسرعت إلى المقبرة في مدينة جدة لإحضار المكلف بخدمة الميت: الخشبة، الغسل، فتح القبر، فلا تعجبوا أني لم أجد أحداً من هؤلاء؛ لأن يوم الجمعة إجازة كأنهم ظنوا أنه لا يموت أحد فيه، وأتعبني البحث حتى استعنت ببعض الذين يعرفون هؤلاء فحضروا ودفن الميت بعد لأي.

أما اللاحقة فإني قد تعودت أن أذهب كل صباح أتسلم البريد من الصندوق وكان في ذلك الوقت منعقداً في جدة مؤتمر وزراء الأوقاف، فما تصورت أن أدعى لهذا الحفل، وفي يوم الأربعاء إبّان نهاية المؤتمر لم أجد رسالة في البريد ولكن في يوم الخميس وقد انتهى المؤتمر وجدت إشعاراً

فيه أن لدى البريد كتاباً مسجلاً باسمي يشعرني أن أتسلمه يوم السبت ويعني ذلك أن موظف التسجيل وضع الإشعار في الصندوق يوم الأربعاء مساء، وفي يوم الخميس هو في إجازة، وفي يوم السبت تسلمت الخطاب المسجل وإذا هو دعوة من وزير الحج والأوقاف يشرفني أن أحضر المؤتمر. فتصوروا كم تأخر وصوله إلى المسجل وكم تأخر تسلمي له؛ لأن المسجل في إجازة. أفليس مكتب التسجيل من مكاتب الخدمات؟ فلماذا لا يكون هناك التناوب؟ فالكثرة من المصالح فيها التناوب بصورة كاملة إلا في الشرشورة كما سبق وإلا في التسجيل كما لحق. لهذا ألفت نظر مصلحة البريد لأن يتم التناوب في التسجيل، فتسجيل الخطاب معناه الحرص عليه والسرعة في تسليمه. ولا يفوتني أن أذكر بأن كثيرين ينطقون جمع خِدمة هكذا خدَمَات بفتح الدال والخاء مع أن الصواب خِدْمات بكسر الخاء وسكون الدال.

ذو القـرنيـن

وسمعت شيخاً سألوه عن ذي القرنين فأخذ يسرد ما ورد عن فلان وعن فلان من تلك الأقوال في بعض التفاسير، فما رضي عن بعضها ورضي عن قولهم أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني أي إنه أعجمي، غير عربي، اقتصر على ما قرأ ولم يتصل بالمقريزي المؤرخ، ولم يفكر في أن القرآن الكريم لم يخبرنا عن الأولين، إلا وهم من العرب، فعاد وثمود وأصحاب الأيكة وفرعون والملكان في بابل وسبأ وسيل العرم، كل هؤلاء لم يكونوا إلاَّ من أبناء هذه الأرض العربية جلّهم من قحطان وأقلهم من كلدان، وما جاء ذكر رسول نبي لم يرسل إلاَّ وهو من هذه الأرض، فما أحسب أن مكان الذكر لأعجمي، فلا بوذا ولا برهمة الهندي ولا كنفوشيوس، فذو القرنين بما ذكرت هو ما صح عن المقريزي وغيره من المؤرخين أنه العربي القحطاني الحميري اليمني وليس هو المقدوني، فالإسكندر لم يعش أكثر من ثلاثين عاماً، وبعد أن شب لم تكن أيام رجولته أكثر من خمسة عشر عاماً وذلك وقت يبعد أن يصل فيه أو به إلى مغرب الشمس وإلى مشرق الشمس، فالمصعب بن الحارث هو ذو القرنين، ونَجِدُ برهاناً في الصين من الذين لم يعودوا إلى يمنهم، إلى جزيرتهم فمكثوا في الصين وهم الطائيون كان لفيفهم مع حمير فمكثوا في الصين يطلقون عليهم (الطاشين) فالطائي مازال في الصين كما هو في الأهواز يلقب بالطاشي، وليس بعيداً أن تكون

قبائل البربر في المغرب العربي من بقايا حمير؛ ثبتوا على الأرض فأثبتوا عروبتها وحين أقبل الفتح العظيم واستقبل المغرب بني هلال لم يرفض المغاربة هؤلاء البربر أن يكونوا العرب؛ لأن أرضهم لم تستعجم؛ فأرضنا من الخليج إلى المحيط عربية معربة هضَّامة تصهر ولا تقهر، لهذا ينبغي أن نعنى بالتاريخ نفقه ونثبت ونحن اليوم بحاجة إلى أن نكون رافضين لأي سلبية ضد تاريخ العرب. من ذلك قول شيخ يفسر قوله تعالى عن الشمس، ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ (الكهف: ٨٦). أي إنها غابت في الأفق على المحيط فقال هذا الشيخ (إنها تغطس في البحر يسمعها قالت طش) أي إنها جمرة نار غطست في الماء فسمع صوت انطفائها، أفلم يعرف هذا الشيخ أن الشمس لو مست البحر لكان الدمار؟! إنها ليست جمرة، ولعلّ أحد الذين وقفوا على ساحل المحيط في المغرب سمع خشخشة الموج فظن أنها طش رواها كأنها خبر علمي.

كلمتان في صورتين
رفضوا اتهام أحمد جبريل..!

وهاتان الكلمتان أكتبهما؛ فالأولى ألفت نظر لجنة العفو الدولية والألسنة الأخرى التي تنطق كلمات لا تعتقدها وإنما هي تريد التعاقد بها مع العرب. أنصح لهؤلاء أن يتركوا شامير ومن إليه وأن يوجهوا حملتهم على الذين يشمرون سواعدهم بحماقة القوة، وقوة الحماقة، الذين ما زالوا مع اليهود. فنجد أن أقوالهم تتناقض، فحتى القول لا يصدقون به، أما أفعالهم فكلها صداقة وتصديق لليهود ولما يفعلونه في فلسطين حتى شيفردنادزه يؤيد إجراء الانتخابات فماذا بقي؟ بقيت الكلمة الثانية تحت عنوانها!!

.. واليهود.. بدأ الاتهام يحيط بهم.. لأنهم بقوة السلاح الذي يملكونه فجروا الطائرة الأمريكية فوق جو أسكتلندا، وتكتم المحققون فلم يعلنوا اتهامهم لأحد.. وما كان هذا التكتم إلاَّ لأنهم عرفوا من الذي فجر الطائرة وهو يشرب فنجان القهوة بعيداً عن تحليق الطائرة بأكثر من عشرة كيلومترات، أو هو أكثر من ذلك.. فالتحقيق لم يعرف راكباً في الطائرة يمكن أن يتهم بها، وحاولوا المعاذير؛ لأن المحققين الألمان ما زالوا يرزحون تحت عقدة الذنب، ولأن المحققين الإنجليز ما زالوا يرزحون تحت التخدير اليهودي.

[ولكن الهلكى من الأمريكان. وهم من علية الرجال في الولايات المتحدة، لم يقنعوا الشعب الأمريكي بالنتائج الأولى للتحقيق.. فالطائرة فجرت عن بعد، فمن يملك هذا السلاح؟!].

كأن عدم اقتناع الأمريكي ببعثرة الاتهام أقنعه بأن من فجر الطائرة هو مالك قوة التفجير عن بعد.. أساءوا الظن بالاتحاد السوفياتي، ولكن ابتعدوا عنه، ونبغت نابغة سواء من اليهود أو من الذين سخرهم اليهود، سواء بعقدة الذنب أو بعقدة المناصرة لليهود.. فإذا هم لا يجدون غير الفلسطينيين، ظنوا أن هذا البهتان ينطلي على الشعب الأمريكي الذي لم تجف دموع الزوجات والأبناء والأصدقاء على من هلكوا في هذه الطائرة!

فأي بهتان يمكن تصديقه إذا ما صبه اليهود على الفلسطيني «أحمد جبريل»؟!

فهل نحن العرب نملك قوة التفجير عن بعد.. يمسكها أحمد جبريل، يحطم بها الطائرة وهو يشرب فنجان القهوة في أحد المقاهي؟!

لو أن «أحمد جبريل» أو من إليه يملك هذه القوة المدمرة.. لرفع فتيان الحجارة أصواتهم يسألونه: أنت تملك هذه القوة.. فجرت طائرة «بان أمريكان» في أسكتلندا، فأي خيانة لك أشد وأقوى، وأنت لا تفجر الطائرات اليهودية التي تحلق في سماء لبنان وتقتل الفلسطينيين واللبنانيين؟!

إن صرخة فتيان الحجارة تسأل أحمد جبريل.. هي صرخة العرب كلهم.. يكذبون اتهام الفلسطيني لتفجير هذه الطائرة.. لو أن فلسطينيًا يملك ما ملكه شامير من هذه القوة.. لكان هذا الفلسطيني أكبر خائن لعروبته!

إن «شامير» يمسك بيد هذا الجهاز.. يفجر أي طائرة عربية، وهي على بعد كبير.. فإذا العرب ما زالوا يحسبون حساب هذه القوة في يد

شامير، وإذا الحرب ضد اليهود تتأرجح، وإن لم نقل إنها تأخرت..

والسؤال: أليس بعض هؤلاء الهلكى من الأمريكان هم الذين أعطوا اليهود هذه القوة؟!

لا شك أن أزواج وآباء وأبناء هؤلاء الهلكى يسألون أنفسهم قائلين: نحن منحناهم القوة فامتحنا أنفسنا بها.

ولعلّ الأمريكي قد بدأ يشعر بأن اليهود، وفي الولايات المتحدة، طليعة لقوة غير منظورة.. هي قوة النفوذ من وراء اليهود للاتحاد السوفياتي.. فأغلبية هؤلاء اليهود في أمريكا سلافيون، خزر، أشكناز، ليس في دم واحد منهم دم إسرائيل يعقوب عليه السلام. ومن مكائد اليهود أنهم أذاعوا أن فلسطينيًّا أخبرهم بأن «أحمد جبريل» هو الذي فجر الطائرة..

فأي عبث بالإنسانية أكثر من هذا العبث؟!

فلئن وضعنا المسؤولية على اليهود مباشرة.. فإن المسؤولية الصادقة، هي على الذين مكنوا اليهود من أن يعبثوا بهم.. حتى أن كل مفاوضات مع الاتحاد السوفياتي عن إلغاء الصواريخ وما إليها.. تتعطل من أجل حقوق الإنسان اليهودي.

إنها ليست غمامة. وإنما هي غواية.. ولكن اليهود هم الذين سيزيحون هذه الغواية عن الذين تعاموا عنهم. حيناً من الدهر.. فقد بدأ السفور بزوال هذه الغواية!!

بقيّة الناس فالح الظاهري. .

ولست المتبرع أكتب سيرة الشيخ فالح الظاهري، فمن حق عالم المدينة المنورة الذي انتهى إليه السند العالي أن أكتب عنه ومن حقي على جريدة المدينة المنورة أن لا يضيق قرطاسها عن كلمة أكتبها عنه. هو الشيخ فالح الظاهري حمل هذا اللقب نسبة إلى قبيلة الظواهر من قبائل عالية نجد، ولعلّها أقرب قبائلها إلى شرق المدينة المنورة، ولا تحسبوا أنه الظاهري نسبة إلى المذهب؛ مذهب الإمام ابن حزم؛ فشيخنا أبو تراب ظاهري المذهب وشيخ الشيوخ فالح الظاهري ظاهري القبيلة والنسب هو نجدي مكي مديني؛ فقد ولد في نجوع الظواهر شرق مدينة نجد أصليبا. . فالظواهر من حرب من بني سالم من المراوحة وإلى مزينة وإن دخلت في حلف حرب وهو مكي شب في مكة المكرمة يطلب العلم شيخه السيد محمد السنوسي زميلاه السيد الإدريسي والسيد الميرغني وأمضى بقية حياته في المدينة المنورة. رجع إلى المدينة حيث تبعثر جمعهم في مكة من ضغط الأحداث فإذا شيخهم السنوسي يرحل إلى ليبيا في واحة الجغبوب وزميله الإدريسي إلى جيزان وزميله الميرغني في السودان. فرأس الدولة في السودان. ومن إليه أحفاد هذا الميرغني زميل الشيخ فالح. ذكرت هذا لعلّي أجد عن المراغنة ما لم يعرف من سيرة الشيخ فالح.

عاش في المدينة المنورة صاحب السند العالي كأنه قد تسنم ذلك المقام بعد صاحب السند العالي الشيخ إبراهيم الكردي الكوراني الذي كان في عصر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، بل وقد عرفنا أن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أخذ علماً من الكوراني. وشغلت أبحث عن الشيخ فالح فلم أجد عند من عاصرت ذكراً له حتى إن صديقنا الشيخ محمود شويل وقد عرفنا أنه تتلمذ عليه بعض الوقت وعلى طول معاشرتي للشيخ شويل لم أسمع منه ذكراً للشيخ فالح. لم يقل إنه أستاذه وإن قالها لي غيره، والغرابة كل الغرابة أن هذا المحدث الكبير ابن هذا البلد لم أسمع له ذكراً من أشياخنا في المدينة المنورة، وليس ذلك هجراً له، فقد كان هذا شأنهم مع غيره ممن سبق فإن أحمد البرزنجي ما عرفته إلا عن طريق جمال الدين القاسمي والبشير الإبراهيمي فيما كتباه عنه، فقد توفي الشيخ فالح والمسجد النبوي في أوج مجده بالأكابر من الأشياخ، توفي سنة ١٣٢٨هـ كما هو في كتاب الأعلام للزركلي، فما ترجم له الزركلي وإنما هما سطران عن تاريخ وفاته وذكر اسمه في ذلك الوقت من سنة عشرين والشيخ حي إلى أوائل الثلاثين. كان المسجد النبوي فيه حمدان بن الونيس وعمر المحرزي وعبد الحميد بن باديس، العزيز ابن الوزير البشير الإبراهيمي، الألفا هاشم إبراهيم البري. أحمد البرزنجي. حسين أحمد خليل. أحمد شارح أبو داؤود (بذل المجهود) هم من الطبقة الأولى وبعدهم الطبقة الثانية الكميخي أحمد، والكردي عمر، ومحمد صقر، والعايش، وحميدة، والأخميمي، ومحمد العلي التركي، وصالح الزغيبي، والطرابلسي، كل هؤلاء لا بد عرفوا عن الشيخ فالح بل وبعضهم قد أخذ عنه، ففي الوثائق التي وجدتها كل من الذين أخذوا عنه صاحب الصيت في الرواة عبد الحي الكتاني أخذ عنه في المدينة المنورة وإذا هو صاحب

الرواية في المغرب. كما علمت من شيخنا أبي تراب الظاهري، أن الشيخ فالح من أشياخ والده عبد الحي الهاشمي، ليست المشيخة المباشرة وإنما هو في ثبت السند للشيخين، وظاهرة هي التي حملتني أن أسعى لمعرفة الشيخ فالح، ذلك أن شيخ الجامع الأزهر الأحمدي الظواهري وصل إلى المدينة المنورة فأخذ يسأل عن ولد الشيخ فالح لم أجد الإجابة ساعتها، ولكن أخذت أتقصى فعرفت أن ابنه واسمه عليّ سكن مكة وأخيراً عرفت من أمدني ببعض الوثائق التي ستسجل في رسالة عن سيرة هذا الشيخ. كان الشيخ الأحمدي الظواهري قريب نسب بالشيخ فالح قريب سبب فأخذ يسأل عنه. ونادرة لا بد أن تذكر أن الظواهري من عيبة بني هلال، فبعض بني هلال من الأشراف وجد الشيخ فالح اسمه (مهنا) كان في مصر صديقاً وعشيراً وابن عم الملك المعز الفاطمي، غير أن مهنا الظاهري حسين من ولد جعفر بن محمد الملقب بالصادق والفاطمي لهم كل الصلة مذهباً ونسباً بإسماعيل بن محمد أخي جعفر الصادق ولم يكن مهنا الظاهري فاطميًّا باطنياً ولم يصل مع المعز من المغرب، فلعلّه كان من موجة بني هلال النجدية الحجازية، خرج من مصر مغاضباً للمعز الفاطمي، فالمعز خطب ابنته فرفض صهر الملك؛ لأنه يرفض مصاهرة المذهب الباطني. رجع إلى الحجاز يتخفى من بطش الفاطمي، وكان شيخ الظواهر الكبير في المراوحة الذي ما كان اسمه هكذا فلم تكن حرب قد تحربت في ذلك الوقت. وخلف من بعده حفيده عباس صاحب البئر الذي ما زال اسمها باقياً كمحط للحُجّاج الواردين عن طريق ينبع، وكانت له حراسة الحُجَّاج والخفارة ولم تنزع من المراوحة إلا بعد حين انتزعها محمد علي باشا فأعطاها لميمون.

هذه خلاصة موجزة لعلّي أجد من يعين بما كتبه العصامي أو ما وجده عبد الكريم الخطيب، فقد وجد كتاباً من تأليف الشيخ فالح في أحد مكاتب المنصورة أي في مصر، هذا وفاء ولعلّ من الأوفى أن تكون رسالة تحمل الوثائق.

وأستدرك ما نسيت من أسماء العلماء فمن الأكابر الشيخ العمري، والسيد مصطفى صقر، والد أستاذنا أحمد صقر، والشيخ محمد الطيب الأنصاري يرحمهم الله.

طعنـة النجـار!!

ما قالها طه حسين، قالها رشيد رضا، وسلوك الأدب خلقاً ألزم نفسي به بهذا الحوار مع الشيخ الأستاذ الأزهري الطيب النجار، فوضعت العنوان طعنة مع أنه كان في مكنتي أن أقول بهتاناً ولكن العالم الجليل لا يأخذ خطأه على أنه العمد في قذف الدكتور طه حسين بهذه الطعنة أو هي البهتان، وتصدى أستاذنا شيخنا حمد الجاسر بالبرهان يسقط البهتان ونهض صديقنا الأستاذ عبد الله عمر خياط ينشر على أسماعنا ما تفضل به الجاسر من الذب والدفاع عن الدكتور طه حسين.

ولندخل في صلب الموضوع فالذي فهمته مذ سمعت الذين أعجبهم مقال الخياط كما مقال حمد الجاسر، فالأستاذ محمد الطيب النجار وهو من علية الأزهريين ومن أعضاء مجمع اللغة قال في معرض ما تحدث به أن الدكتور طه حسين تأمل بأسلوب إنكار للمعجزة بما معناه أن الحجارة من سجيل هي ميكروب الجدري وكأنما الطير الأبابيل البؤر التي تكاثر فيها الميكروب، وسمع ذلك عضو مجمع اللغة علامة الجزيرة حمد الجاسر الذي تعودنا منه أنه لا تأخذه في الحق لومة لائم، فإن لم ينله عذاب البدن من أجل كلمة الحق فقد تناوله عذاب الألسنة التي تستكثر على واحد منا أن يكون المدافع عن الحق، فالأستاذ حمد وكما نقله الخياط تعقب

المصدر الذي استند إليه النجار ألا وهو كتاب الدكتور طه حسين على «هامش السيرة» أو هو كتابه الآخر «الوعد الحق» فلم يجد في الكتابين أي ذكر لجرثومة الجدري، فالدكتور طه بهذا الكتاب «على هامش السيرة» لم يذكر ما يصرف به التأويلات المهرطقة لهذه المعجزة، طير أبابيل حجارة من سجيل معجزة من أمر الله «كن فيكون» سخر الله ذلك ليهلك أصحاب الفيل في مكانهم المحدد في وادي محسر بين المزدلفة ومنى حجزهم عن الحرم وأعجزهم أن يتحركوا فإذا الهلاك هو المحرك، له يصبحون كالعصف المأكول، لم تنج من قوم أبرهة إلا أم بلال، هو سيدنا أعتقه سيدنا الصديق أبو بكر وليس لأحد عند أبي بكر من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، سيدنا ما أقولها أنا وإنما قالها أبو حفص الفاروق بن الخطاب الأعيسر عبقري هذه الأمة، رضي الله عنه، وعن أبي بكر وعن بلال. فالدكتور طه حسين يرحمه الله ما قال ذلك في أي كتاب وإنما الذي قالها السيد محمد رشيد رضا المتعلق بأستاذية محمد عبده والمعلن عناقه للسلفية العقيدة التي لقي بعض الأذى في سبيلها، فما أكثر خصومه من الأزهريين حتى قذفوه بما يتصورون بأن تهمة الوهابية تحمل معنى القذف معناها وعند جمال الدين الأفغاني وعند محمد عبده منقبة يفخرون بها ولا يلتفتون إلى الذين جندهم أبو الهدى الصيادي، فالأستاذ رشيد رضا هالني هذا القول منه، حيث خرج عن قاعدة السلفية لا تأويل، لا تبديل، لا تعليل، فقد قرأت وأحسب أن ذلك في مجلة المنار قوله بأن الحجارة من سجيل ميكروب الجدري ونهضت يومها أفند قوله في حلقة متلفزة تحدثت بها في تلفازنا أيام كنت أتلفز، انتقدت الشيخ رضا معتزًّا بعقيدة السلف مصدقاً للمعجزة حتى قلت إني أتحدى السيد رشيد رضا أن يذكر لنا خبراً هل تجاوز ميكروب الجدري قوم الفيل أصحاب الفيل إلى ما يميط بهم هم في

وادي محسر من أرض المسجد الحرام، فهل أصيب قرشي مكي بهذا الجدري أو هل أصاب الجدري غير أصحاب الفيل من العرب حول هذا المكان؟ فالعذاب خاص بهم والهلاك بالحجارة من سجيل في مناقير الطير الأبابيل سلطه الله على أصحاب الفيل وحدهم، فلماذا التنكر للمعجزات؟ هل هو التقرب لغير المسلمين؟ زلة أسأل الله أن يغفرها للسيد رشيد رضا وغير السيد رشيد رضا. قال عن نجاة بني إسرائيل يخوضون عمق البحر عنهم كالطود العظيم فإذا فيه اثنا عشر طريقاً يابسة أبعد الله البحر بأمره ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة: ١١٧) فقال هؤلاء الذين ينكرون المعجزات، لقد مر بنو إسرائيل وقت الجزر ويحهم كيف لم يلتفتوا، إلا أن بني إسرائيل عاجلهم لحاق فرعون فلم يسيروا من الجنوب إلى الشمال ليعبروا البرزخ على أمتار يابسة من الجزر أنهم لم يعبروا من الجنوب إلى الشمال حتى يعبروا الجزر ستمائة ألف، هل يتسع لهم وقت الجزر بضعة أمتار لا تتسع لعبور ألف؟ إنهم عبروا العمق من الغرب إلى الشرق يخوضون البحر العميق، فأنعم الله عليهم، ينفلق عنهم البحر يمرون في طرق يابسة حتى إذا لحقهم فرعون وفي وسط العمق أغرقه الله، انفلق البحر عن بني إسرائيل وانغلق على فرعون وهكذا أرجو من الأستاذ النجار أن يرجع إلى هامش السيرة وأن يراجع ما كتبه طه حسين أو ما قاله عن القرآن إن طه حسين قد قال «القرآن ليس شعراً وليس نثراً، إنه القرآن»، كما قال: «لا خوف على الفصحى ما دام هذا القرآن باقياً سرمديًّا إلى يوم يبعثون».

وأخيراً إن طه حسين حين شذ بأسلوب الشك عن الشعر الجاهلي عارف بعد ذلك خطأه فأصبح لا يشك في ديوان العرب، كما أن طه حسين أعطى لمصر مكانة هي من عطائه وما أكثر ما أعطى لمصر ما لم يعطه

أزهري مناصر له إلاَّ أن يكون الشيخ مصطفى المراغي الذي أنقذ سمعة مصر من الحاخام اليهودي ناحوم أفندي يوم حرمه من عضوية مجلس الشيوخ وإلا أن يكون أحمد شاكر الذي تعالى بالدراية فإذا هو يعلق على «المحلى» لابن حزم شروحاً للحديث كان رائعاً فلم يدركه من بعده على النحو الذي كان عليه شاكر.

لقد أُمرنا أن نذكر محاسن موتانا فهم بشر وإنا لنذكر كل المحاسن لشيخنا النجار أمد الله في عمره ولا أدري كيف سكت أعضاء المجمع عن إنصاف زميل له فلم ينصفه إلا حمد الجاسر.

حوار مع الأستاذ
مصطفى أمين

ويحلو إلى قلمي أن أدير حواراً في نقاش محبب سمته الصفاء عن الوفاء لا عن الجفاف.

فقد قرأت للأستاذ مصطفى أمين فكرتين: فالأولى كانت عن أغنية الموسيقار الذي عرّب الأغنية المصرية ثم مصّر الأغنية العربية ألا وهو محمد عبد الوهاب.

إن الإعجاب الذي جدّ على الأستاذ مصطفى أمين بهذه الأغنية فيه شيء من العتب على محمد عبد الوهاب.. فقد ألفت أذن مصطفى أمين كما الأذن العربية عبقرية اللحن ونبوغ الأداء غنّى لهم محمد عبد الوهاب الشعر سواء كان لشوقي أو لبشارة الخوري. وأحمد فتحي، وعلي محمود طه، ومن إليهم.

ويوم غنّى الشعر الآخر الذي ليس فيه شيء من البيع والشراء «أحب أشوفك، في الجو غيم» وما إليها.

كانت هذه المرحلة قبل أن يكون حسين السيد عرّب فيها محمد عبد الوهاب الأغنية المصرية.. فإذا نحن نجري وراء هذه الأغنية: «علّموه كيف

يجفو ـ يا جارة الوادي ـ الهوى والشباب» نستعير الأسطوانة في اليوم عدة مرات.. يوم كنّا نخرج جماعة في الحدائق أيام العيد.

إن مجد محمد عبد الوهاب سبق مجد أم كلثوم في المرحلة الأولى بينما قد أخذ مجد أم كلثوم وقد ثبتت على ما تغنّي من الشعر أن يسرق الأذن العربية من محمد وأداء محمد عبد الوهاب.

وكأنما هذا العبقري أراد الخروج من نطاق الشعراء بل ومن نطاق شوقي قبل كل شاعر.. فأراد أن يكون هو الشاعر لنفسه بينما الناظم حسين السيد.. فإذا أغاني الأفلام ينظمها حسين السيد مصرية بحتة. ومعذور حسين السيد بحكم ما ألف من المهنة أن لا تخلو أغنيته من البيع والشراء.

قد تقبل ذلك الأذن المصرية وقد لا تقبل عليه الأذن العربية.. لكن محمد عبد الوهاب.. ما زال عبقري اللحن والأداء، فله الحق أن يزهو وأن يتباهى به مصطفى أمين.

أما الفكرة الثانية فسيكون نقاشي معه في ثوب من الحرارة. تلك الفكرة كتبها عن مصر.. فقد أجاد وله الحق أن يفخر ليس كمصري فحسب بل وكعربي أيضاً.. فمصر هي الكنانة وهي الحضانة كما كتبت ذلك من قبل.. غير أنه حين عد الكتاب العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم نسي أو تناسى الدكتور محمد حسين هيكل.. «فزينب» قبل يوميات نائب في الأرياف وحياة محمد قبل العبقريات والفتنة الكبرى.. فهل كان هذا التناسي من أجل اللقب «هيكل» أم لأن الدكتور كان حرًّا دستوريًّا؟

ولم يقتصر النسيان على هيكل بل نسي المنفلوطي والرافعي وقد كان كل منهما سعديًّا أكثر من العقاد.

فالعقاد سعدي المجد وهما سعديان يوم بدأ سعد يتسنم المجد ولا

أدري كيف نسي لطفي السيد.. لعلّه أكبره أو لعلّ له عذراً وأنت تلومه.

وحين غنّى بمجد مصر لم يذكر الذين تغنّوا بها: البارودي وشوقي وحافظ.

فلئن كان البارودي قبل سعد، ولئن كان شوقي لم يكن سعديًّا فإن حافظ إبراهيم وسعد كانا يلتصقان بأذن محمد عبده.

فقد قالوا: إن أذن محمد عبده هي التي صنعت شاعر النيل حافظ إبراهيم.

وقال سعد لأذن محمد عبده التعريف للإيجاز الذي لم يسبقه به أحد يكتب للأستاذ الإمام محمد عبده هكذا:

ـ «أعذرني عن الإطناب فليس لدي وقت للإيجاز» ـ أصعب أن أذن محمد عبده تراقصت لهذا الجرس.. لهذا التعريف للإيجاز.

ولا أريد أن أنسى عما كتبه الدكتور محمد حسين هيكل يحذر من هذه القصيدة التي تعبقر بها محمد عبد الوهاب: قصيدة «الهوى والشباب» شعر بشارة الخوري «الأخطل الصغير».

إن هذه القصيدة تمتع بها وجدان العرب لأنها ذكّرته بالمأساة حين يضيع الشباب ويموت الهوى.. فقد كتب الدكتور/هيكل وكأنه أعلن تأثره بهذه القصيدة ناصحاً ألاّ يغني مثل هذه، فهو يخشى الألم والخضوع لواقع المأساة.

هذا حوار مع مصطفى أمين الذي هو وأخوه مصّرا صحافة مصر.. فقد انتصرت الأخبار وأخبار اليوم جريدتين مصريتين بحتاً.. فنالت مكانة الأهرام وكانت أكثر نيلاً من مكانة «المقطم».

فالمصرية البحتة شعار الثورة: ثورة سعد. وما الأهرام ولا المقطم المصريتين وإنما كانتا إحداهما لبنانية متفرنسة والأخرى لبنانية متكلنزة.

تحية لمصطفى أمين وما أحسبني أردت التسلق على أكتافه. ومالي قد نسيت النساء كما نسي هو فأين نحن من «شجرة الدر التي أسرت لويس التاسع» «وجنان الشواربه التي أسقطت أنطوني رايدن» حيث لم تسقط «بورسعيد» بما فعلت جنان كما ينبغي ألا ننسى «صفية زغلول» و «هدى شعراوي».

التـأقلــم والأرض

ولعلّها خاطرة قد لا تقرها الجغرفة بكل ثقة ولكن التاريخ هو الذي يستقر بها كما هو يقر، وهذه الخاطرة عن أرضنا العربية بل وعن كل إقليم له سمة تتضح بها الإقليمية أو التأقلم كما هو النظر إلى أرض ملتصقة بأرضنا ألا وهي (أرض الأناضول) أو ما يسمونها آسيا الصغرى، فالأرض العربية شرق السويس وغرب السويس تأقلم إنسانها سواء العريق فيها أو المستعرق أو حتى الطارف الجديد. فأرضنا تسخر إنسانها ليكون العربي، فأي مواغل استغول في أرضنا ألا وهي التي لم تلبث إلا أن تستغول عليه ليكون بها.. منها.. فيها.. لها. صهرت التتار فأذابتهم وقهرت الصليبيين فصلبتهم سواء كانوا الصلب أو الغجر أو النور، فالبقية منهم تغجروا أما الآخرون الذين كانوا قبلهم من النصارى فصهرتهم غرباً وإن كان سلطان القومية العربية من عهد أمية إلى عهد الذين لم يكونوا الأمويين قد أبقاهم على ملتهم سواء مرة أخرى في حماية الرومان أو غواية الذين تمسكوا بنصرانيتهم، ولكن هذا الاختلاف في العقيدة لم يخرج ساكن الأرض عن عروبته يتكلمون اللغة العربية، فكم من نصارى لبنان كانوا حفاظ اللغة العربية وكم منهم الذين أسسوا المجلة والجريدة، فاليازجيون واليوسعيون لهم بصماتهم على ديوان الشعر وديوان الصحافة في هذا العصر الحديث.

أرضنا هذه أقلمت الألبانين بيت المؤيد العظم فإذا هم الدمشقيون كانوا على الزرة من أهل دمشق وسبق الكردي نور الدين زنكي والكردي صلاح الدين والخوارزمي قطز صهرت عروبتهم دمشق. فإذا هم قادة النصر مسلمين على الذروة عربيين على السنام. وفي مصر صهرت أرضها كل من حل فيها روميًّا يونانيًّا تركيًّا فارسيًّا فهي ليست مقبرة الغزاة كما يقولون بثقة الصهر، فأحمد شوقي التركي أمير شعراء العرب ورامي اليوناني زخرف شعر الغزل العربي وولي الدين يكّن أول الناثرين في بيان رائع قبل المنفلوطي مع أنه تركي، لكنها أرضنا العربية، لكنها اللغة الشاعرة. ونأتي إلى شبه جزيرة الأناضول، بعض مدنها في الجنوب عربية مثل (آذنه التي تسمى الآن آتنا) هذه الأرض، الأناضول كانت أرض الحثيين فلم يثبتوا على تأقلمهم بها وحل بعدهم الرومان فأقلموها ولم يتأقلموا بها وحل مكان الرومان أول الأمر السلجوقيون في خونيا والعثمانيون في بورسا حتى إذا تم فتح القسطنطينية فإذا الأرض هي التي تأقلمت تركية، هل ذلك طبيعة الأرض أم ضعف اللغة حبشية ورومانية بينما الغريب أن آطنه والإسكندرية ما زالوا على عروبتهم يتكلمون العربية كأنما هي قوة اللغة لا ضعف الأرض.

دمـــار

وصديقنا الجزار في القافلة التي هي سوف نشتري منه بعض ما يلزمنا ليس أوله اللحم وليس آخره الجبن. فقد تحدث هذا الصديق بأنه يملك عمارة في لبنان بناها من كده وحصيلة الأجرة عن مجموعة الشقق، مبلغ كبير يوم أن كانت الليرة عملة صعبة كانت الأجرة ١٤٠٠ ليرة، فما أكثر الذين تنافسوا عليه لأنه فلسطيني الأصل، سكن لبنان، فملك هذه العمارة. كان هذا خبراً يروى للتاريخ؛ لأن هذا المبلغ أصبح الآن في سوق العملة

لا يساوي أقل من دولار، إنها حسرة، إنه الدمار أن تصبح الليرة لا قيمة لها ١٤٠٠ ليرة لا تشتري من وسيلة العيش إلا بأقل من ٣ ريالات سعودية. دماء سالت ولبنان الجنة دمرت البستان الأزهر، عصفت به ريح الخلاف بين أبناء الوطن الواحد، إنهم عرب وتفرقت مذاهبهم وإنهم الأبناء وصفهم محي الدين ابن العربي في أحد الفصول بأنهم لبانة أخنوخ أي إدريس عليه السلام. إن هذه اللبانة أصبحت حشفة يعافها الحيوان، لأن حيوانية الإنسان أعجفتها، أتلفتها. إن دمار لبنان ليس خسارة لأهله، وإنما هو حرب على مصير العرب، فهل يستطيع العرب بما يملكون من قوة النفوذ وعظمة السلطان ووفرة الإمكان أن يصلحوا هذا البلد لبنان؟

ولعلّي أذكر كيف كان يملكنا الحزن أيام حصار المدينة المنورة إبان حكم فخري باشا، العرب يحاصرونها والتركي يحتمي فيها، فإذا البيت وفي زقاق الطيار يملكه محمد يوسف عبيد ابن عم الدكتور رضا عبيد يبيعه بكيس أرز مع أن الذي اشتراه بعد حين فتحت المدينة باعه بألف كيس قيمة البيت كيس أرز وما أكثر البيوت التي بيعت بذلك وقيمة التيس بـ ٣٠ جنيهاً ذهباً. ملكنا هذا الحزن ولم يكن من صنع أيدينا وإنما صنع الذين أدانونا وبس.

. . الأوزون . .

ودعوني أتنفس بهذه الغربلة عن الأوزون. الطبقة التي خلقها الله حاجزاً لأشعة الشمس البنفسجية. أو فوق البنفسجية، أو هي الأشد من ذلك. فاليوم يذيع العلماء بعامل الخوف وبلهجة التخويف من هذه الفتوق، أصابت الحاجز فإذا أشعة الشمس حارقة.

يقولون إن كثرة التعامل مع الكيماويات، وكثرة هذه الغازات أحدثت الفتوق في طبقة الأوزون في منطقة القطب الشمالي والقطب الجنوبي، كأنما الحاجز قد احتواه القطبان، وما علمونا أنه يحتوي محيط الأرض كلها.

والغربلة بعد يوم كنت فيه في لندن وأمام الفندق أقبل عليّ شاب سعودي لقبه الحسني. سلم عليّ وعرّفني أنه يدرس عن تلوث البيئة وعن الأوزون لينال الدكتوراه. وخطرت لي هذه الخاطرة أقول له: لعلّك تقرأ الأخبار عن أشراط الساعة فستجد من علاماتها قرب الشمس من الأرض. فلعلّ هذا القرب ليس قرب الجرم وإنما هو قرب الأشعة، فالفتوق في الأوزون أوصلت الأشعة، أليس هذا من علامات الساعة، تقترب الشمس من الأرض؟

وهناك من وسائل التلوث ما يشقينا الآن في بيوتنا. تركنا الأمر للخدم نشتري لهم المبيدات، الفليت والديتول والريد وما إليها. ينشرها الخدم

لقتل الحشرات بكميات مهلكة، يضيق التنفس لأن البيت أصبح مباءة لهذه الغازات السامة، والإغراء بالإعلانات يشجع على التعامل مع هذه المبيدات، فأي مبيد يقتل الذباب إذا ما كثر يضر الإنسان.. فحبذا لو استرشدنا لا نستعمل هذه المبيدات إلا بكم قليل حتى لا أكون الذبابة الكبرى التي يقتلها المبيد، والأمر كما قال المتنبي:

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا

الطبـــع

وعن الطبع ضربت عامتنا المثل وصاغت من الحكايات المثل فقالوا: «زيح جبل ولا تزيح طبع» وهم يعنون بذلك أن إزاحة الجبل رغم صعوبتها فيمكن للجهد والكد أن يحطما صخوره ويفتحا النفق للمرور منه، بينما طبع الإنسان يستحيل زواله وحتى لو أحيط بكل ما يطلب فإنه ينزع إلى ما يريده هو لنفسه. أما الحكاية الأخرى فقد سمعناها من جداتنا فقد قلن لنا إنه في مملكة كذا سلطان تحبه رعيته وهو يحبها وبينما هو في عرض طريق رأى فتاة «مزيونة» أي جميلة في ريعان الشباب تمد يديها «يا رب يا كريم تصدق علينا أحسن الله إليك» ورآها السلطان وعز عليه أن تتسول مثل هذه فأرسل إحدى «القهرمانات» لتأتي بها إلى القصر تألفها بالإحسان فزوجها لأحد الرجال من حاشية القصر وخطر على باله بعد زمن ليس بالقصير أن يسأل عنها فمر تحت النافذة فإذا هو يسمع صوتها تتسول ونظر إلى النافذة فإذا هي قد علقت عنقوداً من العنب ورغيفاً من الخبز وفاكهة تمد يدها إلى الطاق يا رب يا كريم وتتناول العنب والفاكهة وتأكل فهي قد مثلت دور المتسولة بحكم ما طبعت عليه رغم أن ما قطفت من العنب وما إليه كان ملكها ولكن الطبع غلبها فلم تترك التسول.

والحكاية الأخرى قالت جدتي: «السرقة طبع أكثر من حاجة»، فهناك

رجل اكتمل غناه ولكنه يسرق نفسه، جاءت زوجته إلى المطبخ فوجدته يأخذ سكيناً وهو يتلصص حتى لا يراه أحد فأخفاه في جيبه وتركته زوجته ثم قالت له السكين ضاعت من سرقها فقال: ليس في البيت حرامي. الحرامي يقطعون يده لكن الآن أشتري لك سكيناً وخرج برهة ليعود بالسكين نفسها ويقول لزوجته هذه سكين جديدة احفظيها حتى لا تسرق. وضحكت الزوجة وعرف من ضحكاتها أنها عرفته أنه سارق نفسه وما أكثر من يسرق من بيته من ماله لأن قهر الطبع حمله على ذلك وقالت الجدة: «شوف نحن بنات الناس مساكين، فقلت لها حتى المتسولة وهي غنية».

التراث.. صادقوه لا تصندقوه

وهذا العنوان على هذه الصورة «التراث.. صادقوه لا تصندقوه» لم أخترعه وإنما هو خلاصة لما تحدث به رئيس النادي الأدبي في القصيم الأستاذ حسن الهويمل، فقد سمعته في البرنامج الإذاعي قبل أخبار الظهيرة: «أحاديث وقضايا» فقد قال هذا الأستاذ وهو يعلن احتفاءه بالتراث إنه ينبغي الصون له لا يُصنَدق وإنما ليصنف تصنيفاً لا يحتكره أحد ولا تبعثره الآحاد.. فالكتاب الأم أو ما هو خلاصة لأم أو ما هو المستقل بما صنف له في أي فرع من فروع المعرفة ينبغي إذا ما تقدم أكاديمي شارحاً لهذا الكتاب ألا يجد من يستكثر عليه، وألا يوجد من ينازعه ليقوم بمثل ما قام به.. فليس التراث في نظر الهويمل بضاعة تسام في سوق الجامعات، وإنما هو ذخر ادخره الأوائل عنوان ما كانوا عليه من زهادة في سبل العيش إلى الإشادة بما نبغت به أمتهم. فالأوائل ما أقل الوسائل التي كانت السبيل لصناعة هذا التراث ليكون لنا هو الميراث.. فما أقل القراطيس، لا كهرباء وإنما هو زيت القناديل أو شمعة أضاءت لكاتب التراث وهي تحترق.. كما هو النور منه فلم يحترق بحسرة إن لم يكن قد ملك من وسيلة تشد عزمه.. لكن العزيمة هي في روح صانع التراث.

وتعمدت أن أقول «صانع» محارباً بعض هؤلاء الأغيلمة الذين يزعمون

أن ما جاء عن الله تراث.. فالتراث مصنوع خاضع للإشادة، إذا ما كان صواباً وللإبادة إن كان باطلاً.. ولا أعني بالإبادة حرقه أو إتلافه وإنما أعني أن يبيد لا يختزنه وجدان.

إن هذه المقدمة أحاول فيها أن أدير حواراً عن الانتماء إلى هذا التراث، ولن يقتصر على المكتوب في القراطيس.. بل على كل ما ورثناه من المكتوب ومن المنقوش على حجر. أو مدر، ومن الماثل الذي هو عنوان حضارة.. فوحدة الأثر الحضاري برهان على وحدة الأمة. فالذين نحتوا في الجبال بيوتاً هم الذين منحوا من بعدهم وليس عندهم جبل ينحتون البيوت فيه فقد وسع علمهم أن يكونوا ذوي الأوتاد.

ومن التراث هذه الملاحظة.. فأسبق الأمم في بناء الحضارة التي هي مجد الإنسان الآن هم العرب.. هم الكلدان.. فالكلداني ابن عم القحطاني وجد العدناني. وكان كل من القحطاني والعدناني صابئة تعلقت وثنيتهم بالكواكب.. فإذا هم بهذه العلاقة نرث عنهم علم الفلك واكتشاف الكواكب السيارة والمعرفة عن الشمس تجري لمستقر لها.. فقد قالوا عن المستقر أنه النجم الجاثي على ركبتيه تدور حوله الشمس كأنه قطبها استقطبها دون أن يمسها.. فهكذا برعوا كلدانيين وقحطانيين ومنهم الفراعين في معرفة المجرات ودوران الشعرى بلا مكبرات وإنما بالصبر والدأب.. حتى إنهم صنعوا على دائرة من نحاس صغيرة الحجم تقويم كوكب الزهرة فهذا الاسم في العدنانية «الزهرة» بينما هو في الكلدانية «عشتار» وفي الفينيقية «عشتروت» وفي الفرعونية «هاتور» وفي اليونانية أخذاً من العرب والكلدان: «فينوس» وهو كما قالوا لنا يعني اسم البنت رمز الجمال عند الثمود. ولم تكن في لغتهم التاء وإنما كانت الثاء.. فحرفت في اليونانية إذ لحقها حرف

التنوين عندهم «السين» فأصبحت فينوس.. كما أن النجم «ستار» بلغة الفرنجة مأخوذ من عشتار.

إن هذا التراث نعرفه كتاريخ مجد فالصابئة قد أصبحت الباطل كعبادة حين كفر بها أبو الأنبياء إبراهيم.. فإذا أبناؤه العدنانيون على ملة إبراهيم.. كل ما انحرف عنها يقولون صبأ.. حتى أضلهم الشيطان فوصفوا المسلم بأنه صابئ: «لئن صبأ الوليد لتصبأن قريش» فمن العقوق للتراث ألاّ نتصل كمثقفين بكل من صنع الثقافة.

فابن سينا لم يتنكر لجالينوس، وأحسب أن مجدي يعقوب وبرنار وإحسان رفة وفهد العبد الجبار لا يتنكرون لأبي قراط وجالينوس. فالانتماء للتراث شرف. والعقوق له تلف.

ميتران ـ ياسر
لافييت ـ واشنطن

وخرجت دولة فلسطين، يصل زعيمها رئيس الدولة الفلسطينية إلى فرنسا، تستقبله باريس التي لم تنس أن ثورتها حطمت الاستبداد والطغيان حين طرحت شعارها «الحرية والعدالة والمساواة».

وحيث أقبل ياسر عرفات استقبله أيضاً رئيس الجمهورية السيد فرانسوا ميتران، كأنما هذا الإقبال والاستقبال ثورة سلمية تعني الحفاوة بحرب السلام مذ أسقطت فرنسا نفسها العدوان الثلاثي، حرب سلامة لليهود. ومرة أخرى كأنما بدأت فرنسا تعطي مشاعرها نحو العرب حين استيقظت هذه المشاعر على صلة القرابة. قرابة الدم العربي استحوذ على نسبة ٧٥٪ من دم الشعب الفرنسي، لم يزرعه عبد الرحمن الغافقي. وإنما زرعه الفينيقي القرطاجي هانيبال الذي ساح في أوروبا حتى احتل روما وحتى كان حلقة من حلقات الحرب البونية التي طبعت بصمتها على الشعب الألماني بثلاثة: اسم العاصمة بون، والشعار والنسر، والتعويذة الصليب المعقوف. وليس إقبال ياسر واستقبال ميتران إلا وهو كما هو إقبال الجنرال الفرنسي «لافييت» على زعيم ثورة الولايات المتحدة جورج واشنطن. فكم هو الشبه قريب وليس بالغريب؟ فقد كان جورج واشنطن وهو يقود الولايات الثلاث

عشرة لتستقل هذه الولايات عن الإمبراطورية الأم بريطانيا العظمى. بريطانيون حاربوا سلطان آبائهم. فكيف ينكر على الفلسطيني أن يحارب طاغية يهوديًا أجنبيًا ينهب الأرض. ويقتل الشعب؟

كان لافييت في عصر مازال مظلماً نصيراً للحرية، وفي عصر النور ـ كما يقولون ـ كيف يستكثر أو كيف ينكر على فرنسا أم لافييت أن تناصر طالب الحرية العربي الفلسطيني ياسر عرفات؟ لكنهم اليهود. ولكنهم أيضاً الذين سرق اليهود وجدانهم فكأنهم قد مارسوا العقوق لحقوق الإنسان وهم دعاة هذه الحقوق. بل وكأنهم نسوا أن سرير لافييت مازال بجانب سرير واشنطن.

إن استقبال ميتران لياسر اعتراف غير مكتوب بالدولة الفلسطينية.

ولا أريد أن أنسى ما سجله التاريخ عن اسم الفلسطيني، فما هو معنى الاسم. إنه في لغة الكنعانيين، والآراميين العمالقة فهو العملاق الجبار، وقد قال بنو إسرائيل كما علمنا القرآن، قالوا للرسول النبي موسى، عليه السلام، وهو يدعوهم لدخول فلسطين: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ (المائدة: ٢٢).. هذا التعريف للفلسطيني، لم يتخل عنه عز الدين القسام وعبد القادر الحسيني، وقد قال به الآن أطفال الحجارة.. إنهم جبارون، سلاحهم قلب الجبابرة وإن كان حجراً وضع اليهود في عنق الزجاجة.

إن فرنسا أشرقت على أوروبا بالحرية حين ثارت، وهي الآن أشرقت مرة أخرى على أوروبا تدعوها إلى أن تكون شعوبها هي نصيرة للحرية، حرية الفلسطيني على أرضه، فهناك شعبان في أوروبا لأنهما العريقان في الحضارة، اليونان وأسبانيا لم تعترف كل منهما بإسرائيل حين صدر قرار

هيئة الأمم المتحدة بتأسيس دولة اليهود. فقد قلنا من قبل إن الذين اعترفوا بهذه الدولة اليهودية لم يكونوا ورثة حضارة. أما الذين ورثوا الحضارة، وعرفوا مكانة العرب صناع الحضارة فلم يعترفوا وهم الصين، الهند، اليونان، أسبانيا، ولكنها الضغوط على أسبانيا أخرجتها من قاعدة الذهب إلى التعامل بالنحاس. لكنها أسبانيا ولن ننسى مواقفها. فلئن كان دم العرب في الشعب الفرنسي، فما زال هو الأكثر والأبقى في الشعب الأسباني، وما زالت حضارة الأندلس مصدر الدولار في يد السائحين وهم الملايين لا يصلون إلى أسبانيا إلا ليشهدوا حضارة العرب.

إن العرب بخير ما دام قد نبغ فيهم الطفل الجبار سلاحه الحجارة، فأجداده الأوائل الذين فتحوا الدنيا كان سلاحهم حديدة، يحملهم الجمل لا الطيارة، يزحفون على الحصان لا على الدبابة، طعامهم جراب تمر لا ما يحملون من المعلبات، فالسلاح لا شيء إذا لم يكن عن إيمان، عن وجدان.

وقالوا: ليس لفرنسا دور في لبنان، وقالت فرنسا: لم يعد لي دور المستعمر ولا دور المستقطب، وإنما هو دور المشاعر استيقظت تحمل مشاعر لامارتين.

قبس من البيَان!!

وليس هناك بيان كبيان القرآن، كلام الله بلسان عربي مبين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هدى ورحمة للعالمين.

إن هذه المقدمة شُرح بها صدري حين قرأت خطبة الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي عمر المسجد بالعلم وعمر الجزائر بالجهاد، فوجدتني أنشرها هدية للقارئ يعرف بها كيف يصبح العالم علماً إذا ما استقام أمره على هدى القرآن والسنة فلا يتعابث باللجاجة، ولا يتخابث باستعراض العضلات عضلات المعرفة، وإليكم هذه الخطبة:

خطبة افتتاح
لدروس التفسير هاته السنة

جرت عادتنا أن نفتتح دروس التفسير من كل سنة بخطبة، تارة نخرج منها إلى نفس التفسير وتارة نطرق بعدها موضوعاً مناسباً للمقام.. ولم نكن فيما مضى نعود إلى كتابتها وفي هذه السنة رأينا أن نحلي بها صدر الشهاب تعميماً للفائدة.

الحمد لله الذي جمل الإنسان بالبيان، وجمل البيان بالقرآن، فالإنسان دون بيان حيوان أبكم، والبيان دون قرآن كلام أجذم، وذو البيان والقرآن هو الأكمل الأعظم، قدراً وتقديراً والأحسن الأقوم، عملاً وتفكيراً،

والأسعد الأكرم حالاً ومصيراً.

أحمده، أرسل محمداً ـ ﷺ ـ بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأنزل عليه القرآن تبصرة وذكرى، ومعجزة كبرى. حجة وتذكيراً، وشرع لنا من دينه الحنيف، مناهل العز والسعادة، ومهد لنا من شرعه الشريف سبل الحسنى والزيادة. رحمة منه ـ تعالى ـ وفضلاً كبيراً.

وأشكره، هدانا واجتبانا، فرضينا بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً وبمحمد نبيًّا، وبالقرآن إماماً، وحبب إلينا ديننا، فوالله لو بذلت لنا الدنيا بحذافيرها في تركه ما ساوت عندنا حبة رغاما، توفيقاً منه تعالى ويقيناً صادقاً منا وبصراً بصيراً.

وأستغفره لما كان منا من نقص وتقصير في الوفاء بعهده الحق وشكر فضله الكبير، إنه كان عفوًّا غفاراً شكوراً.

وأصلي وأسلم على سيدنا محمد أشرف خلقه وأكرم رسله، فرق بالقرآن بين الحق والباطل، وهدى به الضال وعلم به الجاهل، وجاهد به ـ في الله ـ جهاداً كبيراً.

وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، اقتفوا طريقته، وأحيوا سنته. فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً، وجزاهم بما صبروا جنة، وحريراً.

وعلى بقية أمته، وأهل ملته، لبوا دعوته وأموا غايته ناشطاً وحسيراً.

صلاةً وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم نلقى محمداً ـ صلَّى الله عليه وسلم ـ ونسعد بلقائه ونحشر بين الأمم تحت لوائه، ونجزى بمحبته ـ إن شاء الله تعالى ـ جزاءً موفوراً.

أما بعد فقد عدنا ـ والحمد لله تعالى ـ إلى مجالس التذكير. من دروس التفسير، نقتطف أزهارها، ونجتني ثمارها بيسر من الله ـ تعالى ـ وتيسير على عادتنا من تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية، وربط الآيات بوجوه المناسبات، معتمدين في ذلك على صحيح المنقول وسديد العقول، مما جلاه أئمة السلف المتقدمون أو غاص عليه علماء الخلف المتأخرون ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ وعمدتنا فيما نرجع إليه من كتب الأئمة تفسير ابن جرير الطبري، الذي يمتاز بالتفاسير النقلية السلفية، وبأسلوبه الترسلي البليغ في بيان معنى الآيات القرآنية، وبترجيحاته لأولى الأقوال عنده بالصواب.

وتفسير الكشاف الذي يمتاز بذوقه في الأسلوب القرآني وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب والتنظير لها بكلام العرب واستعمالها في أفانين الكلام.

وتفسير أبي حيان الأندلسي الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية وتوجيهه للقراءات. وتفسير الرازي الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية، مما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والإنسان، وفي العلوم الكلامية ومقالات الفرق والمناظرة في ذلك والحجاج.

إلى غير هذا مما لا بد لنا من مراجعته من كتب التفسير والحديث والأحكام. وغيرها مما يقتضيه المقام.

نقول هذا ليعرف الطلبة مصادر درسنا، ومأخذ ما يسمعونه منا.

ونحن نعلم أننا ـ والله ـ كما قال أخو العرب:

لعمر أبيك ما نسب المعلى إلى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد إذا اقشعرت وصوَّح نبتها رعي الهشيم

وكما نقول في مثل: «إنما نكحل في موضع العينين» وإذا نظرنا إلى قصورنا وخطورة مقام الكلام على كلام الله ـ تعالى ـ أحجمنا.. وإذا رأينا إلى فضل الله وثقتنا به وحسن قصدنا ـ إن شاء الله تعالى ـ في خدمة كتابه أقدمنا، وهذا الجانب الكريم أرجح عندنا، فنحن نقدم معتمدين على الله تعالى سائلين منه تعالى لنا ولكم أن يوفقنا إلى حسن القصد. وصحة الفهم. وصواب القول، وسداد العمل.

بحبـــوح

وأشغلني هذا اللقب (بحبوح) أطلقه كاتب هذه التمثيلية التي شاهدناها في تلفازنا، أطلقه الكاتب لقباً مشيناً بهذا السلوك الذي تسعَّر في سلوك البطل بحبوح فشغل بجمع المال من أي طريق حتى مارس التسول مع أن لديه ما ملك من المال الذي جمعه، فالأفلام والتمثيليات سيطر على كتابها عاملان؛ تطبيق نظريات علم النفس وتجسيد الواقع بهؤلاء الذين تبحبحوا لا يقنعون بما ملكوا حتى هتكوا أنفسهم، فردود الفعل جسدت فعلاً شائناً وقد شغلت بهذا البحبوح، أنكرت هذا اللقب على الصورة المشينة مع أنه في استعمالنا نحن العوام تدل البحبحة على السعة والانشراح، فالضحوك بحبوح والكريم بحبوح، فأخذت أمشي إلى لسان العرب فإذا المادة واسعة تشمل بح صوته إذا غلظ حتى وصلت بالمراجعة إلى هذا النص من لسان العرب فإذا نحن العوام نحسن استعمال هذا اللقب كما هو الذي جاء في الفصحى لغتنا الشاعرة.

لهذا أنشر هذا النص هكذا من لسان العرب:

قال الفراء: البحبحي الواسع في النفقة، الواسع في المنزل وتبحبح في المجد أي إنه في مجد واسع، وجعل الفراء التبحبح من الباحة ولم يجعله من المضاعف، ويقال القوم في ابتحاح أي في سعة وخصب والأبح من

شعراء هذيل ودهاتهم والبحبوحة وسط المحلة. وبحبوحة الدار وسطها قال جرير:

قومي تميم هم القوم الذين همُ ينفون تغلب عن بحبوحة الدار

وفي الحديث أنه ﷺ قال: (من سره أن يسكن بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد).. قال أبو عبيدة: أراد بحبوحة الجنة وسطها وقال: بحبوحة كل شيء وسطه وخياره.

ويقال قد تبحبحت في الدار إذا توسطها وتمكنت فيها والتبحبح التمكن في الحلول والمقام، وقد بحبح إذا تمكن وتوسط المنزل المقام.

وهكذا أريد من القارئ أن يكون في بحبوحة العيش عن طريق الخلق لا عن طريق الاختلاق، فالطريق السوي سهل المسالك، ليس في المهالك والطريق الوعر فيه التهالك.

ـ شامية ـ

ويحلو للغربلة أن تسمع عن كلمتين في موقفين لشامي على سفينة في البحر. والأخرى لشامي على نكتة في البر.

وقد حدثونا ونحن شباب في المدينة المنورة، والمدينة شامية بالنسبة للقبلة وهي شامية حيث تأثرت بقربها البعيد من الشام قالوا:

ركب جماعة من العرب سفينة شراعية فهاج البحر، يتقاذف الموج السفينة، وإذا ركابها يتصارخون خائفين. وكل واحد يدعو «فلانه» الذي يحبه من أسماء الصالحين يا سيدي فلان.. يا سيدي فلان.. يا سيدي فلان وكان من بين هؤلاء الركاب شامي لم يصرخ ولم يتكلم، غير أنه ضاق بهذا الدعاء لغير الله. فرفع يديه يدعو الله وبلهجته الشامية يسأل الله أن يغرق هؤلاء لأنهم نسوا الدعاء لله.

والكلمة الثانية.. قالوا لنا إن شابين من أهل الشام ضاق بهما الحال ورفضا أن يفكرا بالهجرة وفتقت الحيلة لأحدهما عن هذه الفكرة.. قال لصاحبه: «خي.. سوق الأضرحة رايج. وزوار الأضرحة يكثرون النذور. هيا نبن ضريحاً لواحد شيخ ثم تأتينا النذور» فقال صاحبه: «ومن أين نأتي بهذا الشيخ؟ فقال: «بسيطة.. نشوف واحد كلب.. أو أي حيوان آخر ندفنه حتى لو وجدناه نافقاً على كوم قمامة ونبني عليه قبة صغيرة» فقال

الآخر «شو نسميه؟» فأجابه «الشيخ زنكي» ويظهر إن هذا الاسم عرفه الشابان حين اشتهر اسم السلطان العظيم نور الدين زنكي، وفعلاها. وكثرت النذور واشتهر اسم الشيخ زنكي وقال أحدهما لصاحبه «أريد أن أزور الأهل لأساعدهم بس احفظ قسمي» وذهب حتى إذا عاد سأل عن قسمه فأنكر صاحبه ما وصل من الحصيلة وحلف باسم الشيخ زنكي «وحياة الشيخ زنكي ما وصلنا شيء» فقال صاحبه: «شو الشيخ زنكي؟ ما هو نحنا دافنينو سوا!».

النقـــص . .

والغربلة اليوم أتغربل بكلمة عن مركب النقص فهو من الأسس التي تم بناء علم النفس عليها ويزعم الذين تأهلوا أهلاً لتعليم قواعد علم النفس أنه اكتشاف جديد سواء دار حوله ابن خلدون ولم يتوار عنه ابن مسكويه، أو تظاهر به أتباع فرويد، أو استظهر منه الدكتور القوصي. زاد تأثير المكان إذا ما تغير. يرتبك الطالب عن المذاكرة إذا كان في مكان غير الأول. كل هذا يحسبونه الجديد مع أنه القديم تجدونه في كلمة لمعاوية بن أبي سفيان في تشريح للعلامة المهدي بن عبود. . فمعاوية بن أبي سفيان عرف مركب النقص قبل أساتذة اليوم، فقد قرأت للأستاذ المصري خيري سعيد أن معاوية وهو على العرش في دمشق وقد جلس لزائريه وكان من بين هؤلاء الأحنف بن قيس الزعيم في قبيلة تميم، تميم البصرة والكوفة، ومحمد بن الأشعث زعيم كندة. شيخان من شماريخ العرب عدناني وقحطاني، فأذن معاوية للأحنف وبعده لمحمد بن الأشعث، فإذا ابن الأشعث يدخل قبل الأحنف حتى إذا سلم على معاوية قال له: لقد أذنت للأحنف قبلك ولكنك سبقته قبل أن آذن لك وما كان هذا إلا لنقص فيك. . أفليس قول معاوية هذا يدلنا على أنه عرف مركب النقص. أما تشريح المهدي بن عبود فهو عن عالم اليهود وإن كان نمساويًّا وهو فرويد الذي استحوذ على دارسي علم النفس والذي جعل الغريزة هي التكوين لكيان الإنسان وصرف تأثير الروحانية عن

أن تكون التكوين للإنسان الفاضل، فقال المهدي بن عبود (كلُّ ما جاء صواباً عن فرويد فهو ليس له ولا هو منه وكل خطأ عنه هو عليه فهو منه) وهكذا أصبح علم النفس تجريحاً للنفس أكثر منه تصحيحاً لواقع علم النفس كأنما الإنسان أصبح لديهم عجينة يخبزونها لا طبائع طبعه الله عليها.

وحدة المشاعر.. عصمة!!

وما كان يخطر على بالي أن أعبر عن شعوري عن وحدة المشاعر ولكن الكاتب حينما يعيش واقعه تأخذه النظرة إلى ماضيه كما تأخذه الرغبة ليحفزه الأمل في أن يكون المستقبل خيراً من الحاضر.. فأيما شعب لا يعرف ماضيه الذي سجله التاريخ مجيداً وعظيماً ومؤثراً لا يمكن له التخلص من العثرات، وأشد العثرات أن تطغى أنانية الواحد على ما ينبغي للآخرين فشعور الواحد ليعيش وحده نكسة عليه لتكون نكسة على شعب، فالذين أخلصت مشاعرهم حين توحدت فوحدت المسيرة بوسائل الإخلاص والعون ليكون الجزء للكل والكل وحدة لا تتجزأ.

إن وحدة المشاعر أصدق تعبير عنها هو الأخوة (إنما المؤمنون إخوة، المسلم للمسلم بنيان واحد يشد بعضه بعضاً).

وهذه المقدمة عن وحدة المشاعر أطرحها تحليلاً بل وتحلية حين أذكر تلك اللحظة التي توحدت فيها مشاعري.. إذ نطقت بها وإلا فما كنت يوماً إلا وأنا أعيش كل مشاعري في الناس الذين هم لن يكونوا الناس إلا إذا كانوا ناساً على خلق يحمل من اعتز بالنسب، أن يعتز بالحسب فلا يبتز ذا حسب، ولا يهتز بفرقة السبب.. الذي هو به أو هو الذي له فلا يكون عليه ولا يكون على الآخرين، شأنك أن تكون عزيزاً وشأني أن أكون معتزًّا

به لتكون المعتز به ولو كنت ضعيف حال لا أمتلك النيل ولا النوال.

ومتى نطقت به؟

كان ذلك في الليلة التي اجتمعنا فيها في دار الأخ عبد المقصود خوجه أعني ليلة الثلاثاء من نهار الإثنين.. وكان الحفل أعد تكريماً للشيخ الذي ما زال شابًّا أبي عبد الرحمن بن عقيل، فلقد كنت جالساً وعلى يميني المباركان من حجر اليمامة (الرياض) بل ومن حاجر اليمامة (حريملاء) وعلى يساري الأستاذ عبد الرحمن بن عقيل الوشمي اليمامي بل هو العربي كما هما عروبة القحطاني والعدناني فوجدتني وأنا في هذا الحجر لأجد نفسي ذا حجر فلم يكن هذا الحجر الذي أنا فيه منحازاً إلى العقل وحده أو إلى العاطفة وحدها بل كان هذا الحجر وهو يعني العقل عقلاً وعاطفة، وعلى يميني المباركان شباب من أهل كاظمة (الكويت) التي ما كظمت حبها عن كاظمة البصرة والكوفة وعن حبها لأصلها جزيرة العرب. حين ذاك نطقت أقول إن وحدة المشاعر في أبناء الأمة الواحدة عصمة. عصمة السلوك خطوة خطوة في المسيرة المتحدة للحفاظ على المصير الواحد.. ذلك إلهام اللحظة مع إنه استلهام كل اللحظات من قبل لحظات ذي قار وذات الخنافس التي كانت على ساحل البحر الأزرق نصراً عربيًّا في ذي قار ونصراً عربيًّا مسلماً في ذات الخنافس بعد النصر ذي الحيرة وسيلة.. لنصر اليرموك، لنصر القادسية، ذلك النصر الذي لم يكن إلا بالإيمان الذي لم ينتصر إلا بوحدة المشاعر. لقد كان مع المثنى بن حارثة الشيباني أبو زيد الطائي قحطاني. صديق للعدناني، وقد كان أبو زيد نصرانيًّا والمثنى كان المسلم بكل معنى الكلمة، فإذا وحدة المشاعر تمسك بالنصراني عربيًّا طائيًّا قحطانيًّا ليقول للمثنى (أنا امرؤ نصراني فماذا تريدني أنْ أفعل؟ فقال ابن

حارثة: قاتل على أحسابك) يعني على أخلاقك تستلهم مشاعرك، فقاتل أبو زيد جنباً إلى جنب مع المثنى فقتل، ذلك أن مشاعره العربية دعته ألا يترك قومه العرب دون أن يقتل في سبيلهم.

إن وحدة المشاعر هي التي تأخذني محبذاً ولا أنحصر في أشبار من الأرض في هذا الكيان الكبير، بل إن كل شبر من أرضنا هو وطني، فإذا أنا المعجب التياه فيما فعل عبد العزيز بن عبد الرحمن حيث جمع الشتات فلا قطيعة، ولا إقطاع ولا مقاطعات. فوحدة المشاعر نحن في حاجة إليها ليكون كل واحد وما هو فيه، أو بما هو له، ولكن وحدة المشاعر تجعله بكل ذلك أن يكون لنا جميعاً منا وفينا فالانفرادية طغيان الفرد على نفسه قبل أن يطغى الفرد على الآخرين، وحين نطقت بوحدة المشاعر ما كان في خاطري انعقاد مؤتمر القمة في جزيرة على البحر الأزرق؛ خليجنا العربي جزيرة البحرين في عاصمتها المنامة وما كانت مناماً، ولكن القمة فيها صحوة، فزعماء مجلس التعاون أبناء الأرض الواحدة واللغة الواحدة والشعب الواحد وقبل كل ذلك الدين الواحد، فكيف لا يكون مجلس التعاون؟ لقد كان حين نكون بهذا الوازع وحدة المشاعر، كلهم عرب زعامة النسب بحلية السبب واعتلاء الحسب، فالعربي ما كان عظيماً بالنسب وحده، وإنما يعظم بالحسب ويتعاظم بالسبب.

إن مجلس التعاون أكتب عنه اليوم ولما يعلن بيان المؤتمر بهذا الإلحاح يدعوني إلى الكتابة. وليس هو إلحاح الجريدة وإنما هو إلحاح الحافز بوحدة المشاعر.

إن مجلس التعاون وحدة أنموذج تضامن لا إمبراطورية تعاون لا يتعدى ولا يتحدى وإنما هو للمصير يتصدى... إن تعاون زعماء المجلس من

شعوب الخليج نداء لما يمثله إلى أن يكون هناك تعاون شامي عراقي مصري سوداني ومغربي. ينبغي ما دام المسلمون لهم مؤتمر وما دام العرب لهم جامعة أن لا يكون هذا الاجتماع صوريًا وإنما يجب أن يكون مصيريًا.. أليس المسلمون والعرب يحملون مقدرات الأمة الواحدة، وحدة العقيدة، وحدة المسجد، وحدة الأرض والتاريخ والمصير، يعني أن كلنا في التاريخ المشترك. كما أن وحدة هذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية منذ كانت الأنموذج كانت الداعية إلى وحدة تحققت في المؤتمر الإسلامي في التضامن العربي فإذا هي عضو في مجلس التعاون، فمجلس التعاون لا ينفصل عن كل دعوة خيّرة دعا إليها المؤتمر الإسلامي وتدعو إليها الجامعة العربية.

في زمن مضى وصلنا إلى الكويت وفي أزمة وقاها الله شرها جرى حوار بيني وبين الأستاذ سعيد فريحة كان ميالاً إلى جهة مائلاً علينا وكان حاضراً في هذا الحوار وفي بيت وزير خارجية الكويت الشيخ صباح الأحمد. الأستاذ النابلسي عيسى خليل صباغ الأمريكي حين كان يعمل في السفارة الأمريكية لدينا، فمن هذا الحوار قلت لسعيد فريحة: وأنت العربي لا بد أن تعرف عن هذه الوحدة الأنموذج التي تكوّنت بعبقرية البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن، فلو لم يضم الأحساء لفقد العرب كل العرب هذه الأرض الطيبة؛ لأن الانفصال في قطعة من جزيرة العرب هو وصمة للعرب؛ ولأن ما فعله عبد العزيز أصبح اليوم عصمة للعرب؛ ليس بقلة التمر ولا ببرميل بترول وإنما بوحدة الأرض وبوحدة المشاعر..

فحذار.. حذار من اختلاف مشاعر تزعزع الوحدة بين القلوب، فانتصار الشعوب قلب مفعم بصدق المشاعر لا بالجيوب وإن امتلأت.. تحية لمجلس التعاون نمت به وحدة المشاعر والله ولي التوفيق.

أرض الزبير في الغابة

والمدينة المنورة الحرم الثاني الشريف، حفظنا أنهم وضعوا الحد للحرم من اللابة إلى الغابة. وهذا التحديد من الجنوب إلى الشمال، وهناك تحديد آخر من ثور إلى عَيْر، من الشمال إلى الجنوب الغربي، فثور ضرس من جبل أحد، وعَيْر هو الجبل في الجنوب الغربي يفترش حزم وادي العقيق. كما أن العقيق إذا تخطى جبل عير يفترش مسيله بين الجماء الجبل والحرة واقم، وعجيب حيث خطرت لي هذه الخاطرة فجذم اللابة افترش جنوب المدينة، فإذا هو يحجر لا يسيل إلى قباء، وقربان، والعوالي «العالية» حجزه الله فإذا هو يسيل إذ تفرع إلى فرعين.. فرع شرقي هو حرة «قريظة» يمتد من الجنوب إلى الشمال، ليقف مسيله دون الخَنَقْ دون وعيْرة.. وقد كاد يطغى هذا الفرع البركاني ليكون سدًّا يحجز وادي قناة. فإذا وفرة الماء يتكون منها غدير «العاقول» وإذا الماء ينخر الحرة فيجد السيل المتنفس ليسيل بقدر ليبقى غدير العاقول زاخراً. وهذا الوادي ذكر عنه السمهودي أنه سال ستة أشهر، وأذكر بما شاهدت أن هذا الوادي سال ثمانية عشر يوماً، فلذلك حجز على الحزم من جبل أحد الشيخ عمر حمدان المحرزي حين كان يقبل مع طلاب العلم على الحزم. وأغاثهم أصحاب الشيم من الذين يحسنون العوم يضعون الزاد طعاماً وشراباً في صفائح يحملونها وراء ظهورهم وقد ربطت بالحبال وسدوها باللحام، ينزل العوّام من طرف حرة

قريظة يسحبه التيار حتى يصل إلى الساحة الكبيرة بين جبل أُحد و«خيف السيد» البستان الذي كان ملكاً لإبراهيم فراج حيث يخف التيار ويركبون الحزم ليصلوا بالطعام إلى الشيخ وطلابه.. ومما يستحق الذكر وعن حرة قريظة أنه اشتعل البركان مرتين، فالأولى في عهد أبي حفص الفاروق عبقري هذه الأمة ابن الخطاب عمر، رضي الله عنه. فلم يكن البركان قويًّا أضعفه الله فلم تُصَبْ منه المدينة بأذى.. وأما في المرة الثانية فقد ارتفعت ناره عالية حتى أضاءت أعناق الإبل ببصري. معجزة الخبر عن الصادق الأبر ﷺ.. فهل كان ارتفاع النار بأمر الله لا تنبطح على الأرض فتؤذي المدينة المنورة فلم نسمع أنه أصابها بأذى.. كما أنا لم نسمع عن ثورة البركان في هذه الحرة ثار بعد زلزال، فالمدينة بكل هذا أصبحت وهي عدة أَبْقِعَةِ وكأنها الدلتا بين جذم الحرة في الجنوب وفرعيها في الشرق والغرب. لهذا قلنا من قبل إن المدينة ويوم كانت يثرب لا تغزى من جنوب أو شرق أو غرب، فغزوة أُحد في الشمال، وغزوة الأحزاب إلى الغرب المائل شمالاً.. والمدينة من الغابة إلى اللابة ما كتبت عنها ما تقدم إلا سبيلاً أذكر السبب الذي دعاني إلى ذلك فقد كنت في النادي الأدبي بجدة أستمع إلى محاضرة أستاذنا الأزهري الدكتور أحمد عمر هاشم وليتني أقول الشيخ، فالأزهر مشيخة. فاللقب للشيخ العالم والعلامة، والمفتي.. أما الدكتور فشيء جديد، لا يكبر به الأزهري، ولا نستصغره وإنما هو حكم الزمان، وسمعت الأستاذ وهو يعيب الذين يتلسنون على الصحابة فذكر اسم الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه المبشر بالجنة.

واستطرد الشيخ ليذكر أن أرض الزبير كانت في العالية أي «العوالي» وقد سميت بذلك لأنها اعتلت، فالمسيل «لرانوناء» من العالية؛ لأن قباء

وقربان هي من عالية الأرض وإن لم يطلق عليها اسم العالية.. فوجدتني لا أثير الاستدراك عليه في النادي.. فأرض الزبير في الغابة أسفل المدينة المنورة يطأها وادي الحمض حيث تكون من اجتماع الوديان الثلاثة قبل الغابة في مجمع الأسيال في زغابة حول بئر روما.. فقناة وبطحان والعقيق.. تجتمع هناك سيلاً واحداً هو وادي الحمض يسيل يطأ الغابة ويأخذ معه سيلاً رابعاً هو الذي يسيل على أرض الزبير من شمال أحد هو وادي «نُقْمي»، فهذه الأرض ليست في العالية. وفي حفل الاثنين وكان الشيخ بجانبي فاستدركت عليه ما ذكر عن أرض الزبير، قلت له إنها ليست في العالية وإنما هي في الغابة تعانق جبل أحد وتعتنق ما اتسع لها من الأرض، فقال الأستاذ أحمد عمر هاشم: إن هذا النص في صحيح البخاري فوقفت عن الكلام لعلّي أسأل شيخنا أبا تراب عن الصواب فيما ذكره الأستاذ.. وسألت أبا تراب فقال: إن الذي في صحيح البخاري هو أن أرض الزبير في الغابة فطلبت من الشيخ أن يحرر هذا الموضوع في مقال نكتبه تعقيباً على ما ذكرت، فصعب أن يأخذنا شك في المتن الصحيح، ولعلّي بعد ذلك أذكر موقفاً حول أرض الزبير فقد كنت مع الأستاذ حمزة شحاتة يوم كان يقيل عندي في الصيف وعائلتي في الطائف وقد جلسنا وبين يدينا المغني والشرح الكبير لابن قدامة، والمحلى لابن حزم، نقرأ النص في كل منهما للمقارنة والتعلم، فإذا الأستاذ حمزة يقرأ هذا الخبر؛ فقد اشتكى إلى رسول الله ﷺ أنصاري الزبير، لأن له أرضاً بعد أرض الزبير.. فقال يا رسول الله إن الزبير يحبس ماء السيل عن أرضي، فقال الرسول ﷺ للزبير: يأمره «احبس الماء حتى يبلغ كعبيك فأطلقه» وكان هذا الخبر في المغني فإذا حمزة شحاتة يقول: الله أكبر فإن هذا الأمر قانون الأنهار في العالم، فقلت العجيبة في هذه العشر سنوات بقدر الله وقوع

الحدث تلو الحدث لينعم بالتشريع، فقال حمزة ما أكثر وأعظم ما تم في هذه العشر من السنوات.

وبقي أن نقرأ لأستاذنا أبي تراب عن النص في صحيح الإِمام البخاري محمد بن إسماعيل تغمده الله برحمته.

أمثلـــة

وأكتب للندوة كأني في ندوة.. لأنها المنتدى يحمل فيه وبه الأدب والأحسن من السبب فهي كما قال المتنبي [وأحسن ما في الأحسن الشيم] فالشيم جمع شيمة كأنها من المروءة غير أن كلمة الشيمة تعني من الخلق الكريم العفة والنخوة والكرم.. فهي كلمة جامعة وإن كانت الأقل مما تجمع المروءة.. فكل خلق كريم مروءة، وهل هناك علاقة بالاشتقاق بين المرء والمرأة والمروءة.. قد يكون.

والعامة أبدلوا الهمزة بالواو فقالوا «المروة» وأخشى أن يقرأها من فاته المران (بالمروة) أي الحجر الذي ابيض حين غسله الماء، حتى إذا زاد غسل الماء نبعت عروق من الذهب، ذلك صنع الله.

والكلمة الثانية كمثال من الأمثلة أخذناها من الفارسية هي قولهم [اثنان أبرد من يخ] والمعنى أنه من الصفاقة أن يلبس أحدنا ما لا يليق به لبسه.

والكلمة الثالثة وأخذناها من الفارسية أيضاً فمن شعر الفردوسي، شاعر الفرس قوله يسخر من البلبل لا يعجبه هذا العندليب موضوعاً لا شكلاً قال: أيه يا مرغ سحر.. أنت لست عاشقاً مغرماً لا تذوب في الحب تحب الورد تغني له في الصباح وقت السحر حتى إذا أقبلت عليه تشمه يغمى عليه.. تبتعد عنه بينما الفراشة هي التي تحب كل الحب.. تطوف حول

النار.. لا تخشى أن تحرق، بل تغازل النار والنور.. فإذا هي تغمس نفسها في النار ليحرقها الحب.

وأعان هذا المندوب الشقاق في الزعامة الفلسطينية الحسيني ـ النشاشيبي ـ العلمي ـ الشوا ـ ومن إليهم، فأي مقاومة تنجح بهذه الفرقة التي أعلنت نفسها في حرب الدول العربية «ماكو أوامر» الأمر الوحيد لأبو حنيك ـ التعجيز المتعمد للجيش السعودي والجيش المصري.. لكن الفالوجة أثمرت الثورة في مصر، وأثمرت التروي في المملكة العربية السعودية.

هذه المقدمة دهلزة لتحليل المواقف التي ذكرت، هاني الحسن وجورج بوش ـ اليهود وجورج بوش ـ الحوار الأمريكي ومنظمة التحرير. فالثائر الفلسطيني هاني الحسن.. عضو المنظمة استقبل الحوار الأمريكي بالترحيب كما هو ذلك من منظمة التحرير حتى قال: إن وراء العدول الأمريكي عن موقفه ضد الحوار مع المنظمة كان وراءه جورج بوش بالصفتين اللتين يحملهما.. نائب الرئيس وله رأيه.. والرئيس المقبل وما يمليه عليه نهجه السياسي بعد..

إن هذا القول من هاني الحسن متفائل، ولكن: كان جورج بوش يغامر بإغضاب اليهود، فلماذا لا نقول إن الكهنوت اليهودي داخل الولايات المتحدة وقد هاله موقف الرأي العام العالمي، وانتقال هيئة الأمم إلى جنيف تسمع لياسر عرفات.. تصدر القرار نصراً للفلسطينيين.. فإذا الحكومات والشعوب في كل العالم مع منظمة التحرير.. فرأى الكهنوت اليهودي أن يمتص هذا الموقف العالمي.. يعتصره بهذا الحوار الأمريكي بين منظمة التحرير والإدارة الأمريكية وبدا لي ذلك واضحاً.. لأن الرأي العام العالمي بدأ يسترخي قليلاً لينتظر النتيجة. فاليهود كما قال أستاذ منهم لبعض

تلامذته.. نحن اليهود أهل البداية.. نعتصر الظروف المواتية.. يتم لنا البروز غير أننا لا نلتفت إلى النهاية.

وفسرت للطالب هذا القول بأنه يعني أن اليهود في طول حياتهم من اللحظة التي كانوا فيها بدواً إلى كل اللحظات التي تبعثروا فيها في كل إقليم كانوا أهل وقت فلم يكن الزمن معهم.

يمسكون بالسيادة وقتاً يطغون فيه فإذا الزمان يأتي بما لا يسرهم بل وبما أسرهم وعصرهم وبعثرهم.

فهم بهذه العودة للحوار قد كسبوا وقتاً يسترخي به الرأي العام العالمي ليمكنهم العنف على فتيان الحجارة.

وحتى كلمة شامير حيث قال: لقد أصبح هذا العالم أحمق مجنوناً.. حيث كان مع الفلسطينيين.

وما قالها صادقاً عن العالم وإنما هو صادق لا يعبر عن حزن أو ألم وإنما أراد أن يعبر إلى أقصى حدود الطغيان في هذا الوقت الذي سيمتد مع هذا الحوار.. ولكن فتيان الحجارة والأمهات مازال بيدهم الحق الذي سيثير هذا العالم مرة أخرى.

إن شامير يقول عن ثورة الشعب الفلسطيني وليس في يده إلا الحجارة إنهم إرهابيون يعتدون على الأتوبيس بالقوارير الحارقة، إنه يهودي من أهل «البهت» أي البهتان كما قالها عنه الحبر اليهودي عبد الله بن سلام يوم أن أسلم نطق بها أمام خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ.

أفليس من البهتان أن يصف شامير شعباً يطالب بالحق بالإرهاب؛ لأنه يعتدي على الأتوبيس وينكر أن قتل الأطفال وإجهاض الأمهات واحتلال

الأرض ليس من الإرهاب؟

إنه البهتان لا يصدقه العالم وقد يتصدق عليه بعض الذين يظنون أن في يدهم سيادة العالم.

فالوقت جزء من زمن، أما الزمان فهو مع العرب إذا ما أثبتوا أنهم يطالبون بحق.

إن انتقال هيئة الأمم إلى جنيف قد أعطى دول العالم الثالث أن تسحب حلفاء الأطلسي إلى الانصراف عن الضغط المسلط عليهم.. والليالي من الزمان حبالى.

ـ صـــورة:

وصارت العظيمات من البنات والأمهات أربعة:

ففي تاريخنا أمان: صفية بنت عبد المطلب قتلت اليهودي، وأم حرام بنت ملحان أم أنس بن مالك الشهيدة في ذات الصواري. فلصفية ولأم حرام أربع بنات لهما: شجرة الدر التي أسرت لويس التاسع قائد الصليبيين، وجنان الشواربي التي أسقطت إيدن رئيس وزراء بريطانيا أيام حرب الدول الثلاث، وبنتان جاءتا بعد: سناء محيدلي التي قتلت خمسين يهوديًّا، والبنت الثانية بعد هذه لبنانية مثلها أطلقت الرصاص على أنطوان لحد. هتكته.. كتموا موته، لئلا تكون هذه البنت كسناء مع أنها في تاريخ العرب ألبسها الفداء الثناء والسناء.

حرب السلام لا سلام الحرب

وهذا العنوان حلية أزخرف بها التعليق على صورة التحليل لمواقف نبغت ممتعة للفلسطيني الإنسان المسلم العربي بعد بيان المجلس الوطني الفلسطيني بل وبعد الأبعاد التي قادت العالم إلى أن يكون مع فلسطين.. تلك الأبعاد التي صنعها فتيان الحجارة.

فالحجر في يد الفتى الفلسطيني كان ثورة أعلنت السلام وقبل الفلسطيني، ما رفضه من قبل.. فالمقاومة كانت أسلوب الحرب الممكن. سلاحها السلب.. رفض كل القرارات.. فإذا الموقف السلبي لم يعد سلاحاً في يد الفلسطيني طوال ذلك الزمن الطويل بل قد كان هو السلاح في يد اليهود يصرخون ويستكثرون من الأعوان بينما الفلسطيني لا يجد معيناً من قريب أو بعيد كأنما فلسطين أرض غير عربية.. أرض غير مقدسة، ويعني ذلك أنها ليست أرضاً إسلامية.. فدولة اليهود لم تكن وليدة الحرب العامة الثانية وإنما كانت الوليد الأول أبوه وعد بلفور وأمه معاهدة سايكس ـ بيكو. أي إنها تكوّنت بالهجرة قليلاً قليلاً في عهد الانتداب البريطاني أي بعد الحرب العامة الأولى.. وكان هذا التكوين لدولة اليهود في رعاية المندوب السامي اليهودي «هيربرت صموئيل». الذي اعتز حين ابتز فأصبح رئيس حزب الأحرار في بريطانيا.. خلفاً للوي جورج.. خلفاً لغلادستون.

اللغة إعراب والأرض تعريب

ولكن الأرض العربية هي التي تحفظ العروبة لغة وسماتٍ واتجاهاً، كأنما الأرض العربية لها حد معروف. فهي التي تصنع التعريب لإنسانها، والتي هي الصوانة لعروبة إنسانها من عمق عروبتها.

ولقد قلت من قبل لقد شرّق الفتح فلم يعرّبه وإن اهتدى إنسان الأرض لدين الإسلام، وغرب الفتح فعرب، فإذا غرب السويس هو العربي تفصحت العروبة اللغة بجندي الفتح وتأصلت فصاحة اللغة بموجة بني هلال وبني سليم، فالذين عابوا بني هلال، فقالوا إنهم خربوا، رد عليهم بن باديس العربي عروبة حمير بقوله: «لئن قيل إنهم خربوا، فلنقل إنهم عربوا»، فالفاتح الأول والهلالي بعد، عربوا اللسان وإنما الأعراق فلم تكن إلا العربي من عروبة الأرض.

فالأرض شرقها من شرق الفرات والخليج الأزرق وغربها على الشمال الأفريقي على المحيط الأطلسي حول الوطأة الأخيرة لذي القرنين المصعب الحارس اليمني القحطاني بل الحميري، ومن حول وطأة عقبة بن نافع الفهري ويعني القرشي.

ويحتاج الأمر إلى تفصيل نؤكد به التأصيل، فالرومان لم يستطيعوا وقد بسطوا سلطانهم في شمال الجزيرة العربية يعني الشام كلها، كما بسطوا هذا

السلطان على جنوب البحر الأبيض من غرب السويس إلى ساحل المحيط، بسطوا هذا السلطان استعماراً واستغلالاً كإمبراطورية عظمى في ذلك الوقت، ندًّا لإمبراطورية عظمى كذلك ألا وهي إمبراطورية الفرس، غير أن هذا السلطان لم يفرض سلطان الأعجمية على الأرض العربية شامها ومصرها، وكل مغربها. ولم يكن الصوان للعروبة على أرضه هو الإنسان العربي وحده، إنما هي الأرض العربية لا تقبل إلا عروبتها.

والعراق استغول عليه سلطان الفرس ولكنه بقي عربيًّا؛ لأن الأرض صوانة لعروبتها، حتى إن العراق الذي كان كلدانيًّا بابليًّا أبت أرضه إلا أن تستحوذ على العابرين هؤلاء من ولد عابر بن شالخ بن أرخفشد بن سام إلا أن تأخذه أخذاً لتجعل من وراثته للسامية تسير به إلى العروبة، فإذا هم الأنباط أصحاب الرس، وإذ هم يرحلون من عراقهم عبر الصحراء فأنجدوا ليكونوا عرباً بعد حين وصلوا إلى وادي القرى.. يرثون ثمود.. يكملون حضارة ثمود. فإذا هم في البلقاء ينحتون الجبل، فإذا هم في سلع البتراء كأنما حضارتهم في البتراء صورة طبق الأصل من حضارة ثمود ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ (الفجر: ٩).

ولقد أذابت الأرض العربية لهجتهم الكلدانية وإن بقيت منها ألفاظ:

(كأنطى بمعنى عطى، أو ناطرك بمعنى انتظرك، أو هي الناطور بمعنى الحارس).

ونأتي إلى المغرب أعني غرب السويس فإذا الأرض صانت عروبتها. وما كان الإنسان هو المعرب وإنما هي الأرض، وبالبرهان على ذلك أن موريتانيا وكل المغرب بقي عربيًّا.

أما مالي والسنغال (سنهاجه).. وبقية من أرض أفريقيا انتشر فيها

الإنسان العربي ولكنه لم يعرب ناسه، ومثل آخر لو أن سيبويه وابن المقفع ومن إليهم تعلموا اللغة في فارس أيصبحون أئمة وأحدهم إمام اللغة العربية سيبويه، والآخر إمام العربية ابن المقفع، وقل ذلك على أبي نواس؟ فالبصرة والكوفة وما إليهما كأرض تأصل بهم اللسان العربي، فليس هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي وإن علَّم سيبويه.. بالذي أعطى سيبويه إمامة اللغة.

قد ينطلق لسانه بالتعليم ولكن موهبة التذوق لقانون اللغة واحتراف التدقيق لمفردات اللغة لا أنكر أن التعليم له أثر، ولكن الأرض هي المؤثر الأول.

وهكذا فأرضنا العربية إن توحدت جغرافيًّا فإنها تبكي الآن حينما تفرقت إقليميًّا، ولكن عروبة الأرض ما زالت إمبراطورية، واللسان العربي ما زال إمبراطوريًّا، وأرجو ألا أعود إلى هذه الكلمة مرة أخرى وهي: «القومية شعوبية العرب، والشعوبية قومية الفرس».

ـ في ذاكرتي :
الأمير شَكيب أرسلاَن

أبو غالب بن ماء السماء: الأمير شكيب أرسلان.. جمع المتناقضات، لكنها قد تناسقت واتسقت فإذا هو أمير البيان، فلو وضعناه أمام المرآة نتقصى مسيرته.. تتضح بها سيرته، لوجدناه العربي نسباً، الإسلامي جماعة، الدرزي سنيًا، الإسلامي قوميًا، الخصيم لزعيم يوماً ما، الصديق له في أيام بعدها.

سعة الإدراك، وعجيبة الاستدراك أقصت التزمت والجمود، فالذين لا يعرفون عظمة الرجال.. لا ينقلبون على أحوالهم بالرفض والندم.. وإنما هم، وفي نطاق الالتزام وحرية المسؤولية، يسيرون مع الواقع ليعطوا أمتهم وبحتمية الواقع مسيرة الإلزام.. فرضها عليهم ما التزموا به من قبل.

* * *

مقدمة لا بد منها نستضيء بها. ليتضح عنها شرح ما عرفناه، والحب لمن أحببناه.. فالعظيم بما أعطى يفرض علينا أن نحبه، وحب العظماء ليس فيه شيء من الغزل وإنما فيه كل شيء من التغازل له ومعه احتراماً وإعجاباً بل وقدوة.

شكيب أرسلان.. عرفته على أكثر من صورة: القادم إلى المدينة المنورة مع زميليه الشيخين عبد القادر المغربي الدمشقي، وعبد العزيز شاويش المغربي المصري.. وصلوا إلى المدينة يؤسسون كلية إسلامية في محلة العنبرية بين التكية المصرية، ومحطة السكة الحديد.

وعرفته كيف ذهب إلى استامبول، ثم المعرفة له حين قرأته وحين أفعمت ذاكرتي بما جاء به وعنه في أكثر من رحلة.

لبناني قومي، ورث إمارة الدروز، بل ومشكلات لبنان، إنه يعرف لماذا تنصر بشير الشهابي؟ لماذا كان بشير الشهابي واليوسف في دمشق والجزار في عكا يجتمعون لتنظيم ثورة على الدولة العثمانية.. عطلهم عنها فتفرقوا مسيرة قبائل من نجد قالوا إنهم (الوهابيون) ـ ذكر ذلك ساطع الحصري حين قال:

ـ موجة القبائل من نجد أنقذت الدولة العثمانية من ثورة شامية.

وعرف المجزرة في لبنان.. تحركت بعصبية الطائفية فأخمدتها وساطة الأمير عبد القادر الجزائري طاردته فرنسا واحتضنته دمشق.

كل هذا هو الطفل رجلاً. والرجل عقلاً، والعقل مسؤولية.. فإلى أين يذهب؟

كانت الآستانة هي المذهب.. عظم فيها شاميان: عزت العابد، وأبو الهدى الصياد. فلماذا لا يذهب شكيب أرسلان لينال مقاماً، وليصون قيماً لعلّه يفعل تقويماً للبنان؟ ولكن كل ذلك لم يكن.

كان رجل الجامعة الإسلامية تزامن مع جمال الدين الأفغاني أو تزامل معه.. فرغم اشتعال الطورانية ـ قومية تركية ـ والشعلة في الشام ـ قوميين

عرباً ـ ثبت الأمير شكيب أرسلان على قوميته الإسلامية. فلم يكن مع ثورة العرب وقوميتهم.. لأنه أنكر تحالفهم مع الإنكليز والفرنسيين، فتنكر زعماء من العرب عليه.. ليس أولهم عبد الرحمن الشهبندر. وليس آخرهم أستاذنا عبد القادر الكيلاني.

ولكنه لم يكن متآمراً عليهم كأسعد شقير. وإنما كان يأمر نفسه أن لا يكون معهم في بداية الأمر. وإن كان بعد صار لهم وساروا إليه: رياض الصلح، وإحسان الجابري، وأخوه عادل.. كلهم كان القومية العربية مجسداً، والثائر الشامي في غربة المنفى.

فآل الأمر به أن أصبح صديقاً سنداً للذين لم يكن معهم أول، فإذا هم معه آخر الأمر. كان في لوزان يبيع ما ملك.. ينفق على نفسه لئلا يهلك.. أخذ على نفسه أن يكون الصديق للرياض، والقاهرة، وبغداد، وكل الشمال الإفريقي.. يتلقى الأخبار والرسائل حتى عده بعضهم سيد الكهنوت للقومية العربية.

يقاتل الخصام بين زعيم وزعيم في المودة والنصيحة.

حين أقام أياماً في المدينة المنورة في أوائل الثلاثينات الهجرية، يضع هو وزملاؤه حجر الأساس للكلية الإسلامية. لم يبتعد عن المسجد، يصل بعلماء المدينة.. فإذا هو التلميذ لحمدان الونيسي، والصديق لحسين أحمد المدني الدوبندي. أعجباه.. لا يتزمتان، ولا يتراخيان.

ذهب إلى «البقيع» مرة وكان معه دليله أستاذنا السيد أحمد صقر فوجد على باب البقيع لوحة بخط الثلث مكبراً ومذهباً مكتوب عليها:

ـ (هؤلاء بقيع الشريف).

ـ فقال: ما هذا؟ عبارة لا تركية ولا عربية. ما أشد الخسارة لهذا الخط الجميل! وعهد هو وزملاؤه إلى شهبندر التجار حينذاك (كامل الخجا) أحد أعيان دمشق وأحد أعيان المدينة.

كان أمين صندوق يتلقى التبرعات، وذهب إلى الأمصار المسلمة يجمعون التبرعات، وكان من بينهم الشيخ الفقيه المعلم زاهد أفندي والد الأستاذ أبي الضياء عزيز. ذهب ولم يعد. ولكنه أعطانا ابنه العزيز عزيز أديباً وكاتباً من الرعيل الأول.

واشتعل الاستعمار، وقام ملوك وزعماء. صدق مع الجميع وصادقه الجميع، ولكن صداقته وصدقه ترسخا عميقاً مع الملك عبد العزيز.. يثق به ويصدق معه وينصح بالالتزام به؛ ذلك أن عبد العزيز بن عبد الرحمن كان الأمين في نظر الأمير شكيب على هذا التزاوج بين قومية العرب لا تكون إلا مسلمة وبين الجامعة الإسلامية لا تكون إلا قرآنية.. كأنما لغة القرآن سورة في الصلاة يرتفع جرسها في المحراب، ويتضح معناها على المنبر، ويشبع وجدان المسلم بالإيمان العميق.

وجاء الأمير شكيب إلى مكة وإلى الطائف.. عضواً في وفد المصالحة بين الملك عبد العزيز والإمام يحيى.

ثلاثة شاميون: هاشم العطاس (الأتاسي) وأمين الحسيني، وشكيب أرسلان، ومصري عربي من صعيد مصر من أسيوط: محمد علي علوية باشا.

وتمت معاهدة الطائف... فانجلت كربة وتأصلت قربى.

وأين نزل في مكة؟ وليس فيها فندق. فهل ينزل في بيت ماجد الكردي كما نزل قبله شاميون كثر أم ينزل في بيت آخر؟!.

من هنا جاءت حصافة "فيصل بن عبد العزيز": لا ينزل ابن ماء السماء حفيد النعمان بن المنذر إلا في بيت بني عبد الدار بيت الشيبي.

كان "فيصل" ذواقا وحصيفاً أن جعل العروبة ممثلة في شكيب.. تستضيفها العروبة الشامخة في بيت عبد الدار.

استقبله "الشيبيون" أحسن استقبال. وحين صلاة المغرب أو صلاة العشاء.. صلى الشيخ عبد القادر الشيبي إماما... يقرأ السورتين: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ. إِۦلَٰفِهِمْ﴾ وبعد السلام قال أبو غالب:

ـ أشهد أنك مكي. قرأت السورتين المكيتين.

وقام بالزيارة للبيت صديق البيت أستاذنا عبد الوهاب آشي يرحمه الله.

وحين سمع أبو غالب اللقب (آشي) قال لعبد الوهاب شامخاً:

ـ (هل أنت من وادي آش). يعني الوادي الجميل في الأندلس.

ـ فقال الآشي: لا.... أنا مكي، ومن أندونيسيا.

شكيب حين سأل عن ذلك، أراد أن يسمع الرنين من جرس الكلمة: (الأندلس). وادي آش.. هو ذلك الوادي وصفه الشاعر هكذا:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
نزوع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وعاد شكيب إلى لوزان. ومات عبد القادر الشيبي فرثاه بقصيدة جاء منها:

«سلاني.. هل على بعد سلاني وهل كان المغيب سوى العيان
وكيف يكون من ينميه أصل لعبد الدار أو عبد المدان»

واعتلى ذكر شكيب في مصر.. صديقاً للكبير والكبير، فأغاظ ذلك سلامة موسى الذي كان حرباً على الشاميين في مصر، فسب شكيباً بقوله: «القذر» قال: شكيب أرسلان كاتب شامي وغد!!

فانتفض السيد رشيد رضا، شاميًّا لبنانيًّا، يدافع عن شامي لبناني، فكتب يقول: (بل أنت الوغد).. إن شكيب أرسلان ليس وغداً.. والوغد من يتطفل على الموائد. أما شكيب أرسلان فأكل على مائدته الملوك ـ يعني فيصل بن الحسين ـ حينما زاره في لوزان.

لقد كان سلامة موسى سليط اللسان على الرافعي أيضاً، كما ورث ذلك عنه تلميذه الحقود.. يشتم الرافعي متستراً وراء العقاد بينما هو سلامة موسى.

وأبو غالب شكيب أرسلان لم يكن الكبير في مصر وحدها. بل هو أمير البيان، أكبره كل العرب. لقد خاض الحرب ضد الاستعمار الإيطالي في ليبيا، كان رفيقاً للسيد أحمد الشريف السنوسي في حومة الحرب حتى إذا كانت الهزيمة خرج من ليبيا أحد رجال أربعة أحمد الشريف السنوسي، وأنور باشا، وعمه خليل باشا، وشكيب أرسلان.

خسروا حرب السلاح وخسروا الأرض، ولكن شكيب أمسك بالقلم سلاحاً يدافع عن الإسلام والعرب، وفاتني أن أعرف مدى العلاقة بينه وبين عبد الرحمن عزام، وحافظ عفيفي، وسيد كامل، فقد كانوا جنود حرب في ليبيا.

لا أدري هل كان بينه وبين عزام وصل المجاهد للمجاهد، أم عبد الرحمن عزام كان العروبة مصريًّا، والعروبة مغربيًّا وسعوديًّا وفلسطينيًّا، أما غير ذلك فلم أعرفه عن عزام.

وحين غادر شكيب الحجاز في رحلته الأخيرة ألّف كتاباً عن هذه الرحلة تحت اسم «الارتسامات اللطاف في خاطر الحج إلى أقدس مطاف» وحين زار الشفا من شماريخ السراة على الطائف كتب يقول ما معناه: رأيت الشفا وكأنه لبنان قبل خمسين عاماً. كأنما رائحة الشجرة «العثم» أشتمُّ منها رائحة الصفصاف أو الأرز، أو تمثل في الشفا الشويفات.

وترجم شكيب مباذل أناتول فرانس أفكاراً ممتعة، مجنحات طائرة، فأخذت عليه أنه اختزل المباذل، حذف بعض ما يتنافى مع تقاليدنا، مع أن أمانة الترجمة ينبغي ألا تشوبها شائبة اسم الكتاب «أناتول فرانس في مباذله» ولكنه الوقار من عنعنة الأعراق.

وعلمنا من بعض ما نشر أن الأمير شكيب أرسلان وهو يعرف أرضه طلب من أنور باشا، وكان صاحب السلطان في تركيا حيناً أكثر من طلعت باشا وحيناً يترك لطلعت التقدم عليه، طلب إليه الأمير شكيب أن يمتد خط حديدي لسكة حديد الحجاز من «هدية» التي يمر بها الخط ليصل إلى خيبر، فهدية وهي على الخط لا تبعد عن خيبر كثيراً.

أراد شكيب أن يتصل العمران إلى خيبر أو إلى أكثر من ذلك. وليته عاش ليرى العمران الآن في خيبر، تمتد إليها الصلة بالخط المعبد المسفلت.

يرحم الله الأخيار، وأسأل الله الهداية لمن أرجوهم أن يكونوا أخياراً.

الأحمـــق

والغربلة اليوم عن إنسان تركبه حماقة، فالحماقة في الفصحى تعني الغباء المتكبر بينما هي في لهجة العامة تعني شديد الغضب، ولعلّي لا أبتعد عن لهجة العامة، وإن كنت القريب من الفصحى، ففي الإمكان أنَّ ما تعنيه الفصحى هو الحقيقة وما عنته لهجة العامة هي استعارة، فما أكثر الحقيقة التي اتخذت منها الاستعارة فإذا الاستعارة أكثر استعمالاً، فكلمة النفيس بالعامية القحطانية القديمة تعني الواسع وفي الفصحى الجديدة عنت الثمين الغالي، فأصبح الجمع نفائس وبعد..

هذه المقدمة التي شرحت بها الحماقة أشرح من هو الأحمق الذي أكتب عنه، إنه ذلك الذي سبقني إليه كتاب التراث (كليلة ودمنة)، فمن قصصه حكاية (الغيلم) وهو الذكر من السلاحف، فهذا الغيلم حيوان بري وبحري أو على الأصح بحري بري خرج إلى البر فساحل قليلاً يستظل تحت شجرة من أشجار الفواكه، وبالمصادفة كان فوق الشجرة قرد لعوب، فأخذ يتلاعب بالغيلم يرميه بتفاحة يأكلها فاستطاب بالغيلم ذلك، والقرد حيوان أنيس فاستأنس بصحبة الغيلم وتشوق ذكر السلحفاة إلى أن يعود إلى البحر فإذا هو يجد أنثاه تدعي المرض فسألها عن ما أصابها فقالت أصابتني الوحشة عنك، وقال لي جارنا الغيلم وقد علم أنك صاحبت قرداً، قولي

إنك في حاجة للدواء وليس هو إلا قلب قرد، وسمع الأحمق فرجع إلى البر يحتال على القرد بغباوة الأحمق يدعوه يركب عليه يذهب به إلى بيته في البحر، فسأل القرد: «أمعك قلبك فإن أنثاي مريضة شفاؤها قلبك» واستيقظ ذكاء القرد فقال للغيلم لماذا لم تخبرني أحمل قلبي معي فقد تركته فوق الشجرة ارجع بي لأحمل القلب، فرجع الأحمق به حتى إذا وصلا إلى البر قفز القرد على الشجرة وقال للغيلم هذا فراق بيني وبينك فلا أريد صحبة الأحمق ورجع الغيلم إلى بحره وكيده في نحره.

العـريقـة

والبحث عن العراقة أصبح الشغل الشاغل لكثير من شبابنا. فكل يسأل عن قبيل ينتسب إليه.. مع أن العروبة عروبة الأرض وعروبة اللسان كافية وافية لكل من يسعده السبب ألا وهو هذا الدين الحنيف.. الإِسلام.

ويعلو به حسبه ألا وهو الخلق النظيف، والسلوك النظيف والمعرفة التي اتسع بإمكانها في كل مكانها مدارس وجامعات..

فالسبب الإِسلام وحتى العروبة، والحسب القيم التي ينعم الله بها على من أحسن السلوك.. كل ذلك نسب اكتسبه رجال إذا ما ذكرناهم قلنا: رضي الله عنهم.

حين نبغت القومية وقد عاصرتها.. ما عرفت أحداً يسأل عن الأجداد.. بل كان فخره بالأجداد.. لا يسأل عن جد النسب وإنما هو الفاخر بالأجداد الذين صنعوا تاريخ المجد ومجد التاريخ.

ولكن اليوم ومع فشل القومية العربية أصبح كل واحد منا قوميًّا بذاته.. فقبل أعوام جاءني زائراً بيتي واحد من بيت له قيمة، ولا يعرف أنه من عرق عربي.. أخذ يسألني: لدينا خبر أن جدي ينسب إلى عمرو بن العاص.. فهل تدلني على ذلك؟

فقلت له لا أعرف، وإنما اسأل صاحبك ناصر الدين النشاشيبي فأسرته

ينتسبون إلى عمرو بن العاص كما علمنا، لأن أسر فلسطين حافظت على أنسابها.

ولأترك هذا الجد ليضحك القارئ وهو يسمع في التلفاز الإعلان عن الجبنة العريقة.. فحتى الجبن المصنوع من اللبن أصبح عريقاً مع أن العرب الذين يعتزون بالخيل وبالنوق ما قالوا الحصان العريق والناقة العريقة وإنما قالوا الأصيل والأصيلة، ولكن الجبنة اليوم في وقت التفتيش عن العراقة أصبحت عريقة، مع أننا كنا نعرفها من صنع بني رشيد صالحة للعريكة (خبز وتمر وجبن زقزق)..

وملحة يرويها المكي عن أحد الحجاج من أهل جاوة يسمع عن (الجبن الزقزق) وإنها تكثر بعد المطر، إذا ما ربعت الأغنام.. فلم تكن تمطر السماء، حتى وصل إلى من يبيع الجبن يسأل عن «الزقزق» يظن أنه ينزل مع المطر كالذي ظن أن (الفقع) ينزل من السماء فبهؤلاء ضاعت عراقة الجبن الفقع بالأمس واليوم شاعت عراقة الجبن.

ـ الأصالــة ـ

ولعلي قبل أن أغربل الأصالة أتقدم بهذا البيت للشاعر العلامة الشيخ الشبيبي أحد أفذاذ العراق قال:

فتنة الناس (وقينا الفتنا) باطل الحمد ومكذوب الثناء

فاليوم اشتعلت نفوس راغبة بالثناء حتى إن الجبن البلدي تصنعه جداتنا كما ذكرنا يصفونه بالعراقة، وجاء إعلان آخر على التلفاز يعلن الأصالة للشماغ بقوله (أصالة ماضينا) يعني أن الشماغ هذا المبرقش أحمر أو أزرق هو من الماضي الأصيل. قد يكون تقادم له عهد، لكن ماضينا الأصيل التاج على الرأس ليس هو الشماغ ولا الغترة ولا حتى عمامة الأفندية والأغوات في المدينة المنورة، وإنما الأصالة في العمامة قماش أبيض يلف على الرأس تركه أغلب العرب فتطربشوا وتقبوا وتقلنسوا واعتقلوا رأسهم بالعقال ولم يحافظ على العمايم تيجان العرب إلا الموريتاني والعماني والسوداني كشعوب، كما حافظ على العمامة أشياخ المعاهد في كثير من الأمصار المسلمة، فالأصالة للعمامة، لا للشماغ، لهذا أنشد الحجاج يُعَرِّف نفسه حين يلبس العمامة ولم يكن الشعر له وإنما هو أنشده كنت أحفظ اسم شاعره ولكني نسيت، فليتعقبني.

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

فوضع العمامة لبسها، لا تركها، وهناك خبر عن الفخر بالعمامة، فقريش في مكة يوم عتلت حين تجمع تمايز أشياخها كل وما اختص به فاخراً لا ينازعه آخر، فقد حفظنا أن سعيد بن العاص المكنى بأبي أصيصة وارد الأخيار من الأعياص خالد ومن إليه فقد كان سعيد أبو أصيصة إذا اعتم لا يعتم قريش قط، أليس هذا مجد العمامة وفخر لابسها؟ ولكنه الإِعلان تروَّج به البضاعة ولم يبخس بضاعته القديمة.

الربـع الخـالـي

وما زلت أتغربل بهذه الأخطاء اللغوية وأشد ما يوجعني منها هذا التعريف المغلوط والذي مازال المؤدون في التلفاز والإذاعة وحتى في حوار بعض المثقفين من القدامى ومن المحدثين ينعتون هذا المكان الذي اتسع أرضاً وعظم كنزاً وسيعظم إنتاجاً وذلكم هو (الرَّبْعُ الخالي) بالراء المشددة المفتوحة على وزن الدرب والنصر، فهم ينطقونها الرُّبع بالراء المشددة المضمومة كخمس واحد من خمسة أو كركن أو كرمح، فكم مرة أثرت هذا الخطأ ثأثراً عليه لأستثير الصواب على ألسنة هؤلاء الذين جعلوا جزيرة العرب رغيف خبز، جعلوها أربعة أقسام ثلاثة أرباع عامرة وربع في تصورهم هو العامر الخالي.. ومن الغريب وأنا أتحدث في جامعة الملك فيصل في الأحساء أن أثرت هذا التصحيح فإذا مثقف يعارضني محتجاً بأن عبد الله فلبي (جون فلبي) يقول هو الربع الخالي فقلت له هل أصبحت اللغة العربية تأخذ صوابها عن فلبي. لو قلت المستعرب جيب الإنجليزي أو المستعرب فيشر الألماني لقلت لك اجتهد فأخطأ، إنه المكان الخالي إنه الرَّبع ومنه المرْبع وفي المدينة المنورة في علية على سفيفة الرصاص تطل على سوق الخياطين وأمام باب السلام كانت هناك هذه العلية وفيها بيوت تسمى الربع.

وعن هذا الربع الكنز الذي مازال يكتنز المعادن اقترح بعضهم أن نغمره بماء البحر ليصبح بحيرة وليكون وسيلة التبريد لما هو غربه من الأرض، فأثرت من هذا الاقتراح ثائراً عليه أقول لصاحبه إنك لا تعرف أرضك فلئن تركناك تنطق الربع فإنا لن نترك لك أن تقترح إغراق هذا الكنز تحرمنا نفائسه.

والحمد لله، فأهل الثروة المعدنية لم يأخذوا بهذا الرأي المبستر فما زال مربعنا الخالي عامراً بكنوزه ولعلّ خلوه من الساكن هو تعاليه أميناً على كنزه، وما زال مصدر النفيس من الآثار في سجل التاريخ فقد وجد فيه جون فلبي رأس الأسد من النحاس، فدلنا ذلك على أن عاداً برزت في العصر النحاسي وبعد العصر الحديدي وعصر القتال بالحجارة.. فالأسد كان صنماً وثناً من آلهة عاد واسمه «هراء» فانتقلت كلمة الهر إلى اليمن وانتقلت عبادة البس إلى الفراعنة، وهذا الرأس يوجد الآن في أحد متاحف لندن عرفوا منه تاريخ عاد إرم ذات العماد.

العلاقة المثلثة

وعرفته من القدامى الذي لا يتستر بتزيف العلاقة بينه وبين الآخر فهو يعلنه صديقاً لبعضهم خليلاً لواحد صاحباً للآخرين فمثله هو مثل العامة (جنة بلا ناس ما تنداس) ولعلّه كان يتمثل بقول المعري «أبو العلاء»:

ولـو أنـي حـبـيـت الـخـلـد فـرداً لـمـا أحـبـبـت لـلـخـلـد انـفـراداً

فصاحبنا هذا له أصدقاء وفيٌّ لهم وإن لم يستوف منهم شيئاً يعاشرهم ويعاشرونه ولكنه ينفرد عنهم يصبح خليلاً لواحد لا يتركه، يحترم العلاقة فإذا هو الحبيب، وفي الوقت نفسه لا يبتعد عن أحد، فما أكثر الذين هو صاحبهم ينشرح لهم لا يفترسهم بغيبة ولا يسأل عن الذين تصله من خبره هو الغيبة له. علمه الصديق والخليل أن لا يغضب من صاحب استغابه، ومرت سنون فإذا هو في غيبة عن هؤلاء حين أصبح قعيد البيت لم يجزع من نكران الصاحب، ولا من تنكر الصديق وإنما الذي أمضّه ابتعاد الخليل عنه، تعود من خليله أن يسأل عنه يتلفن له، فقد اعتذر عن هذا الخليل إذ لم يزره ولكن لا يستطيع أن يعذره حين انقطع عن السؤال عنه، أمضّه ذلك وكبر عليه أن يسأله عن خليله وبالمصادفة وقد خرج إلى السوق يتسوق بعض ما هو في حاجة إليه فإذا هو يصادف خليله فابتدره الخليل يقول له: لماذا تقاطعني لم تسأل عني فأجابه بحرقة يقول: إنك تفترض عليّ السؤال

عنك بينما الواقع الذي يفرضه شكر ما صنعته لك هو الذي يفرض عليك أن تسأل، تفترض عليّ ولا تفرض على نفسك والفرق كبير بين الافتراض والفرض، فأجابه أنا لا أفرض على نفسي أن أسأل عنك إن صنعت لي جميلاً فإن تقبلي للجميل منك هو الشكر غير اللائق. وساعتها تذكرت أحد الذين أحسن إليهم رئيس انتشله من الحاجة فعينه في وظيفة يعيش منها وجرى حديث بيني وبينه قلت له: الرئيس يسأل عنك وسؤاله رعاية فلماذا لم تذهب إلى مكتبه تزوره شاكراً؟ فقال لماذا أشكره، وظيفة خالية عينني فيها والمسألة عندي هي في هذا السؤال، لماذا هو فوق ولماذا أنا تحت. إن ما صنعه إليّ يذكرني بالتبعية له وأنا لا أريد أن أكون تابعاً لأحد. قلت له إن لقمة العيش التي تأكلها تفرض عليك أن تشكره متى أتاحت لك الفرصة لتجد لقمة العيش وأنشدت:

إذا عقك الأدنى الذي أنت حزبه فواعجباً إن سالمتك الأباعد

أُفٍّ . .

وقالها المتنبي أحمد بن الحسين أبو محسد:

آلــة الــعــيــش صــحــة وشــبــاب فـإذا هـمـا ولـيـا عـن الـعـمـر ولَّـى
وإذا الــشــيــخ قــال أُفٍّ فــمــا مــل حــيــاة وإنــمــا الــضــعــفَ مــلاَّ

وما ذكرت هذا عن المتنبي إلاَّ وأنا اليوم في هذه (الأُف)، ولقد مضت سنون فما تأففت، فلم يطرأ عليّ أمر أتأفف منه إلاَّ أن تكون في لحظة أغاظت فلم تكن من ألم أضنى الجسد وما من هوى أتعب القلب غير أني اليوم أقولها: أُفٍّ أُفٍّ أُفٍّ، وما ذلك إلاّ حين تظاهر عليّ الضعف بألم ممض جعلني كما كلب الحراسة لا أنام ليلاً لأنام نهاراً كأنما نوم النهار عجز عن الحركة. . عن السوق، عن الجريدة، عن المكتبة، عن البحر، فالألم أحاط بالزندين، عصب يتشنج، فصحوة الألم ليلاً وغفوته نهاراً فكأني أصبحت مسوقاً بعصا جبار عنيد قوته في ضعفه، وضعفه هو من ضعفي، فلا تعجبوا أن أقول أُفٍّ أُفٍّ ما دمت أصبحت كلب حراسة ما كلفت أن أحرس غنمي لا يأكلها ذئب وإنما أصبحت حارساً من هذا الذئب الذي استكلب على يدي.

وقالها أبو نواس الحسن بن هانئ:

وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

وهكذا أقولها أُفٍّ: لأن الألم في صديق الجسد بينما هو عدو أنهك الجسد.

وقالها المعري أبو العلاء:

تعبٌ كلها الحياة فما أعـ ـجب إلاّ من راغب في ازدياد

فـاكـومـي؟!

ودعيت لأسمع محاضرة للدكتور عبد الله مناع عن الأستاذ محمد حسن عواد، وأسرعت لا أتأخر يدفعني الاحترام المثلث للعواد والنادي والمناع. واستمعت إلى المحاضر فإذا به يبهرني فكأنه أحد الفطاحل من المحامين الذين يأخذون من القضاة حكم البراءة رغم أنف النظارة، فما كنت أحسب أن العواد هو على هذه الصورة، وما كنت أظن أن المناع يملك هذا التصور لصورة أراد أن يسمعنا أنه لا غيره قد ملك هذا التصور، وحذق هذا التصوير وأخذت أيضاً أجتر ما أعجبني لأفتر عن هذا الإعجاب غير أني كتبت مذكرة ذات بنود أستعين بقارئ يذكرني إذا ما انتهيت من بند إلى الآخر لأتحدث عن الآخر، وكان من ضمن هذه البنود أضحوكة تصور ما كنا عليه وبما كنا فيه وإليه كان البند هو هذه الأضحوكة بعنوان (ساكوني فاكومي) فما هو ذلك؟

كما هو المثل وما آفة الأخبار إلاّ رواتها، فالخبر هو أن الأستاذ عبد السلام الساسي المرتضى من العواد وشحاته يذيع علينا شعر كل منهما من مشاعره نحو الآخر وقالوا إن هناك من أعد حفل تكريم للأستاذ العواد يلقي فيه الأستاذ الساسي كلمة كتبها له الأستاذ عزيز ضياء، هكذا قال البروفسور ساكوني فاكومي، قال الدكتور شل وما أحسب أنه ترك شوكريل وما إلى

ذلك، ومن حسن حظ الساسي أن أحدهم اطلع على الكلمة وأنقذ الساسي من ورطة «ساكوني وفاكومي» وما إليه، فهذا الاسم اسم شركة بترول نستورد منها (الكاز للإضاءة) الفوانيس ولمبات وقمريات، أضحوكة لا مكيدة لم تلق الكلمة وإنما شاع وذاع ما كتب من أسماء الشركات فضحكنا يوم كنا نبكي بالدموع وبكينا يوم كنا نضحك في ضوء الشموع، أما اليوم فقد مات الضحك وقتل البكاء، فقد أصبحنا لا نضحك وإنما نقهقه. لا نبكي وإنما نولول.

تلك أيام مضت بمتعة الرضا ونعمة القناعة، وهذه أيام أتت بنقمة القلق وسعار الجري وراء ما يملأ الجيب ولو أصبح القلب فارغاً.

تحـذيـر . . !

وكثرت الأمثلة نثراً وشعراً، ترسل التحذير تلو التحذير لئلا يركن الصديق إلى صديقه في كل أمر، كما حذر ضرب المثال من التحقير للضعيف في قولهم (وإن كان عدوك نملة فلا تنم له) وعن الصديق قالوا:

احـــــذر عـــــدوك مـــــرة واحـــذر صـــديـــقـــك ألـــف مـــرة
فـــلـــربـــمـــا انـــقـــلـــب الـــصـــديـــق فـــكـــان أعـــلـــم بـــالـــمـــضـــرة

وأحدهم قال: اللَّهم اكفني شر أصدقائي، أما أعدائي فأنا كفيل بهم، وعن تحقير الضعيف قالوا: البعوضة تدمي مقلة الأسد، كما قالوا: خرّب حفر الفأر سد مأرب. . وقد تموت الأفاعي من سموم العقارب، كما هدم عرش بلقيس «هدهد» ويتضح للقارئ بعدما أكتبه عن قصة وقعت.

فهناك في قريتنا في صعيد مصر (المطيعة) ما حدثني به والدي يعلمني الحذر قال: كان في هذه القرية رجل عُتُلٌّ قوي البناء لا يعبأ بأحد ويهابه الكثيرون، وفي يوم ضرب بعصاه الغليظة رجلاً له شأن فشدخ رأسه وبينما هو ـ أعني هذا المضروب وحوله أصدقاؤه ـ وصل أخوه وكان قزماً أقرعَ. ضعيفاً لا يؤبه له، فقال لأخيه المضروب سأنتقم لك، لن يعيش عبد الرجال «اسم الضارب»، وسخر الحاضرون من هذا الأقرع المسكين، ولكنه

فعلها فانتقم؛ لأنه سَبَرَ الطريق إلى عبد الرجال، فهو يجلس أمام بيته ويترك باب البيت مفتوحاً وراءه يأمن بيته ولا يحسب حساباً لضعيف.. فإذا هذا الأقرع يدخل بيتاً من بيوت جيرانه، يقفز من السور إلى سطح بيت عبد الرجال. ويتسلل وفي يده «سطور» من حديد يضرب به رأس عبد الرجال يشدخه ويكرر الضرب فإذا المغرور يموت، ويقفز القزم يصرخ في الزقاق: قتلت عبد الرجال، قال ذلك فاخراً حين قتل الساخر.. وزغردت القرية فإذا القزم بطل وإذا العُتُلُّ أصبح خبراً يروى عن كيد الضعيف.

إثـــارة

وما يُسجّل في كتاب أم من كتب التاريخ يقبله القارئ على أنه هو الصحيح..

نعم.. فأكثره صواب.. غير أن بعض التحديد للمكان أو وصف المكان أو أخذ الاسم لنبات يطلقه على أنه اسم ليس لغير هذا النبات.. فقد سبق أن كتب عالم فقيه عن مسجد المُصلَّى في المدينة المنورة فحدد مكانه أنه في شرق المدينة قريباً من بقيع الغرقد.. بقيع المدينة الآن.

قرأ ذلك لإمام لم يصل إلى المدينة.. حيث ذكر أن مسجد المصلى في جانب البقيع.. فاستيقن أن ذكر البقيع لا يعني إلا بقيع الغرقد مع أن الصواب أن مسجد المصلى في غرب المدينة ويسمى الآن مسجد «الغمامة» وهو في طرف البقيع الذي هو بقيع الخيل حيث كانت تباع فيه الخيل والضأن والحطب والفحم والسمن والجبن حتى أيامنا التي عشناها في المدينة المنورة.

فالمدينة عدة أبقعة؛ لأنها روضة حولها الأسيال: (قناة والعقيق وبطحان ومشعط الذي يمر في قيعان ما يسمى الآن باب المجيدي) لا يسيل بسرعة بل يصبح مستنقعاً يكثر البعوض تنتشر حمى يثرب، ولكن سعة المدينة أعطت المهاجرين في زماننا أن يبنوا بيوتهم في باب المجيدي.

والكلمة الأخرى.. ألا وهي: (أذْخُر) جاءت في شعر بلال بن رباح، رضي الله عنه.. حن إلى مجنّة وحوله أذخر وجليل فإذا الإمام الآلوسي يقول إنه النبات (الأذخر) وهو يكثر في المدينة.. فقد ستروا رجلي سيدي مصعب بن عمير الشهيد في أحد بهذا النبات.. لأن ثوبه لم يستره كفناً كاملاً، والصواب أن بلالاً سيدي أراد ما حول مجنة في بني سعد حيث نشأ: الجبل أذخر، والجبل جليل، وما أراد النبات. وياقوت المجغرف لأرضنا ذكر رضوى الجبل الأشم أنه في طريق الشام: نعم هو في طريق الشام تحت ضرسه وادي العيص وكان الأولى أن يقول إنه في ينبع النخل، وقصة أستاذنا حمد الجاسر معروفة.

وأخيراً مختلف حين نكتب عن العواصم فأكاد أزعم أنه بعد مكة المكرمة كانت العاصمة الأولى للرسول النبي نوح عليه السلام بعد الطوفان هي قرية الثمانين عاصمة الإنسان في دوره الثاني.. ثم أزعم أن بابل وصنعاء قبل دمشق بل إن تدمر عاصمة الشام بعد صنعاء وبعد بابل قبل دمشق.

أزعم ذلك إن كانت العواصم مدينة السكنى لقحطان والكلدان.. أما إن أرادوا عاصمة ملك شهير فلهم أن يذكروا دمشق، ولكن تدمر تحجبهم عن ذلك، ولا ينكر على دمشق أنها عاصمة الملك العريق.. آراميًّا أو غسانيًّا بل هي العظيمة حين أصبحت بالإسلام أموية.

هذه إثارة أرجو أن ينتصب للتصويب من يملك الصواب. والغرقد نبات يحمي اليهود فقد أكثروا زراعته الآن في فلسطين.

لغـــة

ولعلّي أتنفس بالتحدث عن اللغة التي رثاها الأستاذ زكي مبارك فيما كتب عن (ليلى المريضة بالعراق). وما أحسبه قد أخذ على عامة العراق ذلك وإنما هو أخذها على بعض معاشريه يوم كان في بغداد من الأساتذة والمثقفين. ومرة أخرى لا أحسب هؤلاء وأمثالهم في العالم العربي كله إلا ويكتبون اللغة الفصحى صحيحة فلا يجانبهم الصواب.. أما التحدث بها فقد تتمارض اللغة على لسان المتحدثين إذا ما تكلموا في مجالسهم وقد تكون ليلى مريضة بما يشفي الزكام، أو السعال لدى بعض من يخطب على منبر في محاضرة، أو من يتحدث بالمذياع أو التلفاز فلا ملامة على من يلحن إذا ما تحدث في مجلس بين إخوانه، وإنما بعض المؤاخذة على الذين يخطبون أو يتحدثون معلمين أو مخبرين، وإلاَّ فاللحن قد فشا قبل تمام القرن الأول من الهجرة حتى عدوا على الأصابع قلة من الذين لم يلحنوا. والغربلة في هذه الكلمة بعد المقدمة وبعد أن صدر الأمر الكريم بالعناية باللغة الشاعرة على المخبرين والمتحدثين مذيعين ومتلفزين فهم الآن يخبرون عن طائرة سقطت فيقولون (وقد قتل ركابها)، فالهلاك لهؤلاء ليس من الفصاحة ولا من البيان أن نطلق عليهم كلمة القتل، فالقتال مقاتلة وليس سقوط الطائرة عن مقاتلة فليس المقتول مشاركاً للقاتل، فالتعبير الصواب هو أن نقول ماتوا.. توفوا، والأحسن هلكوا، فالموت والوفاة والهلاك ينطبق

على الهلكى في حادث سيارة، أو قطار أو زلزال أو طائرة. .

ويقولون لقد حدثت هزة أرضية وهذا خطأ بياني فالصواب زلزال أو زلزلة. .

ويقولون بعث ذو مقام كريم ببرقية والصواب بعث برقية؛ لأن الفعل بعث متعدٍّ بذاته لا يحتاج إلى حرف جر. أما حكاية تنويع الأداء في الأخبار الرئيسية، أخبار الساعة التاسعة وما إلى ذلك فمن الأحسن وحدة الأداء؛ فالمؤدي موجَّه لا موجِّه كما أن حكاية (بنك) بتخفيف الكاف شذوذ عن اللغة، فالأصل في هذه الكاف حين عربت في الصدر الأول ينطق بها كاف مثل سقراط وإقليدس وأبقراط، فليقل الأخ ماجد الشبل (بنق) وهذا التعريب قد انتهى؛ لأن كلمة بنك أصبحت عربية وفصيحة بالكاف الثقيلة، أو لأنها ثلاثية ساكنة الوسط لا تمنع من الصرف، ولأن الباء والنون وهما حرفان يجران إلى العربية هذه الكلمة حرفان من حروف الشفة جمعت هكذا (فر من لب).

الجـــــاه

وبعض الذين أنعم الله عليهم بما يملكون من مال، وبما هو من نعمة الخالق الكريم، وتلك هي المروءة لا يبخلون على من تستأهل مروءتهم، سواء أكان العون كثيراً أم قليلاً.

ومن المروءة أيضاً أن يكون لواحد منا نعمة الوجاهة، تلبسه جاهاً يتوجه به إلى من يستأهل العون، وقد كان هذا الجاه ضروريًّا أيام كان الحكم فوضى، ينجو منه من له عزوة، ولو كان ظالماً وينصرد على المستضعفين، ولا أريد أن أتكلم عن وجاهة المال وإنما هو عن وجاهة القيمة لرجل برز بين قومه بالوجاهة والجاه، فانتصب لا يبخل على أحد من المستضعفين الغارمين بالشفاعة لدى من له حق عند هذا المستضعف.. كدين مقابل رهن، أو كزلة لسان على كريم فإذا هو يخاف التأديب من عزوة هذا الكريم. وفي عهد شبابي وقبل هذا العهد الكريم، عرفنا رجلين من أصحاب القيمة والقيم. فأحدهما لم يتورط بشفاعة لأي أحد فلا هو يضر ولا هو ينفع بشفاعة فابتعد عنه المستشفعون، فإذا هو بعيد عن أي تورط من ظالم لا يقبل شفاعته ورجل آخر ما أحسبه يوماً تخلى عن بذل الجاه حتى في تأجيل الثأر أو القصاص، ذلك كما كانوا يقولون إنه العاني والعفو من صاحب الثأر أو تأجيل الأخذ.. ولكن هذا الرجل تقدم إليه

مدين رهن عقاره عند دائنه فذهب إلى الكريم يشفع له عند الدائن، ليؤخر بيع الرهن فلا يستصدر الحكم من القاضي واعتمَّ الكريم وذهب إلى الدائن يرجوه أن يؤجل بيع الرهن ليسحب شكواه، فقال له الدائن: اشرب القهوة. فقال الكريم لا، حتى تقبل شفاعتي، فقال شفاعتك مقبولة إذا جئتني بضامن، فقال سآتيك به فقال الدائن: لا أقبل ضامناً غيرك.

وكانت مكرة من الدائن، وشرب الشفيع القهوة، لأنه لا يستطيع أن يكون ضامناً وما قبلت شفاعته وكان هذا درساً جعله بعد لا يتورط بمثل هذه الشفاعة، إن الجاه نعمة ولكن السرف في استعماله ورطة ولا أدري لماذا كتبت هذا.

«السـامـري»

وتلفن إليّ صديق شامي ودمشقي، يسأل على صورة من التعجب، قال: سمعت من تلفازكم كلمة السامر، والسامري فعجبت لأني أعرف أن السامري هو الذي أضل بني إسرائيل (وأضلهم السامري) فأرجو توضيح ما أشكل عليّ، فيقيني أن تلفاز المملكة العربية السعودية لا يقع منه ذكر موسى السامري.. فقلت له ضاحكاً: إن مشيخة أبيك وقد تلقيت منه المعرفة حصرتك في هذا الفهم، ولو رجعت إلى لغة العرب فاستقرأت الاشتقاق من فعل الماضي سمر، يسمر، فهو سامر أو من المصدر.. ألا وهو السمر لعرفت أن ذلك يعني نوعاً من التغني في سمر الليل.. فالليل مغرب وعشاء وسمر، وغلس ثم الدجى، وبعد ذلك الإشراق، أو الفجر.. فالسامر غناء يمارسه السامرون أو المتسامرون، ومنه الاسم سمير الذي يسامرك ليؤانسك.. أما موسى السامري فذلك نسبه أو لقبه، ولعلّك سمعت ما ينشده العراقيون في حفلات الذكر إبان مواسمه فهم ينشدون هذا البيت:

فموسى الذي رباه جبريل كافر وموسى الذي رباه فرعون مرسل

فالشطر الأول كذب؛ لأن فيه نسبة الخطأ لجبريل أمين الوحي عليه السلام.. والسامري هذا صنع لبني إسرائيل عجلاً جسداً له خوار. قالوا إنه من الذهب واليهود عبدة الذهب.. حتى غضب النبي الرسول موسى

حين استضعفوا أخاه الرسول النبي هارون عليهما السلام وأخذ الإجابة شاكراً.

والخاتمة في هذا الشاهد:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

والجمع سمَّار.

ـ لَبِيْـــد ـ

وذهبت أزور شيخاً من أشياخنا الفقهاء يعجبك إذا تحدث؛ لأنه ذو لسان إذا ما انطلق يطلق عقال فكرك سواء كنت إيجابيًّا مع حديثه أو سلبيًّا ضد حديثه.. ولكن موقفي معه في المرة الأخيرة التي ما جفوته وإنما هو الذي جفاني، لأني لم أسكت عن التوضيح لخطأ برز منه، فقد أنشد البيت للشاعر الجاهلي الإسلامي لَبيد بن ربيعة رضي الله تعالى عنه، فقال الشيخ وقد أزمع أن ينشد البيت: «أصدق كلمة قالها شاعر وليس هذا كلامه وإنما هو من حديث خاتم الرسل سيدنا ﷺ.. فقد قال عليه الصلاة والسلام أصدق كلمة قالها الشاعر وهو يعني بيت لبيد بن ربيعة».

ألاَّ كل شيء ما خلا اللَّه باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وما كنت أحسب عن الشيخ يجهل أن لَبيداً أسلم فأصبح من الصحابة، فقلت رضي الله عنه، فقال الشيخ أتترضى عن جاهلي مشرك؟ فقلت إنه صحابي. فقال الشيخ.. أو تكذبني؟

ـ قلت: إني أضع الصواب مكان الخطأ.. فسيدنا لَبِيد صحابي، فغضب الشيخ.. وما أحسبه إلا وقد عرف ما قلت ولكنه لم يعلن اعترافه بالذي عرف وزاد غضبه.. فقلت لديك المكتبة، فأسماء الصحابة موجودة تدلك. ولعلّ في يد ابنك كتاب جواهر الأدب لأحمد الهاشمي المصري..

وهو كتاب حديث فيه الصواب ثم أنشدت لأبرهن.. أنشدت قول لَبِيد:

الحمد للَّه الذي لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وثنيت بقول لَبِيد: «الحمد لله الذي أبدلني عن الشعر بالبقرة وآل عمران» وخرجت مودعاً.. ولمَّا يهدأ الشيخ بعد.. فقد كان صعباً أن أسكت عن كل ذلك.. فإخراج لَبِيد من الصحبة والإسلام أمر لا يطاق ثم هو الحق وهو أكبر من الشيخ.. وأحرى بأن لا يجبن العرف عن رد الجهل.. ولم يسكت الشيخ، فقد شكاني إلى أستاذي الذي يختصني بالتلمذة ويمنحني العلم.. شكاني إليه عن سوء أدبي معه، فإذا أستاذي السيد محمد صقر يناديني «تعال يا واد» حتى إذا أقبلت أقبل يده منع يده قائلاً:

«ليش تسيء الأدب مع الشيخ؟».

قلت: أترضى أن يُساء الأدب مع لَبيد بن ربيعة يصر على أنه جاهلي مشرك؟

فقال أستاذي وهو يَربت على كتفي.. لا أدب مع من يسيء الأدب.. وهكذا يتعذب طالب العلم مع بعض من يستكبرون بما علموا.. ولا يقتنعون بأنهم قد يجهلون..

ومضت أيام فإذا الشيخ ـ يرحمه الله ـ يقبل عليّ وكأنه قد نسي ما كان.. لأنسى ذلك الذي كان.. فقبلت يده وأصبحت أنا التلميذ وما زال هو الأستاذ..

السيـاسـة

وأبناء الفلاحين في الريف المصري كان يتخرج منهم نوابغ من الدارسين في المعاهد. لا يلزمون بأجر، ويقتاتون بما يجري عليهم من الرزق، وتعلَّم واحد منهم فنال جائزة العالمية حتى إذا أراد العودة إلى القرية فرحاً قال له شيخه: اصبر ثلاثة أشهر لتتعلم السياسة فلم يصبر، وذهب إلى القرية فاستقبله الخاصة من أهله ومعارفه بالاحترام واستبشروا به، وذهب إلى صلاة الجمعة في مسجد القرية ولم يعرف أن للإمام مكانة كبرى؛ لأنه المعتقد كأحد أشياخ الصوفية. وسمع خريج المعهد خطبة الشيخ فإذا هي تخريف، وأقوال لم تصح حتى إذا انتهت الصلاة قام المعهدي يرد على الشيخ وينصح أهل القرية.. يعلمهم الصواب فثار المصلون ينتصرون للشيخ، يضربون العالم المعهدي ويطردونه من القرية، ورجع إلى شيخه في المعهد فقال له أستاذه ألم أنصحك لتتعلم السياسة فبقي ثلاثة أشهر يتدرب على أستاذه، وتعافت جراحه وصمم على الرجوع إلى القرية يدخل المسجد يسمع خطبة الإمام الذي طرد من أجله حتى إذا انتهت الصلاة قام خطيباً معتذراً قائلاً: إن إمام المسجد رجل جليل.. وقد أخطأت عليه وأبشركم أني رأيت رسول الله ﷺ في المنام يقول هذا الإمام مبروك، من تناول شعرة من رأسه أو لحيته دخل الجنة.. فهب

الجالسون كلٌ يخطف شعرة فإذا الإِمام أصبح أصلع والدماء تسيل من رأسه وذقنه.

حكاية قد تكون كاذبة. وأكذب ما فيها رؤية رسول الله ﷺ ولكن أصحاب الحواشي يترخصون بالموعظة أو حتى للإضحاك.

حيلة النشر

وكتبت عن المتنبي في جريدة «المدينة» ليدافع عني بصورة عن دفاعي عنه، فقد أصبح بعض المغرضين والمتمذهبين ينشرون أقوال المخالفين على صورة النقد لهم، بينما قصدهم هو نشر أقوالهم كهؤلاء الذين ينتقدون أدونيس باسم النقد يدفعون القارئ وكأنهم يجندونه لحساب ما يذهبون إليه وما هو ذاهب بهم إلى بعيد، ذكاء منهم أن ينشروا ذلك، حتى إذا خلوا إلى شياطينهم (والله ضحكنا عليهم)، وفاتهم أن للباطل جولة ثم يضمحل، ولا أقول صولة، فالمقذعون في الهجاء شاعر قبيلة يهجو قبيلة، اضمحل ما يحفظ لهم يبقى في القراطيس وعافته النفوس.

كتب أحدهم، وكأنه يلوم الذين رشحوا أدونيس لينال جائزة نوبل باسم العرب، وتطرى يتكأ على نجيب محفوظ، مع أنه لا يريد المحفوظ وإنما أراد المحظوظ لديه.

لعبة ليست إلا من شظف العقل وترف التعقل، فالعقل افتقر إلى من يعقله، فانطلق إلى ما يعتقل به، كأنما العقل عقال بعير تمزق، فنشر الأقوال بصورة النقد إشاعة للأقوال وقد فطن لها ناصر السنة وقاهر البدعة الإِمام أحمد بن حنبل، رضي الله عنه، فقد قالوا له: لماذا لا ترد على المخالفين؟ فقال: لا أحب أن أنشر أقوالهم.

وأبناؤنا حرصوا على أن ينشروا أدونيس ذلك الذي لا شأن لنا به ناثراً أو شاعراً محدثاً أو متحدثاً، وإنما كل الشأن الطرد له من ذاكرة الشباب؛ لأنه يقول (ابن الراوندي وابن عربي على القمة عنده) ويتنكر بالإِلحاد على خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ، فهو ـ كما عرفت ذلك من شاب يعشقه ـ يفضلهما على النبي ﷺ.

حشـــاش

وكنا ونحن أطفال أو نحن مراهقون وإذ وصلنا إلى الشباب لا نسمع من أمهاتنا وآبائنا وأشياخنا، إلا المذمة لواحد يقولون: أبعدوا عنه.. (اخصروه) إنه الحشاش (أفينجي ما يخاف الله). وكان هذا الحشاش أو الأفينجي. يتستر قدر جهده لأنه يخشى المذمة فلا يباهي حتى إنه قلَّ أن جرّ غيره إلى هذه الفتنة المرهقة، ولم نعرف في زماننا الأول من هذه المخدرات إلا كلمة حشاش أو أفينجي، حتى إذا تخطينا الكهولة عرفنا بعض المحترفين الواردين أنهم يتعاطون مخدرات أخرى لم نسمع اسمها من القدامى. وإنما سمعنا عنها من هؤلاء الذين احترفناهم فاحترفوا شبابنا بهذا الفساد.

فقد قال لنا أستاذ: احذروا معاشرة (هذا الواغش) لئلا يجركم إلى (المورفين).

وسمعنا من شيخنا ونحن في الدرس حكايات عن الحشاشين، كان يعظنا حين يعلمنا، فقد قال هذا السيد الأستاذ محمد صقر: كنت نازلاً من العنبرية فلفت نظري رجل على الرصيف يهز رجله اليمنى بشدة، يرتعش قدمه، فوصلت إليه أسأله (ما بك؟) ـ قالها بالعامية ـ ايشبك ـ وهي بالفصيحة أي شيء بك ـ فقال (يا أستاذ شايف هذا الجمل واقف على رجلي أقول له حر.. حر ـ كأنه حمار ـ واقف على رجلي فوق قدمي

وعمال يبيض) وقال الأستاذ بعد: هكذا الحشيش، جعل الجمل حماراً ويقف على قدم رجل ثم جعله دجاجة تبيض، فأي خبال أكثر من ذلك.

وسمعنا حكاية أخرى قالوا: وقف رجلان يدقان باب بيت فلم يُفتح، فقال أحدهما وكان حشاشاً: اصبر، ورمى نفسه على الأرض وأخذ يلف نفسه بتدربه فقال صاحبه: مالك؟ قال: امبرم.. انفتل، حتى أستطيع أدخل من فجوة الباب وافتحلك الباب، يريد أن ينبرم ليصبح دقيقاً يدخل من ثقب الباب كأنه عود كبريت.

كانوا يحكون ذلك لنا، لئلا نكون كصاحب الجمل الذي يبيض أو الذي يفتل نفسه وهو ساقط على الأرض، أم اليوم فقد كثر الواغش وأصبح الشباب هو الذي يغش نفسه من البطر، من القلل، من الفراغ، من أي شيء، لنسأل عن الأسباب فقد تكون هي الأساس أيها الناس.

سـارقــن

والغربلة اليوم، لست صاحبها وإنما أنا ساحبها، غربل بها قيصر من قياصرة الروم (روما الشرقية) عاصمتها القسطنطينية، غربل بها روميًّا من رعاياه تحدث يسبُّ العرب بما كان ينعتهم بهذه المسبة الإِغريق حيناً والروم حيناً؛ لأن العرب تناولوا أطراف اليونان والرومان، فالمسبة هي بهذا النعت (سارقن) يعني أن العرب سُراق، فانتفض القيصر شامخاً بعروبته لأنه ذو نسب عربي، شامي من أولاد جفنة ملوك غسان حفيد جبلة بن الأيهم آخر العواهل من أولاد جفنة الذي تنصّر من عار اللطمة، شمخ القيصر.. عربيًّا يدافع عن العرب، لم يعبأ باللقب ولم يستأذن الكنيسة ولكن استأذن أعراقه، فرفع صوته يقول (إن العرب ليسوا سُراقاً)، وهذا اللقب ما كان يعني أنهم السُراق، وإنما هو نعت بني إسرائيل للعرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، رفضوا أن يكون إسماعيل عابريًّا؛ لأنه لم تلده سارة زوج إبراهيم أم إسحق جدة إسرائيل يعقوب عليهم السلام. فهو ابن هاجر المصرية القبطية القحطانية، لم تلده أم عابرية، فأبناؤه عند بني إسرائيل ـ فيما يزعمون ـ أنهم عبيد سارة، وإن كان أبو إسماعيل إبراهيم، فهم بهذا كله اجترأوا أن ينكروا على إسماعيل عابريته، لأن الولد عندهم لأمه، فمن لم تلده إسرائيلية ليس إسرائيليًّا.

دافع القيصر عن أعراقه. ونسي استعراقه روميًّا نصرانيًّا.

وهكذا فالعرق دساس، ولا تعجبوا إن كان حفيد جبلة الغساني الشامي يصبح قيصرياً، فقد دفعت الشام من بنيها قياصرة خمسة، قالوا إن من بينهم (دراكولا) مصاص الدماء، كما أن الشام أنجبت أحد باباوات روما الغربية، كما أنها اليوم تسمع عن بعض بنيها حكام ولايات في أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة) وأمريكا الجنوبية.

وهكذا العربي قد يكون انفراديًّا إذا لم تصرخ في أعراقه النجدة، ولم يلب النخوة. أما إذا كانت النخوة فهو لقبيله وقومه.

التشهـــــي

وعرّفوا الإنسان بأنه حيوان ناطق، أو أنه ضاحك، واستكبر الإنسان فعرَّف نفسه بأنه عاقل، وكل هذا صحيح. ولكن أليس من الصحة والصواب أن يُعرّف الإنسان بأنه قاتل! كما الحيوانات الأخرى. فالحيوان يقتل الحيوان، غير أن الإنسان يذبح وينحر ما يشتهي ليأكل، ويقتل ما يكره أو ما يخاف من الحيوانات الأخرى من السباع ومن المؤذيات. سنّة الكون ولست بهذا أعيب ذلك. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١). فعمار الأرض أرحام تدفع وأرض تبلع، حياة وموت ولماذا أكتب ذلك؟

فقبل أيام تشهيت الشاي الأخضر، فقالوا ما عندنا نعناع وما رضيت شهوتي أن تقتنع، فلا بد من الشاي الأخضر، فقلت اشتروا حزمة نعناع من الخضري، ولكن أين النعناع المزروع؟ قالوا: الدود أكل النعناع، قلت اقتلوا الدود، وهكذا شهوة النعناع قتلت الدود؛ لأنه أكل ما اشتهيته. ولم ألتفت إلى أن الجزار في البيت ولسبب ما أخذ يذبح خروفين. فالدود أكل النعناع ليعيش، أما أنا فيمكن أن أعيش دون أن أذبح خروفين. والمفارقة وليست من الغربلة وهي أن النعناع المديني الطوال لم يأكله الدود. والنعناع المغربي أكله الدود فما السبب؟ نسأل خبراء النباتات. هل النعناع المغربي يفرز على

التربة ما تتغذى به بويضات الدود؟ شيء لا أعلمه وأريد أن أعلمه. وهكذا يحكم التشهي لأي شيء والرغبة في أي شيء أن يقتل الإنسان ما يحول دون ذلك أو من يحول دون ذلك كأنها بي قد ورّث بني آدم الرغبة والقتل. ولكن كل نفس تجزى بما تسعى يوم يجمع الله الناس ليلقى كل إنسان في اليوم الآخر جزاءه. إن خيراً فخير وإن شرًّا فشرّ.

القيـافـة

والقيافة أسأل عنها من يعرفون أخبارها كأمر واقع، فهل الجهاز المختص سواء كان جهاز أمن أو أجهزة علم، وذلك لنعرف ما هي وهل هي موهبة أم هي احتراف؟.. وأغلب الظن أنها موهبة، فلئن اقتصرت على قبيل من العرب كما هو المعروف عن رجال من مُرة: فيقولون هاتوا المرّي يقص الأثر، فإنها قد كانت موهبة لدى وحشي الحبشي مولى جبير بن مطعم، قاتل حمزة بن عبد المطلب.. وعندي خبران عن القيافة ثالثهما كلمة قالها قياف، قالها قائل أثر. فالأولى عن وحشي قاتل حمزة الذي أنقذه الإسلام فأسلم، وإذا الإسلام يجبُّ ما قبله.

كان وحشي قد رابط في حمص التي كانت رباط سيف الله خالد بن الوليد وشاخ، وبينما هو قعيد البيت أقبل عليه زائر من قريش حتى إذا سلم وردَّ وحشي السلام. قال: عبد الله بن عائش؟ قال نعم وكيف عرفتني ولم ترني منذ زمن طويل؟ قال وحشي لقد ركبت أمك جملها ونحن حول بئر طوى (في مكة) وكنت طفلاً فناولتها إياك.. ونظرت إلى قدميك حتى إذا وقفت الآن عرفت القدم وإن كبرت عن حين عرفتها وأنت طفل. هو عبد حبشي وإن عاش في قريش فهل كان في قريش قيافون؟

والثانية: فقد علمت أن وزير مالية الملك عبد العزيز خادمه عبد الله

ابن السليمان قد اقتنى أفراساً وأحصنة وتركها في الرصيفة لتكون تحت إمرة الملك حين تكون عرضة وتفقد ابن سليمان الخيل فإذا هو يرى فرساً أصيلة وقد قطع ذيلها فثارت ثائرته ماذا يقول للملك لو سأل عنها؟.. وفي الحال أبرق إلى وكيل إمارة المدينة عبد العزيز بن إبراهيم يطلب منه إرسال المري قائف الأثر عنده فقدروا كم يوماً حتى وصل إلى الرصيفة فهل يبقى الأثر!؟ لكن هذا القائف أمسك بأثر القدم حول مرابط الخيل ومشى يقفو فحيناً يجد وأكثر من حين لا يجد.. ولكنه استمر حتى وصل إلى وادي فاطمة، لعلّ الطريق كان أكثر من خمسين متراً دلّه الأثر على منزل فدخله ومعه حراسه، فإذا هو يفاجأ بذيل الفرس المقطوع معلقاً في صدر الحجرة أخذه من قطعه لا ليعيب الفرس وإنما هو السبب يتخذ منه أوتار الربابة وهنا السؤال ما هي القوة أو الموهبة التي استدل بها المرّي على ذيل الفرس في حجرة بعيدة عن الرصيفة وفي زمن لم يبق فيه أثر القدم تلو القدم؟ أريد من أجهزة المعرفة ألا تترك هذا الموضوع لعلّه علم، لعلّه إيحاء.

أما الكلمة فقد قالها واحد سبه آخر قائلاً له: أسأل عن أبيك هو أبيض وأنت أسود قال: لقد سأل أبي قائف الأثر فنظر إلى قدمه وقدمي وقال هذا ابنك، أما أنت فقد أنكرك أبوك مع أنك أبيض وهو أبيض.

رجـــل . .

قرأت أقصوصة كتبها توفيق الحكيم خلاصتها أن زوجاً سمع عن حليلته تفتح بابها لخليل، لم يكن يصدق المخبرين، ولكن الشك جره إلى اليقين، وخرج من البيت وكان أمام العمارة حلاق فجلس يحلق وعينه على باب العمارة فرأى الخليل يدخل، ومكث الخليل وقتاً ثم دخل العمارة يصعد إلى شقته وكان معه مفتاح الباب فدخل يتربص فوجدهما على حال لا يرضيه، وأراد الخليل المقاومة فقال له الحليل دعك عن هذا أريد منك ريالاً واحداً أجرة فراشي، وسأخرج عنكما فلا حاجة للضجة، إنها سمعتي قبل سمعتك، وبعد أكثر من يوم قال لزوجه لماذا لا نذهب إلى بيت أبيك نتناول الغداء هناك؟ حين مضت تلك الأيام لم يناقشها ولم يغير عادته، كأن شيئاً لم يقع وذهب إلى بيت أبيها وعلى مائدة الغداء الأب والأم والأخوة والزوجة وهم يتناولون الطعام وقبل أن يفرغوا قال: سمعت حكاية أن رجلاً أجر فراشه بريال،وأخرج ريالاً من جيبه يعلنه أمامهم وفاجأ حليلته بذلك، فقامت إلى النافذة بالدور الرابع من العمارة ورمت نفسها تنتحر، وخرج مودعاً يتقبل العزاء في زوجته ويلقي العزاء لأهلها.

فهذه الأقصوصة قد تكون من خيال توفيق الحكيم، غير أن رجلاً في قديم الزمان غير هذا وفي المدينة سمع عن رجل يدخل بيته فما حرك ساكناً

ولكنه في صبح اليوم الثاني، وقد عرف اليقين حين تربص أمام البيت لبس ثيابه وأخذ مسدسه وقال لزوجه أنا ذاهب إلى العوالي فلا تنتظريني في الغداء، وسأعود في المساء وذهب لا إلى العوالي وإنما ليتربص يأتيه الخبر من سابر كلفه بذلك وجاءه الخبر ومعه مفتاح الباب، فدخل بيته فوجد الحليلة والخليل متقابلين حتى إذا دخل عليهما فزعت الحليلة وخاف الخليل لكن سيد البيت كان رجلاً فقال لهما: لا تفزعي، لا تخف ولن تخرج الآن، نتناول الغداء سواء ونخرج أنا وأنت كصديقين، وتناول الغداء معهما وخرجا من البيت إلى المقهى كأنهما صاحبان، ومضت أيام يتلاقيان في المقهى وما كلم حليلته بشيء، ولكن اليوم الأخير قال لمن خانه غداً سأطلقها وأخرج مسدسه وعليك أن تتزوج بها وإلاّ فالمسدس في رأسك. وطلق زوجته وتزوجها صاحبها فأسبل الستر عليهما احتراماً لأسرتها وحرمة لسمعتها.

أقصوصة الحكيم خيال، أما قصة المدينة فواقعة كما حدثنا عنها الأجداد.. حينما كنا صغاراً.. فاختلف الرجلان، ذلك قاتل وكان في الطلاق الحل وهذا لم يقتل وكان الطلاق هو الحل. ذلك لم يستر وهذا ستر فأيهما كان الرجل؟

صـــورتـــان

وما زالت مخلاة الكاتب تملأ كشكول القارئ. فمن هذه المخلاة صورتان.. فالأولى أمدتني بها جعبة سامعٍ لخطيب جمعة.. جاء هذا السامع يسألني: هل عتبة بن ربيعة هو الذي رمى رسول الله محمداً بن عبد الله يوم غزوة أُحد بحجر فثَبَّج جبينه وخلع ثنيته، أم هو عتبة آخر، فأجبته: أتريد التعريف وأنت على معرفة. فعتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف جد معاوية بن أبي سفيان لأمه هو صاحب النفير في بدر، وأراد ألا تكون حرب، فجره أبو جهل إليها. فإذا هو أحد الخصمين اختصما، فقتل في بدر.. قتله ابن عمه حمزة بن عبد المطلب. فالخصم في الإسلام قتل الخصم في الشرك.

أما عتبة الذي شجّ وجه رسول الله سيدنا محمد ﷺ فهو عتبة بن أبي وقاص.. ابن عم آمنة بنت وهب أم الرسول. وأخوه سعد ذلك الرجل الجليل. فسعد المؤمن يحمي رسول الله وأخوه عتبة يحارب رسول الله.

وليس بعيداً على الخطيب وهو يرتجل أن يضيع منه اسم.. فكم من خطيب أُرْتِجَ عليه الكلام.

أما الصورة الثانية.. فهي من فواجع الشيخ عبد الحميد كشك فقد قال: نفق كلب سيد ثري. فإذا الثري ينصب له صيوان عزاء، فضج أهل

الحارة يذهبون إلى إمام المسجد يشكون إليه.. فغضب الإمام وذهب يلوم هذه الفعلة، فإذا فاعلها يفتعل كذبة على الشيخ يقول له: يا أستاذ (أنا ما قلت لك. أهو دا الكلب ترك مائة جنيه ومعها وصية، فبخمسين جنيهاً أقيم له الصيوان، والخمسون الثانية أوصى بها لك قال هي للأستاذ، فقال الأستاذ: هو المرحوم قال كده؟ وقبض الجنيهات. «واللي فات مات» واستطرد كشك يقول: «أهي الخمسين جنيهاً تِلْوِح» يعني تغير الرأي من النصيحة إلى الفضيحة.

المـاضـــي . .

ومر إنسان نعرفه وكان بجانبي إنسان أعرفه فإذا الذي أعرف يقول: دعنا من هذا الذي نعرف إنه اقترف المعاصي، فقلت له: اتق الله وأحسن الظن . . لقد تاب بعد أن حج وآب.

أخبرني أنه لم يعد إلى سابق عهده مسرفاً على نفسه، فقال: ذلك الذي جفاه أنا لا أصدقه . . فقلت له: حين صدق دينه وخضع للطاعة . . ونال بالتوبة غفران الله تأبى وأنت العبد لله أن تصون لسانك عنه . . وهكذا نحن في هذه الأيام نحاسب على الماضي . . ولا يرضينا الحاضر . . فإذا بنا لا نبني المستقبل، فالماضي السيئ لأي إنسان قد نراه حاضراً حسناً . . فالتوبة تغسل الذنب والإسلام يجبُ ما قبله، إن التوبة فرصة أنعم بها الله على العبد ليتوب . .

ولعلّي أكتب تحلية تتحلى بها هذه الكلمة في خبر أبيح لنا أن نرويه للعظة . . فقد حفظنا أن أخوين اثنين، يسكنان بيتاً واحداً. في الحجرة الأولى، المسرف على نفسه، وفي الغرفة الثانية أخوه المطيع حتى إذا مر المطيع ينصح أخاه المسرف على المعصية فلم يسمع نصح أخيه. وفي المرة الأخيرة جاء ذو الطاعة فقال لأخيه: تب. اتق الله. تخلَّ عن المعصية فلم يسمع له فإذا المطيع الناصح يقول «والله لن يغفر الله لك».

وجاء في الخبر أن الله غضب على هذا الذي أقسم عليه.. يتألى على ربه.. لا يغفر لعبد من عباده.. غضب الله فأحبط عمل العابد وغفر للمسرف!!

أكتب هذا للعيابين الذين ذنبهم بهذه المعابة التي يقترفون غيبة.. معصية.. يرتكبونها ويحسبون أنهم وهم على طاعة.. لم يقترفوا معصية..

وفي الخبر: «خير الخطائين التوابون»؛ لأن التوبة عبادة يرفع صاحبها رأسه إلى السماء لا يتكل على كل مخلص كاليهود ولا يتواكل على قسيس.

نكســة

ولم تكن هي نكسة المرض أصاب جسد شاب. وإنما هي نكسة العبث غرضاً تمارض فيه فؤاد هذا الشاب، ينتمي إلى الإسلام وراثة ولا يتنامى به احتراماً وحماسةً. فقد أقبل عليّ.. وقبل سنوات وكأنه قد شمَّر حين أوتر أعصابه من ذلك الشيء الذي أصابه، حتى إذا وقف ولما يجلس قال: كفى يا أستاذ (الملائكة قاتلوا في بدر).. كفى بلاش رجعية، وهدأت لأمتص غضبي، فلكي أسلح عليه ينبغي ألا يراني غاضباً، فقلت: أعرف أنك تصدق قول الإمبراطورة إليزابيث ملكة بريطانيا، قبل أن تكون عظمى، حين قالت (الله نفخ فشتت شملهم) قالتها حين حطم الإعصار الأسطول الأسباني في بحر المانش قبل أن يصل إلى ساحل بريطانيا ليحطم أسطول الإنجليز، فلم يتحرك الأميرال (درك) ليقاوم الأسطول الأسباني بأسطول الإنجليز، تأخر ليتقدم الإعصار، فتحطمت الأرمادة، فإذا الإمبراطورة قالت (الله نفخ فشتت شملهم) أنت تصدق هذا، لأن فتنة الثقافة المستوردة حرمتك نعمة الثقافة الموروثة فتحطم إيمانك، تنكر المدد من الملائكة وتلك رمية الله جادت بالنصر في بدر، وتصدق ما جاء في التاريخ البريطاني!.

الملائكة المدد. أنعم الله بها على رسوله سيدنا محمد ﷺ فنصر الله به الإيمان بنصر المؤمنين. لقد كان جبريل أمين الوحي على حصانه يقول

(أقدم حيزوم)، فلا عجب في ذلك، وإنما العجب أن يكون شاب مسلم مثلك يتمطى بهذا الإنكار ليتغطى مصدقاً عمل الإعصار.

إنها فتنة أسأل الله أن ينزعها من قلوب الشباب.

البطـاقـة . .

وأخذت مكاني أمام صراف البنك يتناول مني شيكاً فلم يلبث ولمّا ينظر إلى الشيك، فقال (هات هوية) فناولته البطاقة، وكان بجانبي من الواقفين قبلي من قضاعة بلوى، فأمسك بي وقال (اللي ما يعرف الصقر يشويه) فقلت له: لست الصقر وإنما الصقر هو إطاعة النظام، وسلوك الانتظام. إن رقم البطاقة لا يقصد منه المعرفة لشخص المراجع، وإنما ليسجل الرقم على الشيك لمعرفة ما قد يطرأ على ذلك من تزوير، أو ما إلى ذلك. . فقال لي القبلي أنا واقف في الطابور ولكني نسيت التابعية. فعرف الصراف من أنا؟ فقلت جيّر الشيك باسمي لعلّه يصرفه برقم بطاقتي. . فالعمدة عليّ فقال وتنكر أنك الصقر. . فقلت له هذا صقر الحيلة لمنع الاحتيال. . هذا وقد تعودت أن أحمل البطاقة وقبلها حفيظة النفوس؛ لأني أخذت الموعظة من صديق ركب سيارته فإذا الجندي في «أم السلم» يطلب حفيظة النفوس ولم تكن معه، فرجع، لم يسمح له الجندي بالمرور حتى وصل إلى جريدة البلاد وفي مكتب السيد ياسين طه ـ آنذاك ـ أخذ ينفث غضبه على هذا الوضع، فقلت له: اغضب على نفسك، أفكل الجنود يعرفونك، أو أن بعض الجنود لا ينفذون الأوامر!. فقال وأنت يا فصيح حامل حفيظة النفوس، فقلت له من اليوم سأحملها. . لأني أتقي الإهانة التي أصبها على نفسي. . وهكذا ينبغي ألا أقول كبعضهم (أنا سعودي ويمنعني من المرور).

النعمـــة

والكلام عن النعمة ليس هو كل ما أنعم الله به، فنعم الله لا تحصى فهي كثيرة وفيرة تدوم بالشكر لله سواء كان الشكر إعلاناً عنها أو كان الشكر عملاً يصونها وفعلاً يتسع لمن حوله تنعم عليه بما أنعم الله به عليه. وليس الكلام عن هذا كله وإنما هو كما تعلمنا من آبائنا عن فضلات الطعام وعن الفتات فتيت خبز أو حتى حبة أرز.

فقد كنا نأكل على الطبلية لا ترتفع على الأرض إلا شبراً وبعض الشبر نتحلق حولها دائرة مستديرة نجلس على الأرض، فلا الكرسي ولا المائدة التي حولها الكراسي، ويسقط فتات من الخبز من الطفل أو حبة الأرز أو حتى نواة التمر يلفظها فتسقط منه لا يضعها على الطبلية حتى النواة نعمة فإذا ما سقط بعض ذلك تحت الطبلية يقول الأب أو تقول الأم: ارفع النعمة عن الأرض، نلمها نحفظها لئلا تداس والنواة تجمع تأخذها الفقيرة التي تضمها إلى ما تلتقط من الأرض في أي سوق، من أي حوش تبيعها لمطاحن النوى علفاً لحمر النعم وللأنعام.

وي.. حتى الحيوان نعمة، فنواضح يثرب تأكل النوى حتى إن أبا سفيان عرف المسيرة إلى بدر حين التقط دمنة بعير يفركها ليجد النوى فقال إنها نواضح يثرب فيها السم الزعاف. وقد نجا من السم كصاحب العير

وذاق السم أصحاب النضح وفطن آباؤنا إلى سقوط النعمة من الطبلية فأصبحنا نأكل على المفتة: دائرة منسوجة من السعف هي المائدة أو السفرة لأنه لا يسقط الكثير على الأرض وإنما هو يسقط على المفتة كأنما اسمها قد اشتق من (فت) أو من (الفتات) وجاءت حكاية لرجل اتسع رزقه فبنى بيوتاً ثلاثة وكان الثراء يقاس بعدد العتبات. فلان غني عنده عتبة أو عتبات يعني بيتاً أو بيوتاً. وجاءت زوجة هذا الرجل وهو على المفتة برغيف ما نضج خبزه لم يعجبه فأمسك به وأخذ يفركه تحت رجله كأنه عجينة فإذا أم زوجه ترفع صوتها كأنه يا رب اكفنا شر البطر، حرام عليك ما تخاف على أولادك، ودار الزمن فإذا هو يبيع العتبة والأخرى فلم يعد يملك شيئاً فبصر في نفسه فإذا هو في ضيق والأبناء يأخذهم الحزن من الفاقة فبكت الأم وقالت ما شكر النعمة، أهان النعمة فإذا هو في هذه الحال هو ذنبه ولكن عاد علينا بالفاقة، يا رب سترك. هكذا تعلمنا واليوم لا أدري أين تلقى الفضلات نظيفة في أماكن مهينة.. تبدل الحال من النعمة إلى زوال النعمة لكل من تبطر فلم يشكر.

ابـن عثيـميـن

وكثيراً ما تكون المصادفة عن رغبة أسرها الكاتب في نفسه يريد أن تكون حتى إذا انصرف عن تذكره وجد من أراد بجانبه.

ففي يوم السبت أول الأسبوع طرحوا عليّ سؤالاً عن موضوع أو عن موقف للملك عبد العزيز فما وجدتني أعرف الجواب، فخطر على بالي أن أتلفن للصديق الأستاذ الشيخ سعد الرويشد وتريثت وما كنت أدري عن تريثي حتى إذا جلست في البهو الكبير العامر في قصر السلام في الليل من نهار الأحد الماضي. جلست وإذا سعد الرويشد بجانبي، ولعلّه يستطيب التحدث معي كما أستطيب ذلك معه. وما كان الموضوع إلا عن الملك عبد العزيز وإلا عن الشاعر الكبير محمد بن عبد الله بن عثيمين: ذلك الشاعر الغريب في وطنه، الحاضر فيما امتلأ ديوانه بالثناء على ذلك الإنسان الذي لا يغيب عن ذاكرة وطنه وعن كل عمل في وطنه ألا وهو الملك عبد العزيز ابن عبد الرحمن.

وحين يتحدث الرويشد عن ابن عثيمين فإنما هو يتحدث عن عبد العزيز، وإذا ما تحدث عن عبد العزيز لا يجد مثل ابن عثيمين من عرف عبد العزيز بن عبد الرحمن وعرّفه للناس.

فما من كاتب كتب وصفاً لعبد العزيز إلا وكأنه أخذه عن ابن عثيمين.

اقرأوا هذين البيتين: كل بيت من قصيدة يصف عبد العزيز:

خبيئة اللَّه في الوقت أظهرها ... وللمهيمن في تأخيرها شأن
لو كان فيصل يدري قبل ميتته ... أنك من صلبه لاستبطأ الأجل

وهو يعني الإِمام فيصل جد الملك عبد العزيز.

وما كتبت هذا وكأنه لا شأن للغربلة به إلا أنه هو شأني اليوم أغربل به القارئ المثقف أو أستاذ الأدب في الجامعات.. كيف لا يكون ابن عثيمين وقبله ابن المقرب موضوع الدراسة لطلاب الجامعة، فهذان الشاعران لهما حق علينا احتراماً للتراث، وحفاظاً على الميراث ولا أدري كيف تأخرت النوادي الأدبية لا تستضيف سعد الرويشد يتحدث عن ابن عثيمين، فلو تحدثت أنا ومن هو أعرف مني لما كان لحديثنا الوقع الجميل كما حديث سعد الرويشد.

غربلة خفيفة لعلّها تدعو المثقف أن يعرف قدر تراثه وابن عثيمين من التراث.

غـربلـــة

وسألته أين فاكهة الواحة التي أنبتتك؟ قال: عطشت الأرض، وجفت العين، وعجزنا عن حفر الآبار، فأصبحت أنا وأمثالي النبات الوحيد في هذه الواحة، كان رمانها أحسن الرمان، وجارتها تينها أحسن التين وجبلها يُقطّر أهله عطر الورد يشمه السراة «السادة»، لأنه من نبت السراة «الجبل»، فإذا السري ثري الوجدان بما زرع، قلت: هل تغيرت الأرض أم تغير الإنسان، قال: الإنسان تغير حين استغنى عن الشجرة وحين ترك حجرة المدر إلى غرفات عالية بعيدةٍ عن الشجر، فالغرفات في الجنة حولها الشجر، وأنتم جعلتم الأرض التي كانت جنة.. بلا شجر، حتى بخلتم عليها بعلامة توضح ماضيها.. رمانة.. تينة.. عنبة.. حتى التين الشوكي ابن الجبل تكاد أن تتغير جبلته، قال: ليتني أعود جائعاً أحرث الأرض لأشبع، قلت: لم تصل إلى درجة الإنسان الياباني ابن الصخر شبع وأشبع حتى خافوا منه أن يفرض عليهم الجوع، أعني الدول الكبرى، أصبحت اليابان من الدول الكبرى مع أن أرضها براكين وصخور، فالرمل والحجارة والتربة يستجلبونها كما يستجلبون البترول.

لقد عدت أنت كشعوب النهر، يجري النهر بين أيديهم ليزرعوا ولكنهم لم يزرعوا.. عجيب أن يشبع ابن الصخر ويجوع ابن النهر.

والسبب، أن الياباني رغم تفوقه فرض على نفسه ألاّ يسقط، أما غيره ممن ذكرنا فقد فرحوا بعطاء الوقت ولم يحسبوا حساباً لعطاء الزمن.

البقرة . . والحمار . . !!

والواعظ يعلمنا بأحداث قد تكون وقعت، أو لم تكن، فالقصد هو الموعظة. فالأولى عن البقرة وصاحبها، يحلبها، يبيع الحليب بعد أن يخلطه بالماء، يحسب أن ذلك ربح، وبقي على هذه الحال وقتاً حتى إذا غفل عن البقرة تخرج إلى الوادي لترعى، فإذا السيل يجرها هالكة حين أغرقها. . وجاء يقول لابنته: يلوم البقرة ويسب السيل، فقالت الابنة: يا أَبَتِ لقد جمع الماء الذي كنت تخلط به اللبن، فأغرق البقرة. كانت البنت واعظة، ولعلّ الأب لم يتعظ فيشتري بقرة أخرى.

أما الحمار، فقد كان لشاب اكتهل بعد، يحمل عليه الحطب الذي يجلبه من الأشجار حول القرية، وكانت أمه تريد له عيشة غيرها كصناعة أخرى، وفي ليلة ترك الحمار مربوطاً أمام الكوخ، ولا يدري ماذا سيكون. . غير أن الذي كان هو: أن هبط على القرية لصان، سرقا النفائس وغير ذلك فلم يستطيعا أن يحملا ما سرقاه، فإذا هما يسرقان الحمار يحمل عنهما المسروقات، وسارا إلى الجبل، وفي الكهف قال أحدهما للآخر، اذهب فاشتر لنا طعاماً فذهب واحد وبقي الثاني في الكهف والحمار مربوط. .

وبيت السارقان الغدر ببعضهما. . فالجالس في الكهف قتل جالب

الطعام.. وجالب الطعام وضع السم في الرغيف فقتل زميله.. فقطع الحمار الرباط ورجع إلى صاحبه.. فالحمار يعرف الطريق، فإذا صاحبه لا يحتطب لأنه قد جاءه المال.. وهكذا «كل ميسر لما خلق له».

الأمـــة

وأنا عربي.. سواء كنت من ذوي الأعراق أو من ذوي الاستعراق.. أحارب الحيف، وأكرم الضيف.. يطيعني السيف، أتمرد على العدالة ويأخذني الظلم إلى الاعتدال.. أصبر على الجوع، وأتستر على الشبع.. بالشظف أسود، وبالترف أستعبد.. لا يستعبدني أحد.. وإنما الترف تستعبدني الشهوات..

هذا حالي، أصف به نفسي كأي نفس عربية.. فيوم كان العرب في الصحراء يأكلهم الجوع، وتأكلهم الحروب.. محوطين بإمبراطوريتين، وبديانتين.. نصرانية ويهودية.. دانوا للوثن، فهم كل هذا الشظف.. جوع معدة ومجاعة فكر، وفراغ فؤاد.. قد كانوا ولكن.. كيف كانوا؟ أمة واحدة كانوا فتكونوا بكلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة، فإذا هم قواد فتح، سدنة علم، بناة حضارة.

فقد كان ترف الوجدان بالإيمان قائدهم. فلما حل الترف بالعيش.. أبطرتهم النعمة، فإذا هم في خراسان قبلية.. يمانية ونزارية.. كم في هذا التفريق من ألفة.. التفريق واضح.. فأين الألفة.. إنها حين جمعت كل قحطاني تحت اليمانية وجمعت كل عدناني تحت النزارية.. يقظة الفخر، ثم هي إبعاد من تقحطن وليس معهم، ومن تعدين وساد عليهم.. أبعدوا

قحطانية الشام وعدنانيته.. ليكونوا هم وبهذا التفريق كل العرب.

من هنا تنبه نصر بن سيار فقال:

أرى أثـر الـرمـاد ومـيـض نـار ... ويـوشـك أن يـشـبّ لـهـا ضـرام
فـإن الـنـار بـالـعـودين تُـذْكـى ... وإن الـحـرب أولـهـا كـلام
أقـول مـن الـتـعـجـب لـيـت شـعـري ... أأيـقـاظ أمـيـة أم نـيـام؟

إن أمية قد نامت، حين أنامها سليمان، يوم أذل القادة.. فلا الحجاج ولا قتيبة، ولا المهلب، ولا موسى بن نصير.

حين يضيع الرجال الأبطال، تضيع الأمة!

الارتجـــال . . !

وما دمنا مع ندوة التراث فإنه يسعنا أن نشارك على القرطاس، لا نبتعد عن الناس، وإنما يبعدنا عجز العضل إذا ما طال الحوار والمراس، نشارك في نبذة نغربل بها ما يقال عن الارتجال.

إن الارتجال كان طبيعة الشاعر العربي حين كان أميًّا يسمعه الراوية، فالارتجال عطاؤه. والراوية سجله. من هنا نذكّر ندوة التراث بذلك النقد. أو هو النقض أرسله الدكتور العميد طه حسين في أول أمره. أنكر الارتجال ليثبت الانتحال. فمعلقة الحارث بن حلّزة البكري استكبرها الدكتور طه، استصعب أن تكون ارتجالاً مع أنه، يرحمه الله، من أول المرتجلين في عصره، فهو أمي لا يقرأ ولا يكتب كما هو وصف إسماعيل صدقي باشا له، فهو لا يقرأ وإنما يستقرئ. وهو لا يكتب وإنما يرتجل فيملي. وبعد ذلك جاءه الشاهد على أن بعض أمثاله يرتجلون. فعبد المحسن الكاظمي العراقي الذي تمصر كان يرتجل القصيدة مائة بيت على المنبر في حفل كبير، كما أن الشيخ عقل المصري، وهو بصير حضرنا في المدينة المنورة، وقد زار أمين الحسيني ورياض الصلح وعزّت دروزة، كلهم ينشد بيتاً واحداً بعد الآخر فإذا الشيخ يسرع بنظم في التو والساعة قصيدة على وزن البيت الذي سئل عنه، لا يتلجلج كأنما يسرده

محفوظاً، وأنشدت بيت ابن معتوق الموسى:

هـذا الـعـقـيـق وتـلـك شـم رعـانـه فـافـرج عـقـيـق الـدمـع مـن عـقـبـانـه

نظم الإجابة مسرعاً كأنما الحب بالعقيق أثاره، فإذا القصيدة نسمعها ما كتبناها. ولم يكن هناك تسجيل. ولم تكن آذاننا راوية. ولعلّ الدكتور طه رجع عن ذلك يوم اتسعت قراءته للتراث. فإذا هو الوارث. لم يأكل التراث أكلاً لمَّا. وما تآكل بغضبة التراث.

الـــواو

وحرف الواو، أبدأ به مقالي حلبة لها جرس، لأن الواو نفيسة في حروف الضاد.. للوصل.. للفصل.. للقسم.. للتنبيه، ولأكثر كأنها العروس في زفة اللغة الشاعرة، لا أريد أن أقرضها، فتعاملي معها قرض حسن أقرضتني إياه لغتي الشاعرة، فمن الأحسن أن أسدد القرض لا أمطل، ولا أبخل؛ لأن لغتي الشاعرة كريمة، فمن العيب أن لا أكون المكرم لها والكريم بها.

هذه المقدمة أشرح بها خطأ بعض الناطقين بالضاد ولو كانوا من المثقفين، تسأل الواحد ـ هل لا زلت تعبأ؟ فيجيب ـ لا.. الحمد لله إنه ينفي التعب ويبذل الحمد لله.. هكذا مراده، ولكنه ينفي التعب وإذا هو ينفي الحمد، فمن حق اللغة الشاعرة أن يأتي بالواو فيقول (لا.. والحمد لله). ولا ينفع الفصل بالنقطة كأسلوب الفرنجة، وتسأل الآخر/هل تسافر غداً؟ فيقول/لا.. إن شاء الله، ينفي سفره غداً فإذا هو ينفي المشيئة، مع أنه ينبغي أن يقول/لا وإن شاء الله/.

أليست الواو حلبة وتحلة تأتي بعد النفي ليثبت الحمد لله ولتثبت المشيئة؟

والواو مرة أخرى، وضعتني في منطقة التساؤل، فإذا أنا أجيب قد أَلفتها، ولعلّي قلدتُ فيها الدكتور العميد طه حسين، كما أنها قلدتني قلادة هؤلاء السائلين.

خيـــر للطـالــب

وأتغربل مع نفسي؛ لأني لست الوسط في الفرقة، ولست الأخير، فالأبوة ـ وقد علت بها السن ـ جعلتني الأول في فرقتي، أرعى الأبناء والبنات وأحب الأحفاد، أجتاز المشقة ولا أتجاوز لئلا تكون المشقة، قد أكـون عاجلاً ضيق الذرع، ولكن هؤلاء علموني الأناة وإن كنت أقول «آه» إن قسوت جفوت، وإذ صبرت ظفرت، فإذا هم لي، وقد أصبحوا مع الأول في الفرقة، كما أصبحت الصادرات البريطانية مع (ماكدونالد) رئيس وزراء بريطانيا في الثلاثينيات من هذا القرن الميلادي، كان رئيس حزب العمال ورئيس الوزراء في الوزارة الثانية لهذا الحزب، وخرجت اليابان على دنيا الصادرات من النسيج، فإذا دولة النسيج بريطانيا ومغازل مانشيستر تصاب بضربة، فدعا الإمبراطور رئيس وزرائه إلى حوار يأتي بالحل. لئلا تفلس بريطانيا العظمى بسبب هذه الصادرات من المنسوجات فقال ماكدونالد: سأستقيل، فقال الإمبراطور جورج الخامس: لا، قُدِ السفينة إلى النجاة، فإذا النجاة في الخروج عن قاعدة الذهب والتعامل مع الورق الإسترليني، فإذا الذهب بعدُ حلية أو سلعة لم يعش إلا سنوات حتى ضاع كعملة، وحتى ارتفع سعر الذهب إلى درجة الجنون، وأنقذ ماكدونالد السفينة لتستطيع بريطانيا ألا تحارب بعيارات من الذهب، وإنما حاربت بلترات من البترول، وحين تم الإنقاذ للأول في الفرقة رمساي ماكدونالد قال الكلمة (خير للطالب

ألا يكون الأول في فرقته) فلئن كانت الأولية تشريفاً، فإنها في الواقع تكليف.

ولا بد لي من إيضاح لعيارات الذهب ولترات البترول، فالكلمة قالها لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا أيام الحرب العامة الأولى، فقد قال يفخر على الألمان خصومه (إنهم يحاربوننا بعيارات من الحديد، ونحارب بعيارات من الذهب، أما النصر فسيملكه من ملك آخر لتر من البترول).

وهكذا تنبأ لويد جورج بأن البترول سلاح كما الذهب كما الحديد، والمهم من يتقن التعامل مع سلاحه.

النفيـــس

والنفيس في اللغة الشاعرة ـ كحقيقة ـ هو الواسع الذي يتسع، سواء كان طريقاً أو بيتاً أو حتى سرير نوم، وتنفست اللغة الشاعرة فإذا مجازها قد استعار من الاتساع باعث السعة ألا وهو النفيس من كل شيء غلا ثمنه واعتلا اقتناؤه، وحتى التنفس سعته يتسع بها الصدر؛ ليكون صاحبه قد امتلك النفيس ألا وهو راحة البال أو صحة البدن، وإذا ما ضاق التنفس على كريم من الرجال، فإنه لا يضيع منه النفيس، فالصبر وقهر البلية يمنع الكريم من التقهقر، فإذا هو على حال النفيس، وإذا ما اتسع النفيس على من لا يكرم نفسه فإنه سيبلى بضياع النفيس وضيق التنفس إذا ما تبعثر ما امتلك بالسرف أو إذا ما تجمد ما ملك بالشح.

وقالها المتنبي:

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

وفعلها معاوية بن أبي سفيان، كأنه سابق المتنبي ساعة أن ضاق عليه التنفس وهو في صفين يريد أن يمتلك النفيس فقد قال: (وكدت أفرّ يوم صفين)، لأن التنفس قد ضاق عليّ فذكرت قول عمرو بن الإِطنابة ـ شاعر الأنصار ـ في أحد أيام هؤلاء:

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذ الحمد بالثمن الربيح

وإعطائي على الإقفار مالي وإقدامي على البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

قال معاوية: فثبت، فإذا هو ينال النفيس ملكاً عريضاً طويلاً.

ولكن سيذهب النفيس الذي يمتلكه البطل إذا ما لبس التنافس على الذين كانوا له، فإذا هم بكل التضييق يتنفسون عليه ليضيع كل النفيس.

زَوْجُــه

والكاتب أيما كاتب: ناثراً أو شاعراً، ولو كان من الذين يشار إليهم بالبنان ويجري ذكرهم على كل لسان، عربيًا أو أعجميًا، فإنه يحترف الوعظ يسجل الواقع حتى إذا أنكر كتب الرواية والقصة أو نظم القصيدة (اعتزل ذكر الأغاني والغزل). والرجاء ألا ينكر القارئ ذلك، فطه حسين في (الأيام) كان واعظاً وفيكتور هيجو في (البؤساء) وزهير بن أبي سلمى في معلقته كانا واعظين. والمتنبي في حكمته كذلك.

وما سقت هذه الدهلزة إلاَّ مستئذناً أدخل بهواً تصدره هارون الرشيد وجعفر البرمكي، أدخله قارئاً ما كتبه واعظ عرف الخبر منهما. فالخبر هو أن هارون الرشيد ضاق من أبهة القصر وما حوله من التعظيم ومن حوله من العظماء فأخذ بيد جعفر يوم كان صفيَّه وحين كان الرشيد وفيَّه.. (تعال يا جعفر.. نطُفْ طرق بغداد لنرى ما يشرح الصدر أو ما يكدره) وذهبا، الخليفة والوزير، وبينما هما يمشيان نظر الرشيد إلى عامل تحت قصر، يُشيَّد حديثاً وقد ارتفعت طوابقه، رأى العامل يقذف الطوب الثقيل إلى فوق يسقط في وعاء يأخذه البناؤون فأغناهم هذا العامل عمن يرفع الطوب ليصعد به، فعجب الرشيد من قوة هذا العامل ودقة القذف فقال لجعفر: كيف هذا؟ فأجابه جعفر: هذا من امرأته أسعدته، لبس راحة البال فنشط

وأنشط. لم يصدقه الرشيد، وأراد جعفر أن يثبت ذلك فأرسل عجوزاً إلى بيت هذا العامل فطرقت الباب وفتحت الزوجة، فقالت العجوز: ما شاء الله أنت بنت الوزير.. أنت بنت شهبندر التجار جميلة وحلوة.. يا بخت زوجك. وجلست العجوز قليلاً وخرجت. وفي اليوم الثاني مرّ الرشيد وجعفر فوجدا العامل نكداً لا يكاد يرفع طوبة؛ لأن العجوز أفسدت عليه زوجه، فقد كان هذا الزوج لا يكاد يطرق الباب حتى يجد امرأته معطرة في أحسن زينة تحتضنه تريحه ينام هانئاً ويصبح هانئاً.

وعرف الرشيد ما فعلت العجوز؛ فأمر جعفر أن يرد الزوج إلى حاله الأول قوة ونشاطاً فأمر جعفر العجوز لتفعل، واستقبلت الزوجة العجوز، فدخلت عجوزنا هذه إلى المرحاض وكان معها إبريق من الفخار قديم، كسرته العجوز في المرحاض وأخذت تولول.. يا إبريقي، فقالت الزوجة: خذي عوضاً عنه نحاساً، فضة أحسن منه، فقالت العجوز هذا الإبريق عندي من شبابي عرف ما أستر، فلا أستبدله بغيره، عشيري لا أريد غيره، وخرجت العجوز وعادت المرأة إلى حالها تستقبل الزوج بالترحاب، وعاد الزوج إلى حاله، فصدق الرشيد أن المرأة إذا ما أسعدت زوجها عاش هنيئاً وإن هي كدرته يعيش نكِداً ولو كان هو من كان.

الــوطــن

وأقسى أنواع الغربة ليست هي أن تكون بعيداً عن الوطن وإنما القاسية الغربة عن الوطن وأنت تعيش فيه، ونحن غداً في ذكرى اليوم الوطني أعتزم أن أكتب عن ذكرى في كلمة نطق بها الغريب عن وطنه. بينما هو منه، وبه وفيه لكنه قد حصر الوطنية في مشاعره لا يعرف أن وطنه أكبر من المدينة التي يعيش فيها، حين جرى الحوار معه وقبل سنوات عرفت أنه لا يدري إلا عن الحوش وما حوله أو عن الحارة، ولو اتسعت مداركه الوطنية لما عرف إلا المدينة التي يعيش فيها. فحين بدأت أكتب في أكثر من جريدة تصدر في هذا الكيان الكبير قال لي غريب الدار عن وطنه لماذا تكتب في غير الجرائد الوطنية؟ قلت كل الجرائد التي تصدر لدينا وطنية فلن أحصر نفسي في جريدة تهامية ولن أبتعد عن جريدة يمامية أو عن صحيفة إحسائية فكل شبر من أشبار هذه الأرض، أرض المملكة العربية السعودية هو ملكي وإن لم أحمل الصك لتحديد الامتلاك، كل شبر أستطيع أن ألمس ترابه بكل الحب أقول هذا وطني سواء كان من تربة مشرقه أو مغربه فما أنا إلا كدوقلة المنبجي أنشد دائماً هذا البيت:

إن تَـتْـهـمـي فـتـهـامـة وطـنـي أو تـنـجـدي يـكـن الـهـوى نـجـدي

قالوا لي مرة حين كنت في مصر أيام لم تكن مصر كما هي الآن،

اجلس تجد لدينا ما تعيش به قلت: لا ولا فالأولى إن كنت صاحب المبادئ، فالمبادئ لا تؤجر وإن كنت تريدني عميلاً فلن أكون أجيراً والثانية ألا أبقى في بلد أن أكون الأخير من أهله ولست أملك فيه شبراً من الأرض، أبني خيمتي فيه، هناك وطني يسع الخيمة ولا أتردد على مانح الإِقامة، فقد أكون الواحد من ملايينه القليلة، إن الذي يعيش محصور الوطنية لا يعرف الجبل من السهل ولا الوادي من العين، لا يعرف قيمة بيت الشعر كيف كان المدد، وكيف منه تكوَّن الامتداد، هم قلة هؤلاء الغرباء عن الوطن مع أهل القربى فيه لكن أخشى أن يكون بعض التعالي أو التغالي يحدث الفصام بينما نحن ولله الحمد نعيش الوحدة الكاملة، هلك الفصام وتهالك الخصام، وما أحسن أن أنشد قول شوقي وهو الذي ولد تركيًّا يونانيًّا فلم يغترب عن مصر وإن غربوه بعض الحين عنها فقد قال حين صهرته الوطنية وأتعبته الغربة عن مصر قال:

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

وأمثال شوقي كثيرون لم يكونوا من الوطن صليبة وإنما أحبوا الوطن وهو جليبة كابن الرومي ومهيار.

ما انتهى الحوار مع الغريب عن وطنه لأجده بعد اليوم يعرف كل وطنه؛ لأنه أخذ درساً ليس مني وإنما من ثقافته حين اتسعت.

* * *

غربلة شاعرة . .

وأصبحت بانتشار العلم، وسعار القلق، وسرعة الاتصال، وتناقض الثقافات، ولكي لا تبهم عودة الضمير في (أصبحت)، فلست أنا الذي أصبحتُ، وإنما هي بنت العشرين، ليست عالية الثقافة ولا غالية التطلع، ولا هي المولعة لتبرز طليعة لذاتها، ولكنها غربلت من حولها، أحست ما حولها، نثرت كلاماً فيه بعض الألم ونشدان الأمل ونشيد التغني بحياتها وشبابها.

غربلت حين فاضت شجونها، وما نسيت شؤونها فأزجلت، أفليس الزجل شعراً يطيب لمن يفهمون ويغيب عن ما لا يتفهم؟

قالت:

(قالوا علماً في علم النفس سر نجاحك ثقة في النفس
أكتب وأشطب وأحاول أكتب وأشطب منها كلمة يأس)

وحين كتبناها بإظهار القاف. لأنه حتم علينا ألاَّ نكتب القاف المغلقة، بينما سمعناها قاف عامية وسمعها تلميذ فصفق كأنما يطرد اليأس، وكأنها وضعت في يده أرقام النجاح، لأنه في أسبوع الامتحانات، وليس في استطاعتها أن تملأ فؤاده بسر النجاح.

في هذين البيتين ألم يتخفى وأمل يتظاهر لا أريد للشباب إلا أن يكون صاحب، الأمل بنجاح العمل.

الخـــدم . .

والغربلة اليوم عن الخادم والخادمة. فقد كثروا، ففي المدينة والقرية، كأنما كل بيت لا يديره إلاَّ الخدم. وهذا أمر فرضته ضرورة الانشغال بالتعليم وما إلى ذلك. فهم ـ أعني الخدم ـ أمناء على ما نأكل، وما نشرب، وما نلبس. ونحن في الواقع ينبغي أن نكون الأمناء بحسن المعاملة لهم. فإذا ما أحسنَّا إليهم، لا شك أنهم يحسنون إلينا فلا ننكر ذلك، فإني لم أَعْنِ أن كلهم كذلك، ولكن كلهم هو ذلك، وسائق السيارة أمين على ما اؤتمن عليه، ولا أكاد أزيد، فحسن الظن أولى من الشك، ويزول الشك بالإحسان إليهم، ولنا في رسول الله سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، القدوة. فقد قال خويدمه أنس بن مالك: ما فعلت شيئاً وما تركت إلا قال ﷺ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. فما ضرب أنساً ولا وبخه، خلق عظيم، والرسول ذو خلق عظيم. وفي حديث آخر جاء إلى النبي ﷺ صاحبه سويد بن مُقرن، فقال للنبي ﷺ نحن تسعة أخوة وعندنا خادم فضربها أحدنا، فما كفارة ذلك؟ فقال النبي: كفارتها عتقها، عجيب، أيجب عتق الجارية إن ضربها سيدها! أحسب أن هذا ليس عامًّا. وإنما هو لسويد بن مُقرّن وإخوته التسعة، مؤمنون أكبرهم قائد فتح الفتوح، فتح نهاوند. ألا وهو النعمان بن مُقَرن وسويد كان معه، فالنعمان نعاه ابن الخطاب عمر على المنبر، فالأمر كما أتيقن أنه أراد لسويد

وإخوانه بعتق الجارية أن يزيد في إحسانهم.

وبعضنا اليوم يهين الخادم، فإذا هي مشكلة، فالخدمة ضعيفة والخادم غاضب حتى إنه يحدث في البيت الفصام، أو بعض الخصام، فريق مع الخادم، وفريق ضده، وما دام الشيء بالشيء يذكر، فهذا عبد الله بن عمر كانت عنده جارية ملك يمينه من حقه أن يلامسها، وكان يحبها حتى إذا قرأ قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران ٩٢) أعتق الجارية وكفل زواجها بغيره، لا ينفك عن رعايتها حتى إذا أنجبت طفلة أرسلتها إليه يضعها في حجره وعيناه تذرفان حناناً على الطفلة وأنيناً لبعد الحبيبة ولكنه البر، ولكنه ابن عمر. فأين نحن اليوم من احترام أنفسنا حين نحترم الخدم، والله الهادي إلى سواء السبيل.

صـــــورة . .

ولا أدري أن تكون الغربلة مع الذي أراد ألا يخرج الزكاة إلا بالحيلة، أو مع ذلك الذي لا يعرف أن الزكاة من أركان الإسلام أو أكتب عن الهوان إذا ما صادف إنساناً لا يستأهل أن يهان، لا أدري بأيهم أبدأ أو عن أيهم أكتب فالأمر هكذا. فقد كان الثري يعرف أن الزكاة ركن من أركان الإسلام فأراد أن يخرجها فاستكثر المبلغ الذي كان عن المال المدخر، وعن التجارة وعن حصيلة العقار وعن كثير من العروض فأغراه الطمع أن يضع مائة ألف ريال وأكثر حصيلة الزكاة في كيس من الأرز وأرسل إلى فقير يدعوه إلى أخذ الزكاة وقال له خذ هذا الكيس من الأرز صدقة زكاة، وفرح الفقير فأمسك بالكيس يريد أن يسحبه فقال الثري هو ثقيل عليك أنا أشتريه منك بعينه وهذه هي المائة ريال الثمن وكان مع الفقير ابنه فقال لأبيه: أنا أجر الكيس عنك لأتبعه فإن فيه الألوف. وأسقط بيد الثري وذهب الفتى بالكيس حتى إذا وصلا البيت فتحاه فإذا فيه الألوف، حيلة قد تنطلي على الفقير ولكن الله عليم.

وأما الآخر فيبيع الفحم، ساكن في الخرابة كدس فيها أكثر من خمسين كيساً من الفحم يستدين المحتاج منه يبيعه الكيس بثلاثة ريالات ثمناً مسجلاً بوثيقة ثم يشتريه في الحال بريال يكون الريال لقضاء الحاجة بينما الدين

ثلاثة ريالات.. وعرف شاب ذكي أن صاحب الفحم يضع الريالات في كيس من الفحم صغير يستند عليه ينام عليه كمخدة حرصاً على المال فجاءه الشاب وقال له بعني كيساً من الفحم ولكن لا يكون الكيس إلا هذا المبارك الذي تحتفي به. افرض قيمته أشتره. فقال بائع الفحم: أنت عفريت، الكيس كله ريالات. اذهب لا تكن «حرامي» على صورة المشتري سأترك الخرابة والفحم وأهرب بجلدي ومالي مادام الشياطين عرفوا ما أكتنز ما عاد يصلح لي هذا الحوش. ولم تمض أيام حتى مات بائع الفحم ولا وريث. بيت مال أحق.

أما الهوان فقد جاء أخيراً كنت هدفه، أما كيف كان فالأمر سر يفضحه المتنبي بقوله:

مـن يـهـن يـسـهـل الـهـوان عـلـيـه مـا لـجـرح بـمـيـت إيـلام

فليدع القارئ التفسير، أليس ذلك من اليسير والأمر كما قال المثل (المرء حيث يضع نفسه)!.

«الأدب»

والأدب أحسب أن الأصل فيه التربية والتهذيب كما هو في الأثر من كلام خاتم الرسل سيدنا محمد بن عبد الله: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» فإذا الاستعارة تأخذ التربية والتأديب إلى تربية العقل وتأديبه بالمعرفة التي حصرت أول الأمر على الشعر والنثر والتاريخ والسيرة غير أنها اليوم ـ أعني كلمة الأدب ـ منذ أصبحت الثقافة تأخذها، فكل مثقف أديب وليس كل أديب مثقفاً ليكون هذا الوضع في كلية أخرى. بعض الأدباء مثقفون، وكل المثقفين أدباء. وهذه المقدمة لما يتلوها، فقد قرأنا في أيام التلمذة هذه القصة عن الحجاج قالوا لما وضع الحجاج العسس يحرسون سبل الكوفة، فإذا هم في ليلة ليلاء يمسكون بثلاثة من الشبان يتسكعون عابثين.. فسألوهم واحداً بعد الآخر.. من أنت فقال الأول:

أنا ابن الذي خاض الصفوف بعزمه وقومها بالسيف حتى استقامت
ركاباه لا تنفك رجلاه عنهما إذا الخيل في يوم الكريهة ولت

فقال الحارس إنه من فرسان العرب. وسألوا الثاني فقال:

أنا ابن من دانت الرقاب له ما بين مخزومها وهاشمها
تأتيه بالرغم وهي صاغرة يأخذ من مالها ومن دمها

فقال الحارس إنه من أشرف العرب وسألوا الثالث فأنشد:

أنـا ابـن الـذي لا تـنـزل الـدهـرَ قـدرُه وإن نـزلـت يـومـاً فـسـوف تـعـود
تـرى الـنـاس أفـواجـاً إلـى ضـوء نـاره فـمـنـهـم قـيـام حـولـه وقـعـود

وأخبروا الحجاج عما جرى فسمع الشعر وسأل عنهم من يعرفونهم فإذا هم ابن الحائك وابن الحجج وابن الفوال، فقال الحجاج لقد انتفعوا بالأدب فهو لهم حسب يرفع.. فعلموا أولادكم الأدب، لأن الحجاج كان خطيباً وأديباً فهو أحد الأربعة الذين كانوا في زمانهم لا يلحنون: عبد الملك بن مروان وابن القرية والشعبي عامر بن شراحيل والحجاج.

الجـــريمـــة

والغربلة اليوم مع الجريمة. لا أكتب عنها وهي الظالمة بيد فاعلها، لا أذمها الآن وإن كان اسمها هو الذم نفسه.. وإنما غربلتي لها الغزل معها حين انقلبت تأخذ فاعليها. فالله عز وجل ليس غافلاً عن الظالمين يأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما هو في القرآن الكريم وفي السنة الصادقة «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» فما هي الجريمة التي أعني؟

إنها التي عانى منها الفلسطينيون، جريمة يهودية، إنها ترحيل «الفلاشا» اليهود من الأحباش رحلوا من الحبشة «جياعاً» وترحلوا من السودان إلى فلسطين «ابتياعاً» فما هي الحكاية؟. فلئن كان أخذ الجريمة إذلالاً لواحد يسقط من مكانه لأنه باع اليهود لليهود بل باع العرب لليهود، ولئن أخذ الثاني سمساراً قابض المال بذل الفضيحة؛ فإنها بالأمس أخذت الظالم الأول ليهلك في موطن الفلاشا الأول في جبال الحبشة وأحراشها، فالأول كان رأس دولة ضاع حين اتضح والثاني سمسار مال اتضح حين افتضح والثالث أجير ولو تزعم في شعبه، قالوا عنه إنه الزعيم الأول الذي خطط لجريمة التهجير لترحيل اليهود السود إلى تل أبيب ليكثر سواد اليهود في فلسطين، وليكونوا يد القط يحرقون حين يتناول اليهودي الأبيض الخزري السلافي «الكستنة» أبو فروة وليس هو ثمر الشجرة وإنما هو تراب الأرض

ودم الطفل الأرض فلسطين وطفل الحجارة المسلم يسأل أين المسلمون؟ والعربي كذلك، فالجريمة تأكل صانعيها حين أكلوا الضعفاء تأكلهم بأمر نقمة من الله ما كانوا يحسبون حساباً لزوال النفوذ بل وزوال الحياة.

والفلاشا الآن لعلّهم نادمون؛ لأنهم آلة الجريمة. أصبحوا العبيد طعاماً للمذلة، بل يهوديًّا يعيش للحقد فلا يحترم الحياة ويمارس كل ما يهلك الأحياء من غير اليهود، لكنها الجريمة لا بد من أن تأكلهم ولن ينقذهم شجر الغرقد حين ينقطع عنهم الحبل من الناس.

صـــور

والغربلة معي اليوم على صورتين، فالأولى هي التي عبَّر عنها الكاتب العربي الشاعر أديب إسحاق، الذي نصَّب نفسه يترجم ما أعجبه من كلام الفرنجة، أو هو المعبر عما أتعبه من الكلوم التي مارسها الاستعمار على شعبه وأرضه، فلقد حفظنا له هذين البيتين وهما:

قـــتـــل امـــرئ فـــي غـــابـــة جـــريـــمـــة لا تـــغـــتـــفـــر
وقـــتـــل شـــعـــب آمـــن مـــســـألـــة فـــيـــهـــا نـــظـــر

فالشعب الفلسطيني يُذبَح بسلاح اليهود ولا أحد يتحرك؛ لأنها مسألة فيها نظر، نظرة إلى حقد اليهود على المحمدي، فحقدهم على الإسلام سببه الحقد على محمد ﷺ، وأخزاهم الله، وحقد الآخرين على أحفاد صلاح الدين. أما قتيل الغابة فهو الطفل أمجد المحمدي العرق والدين، والأرض واللغة، فلو لم يحمل الجنسية الأمريكية لما تناولت أخبار الإذاعات قتل هذا الفتى، جريمة لا تغتفر لا هي جريمة وقت، فاليهود لا يحاسبون عليها حساباً يمتنع به السند لهم، وإنما هي ضجة إعلامية كنوع من احترام الجنسية أو كزوبعة في فنجان، ولا أظن أن اليهود يعتذرون عنها، فما اعتذروا لجنود الإنجليز شنقوا على الأشجار، وما اعتذروا عن برنادوت، فما زالوا أباطرة الدنيا يحتزمون بحبلين إمبراطوريين. حبل الذي

يمدهم بالرجال. وحبل الذين يساندونهم في كل مجال.

أما الصورة الثانية فهي على طريقة الشيء بالشيء يذكر. فما دمنا مع أديب إسحاق فلنتطرق قليلاً نكتب عن ترجمة لكلمة قالها نابليون بونابرت الإمبراطور الذي وصل إلى قمة العزة ثم انحدر إلى ذلة الأسر، هذا الإمبراطور دوّخ كل أوروبا ولكن امرأة واحدة دوّخته إنها (جوزفين) فمن حُرقته قال يصف المرأة (فتش عن المرأة) يعني أن كل حدث فيما تصور سببه امرأة، وما أكثر ذلك والكلمة «فتش عن المرأة» ترجمها أديب إسحاق هكذا:

إذا رأيـــــــت أمـــــــوراً مـــنـــهـــا الـــفـــؤاد تـــفـــتَّـــتْ
فـــتـــش عـــلـــيـــهـــا تـــجـــدهـــا مـــن الـــنـــســـاء تـــأتَّـــتْ

ولعلّه عبَّر عن ماري أنطوانيت ضحية الثورة، وعبَّر عن نفسه ضحية الغطرسة الإمبراطورية التي هزمتها امرأة.

أمن الحرمين.. يتصدى ولا يتعدى

والسؤال أطرحه. دعاني إليه الوقت وقد أقبلت الأشهر الحرم. تستقبل الحجيج. شدوا الرحال إلى أداء الحج وإلى الصلاة في المسجد النبوي.

فالحديث عن ذلك كإجابة لهذا السؤال. لا أريده قاصراً على هذا الوقت الذي برز فيه تحدي كهنوت مسلم لأمن الحرم، فليست العقيدة تأمر بذلك. فالمسلم أخو المسلم والحرم أمن المسلم وأمن الحرم أمان للمسلمين.. يؤدون فريضة الحج.

لقد كثر الكلام عن نوايا العابثين في هذا الوقت. كأنما هي العودة إلى ما جرى من زمن بعيد.

فمن اليوم الذي اغتالوا فيه ذا النورين والذي خرج فيه كريم الوجه من المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى فما زالت المدينة المنورة ومكة المكرمة عصمة المسلمين؛ لأن الحرمين هما العصمة والاعتصام.

من ذلك اليوم لم يشهد الحرمان الشريفان الأمن من عبث الفصام والخصام، فالأمن في حياة النبي سيدنا محمد خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام،. وفي عهد الخليفتين بعده سيدي أبي بكر وسيدي عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، هذا الأمن قد أُهدر بعد اغتيال عثمان رضي الله عنه كما ذكرت، فحياة عثمان أولها همٌّ كمن سبقه وآخر حياته خرابها.

فما بنيت الأسوار إلا لصد العابثين حتى إن ملوك الطوائف بنوا المساجد والأسوار، وعجزوا أن يبنوا الأمن، ففرضوا الإِتاوة، للتأمين، وكذلك الخفارات، حتى إن الفقهاء أجازوا الخفارة للضرورة التي دعت إليها ولإزالة الضرر الذي ما استطاع ملوك الطوائف أن يزيلوه حتى إن الدولة العثمانية وقد بلغت شأواً بعيداً عجزت عن صون أمن الحرمين.

الأسوار ما ينبت لصد الصليبيين والتتار إنما بنيت لصد العابثين الذين يحجزون الماء عن الحجيج ويحجزون الحجيج إلا أن يسلموا الإِتاوة وأن يخضعوا للخفارة، كل هذا أذكر به كهنوت إيران لأسأله وهم يعرفون صحة ما ذكرت هل اتسع الأمن في الحرمين الشريفين وسياجهما إلا بسيف الملك البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن؟!

بايعه العالم الإسلامي في المؤتمر وبايعه أهل الحرمين وكل القبائل في سياج الحرمين ملكاً على المملكة العربية السعودية أي على الحرمين وسياجهما.

ولم يكن ذلك اغتصاباً منهم، ولا اعتصاباً منهم، وإنما كان احتساباً لله، تقديراً للأمن الذي أشاعه. أتحدى من يزعم أن الحرمين شاع فيهما الأمن حتى هدمت الأسوار قبل عهد عبد العزيز بن عبد الرحمن تغمده الله برحمته.. سل سيفه، وأعد الجريد الأخضر فإذا الأسوار تهدم وإذا الأمن يهدم وإذا ابنه فهد يتشرف بأنه خادم الحرمين الشريفين.

وليست الخدمة بفرمان سلطاني. وإنما بحرص المؤمن أن يكون ذلك. صوَّاناً للدولة. حفيظاً على الأمن، فأمن الحرمين الشريفين الآن الذي لم يكن مثله قبل الآن إلا في ثلاثين عاماً من القرن الأول أصبح يتصدى لكل باعث، ولا يتعدى.. يرفض التحدي؛ لأن عون الله رب البيت هو الذي

جل جلاله أهلك كل من تحدى، وكل من تعدى، بما جند من جنود سواء كان الطير الأبابيل أو الرجال المؤمنين.

فعبد العزيز بن عبد الرحمن كان من جند الله. وما يعلم جنود ربك إلا هو.

تحية لكل مسلم أطاع الله.. وبعداً لكل من يعصي الله.

العاهل . .
والشاعر في الجاهلية

والعاهل هو سيف بن ذي يزن الملك في التاريخ، والزعيم بلا ملك حين صنع التاريخ، والشاعر هو الملك الضليل ذو القروح امرؤ القيس، فحين نستقرئ التاريخ، نجد سيف بن ذي يزن يعاب، وإن جلب الفرس يحكمون اليمن، ولكننا نجد امرأ القيس لا يثاب ولا يعاب؛ كتبوه شاعراً وكتبوا قصة رحلته إلى أنقرة يطلب المدد من قيصر الروم «إنا لاحقان بقيصر» يرجو منه أن يثأر لأبيه حجر بن عدي آكل المرار، كندي، عرف أن في قحطان ملوكاً، فكيف لا يكون حاملاً لقب الملك على قبيلة عدنانية في عالية نجد اسمها أسد، قتلوه، فإذا امرؤ القيس ورث خاله المهلهل يريد أن يشعل الحرب على أسد، لم يجد عوناً من قبيل عربي، فخاله المهلهل جنّد تغلب على بكر ليثأر لكليب فإذا هي حرب البسوس، التي كدرت النفوس وجلبت البؤس على وائل كلها. فسيف بن يزن استصرخ الأكاسرة حين أثار حقدهم على الروم يريد منهم أن يعينوه ليطرد الحبشة من اليمن واستجاب المجوس يخرجون النصارى، فالأحباش كانوا مستقطبين لروما الشرقية. فما أشبه الليلة بالبارحة وطردوا الحبشة، فإذا التاريخ لا يعيب سيف بن ذي يزن لديه خدم من الجن (الراهق الأسود)

فصوروا أنه الفرعون الأول يصل إلى النوبة فيأمر الراهق الأسود أن يفجر الصخور ليعبر النيل مشمئلاً لتكون مصر من صنعة النيل مع أن سيف بن ذي يزن هو ذلك، فهو قريب من عصر عبد المطلب بن هاشم، لا جنية لديه ولا هو ذو جَنان يعمّر الجِنان من نيل مصر.

هذا مجد بن ذي يزن ما كان عيباً لديه ذلك، فأولاد جفنة أولاد عمه في الشام مستقطبون، وأبناء عمه في الحيرة مستقطبون وإن حملوا لقب الملك.

أما امرؤ القيس فما نجح مسعاه، فالشقة بعيدة على الروم وقبائل الصحراء لا ترضى أن يطأ أرضها رومي، ولكنه عاد وقد أصبح ذا القروح، أصابه الشجر يعني الزهري، أصابته العدوى من عدوانه على نفسه.

كان هذا الحال قبل الإسلام، فماذا صنع العرب حين أسلموا حين توحدوا؟ لقد صنعوا إمبراطورية عظمى نعرفها، فمازال الإِسلام في قلوب المسلمين من أهلها شرق الهيملايا وعلى شاطئ الأطلس وعلى الحزم من جبال (البرنات).

فالإسلام أعز العرب ورفع عنهم الاستقطاب حين حرر.

وخاطرة لا أنساها، ففي مدينة أصفهان وفي إيران أسرة تحمل هذا اللقب (ذو يزن).

إياكم وخضراء الدمن

والمسلم مهاجراً وأنصاريًا، كان يتعلم في مدرسة محمد، منذ تعلم محمد ﷺ الكلمة (اقرأ) على حراء نزل بها الوحي يحمله بأمر الله الأمين جبريل عليه وعلى نبينا السلام، حتى فتح الله علينا حين بلغه الرسالة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (المدثر: ١ ـ ٢) فإذا هو على جبل الصفا، كأنما الصفا المدرسة الثانية. لتكون المدرسة الثالثة وعلى الصفا أيضاً في دار الأرقم بن أبي الأرقم. ما أعظم عصمة الإسلام يُسلم الأرقم بن أبي الأرقم وهو من شماريخ مخزوم ليمنع أذى مخزوم عن رسول الله ﷺ. تلك حماية الله.

وفي مدرسة الصفا كان رسول الله ﷺ يعلّم أصحابه القرآن.. أحكاماً محكمة.. آمرة ناهية.. مؤدبة، أولها التوحيد والوحدة. وبعد ذلك (إنما المؤمنون إخوة).

وأنعم الله على رسوله بالمدرسة الرابعة، كانت مربداً وأصبحت مسجداً، هو مسجد النبي ثالث المساجد التي تشد إليها الرحال. فالمسجد الحرام هو القبلة السرمدية، والمسجد الأقصى القبلة الأولى كانت إكباراً لهذا المسجد من خلال الإكبار للأنبياء والرسل الذين صلَّى بهم رسول الله محمد ﷺ إماماً في ليلة الإسراء ليلة المعراج. كل ذلك نعمة من الله تؤمن بذلك دون تعليل أو تبديل. فالله على كل شيء قدير.

ففي هذه المدارس تعليم الأصول ـ كما قلت ـ وتعليم الآداب كإفشاء السلام والتيامن ورفع الأذى عن الطريق، وما إلى ذلك لكني أقف فيما أكتب اليوم عند أمره ﷺ (إياكم وخضراء الدمن). ولقد سأله أصحابه ليعرفوا هذا البيان في هذه الكلمة: وما خضراء الدمن؟ قال ذلك الإنسان الكريم ألا وهو إنسان الإنسانية في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) . يفسر لهم خضراء الدمن: (إنها المرأة الحسناء في المنبت السوء). فالدمنة تعبير عن البيئة.. عن حضانة التربية.. وعن حضانة التي رباها أهلها على كل ما هو حسن. فلم يتركوها لعوارض السوء تتخلق بها فتصبح زوجاً خلت عواطفها من المودة والرحمة، فالمودة والرحمة يتم بها بناء الزوجية، ونماء التربية، أما حسنها فلا يفيد إذا ما ساء خلقها، فالخلق لها ذات وجه حسن يكمل ويتم بالخُلق الحسن. ولا يعني المنبت السوء أن تكون فقيرة، فقد يكون الفقر معلماً وقد يكون الغنى إذا لم تصنه التربية هو منبت السوء.

كما أن أمره الثاني ﷺ يصبح التفسير لأمره الأول في قوله: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس».

ويعني هذا أن الأعراق الفاسدة يرث نسلها الفساد، ولعلّي أذكر حواراً بيني وبين شيخنا أستاذنا العلامة الشيخ محمد الطيب الأنصاري، فقد زرته يوم كنت شريكه في تدريس عقيدة السلف. كأول مرة تدرَّس فيها هذه العقيدة في المدرسة السعودية في المدينة المنورة، كلفه بذلك رئيس القضاة حفيد الداعية المصلح محمد بن عبد الوهاب، ألا وهو الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ، حتى إذا جلست في مجلسه ورأيت طفل ابنه ـ ألا وهو الدكتور عبد الرحمن الأنصاري كبير الشأن الآن ـ وقد كان هذا الابن عليه

أثر احمرَّ به جبينه، فقلت له إن هذا سيزول بفضل الله ولا تخشَ، إنها وراثة فأنت سليم من ذلك. ونحن أخواله نعرف سلامة أمهاته وخالاته. فقال يرحمه الله أنا لست مؤمناً بالوراثة، قلت: بل تؤمن بها: وإنك لتعرف قوله ﷺ: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» كما تعرف قوله: «لعلّه عرق انتزع» فقال رحمه الله: أهذه هي الوراثة؟ قلت: نعم، قال آمنت بالوراثة.

وهكذا، كما في النساء خضراء دمنة، ففي الرجال خضراء دمنة، وأيهما الآن أكثر؟!

كَلمة وكُليْمَة

وليس بدعاً أن أستعير من الرافعي عنوانه بل هو الاتباع لعلم من أعلام البيان مسلماً تحت راية القرآن كان عزه أن كان فقيراً، وكان فقره أن وهبه البيان، وكان ذخره أنه كما قال الدكتور عبد الوهاب عزام حين رثاه بكلمة (كاتب لا يذكرك بأحد ولا يذكرك به أحد.. عمري النسب) يرحمه الله. فعنوان أستعين به على أن أكتب الكلمة كليمة تطير بجناحين، فلأبدأ بقول الإِمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

قال: إذا أقبلت الدنيا على أحد.. ألبسته محاسن غيره وإن أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.. ليس هو، الكثير على الإمام كريم الوجه أن يصف الدنيا بهذا الوصف فقد حلب شطريها واعجبوا من لغتكم الشاعرة بين الكلمة «ألبسته» وبين الكلمة «سلبته».. حروف واحدة القلب والإبدال قلب المعنى وبدله..

وكلمة على هذه لها الحكاية.. يوم لبسنا العقال المرعزي الأسود وتركنا العقال «المقصب» بقي اثنان أحدهما ثري أمسك بعقال القصب يلبسه ولا يخلع، كأنه حفظ ما ألف وآخر لا يلبس جُبة ولا عباءة ولكنه تمسك بعقاله المقصب، وصادف أن مر اثنان يدخلان من الباب المصري يذهبان إلى المسجد، فإذا ألسنة تنطلق (شوفوا الأفندي كيف العقال حلو على

رأسه) وقال آخر «حلاوة العقال من حلاوة لابسه» وحتى إذا مر الفقير قال أولئك شايفين العقال على رأس مرزوق البدوي وهو يقول له اخلعني فالعقال ما هو قابله.

وقال آخر إنه وارث العقال عن أبيه، أما الأفندي فخلع العُمة.. وتزين بالعقال وسمعت قولهما فإذا بي أتذكر الكلمة «ألبسته» والكلمة «سلبته».

وكلمة أخرى هي للإمام علي، رضي الله عنه، قال: الناس ثلاثة، عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق.

وبعد ذلك أُعيد نشر كلمتي (ليس الحرمانُ ألاَّ تجد وإنما الحرمانُ أن تفقد ما وجدت).

غورباتشوف في الصين
سلم المصالح لا حرب المبادئ

والانفراج في العلاقات الدولية سلط على وجود إمبراطور الكرملين.. ميخائيل غورباتشوف في الصين شيئاً من الاسترخاء، فلم يكن قد أحدث ضجة عالمية، ولم يكن خروجاً أحدثته المفاجأة وإنما كان حدثاً لم يكن وليد الانفراج وإنما هو من صناعة السلم تفرضه المصالح.. فقد ذهب خشية الحرب بين الصين وروسيا يوم كانا في حزام الشيوعية المحضة.. «بلشفية» ستالين و «منشفية» ماوتسي تونغ وشون لاي. يوم كان التوتر بينهما جلبه الاختلاف الأيديولوجي تنبأ برتران راسل المؤرخ الإنجليزي به بما كتبه في نظرية ذات شقين حيث قال: «لن تقع حرب بين إمبراطورية الكرملين وإمبراطورية البيت الأبيض، لأن خلافهما على المصالح.. ففي الإمكان المصالحة من أجل المصالح. ولكنها الحرب ستقع بين الصين وروسيا لأنها حرب على المبادئ.. فالأيديولوجية لا تخضع للمفاوضات وإنما إخضاعها بالحرب»..

ومضت ثلاثون سنة والتوتر على صورتيه: صورة الخلاف المذهبي، صانع الحرب، وصورة اختلاف الجارتين على الحدود.. فالصين لا تطيق تسلط النفوذ الروسي على منغوليا وكوريا الشمالية وتخشى على منشوريا وعلى التركستان الشرقية.

فالمبادئ قد انتهت.. فإذا الرغيف والدولار يطردان المنجل والمطرقة.. فإذا الفروع تنبت على الجذور وإذا الانفتاح على الغرب اقتصاديًّا يقرّب بين الصين وروسيا.

كلاهما قد تخلى عن العزلة والاعتزال. فإذا غورباتشوف يمد يده إلى واشنطن وإذا ريغان يبسط يده إلى غورباتشوف.. وإذا غورباتشوف يبتسم للصين، وإذا الصين تستقبل غورباتشوف، فحين زال التوتر المذهبي انطلق الوفاق من أجل الرغيف والدولار فلا توتر ولا قطعة وإنما هو تطبيع العلاقات..

فلئن سبقت الولايات المتحدة الاتحاد السوفياتي في مصالحة الصين.. فإن الاتحاد السوفياتي قد وضع المصالحة الأمريكية الصينية موضع التنفيذ حين مشى إلى بكين من أجل السلم لصيانة المصالح، ورفض الحرب تفرضها صولة المبادئ..

إن تاريخ هذه الأيام سيعطي غورباتشوف أنه صانع الانفراج العالمي ولن يبخل على الصين والولايات المتحدة بأن استجابتهما للسلم سيكون منها الخير إذا صدقت روسيا بترك الأفغان والاسترخاء مع كوريا، وإذا اتضح لأمريكا خطأ موقفها مع العرب، وإلاَّ فالسلم بين الأباطرة قد تلعب به الأحداث الصغيرة من هذه الحروب الإقليمية التي ما زال الاتحاد السوفيتي يمارسها على الشعوب الضعيفة ومازالت الولايات المتحدة تمارسها لحساب اليهود على الشعوب العربية ولا تسأل عن صداقة العرب الذين ملكوا طاقة الصبر حتى الآن.

وهكذا صحّت نظرية برتران راسل. فإذا السلم تفرضه المصالح وإذا الحرب قد يفرضها خطأ المبادئ.

ولعلّ من الصواب أن نستدرك حول التعريف للبلشفية والمنشفية التي أول ما سمعت عنهما وأنا نائم على كرسي القهوة في المعلاة إبان الصيف، وجاء من ينادي «كابوس، كابوس» فإذا هو رجل هندي طلبته وأجره نصف ريال للمساج «الكابوس» وأخذ يتحدث عن الشيوعية فعرفت منه البلشفية والمنشفية ولم يفسرها التفسير الواسع ولكن صديقنا ومن أملي عليه يفصل لي الفرق بينهما.. فالبلشفية تعني الأكثرية داخل اللجنة المركزية للحزب والمنشفية تعني الأقلية.. وقد برز المصطلحان عند انقسام الحزب الاشتراكي الديمقراطي قبل الثورة أي الشيوعي بعدها.

قالوها . . فلنقل عنها

وقالوها فلنقل عنها. . وتلك كلمات جاد بها عقل المفكر إنساناً لم يأكله تعصب الكهنوت ولم يتآكل على كرسي الاعتراف فلأقل عنها. . لا أتخير ولا أتحير بدقة التوقيت وإلى القارئ شرح ذلك. . فلقد قرأت للعلامة السلفي السيد محمد رشيد رضا الطرابلسي اللبناني المصري. . فقد ذكر أن مفكراً ألمانيًا يعرب عن فرحه بأن الإِسلام لم يصل إلى شعبه ولم ينتشر في أوروبا. . قال: لو لم تشتعل حرب صفين بين علي ومعاوية ولو لم تنتشر الفتنة حين ذاك لوصل العرب يحملون إسلامهم إلى أوروبا كلها. . وكأنما السيد رشيد رضا أورد هذا الخبر في حسرة العالم المسلم الذي كان يحب أن ينتشر الإسلام في أوروبا وما إليها، ولعلّي حري بأن أقول: إن معاوية وقد استقر له الملك في الشام لم يتأخر عن نشر الفتح، فالمغرب كله حتى الأندلس كان في عهد بني أمية والمشرق حتى شمال الصين عن التركستان الشرقية كان بقيادة الباهلي قتيبة في عهد بني أمية. . بل حاصر الجيش الأموي مرتين القسطنطينية أي إنه حجز إمبراطورية القيصر. . تلك حقيقة التاريخ لا تحجز العواطف، ولا تشفع للفتنة، فليت الفتنة لم تكن. . وفولتير الفيلسوف الفرنسي وقد كان ملحداً يسخر بالكهنوت ويرفض كرسي الاعتراف، لكنه وهو يعرف فلسفة التاريخ ومسيرة التاريخ. . وتاريخ الفلسفة قال الكلمة كلها الثناء على محمد رسول الله ﷺ لم يكن مؤمناً به وإنما كان

معظماً له.. كفرت عواطفه وما أنكر عقله، فقد ذكروا له لوثر وكالفن وهما اللذان سخرا من كهنوت الكاثوليك ورفضا طاعة البابا، حين ذكرا هذين له كمؤسسين للبرتستانتية مذهباً جديداً في النصرانية يخرجان به من صكوك الغفران وشراء النار وبيع الجنة ذكروا له هذين فقال: دعونا من هذين إنهما لا يصلحان حذاءين «لنعال محمد».. كلمة عقل لم تنحرف بها عاطفة ولو كانت ملحدة، فالإلحاد ليس عقلاً بل عاطفة بل إن عاطفة الملحد هي إيمانه بالفكر الذي ألحد به.

والمؤرخ الإنجليزي توماس كارليل في كتابه عن الأبطال هداه عقله المؤرخ المنصف ألا يرى البطل كنبي بينما هو مسيحي إلا محمداً النبي.

فقد قال محمد مخلص والمخلص لا يكون كذاباً، الكذاب لا يستطيع أن يبني بيتاً من الطوب ومحمد بنى بيتاً ضم ربع سكان الأرض.

والكاتب الشهير جورج برناردشو وقد كان على الذروة بن الكاتبين العالميين قال حين وصل إلى الشرق الأقصى: لو لم أعرف أن الإسلام ورسوله محمداً حقيقة واقعة لأنكرت تلك الحقيقة حين أرى المسلمين اليوم على حال ليس كحالهم الأول..

والأمريكي دكتور فان ديك عميد الجامعة الأمريكية في بيروت رفع صوته يقول لطلابه (أشهد أن القرآن كلام الله.. ليس هو كلام محمد.. لأن محمداً حين نزلت هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ (المائدة: ٦٧) صرف حراسه فلم يعد يحرسه أحد لأنه مؤمن بأن حارسه الواحد الأحد.. فلو كان القرآن من عنده لما صرف حراسه.. إنه رسول لا يكذب).

وأمريكي آخر بالأمس القريب ترجم كتابه أنيس منصور عدّد عظماء الإنسانية مائة فلم يجد أولهم إلا محمداً.

أليس من الحق أن نقول إن هؤلاء الكافرين بمحمد سخرهم الله ليعلموا الذين لم يعرفوا أن رسول الله محمداً خاتم الرسل ﷺ مبعوث من الله رحمة للعالمين؟

هؤلاء ما أفرطوا بتزيّد القول وما فرّطوا بعدم القول الحق.

محمد رسول الله منّ الله عليه حيث أكمل الدين وأتم النعمة وحيث مرة أخرى أدى رسول الله الأمانة وبلغ الرسالة ﷺ.

الدفاع عن شيخين

ومنذ أصبحت الناب لم أتقاعد في عطلي الذي لا يسعني غيره؛ لأني أصبحت أمشي إلى كل عطل لا تحملني رجلاي وإنما هي عواطفي وثقافتي تحملاني إلى كل عطل أي إلى كل وطن عربي، فمنذ كنت الناب أيضاً وعلى هذه الصورة التي شرمت أصبحت وأمسيت أتذوق المعرفة وأتعضد بالثقافة وأجتر السالبة لأفتر عن الإيجاب. فهذه المقدمة إعلان عن حوار جرى بين متعنتٍ على شيخ الإسلام ابن تيمية وبين معنفٍ يرزأ علم الخوارزمي محمد بن موسى بأنه تافه.

وهذا المتعنت تنفج بادعاء المشيخة، فحين بدأنا ندرّس تلامذتنا عقيدة السلف في مدارسنا وفي المدينة المنورة فإذا هذا المتنفج يقول: إن التوحيد هو التوحيد عقيدة الإسلام، فمن أين جاء ابن تيمية بهذا التقسيم أو التفريع (توحيد الربوبية ـ توحيد الألوهية ـ توحيد الأسماء والصفات)؟ قلت: إن شيخ الإسلام قوي العارضة واسع الاستعراض إذا أنكرت التقسيم هذا فما برهانك! أما شيخ الإسلام فما أكثر ما برهن، أن ترفض هذه الحقيقة، لأنك لا تحترم الأولين، وما كنت في هذا الحوار معه قد وافتني الحجة الدامغة وحسبتني غُلِبْت إذ انتصر عليّ فإذا بي أنا على مدى سنوات أجتر هذه الواقعة وفي ركعة من صلاة جهرية قرأت سورة الناس فإذا بنور القرآن

يشرق لأفتر عن البرهان وأذيعه في حديث متلفز، فهذه السورة فصلت أقسام التوحيد (قل أعوذ برب الناس.. توحيد الربوبية، ملك الناس.. توحيد الأسماء والصفات، إله الناس.. توحيد الألوهية)، ومن حسن الحظ أن وجدت السند لهذا الفهم من أستاذنا مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الدكتور عبد الله بن المحسن التركي وأعجبه أني سألت في هذا الحديث هل ما جاء في سورة الناس ورد في براهين شيخ الإسلام، فقال لي الدكتور لم أعثر على ذلك فرحت بهذه الحجة ولو أدركت ذلك المحاور لكتبت إليه ألقنه الحجة ولكن عاجله أجله أسأل الله له الرحمة.

وامتد بي الفهم لأجد أن سورة الفاتحة فيها هذا التفريع وآية الكرسي فيها هذا التقسيم فلم يأت شيخ الإسلام بما لا حجة له فيه، فالقرآن هو الحجة الدامغة ولكننا كبعض الناس نجترئ على الأئمة بشيء من الاعتراض بينما هو الخطأ منهم والصواب من الإمام.

والشيخ الثاني هو شيخ الحضارة الوسيط إسلامية عربية ألا وهو محمد بن موسى الخوارزمي، فقد سمعت من متزمت لم يتخط حدود الطلب وإنما أخذ يتمطى قائلاً إن الخوارزمي وقد جاء بالجبر والمقابلة والصفر لم يأت بشيء كبير، فأنا الطالب في الثانوية أعرف ذلك بما هو أكثر سعة مما جاء عن الخوارزمي، قلت له لقد فاتك الانتماء وحرمت من الفخار، فمحمد بن موسى الخوارزمي بهذا الذي لم يستكثر ولم تستكبر ما زالت بصمته على كل علماء الفيزياء والرياضة، وحتى على انشتاين وحتى على نيوتن وحتى على الصواريخ وسفن الفضاء. إن الخوارزمي ما عق الانتماء إلى أقليدس اليوناني كما أن ابن سينا والزهراوي ما رفضا الانتماء إلى جالينوس وسقراط، وعلماء الغرب أنصفوا أنفسهم فحافظوا على الانتماء إلى علم

الخوارزمي وعلم ابن سيناء وابن رشد وعلم جالينوس وإقليدس، فثقافة الإنسان واحدة نحسن إلى أنفسنا حين نأخذ الأحسن والطيب بل وحين نعلم السالب والباطل حتى إذا علمنا ذلك استنرنا فرفضنا.

وتغضن وجه الفتى ولم يحر جواباً فتركته سائلاً له الهداية من الله.

العروبة انتماء للقيم!

وهذا العنوان يجعلني أفرق بين العروبة القيم وبين العرب القيمة، فالعروبة القيم ينحصر تعريفها بأنها الوطن، واللغة في وحدة العقيدة وتوحيد القيادة، ولا تسأل عن النسب، فالذين أشركوا وحاربوا الإِسلام كانوا عرباً، اعتزوا بالقيمة وتنكروا للقيم، أما الذين صدعوا بالإسلام وتوحدوا تحت رايته، سواء كانوا عرباً أو غير عرب فهم الذين أجدني داعياً بأنهم هم العروبة.

فالعربي النسب الذي احتضن العربي المستعرب هو الذي لم يتعال بالقيمة وإنما استعلت به القيم، إن سيبويه وابن المقفع من سدنة اللغة والبيان، فهما في ذروة العروبة، وأبو حنيفة والبخاري على الذروة، إمامان في الإسلام، وهما على السنام شامخان في العروبة. وبشار وابن الرومي وأبو نواس حين ورثوا شعر العرب نجديًّا وحجازيًّا، فأينعوا بالشعر في الصفحات البيض من ديوان العرب، لا يحسبون أعاجم وإنهم في ديوان العرب من قيم العروبة.

إن هؤلاء الذين ذكرت طليعة للألوف الذين فتحوا صدورهم للإِسلام، وتعرضوا بصدورهم للفتح، وامتلأت صدورهم بعلم اللغة وعلم السنة وفروع الفقه وتفسير القرآن. فمن هو أجل من الطبري مفسراً؟ وأعز من

محمد بن إسماعيل البخاري إماماً، حفظ السنة فحفظته السنة؟

فأرض العرب الوطن عروبة، واللغة الفصحى على ألسنة هؤلاء أعربت بهم العروبة، في ديوان العرب الشعر، وفي هذا الديوان النثر بالبيان والتبيين صانعه أبو عثمان الجاحظ.

ولعلّي أذكر ملحمة جاد بها شعر بشار بن برد حين فاخر بمضر، فقد كان مولاهم، فهذا المولى من قيم العروبة وقد فاخر بمضر بما لم يفاخر به مضري قبله، ولا حتى معه، ولا حتى بعده، أفليس هو القائل:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرْنا سيداً من قبيلة ذرا منبر صلَّى علينا وسلما

فهو أورث المنبر الذي هو منبر محمد عليه الصلاة والسلام وهو المضري، أورثه لمضر، فلا يعلو خطيب منبراً إلا وهو يصلي على خاتم الرسل صاحب المنبر المسلم، وفي هذه الصلاة ذكر الآل، كاد بشار يحصرهم في مضر بينما هم كل الركع السجود.

إن هذا التعريف للعروبة أقطع به ألسنة الذين يريدون حصر العروبة في النسب، مع أن العروبة كما ذكرت سبب وحسب، أي القيم التي نفاخر بها، والتي إن بقيت لنا تم علينا بقاء السؤدد. وهناك قول مشهور: من تكلم العربية فهو عربي!.

طرائف عن عبد الملك بن مروان

وإني وإن أحببت عصبية، فإني لا أتمذهب تعصباً، فالذين أحبهم لا يرضون لمن أحبهم البغضاء، فالعصبية شموخ العربي لا ينشعب بها عن قومه، ولئن أكتب عن عبد الملك بن مروان فليس لأنه الأموي وليس لأنه القرشي وإنما لأنه بكل ذلك كان الوسط بين القومية، فلم يبعثر بها قوة الفتح المسلم، ولم يتعثر بها في طريق إقامة الملك، فهو على حد تعبير خصيمه ـ وإن كان ابن عمه ـ ذلكم أبو جعفر المنصور حين قال (الملوك ثلاثة معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وأنا) يعني أنه ثالث الملوك، واستدركت عليه أنه كان معاصراً لرابع الملوك عبد الرحمن الداخل، أعاد ملك أمية في الأندلس بل أعاد للإسلام ملك الأندلس، لم يذكره المنصور وإن افتخر به يوماً حين سماه أو لقبه صقر قريش، فخر به قرشيًّا كأنما هو قد سلب بني أمية ثالث ملوكها وأخذه لمجد قريش..

وبعد هذه المقدمة أسوق طرفتين، فالأولى أنه كان صديقاً للإِمام عامر ابن شراحيل الشعبي، حين كان عبد الملك حمامة مسجد حين كان يتمنى أن يكون مع أبي خبيب صديقه عبد الله بن الزبير صداقة المسجد وخصيمه في الملك يوم أخذ العرش عبد الملك يخرجه من المسجد إلى عرش دمشق بل عرض الإمبراطورية الأولى في الإِسلام، وكان بين عبد الملك

وقياصرة الروم في القسطنطينية مواقف استطاع عبد الملك أن يتجنب شرها بدهاء الملوك وإن كان بعض من هم عنده طليعة طابوراً خامساً مع الروم، لم يكونوا مسلمين، فمن أخطاء أمية أنها احتضنت بعض نصارى العرب لا جزية ولا سيف، وأرسل القيصر إلى عبد الملك يطلب رجلاً يأتيه ليعرف عنه بعض ما يريده عن العرب، وأرسل عبد الملك صاحبه الشعبي حتى إذا عاد بعد لقاء القيصر وهو يحمل كتاباً من القيصر إلى عبد الملك وكأن الشعبي كالمتلمس ما فتح الكتاب حتى إذا سلمه إلى عبد الملك وقرأ وقال أتدري يا شعبي ما في الكتاب؟ إنه يقول عجيب لأمة فيها هذا الرجل فلا يتولى أمرهم وتوليته أنت، وأخذ الخوف من الشعبي مأخذه فقال عبد الملك: لا تفزع لقد حسدني عليك، فأراد أن يغريني بك فاطمأن الشعبي وطمأنت أخلاق الملوك..

والطرفة الثانية عن الحجاج وإبراهيم بن طلحة كما يلي:

عبد الملك بن مروان اشتد عجبه أو هو تعجبه من ثناء الحجاج بن يوسف يوم تم له الأمر أميراً في مكة ولا أقول عليها.. اشتد تعجب عبد الملك من ثناء الحجاج على إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله.. لأن عبد الملك يعرف أن أباه مروان اتهموه باغتيال طلحة بن عبيد الله والد إبراهيم؛ فكيف أصبح ابن طلحة في طاعة الحجاج.. من طاعته لعبد الملك بن مروان.. وأخذ عبد الملك يفكر ماذا وراء ابن طلحة، أهو مخلص في طاعته أم هو التخلص من عسف الحجاج، فأرسل عبد الملك يدعو الحجاج ليصحب إبراهيم بن طلحة يصلان إلى دمشق يجلسان حوله حتى إذا وصلا فأقبل عليهما يتلقى التحية منهم ويتلقيان التحية منه.. فالحجاج عامله وابن طلحة ابن عمه وصرف الحجاج ليختلي في خلوة لا يحضرها

أحد مع ابن طلحة ليسبر غوره ويعرف ما عنده.. عن الحجاج.. وتكلم عبد الملك فإذا إبراهيم بن طلحة لا يخفي ابن عمه قوة الحجاج وصلاحه للإِمارة..

ولكنه قال: كأنما هو يثير نخوة القرشي ليرحم مكة من عسف الحجاج فقال إبراهيم: لنعم الحجاج أميرنا تسد به الثغور، ولكن مكة والحجاز لا تطيق ولا يطيق الحجاز قسوة الحجاج، فمن حق البطحاء على ابنها أن يرفع سلطان الحجاج عنه وليوله مكاناً آخر..

وسمعها عبد الملك.. وبعث إلى الحجاج فاستراب إبراهيم يخشى عبد الملك أن يبوح بما أسرَّه له.. فيغضب الحجاج ولكن عبد الملك كان الملك فقال: يا حجاج لقد كان ثناؤك على ابن طلحة فهو يراك أهلاً لأن تسد الثغور وقد قبلت نصحه من ثقته بك ومن ثقتي أيضاً، فقد وليتك العراق وسرَّ الحجاج بأن يكون الثاني بعد زياد..

حصافة رَحِمَ بها ابن عمه وتراحمت مكة بما فعل وأعطى للحجاج فرصة العمر بل عمر اتساع الفتح للشرق، فالحجاج بكل ما عليه هو بكل ما له كان عاصم الفتح للشرق ردئاً وعوناً فإذا السند يفتحها ابن أخيه وإذا الشرق يفتحها ابن عمه ابن أخيه محمد بن القاسم وابن عمه قتيبة بن مسلم الباهلي، وهكذا أصبح عبد الملك مليكاً في تاريخ العرب والإسلام كما أصبح الحجاج بما عليه وبما هو له تتسع سيرته لتاريخ ما يؤخذ عليه وما يأخذه هو له.

من قتل عمر؟

ولبست ثوبي الذي لم أخلعه بعد.. ذلكم هو اللقب (معلم الصبيان)..

لبست هذا الثوب لأن صاحب الحرفة لا ينسى أن يحترفها ولو مضت عليه السنون.. فلقب الأستاذ لا أستأهله.. فأنا أذكر أحمد قنديل ـ يرحمه الله ـ حين قالوا له:

ـ لقد أبعدوا الرجل الجليل، وجاءوا برجل بديل.

فأنشد أحمد قنديل:

«ومن ركب الثور بعد الجواد أنكر أظلافه والغبب»

ومذ لبست هذا الثوب في لحظة باكية ضاحكة جمعت الأحفاط والأسباط أجتر معهم الحديث تلو الحديث.. فإذا هو يتشعب وإذا بي أسألهم وقد جاء ذكر عبقري هذه الأمة الفاروق أبو حفص ابن الخطاب عمر، رضي الله عنه.

وطرحت السؤال:

ـ (من قتل عمر؟).

فقامت طِفلة أو هي طَفْلَة.. فأجابت:

ـ طعنه مجوسي، ولكن القاتلين كانوا المجوسي شعوبيًّا والنصراني صليبيًّا واليهودي وراء الستار.

وألهمني جواب الطفلة أن أستقرئ التاريخ.. فأول الفقه أن عمر كان هو الباب الذي كُسِر.. ففتحت أبواب الفتنة.

انقاد الخيرون للأرذلين.. فهل يكون نجاح لشعب بعد كسر الباب من زعيم لا يحترم تراثه ولا يحافظ على ميراثه؟

فما أكثر البلاء بعد قتل عمر.. فكان ثواب الطفلة أن عبرت عن كثرة القاتلين..

فالذين عقوا أو انشقوا، والذين إن لم يقولوا كفرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات: ٢٤) ما قتلوا عمر مباشرة وإنما هم قتلوا وحدة الأمة، والعدل والرحمة.

فعمر يتسلم مفتاح بيت المقدس ماشياً، راجلاً، وثوبه عليه سبع عشرة رقعة.. فإذا بيت المقدس بعد زمن من قتل عمر يحتله الصليبيون، ولكن الله منَّ على عبد من عباده: عمري النهج، اسمه صلاح الدين طرد الصليبيين..

وجاء زمن نعيشه فإذا الذين يلبسون المترف من اللباس والزهو من الألقاب يسكتون عن احتلال اليهود للقدس.

وإن نطقوا بكلمة الإِسلام.. فالإِسلام مرة أخرى يعتز وينتصر بالحرب عليه.. لأن الحرب على الإِسلام تجمع أنصاره ليدافعوا عنه، فما زال في أمة الإِسلام من هم على الطريق.. والإِسلام مرة ثالثة ينهزم أتباعه بالفرقة

التي حدثت بعد قتل عمر، وينتصر إذا ما كانت القيادة واحدة والعقيدة واحدة، وهو الإِسلام: (بدأ غريباً وسيعود كما بدأ).

يقول الإِمام النووي: «سيعود منتصراً. نعم فالإِسلام كتابه القرآن. الذكر. والله هو الحافظ للذكر إلى يوم يبعثون»: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

علاقة السعودية ومنظمة التحرير

واختلفت الزعامة الفلسطينية في الجهاد ضد اليهود.. فلكل زعيم طريقة وما أحد ينكر إخلاصهم، ولكن هؤلاء لم يتخلصوا من خدعة أنهم الأقوياء حين يحاربون اليهود، وكان من الخطأ أن حارب العرب اليهود حرب دول مع أن الملك عبد العزيز نصح أن يكون الجهاد حرباً تشنها الشعوب العربية، ليكون ذلك المانع لتدخل الدول التي أعطت وعد بلفور أو هما الدولتان اللتان في الدقيقة الأولى أرسل كل زعيم لهذه الدولة وتلك اعترافه بدولة اليهود في فلسطين على أساس من قرار هيئة الأمم الذي صدر تعسفاً أو هو الذي استصدره من اشترى أصواتاً تؤيد هذا القرار.

وما انتصرت الدول العربية ولم يكن موقف الدول المؤيدة لليهود أكثر فعالية في انتصارات اليهود بل كان الانتصار الأول لليهود أن اختلفت الجيوش العربية في مواقفها و «ما يوم حليمة بسر».. كل هذا أعطى للفلسطينيين أن يستجيبوا لدعوة ياسر عرفات وإخوانه لتكوين منظمة فتح ولتتكون بعد منظمة التحرير وليبرز المجلس الوطني..

لو أنهم اتبعوا نصيحة الملك عبد العزيز لحاربت الشعوب العربية بالسلاح وبالمدد من الرجال: فلسطينيين وشاميين وعراقيين وسعوديين ومصريين وحتى من شعوب المغرب العربي التي كانت مستعمرة لفرنسا..

فكم للمغاربة من مواقف تُذكر فتشكر.

والسؤال هو: من احتضن منظمة فتح؟ من أعانها؟ إنها المملكة العربية السعودية.

إنه الملك فيصل. إنه الملك خالد. إنه الملك فهد.

وما كان ذلك طموحاً إلى زعامة ولا جموحاً إلى تأسيس إمبراطورية وإنما هو إلهام التراث واستلهام الميراث..

فهذا البلد ـ حرماً وسياجاً ـ عظيم تراثه فليعظم ميراثه.

فهل الملك عبد العزيز وأبوه العدناني وأمه الأزدية القحطانية لا يرجى منه إلاَّ أن يكون وارث المثنى بن حارثة ابن عم أبيه وارث عمر بن معد يكرب ابن عم أمه أو هو وارث عمار بن ياسر ابن عم أمه؟

وتأسست فتح، وكان السفير بين الملك فيصل وياسر عرفات بأسلوب السرية التي كانت جهيرة: «فهد المارك» يصل بالدعم وليس هو المال وحده وإنما هو الرأي والتوجيه لوحدة الاتجاه.

وكان ياسر عرفات موضع الثقة، فإذا هو يجمع إخوانه الذين ما كبروا به وما استكبروا عليه لأن لباس الكبرياء فيهم جميعاً هو الجهاد في سبيل فلسطين.. وليس بمستنكر أن يصدر المجلس الوطني قراراته طبق ما اختزنه ياسر عرفات من فيصل بن عبد العزيز، وطبق ما احتزم به ياسر عرفات من فهد بن عبد العزيز، فإذا الموقف اليوم ترجمة للفعل الصامت باللسان الناطق لسان دم «أبي الجهاد» ـ قرارات المجلس الوطني ـ انتقال هيئة الأمم إلى جنيف ـ عواطف السويد ـ يقظة الأوروبيين، فإذا إسحاق شامير في عنق الزجاجة.

لا أزعم أن ياسر عرفات لا يعرف المدد بالرأي من المملكة العربية السعودية وإن لم يعلنه ولكن لو لم يكن للسعودية رأي لما كانت لها هذه الرؤيا: لا تتأخر عن مدد المال.. كأنما عطاء المال للمنظمة امتداد لرأيها السياسي.

إن المجلس الوطني إذا ما قلت إنه احتزم بسياسة الملك فهد فذلك من المجلس الوطني جاء تصديقه لقرار مؤتمر فاس، وهكذا.. فليعرف العربي موقف الملوك في هذا الكيان الكبير كيف يسعى إلى وحدة الكيان الأكبر. الدعوة إلى التضامن. الدعوة إلى المؤتمر الإسلامي.

وأخيراً فأطفال الحجارة ودموع الأمهات عودة إلى حرب الشعب كأن ذلك فيه التصديق لرأي الملك عبد العزيز يرحمه الله.

وعن اليهود قالوا

ولدينا كتاب لم يكن للمؤلف صديقنا «عزت الفاتح» إنشاءً أو بحثاً وإنما هو الجامع من كثرة ما قرأ عن اليهود.

هذا الكاتب مثقف، عرفته صديقاً يوم كان متعاقداً في دارة الملك عبد العزيز.. فلعلّه قد جمع ما قاله رجال كبار عن اليهود ليبطل كلمة موشي ديان: «إن العرب لا يقرأون».. فجاء هذا العربي قارئاً جمّاعاً.. كأنما هو قد أعرب عن جمرة النار في فؤاده.. فأرسلت جمرات من النار على اليهود أرسلها في سجل التاريخ مارتن لوثر، نابليون بونابرت، جورج واشنطن، حاييم وايزمن.

لهذا عمدت أن أنشر هذه الأقوال في هذا الوقت العصيب، قال مارتن لوثر:

ـ «أن كثيرين من يهود هذا البلد يسيئون إليه إساءات بالغة ومن الضروري أن تعلموا بأن اليهود يكفرون بالمسيح وينتهكون حرماته كل يوم وساعة، لهذا سادتي الكرام أيها المسؤولون. وجب عليكم طردهم من بلادنا فهم أعداؤنا الداخليون الكافرون بيسوع الناعتون أمه الطاهرة العذراء بالعاهرة وابنها بالهجين بينما يصفوننا نحن بالمنحلين والخونة، ولو تمكنوا من إبادتنا جميعاً لما تأخروا عن ذلك لحظة واحدة. بل إنهم يفعلون ذلك

فعلاً مع كثيرين من إخواننا المسيحيين بواسطة أبناء ملتهم المتنكرين بأثواب الأطباء والجراحين الذين يتبعون في وصف الأدوية الطريقة الإِيطالية القديمة القاتلة بإعطاء المرضى بعض السموم بعيارات معينة بحيث تهلكهم تدريجيًّا».

وقال نابليون بونابرت الإِمبراطور:

ـ «يستحيل علينا إنقاذ اليهود من طبائعهم المتأصلة فيهم بالحوار، إنما علينا أن نعمل إلى سن قوانين خاصة بهم تميزهم عن الآخرين».

فما برح اليهود منذ أيام موسى يتعاملون بالربا ويضطهدون غيرهم من الشعوب، والثابت أن كل مواهبهم مكرسة لأعمال اللصوصية، حتى إن عقائدهم التي يؤمنون بها ويعملون تُبارِك هذه الأعمال وتشجع على كل ما يقترفونه من فعال مشينة.

وقد بات من الضروري أن نمنع اليهود من ممارسة التجارة تماماً كما نمنع أي جواهري من متابعة عمله إذا غش فباع ذهباً من عيار خفيف على أنه عيار ثقيل. ليس اليهود في الواقع سوى جحافل من الجراد والحشرات المؤذية تلتهم حياة فرنسا».

وقال حاييم وايزمن:

«ولد لينين في العاشر من نيسان ١٨٧٠م على حدود مقاطعة أوديسيا جنوبي روسيا لأب يهودي ألماني يدعى أيلكو سرول غولدمان وأم ألمانية يهودية تدعى صوفيا، وسمي صيام غولدمان عند ختنة حسب التقاليد الدينية اليهودية».

«ففيما يخادع الصهاينة الولايات المتحدة بدفعها إلى الاعتقاد أنهم يقفون

إلى جانب مصالحها يقوم الشيوعيون بدورهم بمخادعة العرب، بجعلهم يعتقدون أن الشيوعية تقف إلى جانبهم، ولكن الحقيقة هي أن الشيوعيين والصهاينة يشكلون عصابة واحدة».

وقال جورج واشنطن:

«يفوق تأثيرهم (اليهود) المدمر على حياتنا ومستقبلنا خطر جيوش جميع أعدائنا. بل إنهم أشد خطراً وفتكاً بمائة ضعف من ذلك على حرياتنا والقضية الكبرى التي نكرس لها جل اهتمامنا.. ومما يؤسف له ويؤلم في الوقت نفسه أن حيناً من الدهر طويلاً قد انقضى لم تحاول خلاله ولاياتنا كل منها على حدة على الأقل مكافحة اليهود والقضاء عليهم رغم برهنتهم على أنهم يشكلون مجموعة حشرات تفتك بمجتمعنا وتؤلف أكبر خطر يمكن أن يتهدد استقرار الولايات المتحدة وأمنها».

الحب نوال. . لا منال

والحب نوال لا منال، لعلّه تعريف محدث. حدثتني به أحلام اليقظة، ويتضح ذلك بتقسيم الغزل الذي هو أريج الأدب العربي يوم كان هذا الأدب هو الشعر، ما تعلم شعراؤنا العروض والقوافي في مدرسة على يد أستاذ، وإنما كانت المدرسة صحراءهم، وكان الأستاذ زهوهم بهذه الحياة لا يسألون عن ضيق العيش؛ لأن نفوسهم نعمت بالشظف تصانعوا به مع الطموح.

من هنا قسم الشعراء أنفسهم حين اقتسموا الغزل، فإذا هم ثلاثة. . عاشق النوال جمالاً يراه في الحبيبة، والجامح وراء المنال لا بد أن يأخذ الحبيبة، والمشرف يرى الجمال فيرسل الشعر يتغزل بالنوال، يتستر على المنال، فامرؤ القيس غزل منال من كل ذات نوال، فلندعه وإن كان هو قدوة الحداثة في هذه الأيام، والعذريون يعشقون الجميلة ولا يطلبون الوصال، لأنهم لا يجرون وراء المنال، يكفيهم أنهم عاشقون يملّون الوصال ويميلون إلى لهفة الهجر. فالهجر عند العذري هو اتصال الفؤاد بالنظرة العجلة إلى صاحبة النوال، فهم أجلّ من تغزل، حيث لم يتبذل، وما أحلى قول جميل بثينة حيث أطلق ألسنتنا ننشد منذ أطلق أفئدتنا نعشق، قال جميل:

وإني لراضٍ من بثينة بالذي لو أبصر الواشي لقرت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمنى وبالحول يمضي أواخره لا نلتقي وأوائله

هذه العذرية عابها المستعربون من الفرنجة ينعتونها ساخرين (بأنها استمناء عقلي) ولنعذرهم فهم لم يفرقوا بين الفضيلة والرذيلة، فالإنسان عندهم جنس وغريزة.

ويأتي أهل الوسط أحبوا النوال ولم يذهبوا بالمنال لأنهم لا يرفضون الوصال، وما أحسب إلا المنخّل اليشكري الذي تقادم عهده ولكنه مازال جديداً عند الذواقين الذين يشتمّون الورد ولا يعصرونه، قال المنخّل:

ولقد دخلت على الفتاة الخِدْر في اليوم المطير
الكاعب الحسناء تر فل في الدمقس وفي الحرير
فدفعتها فتدافعت مشي القطاة إلى الغرير
ولثمتها فتنفست كتنفس الظبي الفرير
وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري

أعرب عن النوال وصالاً وعن المنال اتصالاً بالرمز البديع.

وما دام هذا الغزل يغزلني في حلم يقظة، فليكن عروة بن أذينة ليس من هؤلاء الثلاثة لأنه ينفعل بالنوال جمالاً وكمالاً، فهو وحده قبل دوقلة المنبجي رأس في شعراء الغزل، هو إمام في الفقه والسنة عربي صليبة ومن التابعين ومن أهل المدينة المنورة، أنشر قصيدته التي تعجبني حلية في هذا المقال:

إن التي زعمت فؤادك ملَّها خلقت هواك كما خلقت هوى لها

فبك التي زعمت بها وكلاكما ... يبدي لصاحبه الصبابة كلها
ويبيت بين جوانحي حب لها ... لو كان تحت فراشها لأقلها
ولعمرها لو كان حبك فوقها ... يوماً وقد ضَحيَتْ إذاً لأظلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوة ... شفع الفؤاد إلى الضمير فسلها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها ... بلباقة فأدقها وأجلها
لمَّا عرضتُ مسلِّماً لي حاجة ... أرجو معونتها وأخشى دلَّها
منعت تحيتها فقلت لصاحبي ... ما كان أكثرها لنا وأقلها
فدنا فقال لعلّها معذورة ... من أجل رقبتها فقلت: لعلّها

وأنشد الجواهري الشاعر المسكين هذا البيت (بيضاء..) فدمعت عيناه (شوها البدوي بلا سروال، نوره حطب، ينام أول الليل، يقول هذا الشعر، والله إن أعظم مودرن في باريس لا يستطيع أن يقول مثل هذا).

قومية العرب ومراحلها

ولئن قلت من قبل إن القومية شعوبية العرب والشعوبية قومية الفرس فإني اليوم أتطرق في وضوح عن مراحل القومية العربية؛ لأن هذا النعت أو هذه العزوة لم يتحدد لها وضع بعثر العرب إلا بعد أن انتقضت وحدتهم فإذا هم المسلمون نعم وإذا هم يعودون إلى القبلية أو حتى الأسرة أموية عباسية وفي المقابل علوية بعد أن كان العباسيون والعلويون قبالة بني أمية هاشمين قبالة عبشمين، جدهم واحد ولكن جدهم اختلف ولكن وجدانهم لم يأتلف، فالعرب قبل الإسلام لم يعرفوا لقب القومية تجمع قبائلهم، وإنما كل قبيلة قوم، ففي العهد السحيق قوم عاد، قوم هود، وما هم إلا عاد قوم هود، قوم صالح حتى إذا بادت عاد وهلكت ثمود عاد النسب إلى الجد دونما كلمة قوم كنعان فينيق أرام فراعين حمير (قوم المصعب ابن الحارث وهو ذو القرنين) سبأ التي نشأت عنها قبائل غسان بهراء. كل أزد السراء أزد عمان. أزد شنوأه كأنما كل ذلك ما زال هو المؤثر الذي تفرقت به العرب بعد مقتل عثمان بن عفان ذي النورين، رضي الله عنه، فمهما كانت الأسباب فإن الحمية والقبلية ومطامع الأسر هي التي جسدت قومية أمية، فحين استتب الأمر لبني أمية في الشام أول الأمر وفي دنيا الإِسلام كلها حين انتصر الأمر أمسك بنو أمية بالقومية

العربية بقوة وعزيمة ومسيرة فلم يكن لغير العرب في مدة التسعين عاماً لأي قومية أخرى أو لأي فريق مسلم من غير العرب حول، ولا سلطان حتى إن أنجب بني عبد الملك وهو مسلمة كان جديراً لأن يكون ملكاً مثل الوليد وسليمان أخويه، أبوهم عبد الملك بن مروان غير أنه لم ينل ذلك وهم يعرفون نجابته قائد جيش يحاصر الآستانة (قسطنطينية) عاصمة الروم لم ينل الملك؛ لأن أمه لم تكن عربية صليبة ولعلّه قال قبل المعري:

هـذا جنـاه أبـي عـلـيّ ومـا جـنـيـت عـلـى أحـدْ

وحتى إِن هشام بن عبد الملك وهو أخو مسلمة أيضاً عيّر عليًّا زين العابدين بن الحسين بن علي يكتب إليه قائلاً (إنك لا تصلح للخلافة فأمك جارية) عيره بأمه مع أنه يعرف من هي، إنها شهريار أبوها كسرى يزدجرد أسرت مع أختيها ولكن أبا حفص الفاروق عبقري هذه الأمة صوان الوحدة المسلمة الأعيسر بن الخطاب عمر استعظم أسرهن فأخذته الرحمة عليهمن فأعتقهن وزوَّج الحسين بن علي أم علي زين العابدين سماها الحسين غزالة والثانية زوّجها ابنه عبد الله بن عمر فأنجبت سالماً حبيب أبيه (جلدة بين الأنف والعين سالماً) وزوج الثالثة محمد بن أبي بكر الصديق، بنات الملك الفارسي تزوجن خير شباب العرب ومن خيار المسلمين ومع هذا أبت قومية هشام إلا أن يعيّر ابن عمه، وإن بعد بأمه وهي بنت كسرى وبهذا كله ومن هذا كله اشتعلت قومية الفرس شعوبية فتوسلت إلى غاياتها وما تلك الغايات إلا تحطيم القومية العربية فوجدوا طلبتهم يميلون إلى بني العباس لما يئسوا من استجابة جعفر الصادق لهم،

فإذا شعوبية الفرس تنتصر بسيف عربي عباسي أسقط ملك أمية ووضع السيف ورفع السوط فذابت أمية لولا أن عبد الرحمن الداخل نجا بأعجوبة، صاحب الملك في الأندلس.

القومية العربية «٢»

والتكملة عن القومية العربية، كثيرة، كما أنها مثيرة، غير أن الكاتب يأخذ الموضوع بالحيلة، وكان ينبغي قبل المقال الأول، أن يكون هذا مقالي الأول، لأنه عن مبناها ومعناها، وكيف تطورت مما كانت تعنيه في الجاهلية الجهلاء، وما صارت إليه في جاهلية الصحراء، بل وما صورها لنا القرآن الكريم، الكتاب المبين الذي لا تفنى عجائبه، والسؤال هو: هل كان اشتقاقها من القيام، أو من المقاومة، أو من التقويم؟ سأترك العودة إلى المرجع، فليس لديَّ وقت للتراجع لأطرح ما أفقه من فقه هذه اللغة الشاعرة، فقد تكون القومية مشتقة من القيام، قام الرجل بالأمر، نهض لينفذ الأمر، أم هي المقاومة، أخذ الرجل يقاوم عن قومه، يقاوم الباطل ليستقيم الحق، فحتى الاستقامة دخلت في الاشتقاق، أو هي مشتقة من التقويم، يصفون القبيلة بقيمها من الكرم والشجاعة، والحفاظ على الشرف، ولعلّي لم أتخط الصواب في هذا، كما أني لا أزعم أني برئت من الخطأ.

وبعد ذلك، فقد قلنا في المقال السابق عن اشتعال القومية العربية في عهد أمية، لكن نصر بن سيّار أمير خراسان ما فاته أن يرى تحرك الفرس الذين تستروا بالدعوة لآل محمد، كما تستروا بأنهم الخراسانيون، لا تهرباً وإنما ليجمعوا كل من إليهم من شرق الخليج إلى حدود الصين، ولكن

الخرسانية في الأفغان قد تناهت فإذا هي في وضع بريء من الشعوبية، لا يتبرأ من الحب، ولا يفرط بالبغضاء.

عرف نصر بن سيّار ذلك، ولكن القوم في دمشق ناموا عنه، فلم يرسل المدد، أو لعلّهم لم يجدوه، فقد غفت غسان وبهراء وكلب، فإن الشعوب يصيبها المرض إذا فقدت الغرض أو إذا أعرض عنها القادة ينشغلون بغرض السيادة.

وأنشد نصر بن سيّار:

أرى أثر الرماد وميض نار ... ويوشك أن يشبَّ لها ضرامُ
فإن النار بالعودين تُذْكى ... وإن الحرب أولها الكلام
أقول من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيامُ؟

واشتعلت نار الشعوبية، عباسية الاسم فارسية الفعل، فكان وقودها (جسد وهام). فما الجسد وما الهام؟ وكيف كان صقر قريش؟ ذلك.

القومية العربية «٣»

وتطور الإعراب عن القومية فبعد أن كان عن القبيل والشعب صار إلى أنه المقاومة. فالقوم هم الذين يغزون قبيلاً آخر عملية سلب ونهب: فقالوا القوم الفلانية غاروا على الفلانية فنهبوا حلالهم. هذا الاستعمال جاء بعد عصر الفرقة ولدى قبائل الصحراء بينما هو في القرآن الكريم هذه الآية: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ (الحجرات: ١١) فاستخلص النساء من القوم ليكون القوم هم الرجال وجاءوا بالشاهد من ديوان العرب شعر اللغة الشاعرة هذا البيت:

ولا أدري ولـــســـت أخـــال أدري أقـــوم آل حـــصـــن أم نـــســـاء

فالشاعر صرف القوم على المقاومين الرجال وأخرج النساء من القوم، ولعلّ القرآن الكريم حين استخلص النساء وخصهن علمنا أن الأنثى كريمة لا يجدر بها أن تسخر من غيرها ولا يليق بأحد أن يسخر منها، خاص من العام تكريماً للقوارير، ومع هذا التطور فقد تعامل الشاعر العربي القريب بلفظة القوم على أنهم قبيلة شعبية:

لـكـن قـومـيَ إن كـانـوا ذوي نـفـر لـيـسـوا من الـشرّ في شيء وإن هـانـا
كـأن ربـك لـم يـخـلـق لـخـشـيـتـه سـواهـمُ دون خـلـق الـلَّـه إنـسـانـا

ويأتي مهيار الديلمي فيرجع إلى الأصل في الاستعمال يطلقه على شعبه الفارسي.. فمهيار مولى الشريف الرضي اكتسبته العروبة شاعراً من الكبار في ديوان العرب لكنه قال فاخراً بقومه وبنفسه حين سألته من تريد معرفته فقال:

قوميَ استولوا على الدهر فتى وبنوا بيوتهم في الشهب
فأبي كسرى على إيوانه من له أب مثل أبي
قد جمعت المجد من أطرافه سؤدد الفرس ودين العرب

وما كان في هذه شعوبيًّا وإنما هو قول شاعر.

وهكذا يتطور الاستعمال للقوم حتى إنا حفظنا هذا المثل (أخوك من أمك مثل الذهب في كمك وأخوك من أبيك مثل القوم إذا ينهبوك) ولأن وكما تقدم اشتعلت القومية في عصر أمية فقد ماتت القومية العربية في العصر العباسي ونبغت القومية الفارسية شعوبية حتى جاء المعتصم فإذا هي وبالمعتصم تضمحل الشعوبية الفارسية وتشتعل القومية التركية تخلص من الفرس واعتز بأخواله من الترك.. انتهى عصر البرامك وأبي مسلم وبدأ عصر الإفشين وبغى الذين وطئوا أرض العرب فأبادوا حين سادوا ولعلّي قبل أن أنتهي من هذه القومية أذكر بأن الأمين والمتوكل كانا ضحية القومية العربية.. فالشعوبية الفارسية انتصرت على الأمين؛ لأن المأمون كان لها والتركية قتلت المتوكل لأنه لم يكن لها.

القومية العربية «٤»

وبدأ الضعف يأخذ ملك بني العباس فإذا ملوك الطوائف كل أمير للإمبراطور العباسي استقل بالإقليم الذي كان أميراً عليه سواء كان فارسيًّا أو تركيًّا أو كرديًّا أو عربيًّا (بنو حمدان) أو الفاطميون انتصر النفوذ لملوك الطوائف فإذا العرب ولو كانوا الحمدانيين أو الفاطميين لم يدع كل منهم القومية ولم يتداعوا في تضامن يجمعهم، فجاءت موجة التتار والصليبيين وموجة تيمورلانك، فلا قومية لأحد، ولكنه الإِسلام رغم هذا الشتات ورغم هذه الفرقة، ما زال هو القوي المنتصر بالحرب عليه. فلئن انتصر بالحرب أولاً فقد انتصر بالثبات من الشعوب المسلمة، نادت شعوب الإِسلام صلاح الدين العراقي الكردي المسلم الشامي المصري العربي ليهزم الصليبيين كما نادوا الملك مرتين، العبد مرتين المظفر قطز لينتصر على التتار، صلاح الدين في حطين وقطز المملوك الخوارزمي الشامي المصري المسلم صاحب الكلمة المنتصرة (واإسلاماه) فقطز حين انتصار عين جالوت، ونادت شعوب مسلمة فاستجابت لها المرأة شجرة الدر الجارية، زوجها الملك الصالح أيوب.. أيوبية الملك أخفت مرض زوجها.. تمنع الخور عن الجيش، بل أخفت موته فإذا هي تقود المماليك ومعها السيد أحمد البدوي رديفاً فإذا الإمبراطور الصليبي لويس التاسع يصبح أسيراً، كأن هي امرأة مسلمة قيدته بسجن في دار ابن لقمان.

دار ابن لقمان والقيد باقٍ والطوشي صبيح، وما أطلقوا لويس التاسع إلا بفدية، عجيب عن هذا الإسلام، ينتصر بالحرب عليه من أنصاره امرأة كانت جارية مسترقة، والأعجب أن رجالاً جاءوا بعدما كانوا على مائدة الاستعمار، ولكي لا نبخس الناس أشياءهم، فإن الوحدة المسلمة قد جمعتها اليد العثمانية التركية فقد صمد السلطان (يلدرم بايزيد) أمام تيمورلانك حتى استأسر ولكن تيمورلانك أطلق سراحه، ألأن كليهما مسلم أم لأن كليهما تركي، ونبغ السلطان محمد الفاتح يهدم دولة الروم يفتتح عاصمة الروم القسطنطينية، كما نبغ سليمان يطلق ملك فرنسا من أسر النمسا ولكنه وقد بلغ الذروة من القوة لم يبادر إلى نصر المسلمين في الأندلس مع أنه كان قادراً وهو المعني وقد عناه بذلك أبو البقاء الرندي في قوله:

يا راتعين وراء البحر في دعة لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان

فالسلطان سليم ضم الأرض المسلمة فحال دون الصليبيين ولكن الأيام دول، حين اشتد الأمر على الدولة العثمانية وحين اشتعلت قوة أوروبا تناهش الأباطرة أقاليم الدولة العثمانية، القيصر ضم تركستان والقوقاز، وفرنسا صالت وجالت في المغرب العربي، وكأنما روسيا بما أخذوا وفرنسا بما أخذت مهدا الطريق للاستعمار البريطاني، فذهب فاحتلت مصر، ونهبت إيطاليا ليبيا ولكن الدولة العثمانية ما بادت عراها إلا حين نبغت القومية الطورانية.

القومية العربية «٥»

ونامت القومية العربية في عهد العباسيين والطوائف كما قلنا وكادت تنتهي فلا تكون لها صحوة في عهد العثمانيين، حيث كان الجميع في جامعة الإِسلام حتى مسلمو الهند ومن إليهم. وفي ظل الاستعمار البريطاني كان ولاؤهم للدولة العثمانية، وحتى مصر والأفارقة العرب كانوا كذلك، أما الوضع في اليمن فلم يكن قوميًا وإنما هو الاستقلال.. وكان من الممكن للسلطان العثماني أن يرضى عن الوضع في اليمن بأسلوب الوفاق، كما قد رضي سلاطين بني عثمان وهم في أوج القوة بما يشبه الاستقلال في دمشق تحت سلطان بيت المؤيد العظم الذين دام سلطانهم في سوريا نحو مائتي عام، كانوا للدولة العثمانية، وكانت الدولة لهم. كما أغمضوا عينهم عما يشبه الانفصال عن الدولة في لبنان، لقد رضيت الدولة عن تنصر «بشير الشهابي» ولكنها زادت «الطين بلّة» فقد أشعلت الحرب بقيادة محمد علي باشا على نهضة نجد، نهضة شيخ الإِسلام محمد بن عبد الوهاب واستنهاض آل سعود يناصرون الدعوة، ولم يكن الأمر انفصالاً عن الدولة وإنما كان الاتصال بدعوة السلف، وكان من مصلحة الدولة العثمانية أن تقوض الدعوة المسلمة وأن يتم الجمع المسلم على أمر واحد وفي ذلك تأييد للدولة. ولكن أخذ العثمانيون الأمر على العكس. فهم يريدون ألا ينهض العرب، كما أرادوا أن يزرعوا الفتنة بين العرب.. فكم تجرعنا

المرارة من الجفوة بين نجد، ومصر حتى أن نتناسى الجفوة ضد السلطان محمود، والدافع إلى ذلك قبل كل شيء هو حرب الطرفية ضد السلفية فلا اليمن ولا نجد كانوا القوميين.. غير أن القومية العربية قد اشتعلت في أرض الشام، بعد مؤتمر باريس وبإغراء الحلفاء، كما نهضت القومية في الحجاز؛ ففي الشام قومية محضة لا تكاد تسمع في تلك الأيام إلا اسم يعرب، قحطان، عدنان، كل الأناشيد عربية حتى إن صفي الدين الحلي الذي كان مغموراً أصبح مشهوراً بقصيدته «سلي الرماح العوالي عن معالينا» وبهذا البيت الذي أصبح العلم للقومية:

بيض صنائعنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضينا

وما ثارت الشام ولا العرب إلاَّ بثورة «الطورانية» قومية تركية.

القومية العربية «٦»

وسبق فيما كتبت قبل هذه عن القومية العربية وكيف أماتوها، ومن هو الذي أماتها؟ حتى إذا نبغت الطورانية قومية تركية تنابغت القومية العربية في الشام وفي سوريا بالذات وفي العراق، بعامل التداعي وبما أملاه الوقت. أما غير هذين العراقين، دمشق وبغداد، فلم يكن هناك ذكر للقومية العربية، ولئن ذكرت في مصر كخبر فإنها لم تذكر على لسان أي مصري كدعوة إلا حين نبغ عبد الرحمن عزام باشا، فالطورانية التركية التي اعتزمت تتريك الشعوب العربية في كل مدارسها، أثارت الشعر كأنما الاتحاديون وقد أمسكوا بسلطة الدولة العثمانية أرادوا أن تكون الشعوب العربية ليست محمودة الطاعة للسلطان العثماني، وإنما ما يحمد للعرب هو أن يصبح شعباً تركيًّا هذا ما أثارها، أعني القومية ولكن من أعانها حين خانها الاتحاديون، أثارهم الإنجليز، أغرى بها وأعانها وما كان يدري القوميون أن سيكون وعد بلفور وأن ستكون المعاهدة الغادرة (سايكس بيكو) التي وزعت تركة الرجل المريض.

وكانت سيوف العرب وكل ما أنبتت أرضهم قوة لإنجلترا وفرنسا، وهكذا الحماسة دون دراسة بعثرت القومية العربية، أصبح كل من الشام والعراق وما إلى ذلك في يد أصدقاء القومية، في الشام فرنسا في العراق

إنجلترا، والغريب أن تاريخ القومية لم يكتب بعد كيف كان شكيب أرسلان خصماً لها ثم أصبح أحد دعاتها، وكيف كان ياسين الهاشمي من دعاتها لكنه الجنرال العسكري لم يتخل عن الوفاء للدولة العثمانية ثم تحلى بالوفاء بالقومية العربية وذهب ضحايا من أهل الشام على مشانق جمال باشا، بل ذهب كثير من الضحايا الذين لا ذنب لهم من أهل المدينة المنورة، خلت بيوتهم، يرحلون الأمهات بلا آباء أو يرحلون الآباء بلا زوجات، ظلم بشع، فحين تتحكم العنصرية يكون هلاك من تعنصر ضد من تعنصر.

وفي الحجاز لم تكن النهضة باسم القومية، ولكن باسم الاستقلال عن الدولة العثمانية الحاضرة في الحجاز خسرت، وما كانت نصيراً لما جرى، أما القبائل فقد كانت هي النصير، فقد قال لورانس: لولا القبائل لما كان استقلال الحجاز، ولا بد من ملحة مقارنة أذكرها، فشعار القبائل حين نهضوا في الحجاز هو (ليلة السبت جاء علم وراح.. ركبت الخيل والسبع القبائل والفرنجي على مشروبها) بينما شعار القبائل في نجد كان (هبت هبوب الجنة وأين أنت يا باغيها)، وأخيراً لا تحسبوا أن قبائل نجد حجزها البطل الملك عبد العزيز عبد الرحمن عن المشاركة في استقلال الحجاز، فكثير من شيوخ القبائل في نجد كانوا مع النهضة وكان الكسب جلاء الأتراك وكثرة السلاح في يد القبائل ووفرة المال وراحة البال.

القومية العربية «٧»

وفي العصر الحديث ومن محاسن القومية العربية أنها جندت شعوبها لحرب الاستعمار، فالشام لم تسكت والعراق ما كان خاملاً وإنما كان ينتظر، وجاء دور مصر التي لم تكن قبل الحرب العالمية الثانية أو حتى قبل عام ١٩٤٨م تنادي بالقومية العربية، أول صوت ارتفع وليس في يده سلطان هو صوت عبد الرحمن عزام ومن إليه وكانوا قلة؛ لأن مصر قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها كان فيها من يدعو إلى بقاء مصر عثمانية مستنداً إلى وثائق التاريخ وقيمة الدولة ألا وهو زعيم مصر الوطني الشاب النظيف مصطفى كامل، كان ينادي بذلك ومعه إخوانه في الحزب الوطني، أما لطفي السيد فكان يدعو إلى أن مصر أمة وحدها لم يتنكر لإسلامها، وكان يعتز بعروبة اللغة، وجاء سعد زغلول ثائراً تقوده ثورة سنة ١٩١٩م بل لعلّ دنشواي التي لم يكن لها حين ذاك تمسك برأي عاقل يتأنى كانت له في سنة ١٩١٩م وكان بها أيضاً، فسعد أمسك بزعامة مصر وكان له رأي عن عروبة مصر كنهج سياسي يريد أن يكون العرب معه بينما هو أحد فصحاء اللغة الشاعرة.

سعد لم يَدْع للعروبة قومية لمصر، فحين وصل إلى مصر د/عبد الرحمن الشهبندر والشيخ كامل القصاب وهما من زعماء الشام استقبلهما

سعد زغلول وعرضا عليه أن يمدوه بالسلاح وأن تكون ثورة الشام معه فقال كلمته المشهورة «لا. صفر + صفر = صفر» حدثني بها كامل القصاب ـ يرحمه الله حين تشرفت بلقائه في المدينة المنورة. كان الشهبندر والقصاب غاضبين ولكن بعد تفكير طويل عرفت أن سعداً ما أراد التنصل من العروبة ولكنه أبى أن ينقاد للتكتل؛ لأنه يعرف أن الإنجليز أسقطوا التكتل في الدولة العثمانية كما أسقطوا التكتل للقوميين العرب، فلا يمكن لسعد أن يضع مصر أمام شراسة الاستعمار الإنجليزي يحاربهم باسم مصر وحدها يفاوضهم باسم مصر وحدها انصرف عن التكتل وكان بذلك حصيفاً.

وجاءت حركة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م وهي سداسية المتلهفين، القصر أرادها ليقضي على الجيش كما فعلها عمه توفيق، ظن أن جيش احتلال أمس هو جيش احتلال يومه وجيش الاحتلال أراده كما السفارة الأمريكية لحساب اليهود في فلسطين، فالقضاء على الرمز العربي في صالح اليهود، والأخوان المسلمون تلهفوا عليها طلباً للإصلاح ولسيادة الإسلام وجاء الضباط الأحرار ففعلوها وكسبوا فلا جيش الاحتلال تحرر وأمريكا باركت وإسرائيل فرحت ولكن خاب ظنها. كل هذا أشعل القومية العربية في مصر فتحقق حلم الشام حين انضمت مصر إلى القومية؛ لأنهم يعرفون أن أي فرقة بين مصر والشام جلبت المهالك وأن أي وحدة وئام بين مصر والشام أعطت الإِسلام والعرب حطين وعين جالوت.

وهكذا عادت مصر إلى العروبة ولم تكن خارجها بالفعل، وإنما هو الإعلان وتحمل المسؤولية ولكن ماذا جرى، ضاع الأمل فإذا القومية أصبحت شعوبية العرب على أنفسهم لا على غيرهم.